
راتب شعبو
ماذا
وراء
هذه الجدران
رواية
دار الآداب
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

ماذا وراء هذه الجدران

راتب شعبو

ماذا وراء هذه الجدران

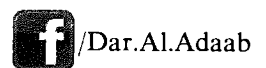
سيرة

دار الآداب - بيروت

ماذا وراء هذه الجدران

راتب شعبو / كاتب سوري
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-474-4

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com




daraladab.com

مقدّمة

كنت في الخامسة عشرة حين جاءت دوريّة الأمن إلى بيتنا في الفجر تبحث عن أخي الفارّ من وجه الاعتقال السياسي. كنت أحبّ أخي ولا أعلم لماذا يبحثون عنه بهذه العدائيّة الظاهرة.. يتكبّدون مشقّة السفر من المدينة (اللاذقيّة) إلى قريتنا كي يسألوا عنه، وكي يفتّشوا البيت، ويقصّروا أعمارنا بتهديداتهم! أعرف أنّ أخي يعمل مع تنظيم شيوعي وأنّ هذا التنظيم ممنوع، لكنّي لا أعرف لماذا هو ممنوع، ولا ماذا يريد هذا التنظيم وماذا يعمل كي يكون ممنوعًا. أعلم أنّ هناك شيوعيين في بلدنا لا تلاحقهم المخابرات ولا تعتقلهم ولا أعلم بماذا يختلف أخي عن هؤلاء. المهمّ أنّ أخي الأقرب إلى قلبي بات هاربًا. لم نره لعدّة أشهر ولم نعلم عنه شيئًا، وكنّا نسمع الأقاويل والتخمينات. كانت هذه الظاهرة جديدة علينا وعلى مجتمعنا المعزول، وكنّا مستعدّين إلى تصديق كلّ ما نسمع. كانت عقولنا تربة خصبة بل متعطّشة للأقاويل المتعلّقة بأخي، وما أن تُرمى البذرة حتى تنتشي وتتفرّع وتتكاثر. قيل إنّه وأمثاله رحلوا إلى كوبا، فهي الدولة الوحيدة

التي تستقبل جماعة بمثل هذا التفكير، وقيل إنّهم يعيشون في الجبال مثل «أبو علي شاهين»، وقيل إنّهم مسلّحون.. كان غيابه وما يصلنا من تخمينات حوله وحول من معه، يزيد من رصيده في قلبي. أتخيّله في الجبال ملثّمًا بكوفيّة وفي رأسه تتطاير شرارات أفكار ستغيّر العالم الذي نحن فيه. وأتخيّله مع مجموعة من رفاقه يدرسون، وقد نذروا حياتهم لما هم فيه، كيف يغيّرون حياتنا إلى الأفضل. كان حبّي لأخي يضفي المصداقيّة والفضيلة والصحّة على كلّ ما يعتنق من أفكار.

جاءت دوريّة الأمن باكرًا في الصباح، وحين علمت بقدومهم، هرعت من فراشي فورًا إلى الخزانة التي يضع فيها أخي كتبه وأوراقه، وأخذت كلّ الصور «الشيوعيّة» التي كانت فيها مع جرائد كنت أرى أخي يقرأ فيها باهتمام، وكالبرق ركضت ودسستها في السياج الذي يسوّر الأرض المجاورة للبيت. لم يلحظني أحد من أهلي، فقد كانوا تحت وطأة الخوف والترقّب. فقط أحد عناصر المفرزة لاحظ حركتي السريعة من بعيد قبل أن يصلوا بعد إلى البيت. وحين وصلوا أمسكني ذاك العنصر من ذراعي بقوّة وطلب منّي أن أقول له ماذا أخفيت. قلت له من بين ضربات قلبي المتسارعة إنّني لم أخفِ شيئًا وإنّني كنت في قضاء حاجة. تركني وذهب إلى السياج وفتّشه فلم يعثر على شيء. عاد وأمسكني وزاد من شدّه على ذراعي ونهرني بقوّة وجرّني إلى رئيس الدوريّة البدين الذي كان واقفًا باسترخاء يراقب حركة عناصره. سألني رئيسهم في أيّ صفّ أنا فقلت له إنّني في الصفّ التاسع، ثم سألني عمّا أخفيته في السياج فكرّرت عليه الإجابة التي قلتها للعنصر (كنت أعتقد أنّ هذه الصور وهذه الجرائد ستكون دليلاً رهيبًا ضدّ أخي). فتوجّه الرجل البدين إلى أبي وقال بصرامة وبلهجة ليست محلّيّة:

ـ هذا الولد يا يْطالع الشي اللّي خبّاه! يا قَسَمًا بالله ناخدو معانا

ونحرمه يقدّم فحص الشهادة!

شلّ الخوف وجه أبي ونظر إليّ وهو لا يدري ما أخفيت، ربّما ظنّ أنّ في البيت سلاحًا لا يدري هو به، وقال لي وهو بالكاد قادر على تحريك فكّه السفلي:

ـ ابني طالع شو خبّيت، لا تخاف.

ليس تشجيع أبي هو ما دفعني لإخراج ما خبّأته بل اضطرابي من خوفه! ليس سهلاً على طفل أن يجد أباه خائفًا! ذهبت بصحبة العنصر إيّاه وأخرجت الصور والجرائد من السياج. نظر إليها الرجل البدين استعرضها (كانت صور روسيّة منوّعة للينين: مرّة وهو يخطب ومرّة وهو شابّ يسير في عكس تيّار الهواء الذي يلعب بذيل معطفه، ومرّة في اجتماع مع رفاق له.. إلخ) وقال:

ـ أيْوَه... شغلات محرزة!

لم أفهم ما معنى كلمة «محرزة»، ولكن لاحظت أنّ نبرته كانت خائبة. في حين لاحظت أنّ وجه أبي وصوته استردّا شيئًا من طبيعتهما. ذهبت الدوريّة بعد أن أخذ رئيسها الخائب تعهّدًا لفظيًّا من أبي بأن يخبرهم عن أخي إذا ما زارنا وأن يمتنع عن استقباله في البيت.

فيما بعد زارنا أخي سرًّا في إحدى الليالي، وسهرنا معًا في غرفة جانبيّة من بيتنا، بينما راح أبي يقوم بأعمال الدوريّة حول البيت وعلى السطح. حكيت لأخي قصّة الدوريّة، فقال لي:

ـ ليش تخبّي هالشغلات، بالعكس هدول شهادة حسن سلوك إلي.

كانت بعض الجرائد ناطقة باسم الحزب الشيوعي الرسمي

«بكداش»، كما قال، وبعضها باسم الحزب الذي انشقّ عنه، ويعرف باسم المكتب السياسي، وهذان أقلّ خطرًا، كما قال، من التنظيم الذي يعمل هو فيه. نَمَت قيمة أخي وصحبته في نظري. سألته كيف يخبّئون السلاح الذي بحوزتهم، فضحك وقال لي:

ـ ما معنا لا سلاح ولا بطّيخ، لكْ سكّينة ما معنا! تفاجأت. قال لي: شفت كيف أمّك بتحطّ الخميرة بالعجين وبتتركو عَ جنب منشان يتخمّر كلّه، نحنا متل هالخميرة.

راق لي التشبيه، غير أنّ قيمتهم بهتت قليلاً في ذهني. فلا شيء يعادل جاذبيّة السلاح في ذهن الطفل الذي كنته.

في الصيف التالي حصلت على جرائد وكتابات رابطة العمل الشيوعي. كنت أقرأها خفية بنهم. قرأتها كي أعجب بها، كما المؤمن يقرأ القرآن كي ينبهر به. كان يسحرني الكلام القطعي والتعابير الجديدة بالنسبة لي والنبرة الاستعلائيّة الواثقة المدعومة بولوج مواضيع ممنوعة وبمواقف معارضة جريئة. كلّ ما سبق أن قرأته قبل ذلك سوى كتبي المدرسيّة هو بعض روايات حنّا مينة وبعض الروايات الروسيّة المترجمة الصادرة عن دار التقدّم.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلبي خاليًا فتمكنّا

هذا المبدأ الفعّال فعل فعله بي. كان قلبي ميّالاً لاعتناق فكر، وكذا يكون قلب كلّ من هو في هذا العمر، وكان ميلي النفسي إلى أخي المطارد هو ما جعل قلبي مفتوحًا لهذا الاتّجاه الفكري الذي يعتنقه. وهكذا كان.. وفيما بعد حين يهدأ القلب ويعمل العقل، يجهد هذا الأخير في تبرير خيارات الأوّل وفلسفتها. القلب يهوى والعقل

يجهد في الدفاع عن أهوائه. لا غرو أنّه حين أراد الله أن يميّز الرسول محمّدًا وصفه قائلاً إنّه لا ينطق عن الهوى. ليس سهلاً أن لا ينطق الإنسان عن الهوى. فالغالب في الإنسان أنّ عقله يخدم ميوله وهواه.

كما هو الحال في الدين كذلك الحال في السياسة وفي كلّ ما لا توجد براهين قطعيّة على صحّته أو خطئه. في السياسة كما في الدين يمكن الدفاع عن أيّة فكرة إلى ما لانهاية، هنا يتّسع المجال للميول النفسيّة والمصالح والعناصر التي لا علاقة لها بالسياسة ولا بالدين كالجمال والحبّ والطباع والبيئة.. إلخ. وما يضع العقل في حيرة أنّ الناس عمومًا تراهم مطمئنّين إلى ما يعتقدونه، وإذا كان في الدين ثمّة فرقة ناجية كما يقولون، فإنّ كلّ فرقة تؤمن أنّها الفرقة الناجية من دون أن يخامرها أيّ شكّ. الإيمان هو الترياق المضادّ للقلق الذي يولّده الشكّ. لا يجتمع الإيمان مع القلق بحال، ذلك أنّ قطرة واحدة من القلق تفسد بحرًا من الإيمان.

* * *

الشيخ حسن (الكراكون)

لا يمكن لمن قاده حظّه العاثر إلى هذا المكان الحائر بين كونه سجنًا وكونه مقرًّا للتحقيق، ويحمل فوق هذا وذاك ملامح البيت الدمشقي، أن يمحي من ذاكرته ذكراه. يتألّف مبنى سجن الشيخ حسن من قسمين مختلفين عمرانيًا ووظيفيًّا وتاريخيًّا. القسم الأوّل يمثّل بيتًا دمشقيًّا بغرف موزّعة على محيط باحة سماويّة تتوسّطها بحرة في وسطها نافورة، هذا عمرانيًا؛ أمّا وظيفيًّا فهذا هو مبنى الإدارة؛ ومن الناحية التاريخيّة فهو على الأغلب القسم التركي أو العثماني من السجن. أمّا القسم الثاني فهو وظيفيًّا مبنى السجن بالخاصّة، حيث يضمّ جماعيتين (تحتانيّة وفوقانيّة) ويوجد أمام كلّ جماعيّة صفّان من الزنازين المتقابلة، يضمّ كلّ صفّ سبع زنازين. ومن الناحية التاريخيّة يعود بناء هذا القسم إلى ما بعد الوجود العثماني. يقال إنّ جزءًا منه يعود إلى فترة الاحتلال الفرنسي والجزء الآخر إلى فترة الحكم الوطني وتحديدًا فترة حكم أديب الشيشكلي.

هناك أمكنة لا تستطيع أن تستأثر بمكان خاصّ لها في الذاكرة،

لكنّ الكراكون ليس من بين هذه الأمكنة. المبنى عرفته من الداخل فقط، وعلقت في ذاكرتي صورته الداخليّة. وحين أتيح لي، بعد ماراتون السجن، أن أتأمّله من الخارج لم تستطع الصورة الخارجيّة أن تنافس سابقتها على الأولويّة في الذاكرة.

الكراكون هو المكان الذي فتح لي بسخاء إحدى زنازينه ليستضيف خطوتي الأولى في مسافة الأميال التي لا تنتهي، بعد أن استقبلني أبو عيد، رئيس مفرزة الكراكون، بترحيب يقشعرّ له البدن، مستعار من لهجة غير لهجته بطريقة تنمّ عن استخفاف وتوعّد: «أهلاً يا طويل العمر!». كنت قد خطوت أيّامًا بعدد أصابع اليد الواحدة في عامي الواحد والعشرين، وكانت دمشق تعيش أيّام عيد الفطر، وشمس تمّوز كانت تغدق الكثير من ذاتها على تلك المدينة، عناصر مفرزة الكراكون بشيّالاتهم البيضاء ونفوسهم الميتة، يستلمونني. بفعل العادة، يفقد هؤلاء الإحساس تجاه الأحداث التي تشكّل انقلابًا جذريًّا وصدمة في حياة الناس. كانت سيّارة نقل الطعام قد نقلتني إلى جانب بقلاوة العيد «عيديّة المساجين» من حيّ الشيخ محيي الدين حيث مكتب رئيس الفرع (حيّ يحمل اسم الشيخ العالم الذي وسع صدره لكلّ أشكال الإيمان بما فيها الوثنيّة، ويضمّ مكتب رئيس فرع جهاز أمن يضيق صدره برأي مغاير ولو بمقدار شعرة!) وحيث تمّ استلامي من دوريّة اللاذقيّة، إلى حيّ الميسات حيث فرع التحقيق المباشر (هكذا كانوا يسمّونه)، وحيث تقرّر عدم قبولي هناك وتحويلي «موقّتًا» إلى الكراكون الذي قبلني على الفور بكرم موروث عن الشيم التركيّة.

في حيّ الشيخ محيي الدين استلام وتسليم (سوف تخضع كثيرًا خلال ماراتون السجن لعمليّة الاستلام والتسليم هذه: فرع اللاذقيّة يسلّم وفرع دمشق يستلم، فرع دمشق يسلّم وسجن الشيخ حسن يستلم،

ثم من سجن الشيخ حسن إلى سجن عدرا، ومن سجن عدرا إلى فرع التحقيق ومن هذا رجوعًا إلى سجن عدرا، ثم من سجن عدرا إلى سجن تدمر، ثم من سجن تدمر إلى فرع التحقيق، ومن هذا إلى أهلك - إذا كان قد بقي لديك أهل - الذين يستلمونك بعد هذه «المعالجة» (process) الطويلة جثّة غير هامدة. تشعر أنّك مجرّد بضاعة «مُتعِبة» لا أكثر). الطرف اللاذقاني الذي سلّمك يرتاح من عبئك وينفض يديه بارتياح ويشيّعك عناصره، قبل أن يعودوا إلى مدينتك التي سيطول كثيرًا بعدك عنها، بنظرة إشفاق، نظرة من يعرف ما الذي ينتظرك هنا. والطرف الذي يستلمك يغمرك بنظرات لزجة مليئة بالاستثقال وبالقرف حتى، كأنّ عليك أن تعتذر إلى هؤلاء الحانقين لأنّهم في يوم العيد ليسوا بين أهلهم. لا شيء أشنع من أن تشعر أنّك مكروه ومحطّ حقد في عيون أناس يمتلكون كلّ القدرة عليك، إن مارسوا حقدهم عليك آذوك، وإن امتنعوا يكونون إنّما يمارسون «كرمًا» مذلًّا ومؤذيًا لك بقدر إيذائهم لو ضربوك وربّما أكثر.

تسجيل معلومات على أوراق، تحويل من مكتب إلى آخر، ينتهي التسجيل. صرت على ذمّة هؤلاء! يمسكني أحد العناصر من العضد ويشدّ (المسكة النموذجيّة التي تدلّ على أنّ الممسوك مجرم خطير أو عنصر فاسد في المجتمع يجب معالجته «أمنيًّا»!) ويقودني إلى سيّارة الطعام، يسبقني أحد العناصر إلى الصندوق الخلفي للسيّارة، ثم يدفعني «عنصري» بفظاظة كي أدخل السيّارة (كنت في يده سلسًا كالحرير ولم أدرِ لماذا كان يقبض على عضدي مع ذلك بتلك القوّة ولماذا كان يدفعني بتلك الفظاظة)، همّ أحد العناصر بضربي من الخلف بكعب بندقيّته وأنا أصعد إلى السيّارة، لكنّ أحدًا ما منعه (تبيّن لي بعد قليل أنّ هذا «الأحد» هو سائق السيّارة الذي عرف من خلال

الأوراق أنّني من بلده، بل ومن قريته نفسها). ولكن يجب أن أقول للحقّ إنّ كلّ هذه التنقّلات والحركات والممارسات وغيرها إنّما جرت وأنا طليق اليدين والقدمين والرأس أيضًا (أقول الرأس أيضًا لأنّ إحدى استيهاماتي التدمريّة ستقودني بعد وقت طويل من الآن إلى تخيّل قيد للرأس، وقيد الرأس يختلف بطبيعة الحال عن قيد اليدين والرجلين من حيث إنّ اليد تقيّد إلى اليد الأخرى والرِجْل إلى الرِجْل الأخرى، أمّا الرأس فواحد ولا بدّ بالتالي أن يقيّد إلى شيء ما ثان كأن يكون وتدًا على سبيل المثال!) من دون أيّة كلبشات أو قيود من أيّ نوع حديدي قديم أو بلاستيكي حديث.

الزنزانة رقم ٣ في الطابق الثالث من سجن الشيخ حسن المؤلّف من ثلاثة طوابق، أحدها تحت الأرض تمامًا وآخر تحت الأرض تقريبًا وثالث فوق الأرض، كانت منزلي الأوّل (الذي لم آلفه ولا أحنّ إليه!). ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ الطابق السفلي من سجن الشيخ حسن قد جرى ردمه في مرحلة ما (لا أعرفها ولم أستطع معرفتها، ولكن يقال إنّ الردم تمّ بعد ما يسمّى «الحركة التصحيحيّة» في ١٩٧٠)، وبالتالي فإنّ السجن بات طابقين فقط فوقاني وتحتاني. في صدر الكوريدور المحفوف بالزنازين من الجانبين يوجد المهجع. أهل المهجع هم أناس انتهى التحقيق معهم وباتوا تحت بند التوقيف العرفي غير المحدود. تمامًا كما لا يعرف المرء متى يستردّ الله أمانته منه، كذلك لا يعرف الموقوف العرفي متى يُفرج عنه. حتى إنّ غموض التوقيف العرفي أشدّ كثافة من غموض الموت، في الموت مثلاً هناك حالات يمكن للطبّ أن يحدّد مدّة بقاء أصحابها على قيد الحياة، أمّا قيد التوقيف العرفي فلا يمكن «العِلْم» على الأرض أن يفيدك في مقاربته. مصير الموقوف العرفي لا يعرفه حتى الحاكم العرفي نفسه،

لأنّ هذا يعمل، كما اقترح أحد السجناء الظرفاء، وفق قاعدة: «بعدين منشوف!».

أهل المهجع موقوفون سياسيّون في حال مستقرّ نسبيًّا قياسًا على نزلاء الزنازين، الذين ما زالوا في طور التحقيق ولم يبتّ في أمرهم، أإلى الإفراج أم إلى مستنقع التوقيف العرفي أم إلى ما هو أسوأ. يحاول أهل المهجع معرفة هويّة النزيل الجديد في الزنازين، فيخاطبونه صائحين من طاقة باب المهجع الذي يفتح على امتداد الكوريدور: «يا جديد!». قد يكون هناك نزلاء سابقون في الزنازين ولكنّ القادم الجديد يدرك بهذا النداء أنّه المقصود. ويبقى يحمل هذا الاسم «جديد» حتى يأتي جديد آخر. وإلى أن يأتي جديد آخر يكون أهل المهجع قد عرفوا اسم الجديد القديم وباتوا ينادونه باسمه إذا لزم الأمر.

اليوم الأوّل في الزنازين

كان يومي الأوّل في الزنازين، أو لأقل إنّه كان يومي الواعي الأوّل (الليل الذي قضيته نائمًا في زنزانة فرع اللاذقيّة غير محسوب!). هذا الشيء (العيش في زنزانة) الذي اعتدت عليه لاحقًا (اعتدت عليه جدًّا) بدا لي غريبًا وصادمًا في البداية. هذه العزلة في مكان لا يتجاوز طوله المترين وعرضه أقلّ أو أكثر من المتر بقليل، ويضمّ جورة تواليت لقضاء الحاجات ومصطبة للنوم، بدت لي شيئًا لا يحتمل. يسترجع ذهني كلّ ما قرأت أو سمعت عن الزنازين، لكن أن تعيش الحالة شيء وأن تقرأ عنها شيء آخر. أوّل ما يصدمك رائحة المكان: رائحة عفونة معتّقة، لا تزال إلى اليوم تعيدني إلى الزنزانة ما إن تتناهى إلى شمّي! ثم يصدمك المكان: هل تقضي أيّامك بجوار جورة تواليت؟ (تكتشف فيما بعد أنّ وجود جورة التواليت في الزنزانة إنّما هو رفاهيّة)، هل تنام

على هذا العازل الوسخ وتتغطّى بهذه البطّانيّة الوسخة؟ هل تنام من دون وسادة؟ كيف تقضي ساعة في هذا المجال الضيّق فما بالك بأيّام أو شهور!؟ وبعد أن تهدأ ثورة حواسّك على طبيعة ورائحة المكان، يبدأ الشعور بالعزلة يسيطر على ما عداه، لا ينافسه سوى ترقّب التحقيق والتكهّن بسبب وخلفيّات اعتقالك.

بعد أن يغلقوا باب الزنزانة عليك، تبدأ التعرّف على تفاصيل مكانك وخصائصه: جيّد أنّ هناك ثلاثة ثقوب في طاقة باب الزنزانة تخفّف قليلاً من وطأة إغلاق الطاقة، وجيّد أنّ هناك غطاء معدني لجورة التواليت، وجيّد أنّ هناك نافذة عالية تعلو، نظرًا إلى أنّ الزنزانة في الطابق الثالث (الذي صار ثانيًا بعد ردم الطابق السفلي)، فوق سور السجن وتطلّ على المدينة. ثم تبدأ بعد ذلك تتسلّى بقراءة الخربشات المحفورة على الحيطان. تستأنس بإشغال خيالك برسم ملامح شخوص مرّوا قبلك في هذا المكان. الأمن السياسي لا يتعامل فقط مع قضايا سياسيّة بحصر المعنى، يضرب شبكات دعارة وعصابات تهريب أطفال وجرائم غشّ وتحايل وتزوير في قضايا اقتصاديّة... إلخ. الأمن السياسي له قرص دسم من كلّ عرس. لا غرابة إذن أن تجد على جدران الزنزانة إضافة إلى الأسماء والشعارات السياسيّة والنضاليّة، تعابير جنسيّة، هناك مثلاً من كتبت بكلّ جرأة: «فلانة الفلانيّة جاهزة تحت الطلب، رقم الهاتف كذا)، وهناك من يتحسّر على الأيّام التي يقضيها هنا بعيدًا عن صدر«ها» (سحر ضمير الغائب!). يتساءل المرء ما قيمة هذا البوح المغفل كي يكابد صاحبه مشقّة حفر هذه الكلمات في إسمنت جدار الزنزانة. ولا غرابة أيضًا أن تجد حِكَمًا عاميّة مثل «الزمن غدّار» أو «الحبّ بيزل». ولكنّي لم أعثر على العبارة المواسية «أيّها السجناء أنتم الأفضل!» التي يقترحها أحد الشعراء السوريين. من

جهتي لم يكن بي رغبة لكتابة شيء، ولم يكن عندي أيّة أداة لفعل ذلك أيضًا.

أثقل المنغّصات على السجين في الزنزانة هو إغلاق طاقتها عليه. طاقة الزنزانة بالنسبة لمن داخلها أثمن بكثير ممّا يعتقد المرء لأوّل وهلة، لدرجة أنّ السجين يحلم بأن يكون لديه سلطة أو قوّة ما، ليس لكي يستخدمها للإفراج عنه، بل كي يجبر الشرطة على إبقاء طاقة زنزانته مفتوحة. الحاجة المباشرة تحجب الحاجة الأهمّ. وبالمناسبة، إنّ هذه خاصّيّة نفسيّة عند البشر يبرع مساعدو الشرطة أكثر من الضبّاط في الاستفادة منها، فالخبرة الطويلة من التماس اليومي المباشر مع السجناء أوصلت المساعدين إلى استنتاج أمرين أساسيين، الأوّل هو أنّ مطالب السجين لا تنتهي، وأنّه ما إن يحصل على شيء حتى يبدأ التفكير بالمطالبة بما بعده في سلسلة لا حدّ لها، والثاني هو أنّ المطلب اليومي الملحّ يشغل السجين عن المطلب الأكبر. وعليه فما إن تستقرّ حياة السجين على حال معيشيّة معقولة حتى يستغلّ الشرطة أيّ إشكال بسيط كي يسحبوا من السجناء جلّ ما لديهم من مكاسب، لتعود المطالبة من نقطة الصفر في دائرة لا تنتهي من المطالبة والاستجابة بعد لأي، ثم المصادرة وعودة المطالبة من جديد، وهكذا..

عند الغروب، فُتح باب المهجع الكائن في صدر الكوريدور الذي يضمّ زنزانتي وسمعت صوت الشرطي يقول: يالله يا شباب تنفُّس، الكلّ لتحت! (سأعرف لاحقًا كم هي مدنيّة هذه اللهجة، حين سأقيسها لاحقًا بلهجة أسياد وأرباب وجبابرة سجن تدمر!) خرج أهل المهجع، وأتيح لي أن أراقبهم من خلال الثقوب الثلاثة في طاقة الزنزانة. كان عددهم حوالى الخمسة عشر، يمشون بالشحّاطات بتثاقل واعتياد

ظاهر، وما لفت نظري هو وجود طفل بينهم يلبس دشداشة أو جلّابيّة بلون سماوي. طفل نحيل ذو وجه حيوي شاحب يزيده شحوبًا انعكاس لون الجلّابيّة عليه. لا تزال صورة عمّار الأولى حاضرة تمامًا في ذهني، لم يؤثر على قوّة حضورها معرفتي اللاحقة الطويلة بهذا الطفل الذي تراكمت سنوات سجنه في دمه الفتيّ، فصار في السجن رجلاً عالقًا في شباك الطفولة أو طفلاً ضائعًا في متاهات الرجولة.

كلّ وافد جديد على زنازين الشيخ حسن يشكّل حدثًا مثيرًا يرقّق زمن سجناء الجماعيّة، كما سأُخبر ذلك لاحقًا حين أتحوّل إلى واحد من هؤلاء بعد حوالى الشهرين. كلّ وافد جديد إلى الزنازين هنا مرشّح أن يكون في عداد أهل الجماعيّة بعد حين، مرشّح بالتالي أن يكون ضيفًا بعد حين، أن يكون صديقًا حميمًا لك، أو لاعب شطرنج يحطّم هيبة لاعب متغطرس لا يقدر أحد من أهل الجماعيّة على هزيمته، أو أن يكون شخصيّة بمواصفات تضفي حرارة وودًّا وظرافة على حياة المهجع، أو شخصًا نشيطًا يعين في تدبير شؤون الجماعيّة، هناك الكثير ممّا يدعو إلى التفاؤل به وانتظاره. ولا شكّ بالمقابل أنّ هناك إمكانيّة أن يكون شخصًا كسولاً أو ذا مزاج صعب قد يسمّم حياة الجماعيّة. وهو إذا كان ينتمي إلى إحدى المجموعات السياسيّة التي لها رصيد بشري في المهجع، فإنّه يحظى بحفاوة كبيرة، ولكن مجرّد أن يكون فيه رائحة «معارضة يساريّة» يخوّله أن يكون ضيفًا مكرّمًا عند اليساريين والعكس بالعكس. وقد كان لليساريين اليد العليا في سجن الشيخ حسن ليس من ناحية التفوّق العددي، إذ لم تكن الأغلبيّة العدديّة تستقرّ لاتّجاه هناك! يزيد الإسلاميّون إلى أن يأتي قرار ترحيل دفعة منهم إلى تدمر فيصبحون أقلّيّة، ثم تأتي من سجن تدمر دفعة إسلاميّة أنهت أحكامها الميدانيّة فيرتفع عدد الإسلاميين، ثم ينقلون إلى

الكراكون سجناء يساريين من سجون أخرى أو يعتقلون أناسًا بتهم يساريّة فيرتفع عدد اليساريين وهكذا. . كما لم يكن تفوُّق اليساريين في سجن الشيخ حسن سياسيًّا، إذا اعتبرنا القوّة السياسيّة هي قوّة انتشار الطرح السياسي بين الناس وقدرته على تحريكهم. بل كان بالأحرى تفوّقًا أخلاقيًّا، أو ربّما أخلاقيًّا سياسيًّا. السجين الإسلامي كان يحمل وزر أمرين الأوّل هو وزر الفكر الطائفي الذي تحمله الجهة السياسيّة التي يُنسب إليها، والثاني هو وزر الكثير من الأعمال المسلّحة والعنيفة غير التمييزيّة التي قامت بها هذه الجهة. السجين اليساري كان متحرّرًا من أوزار كهذه، ويبدو طرحه السياسي، بصرف النظر عن قوّة حضوره وفاعليّته، أكثر أخلاقيّة. من هنا، برأيي، كان يتأتّى ثقل حضور السجناء اليساريين في سجن الشيخ حسن، ولاحقًا في سجن عدرا، إذ ليس عندهم ما «يخجلون» منه.

تمهّل بعض أفراد المهجع قليلاً أمام زنزانتي محاولين فكّ صرّة هذا «الجديد» والتسلّي قليلاً بمحتوياتها تناقلاً وربطًا وتحليلاً، فذلك يخفّف من وطأة زمنهم الثقيل، لكنّ الشرطي منعهم. غير أنّ الشرطي نفسه الذي منعهم، زوّدهم تحت ضغط أسئلتهم الملحّة بالمعلومات التي يريدونها: اسمي، ومن أيّة محافظة، وأنّني معتقل حديثًا وليس سجينًا قديمًا منقولاً من سجن آخر وتخمينه لتهمتي. . إلخ، فعند عودة أهل المهجع من التنفّس، وقد صارت صرّتي مكشوفة قليلاً لهم، أسرع أحدهم بصعود الدرج وفتح طاقة الزنزانة بعيدًا عن الشرطي وسألني بحماس عمّا أحتاج، قلت له، وكان شعوري، للمفارقة، شعور الغارق في بحر متلاطم من الزمن رغم أنّي لا أزال على الشطّ: أريد جريدة! لم يكن ذلك من باب اهتمام ثقافي ولا متابعة أخبار ولا شيء، بل فقط كي تعينني قراءة أيّ شيء على تحمّل هذه التجربة الأولى من

العزلة القسريّة، على تحمّل غلب الزمن. أذكر أنّ جدّتي فاطمة كانت تقول إنّ أصعب غلبين هما غلب الماء وغلب النار، وأنا، بعد خبرة طويلة مع نوع ثالث من الغلوب، أضيف إلى هذين غلب الزمن.

الشخص الذي أسرع كي يسألني عمّا أحتاج هو علي. وقد ظنّ علي بي الظنون جرّاء طلبي للجريدة، إذ لا ينتظر من معتقل له ساعات فقط في الزنزانة أن يطلب جريدة!

في المساء أرسل لي أهل المهجع، بعد استئذان الشرطي، صحن فاصوليا خضراء بالبندورة واللحمة وملعقة معدنيّة وخبز مع أبي عمر (المعتقل الذي أكثر ما كان يرى من مرور أيّامه في السجن أنّها خسائر متراكمة للقاءاته الحميمة مع زوجته الشابّة). سأعرف بعد زمن طويل أنّ هذا الالتفاف على القواعد، بأن تحصل على أدوات أكل (صحون وملاعق) طبيعيّة وتستغني عن الأدوات البلاستيكيّة المخصّصة لك في الزنزانة، ممكن ربّما في كلّ مكان سوى في شيخ السجون السوريّة: سجن تدمر. لم يكن لديّ أدنى قابليّة لأكل أيّ شيء. كأنّ أحشائي كانت تريد أن تحتفظ بآخر اللقمات التي تناولتها مع أهلي حول مائدة عيد الفطر نقيّة من أيّ طعام سجني! ولكن بعد ذلك، وبالتحديد في فرع الميسات في فترة ما بعد انتهاء التحقيق وانتظار القرار الذي يحدّد مصير مجموعتنا، سوف أذكر بحسرة صحن الفاصوليا هذا الذي أهدرته في جورة التواليت. حتى كأنّ شبح ذاك الصحن صار يلاحقني في تلك الفترة، ويعذّبني بالدهن السائل الأحمر اللمّاع الطافي على سطحه وقطع اللحم الكبيرة الوافرة فيه. إنّ يدي هذه نفسها التي أهدرت ذاك الصحن باستغناء كامل، هي نفسها اليد التي كانت تمتدّ من طاقة الزنزانة في فرع التحقيق طلبًا للمزيد من الخبز!

وفي المساء نفسه، قبل أن أحسم قرار إهدار صحن الفاصوليا

ذاك، فتح أحد عناصر الشرطة زنزانتي وقال بلامبالاة مشتّتة بين الثقة والخجل، وبصوت أقلّ شدّة من الصوت العادي ومن دون أن ينظر إلى وجهي: الحقني! فلحقته. (عرفت عن قرب فيما بعد هذا الشرطي الذي فتح زنزانتي، إنّه أبو يوسف، ومن صفات هذا الرجل أنّه لا ينظر في وجه محدّثه، فيخاطبك وعيناه على قدميك طوال الوقت حتى لتظنّ أنّه ربّما قضى ما مضى من عمره سجينًا سياسيًّا في سجن تدمر العسكري واعتاد على الوضعيّة النمطيّة للسجين هناك حتى صارت عنده طبعًا). نزلنا درجًا طويلاً يلتفّ مرّة واحدة وينتهي بباب حديدي مفتوح على ممرّ إسمنتي صقيل قليل العرض يحيط بمبنى السجن إحاطة تامّة (سأعرف لاحقًا أنّ هذا الممرّ الذي يمكن وصفه بأنّه دائريّ ذو زوايا أو مربّع دائري! «في السجون يمكن تربيع الدائرة!» هو «ساحة التنفّس» في سجن الشيخ حسن) قطعنا الممرّ (أربع خطوات بالمشي العادي) فأصبحنا أمام باب حديدي كبير يفضي إلى مقرّ الإدارة، ومقرّ الإدارة مبنيٌّ على طراز البيوت الدمشقيّة القديمة التي يتوسّطها بحرة وتتوزّع الغرف في محيطها. أدخلني الشرطي إلى مكتب رئيس المفرزة، ولكنّ الرجل الذي كان وراء الطاولة ليس أبو عيد «الطويل العمر!» بل أحد ضبّاط التحقيق الجدد برتبة ملازم أوّل. [بديهي أنّ هذا السرد هو نظرة ترميميّة لما جرى، نظرة مسلّحة بكلّ معرفتي التي اكتسبتها لاحقًا في التحقيق ثم في «رحاب الكراكون» على مدى حوالى السنتين، لا شكّ أنّه ما كان لي أن أعرف رتبة الضابط ذاك حين قابلته للمرّة الأولى، فضبّاط الأمن لا يرتدون بزّة رسميّة تبيّن مراتبهم، وما كان لي أن أعرف أنّ هذه الغرفة هي مكتب رئيس المفرزة أو أنّ «أبو عيد» هو رئيس المفرزة لولا المعرفة المكتسبة عقب حدوث ما يجري سرده].

دخلت المكتب، فبادرني هذا الرجل ـ الضابط (هكذا يراودني

القول دائمًا حين أذكر هذا الضابط الذي عرفته جيّدًا فيما بعد)، الذي سيختاره القدر لاحقًا ليكون مرافق رحلتنا الكئيبة «سرغلتنا» إلى سجن تدمر، رغبة من القدر في أن يضيف إلى موتنا عصّة القبر، بالقول: «انشالله بتضلّ هالابتسامة على وشّك»! لم أكن أعلم أنّ على وجهي ابتسامة، ولكنَّ كلامه المغمّس بالدلالة على هول ما ينتظرني، حرّض للتوّ سيلان خيط ناعم من الماء المثلّج على مسار عمودي الفقري، الشيء الذي من شأنه أن يستأصل شأفة الابتسامات من جذورها. كانت تلك جلسة التحقيق الأولى، وقد كانت ودّيّة جدًّا إذا ما قيست بالجلسات التالية في «فرع التحقيق في الميسات»، والتي كان أبطالها ضبّاطًا آخرين أعلى رتبة وشأنًا. في هذه الجلسة وضع هذا الضابط أمامي حقيبة مأخوذة من غرفتي المستأجرة التي كنت أسكن فيها أثناء دراستي الجامعيّة، وكانت تحوي أدبيّات ومنشورات لحزب العمل الشيوعي. وقال بثقة وبلهجة انتصاريّة: شو هدول؟! قلت إنّ هذه حقيبة كانت في غرفتي ولكنّها ليست لي وقد وضعها عندي صديق، وأنا لا أعرف أصلاً ماذا تحوي. الغريب أنّه اكتفى بالهمهمة: «هممم...»، ولم يلحّ في السؤال، حتى إنّه لم يستخدم في وجهي حينها سلاح تكشيرته التي أعمت على قلبي كثيرًا فيما بعد، والتي يوظّف فيها كلّ ما حباه الله به من غلاظة في الشفتين وسعة في المنخرين تتكامل مع جحوظ عينيه وتقدّم فكّه العلوي، كلّ ذلك كي يرهبك ويظهر من بشاعة صورته بشاعة ما يضمر لك خلفها من نوايا سيّئة ومؤذية. تكشيرة هذا الرجل ـ الضابط وهيئته حين يهيج مريدًا أن يعتصرك ويخرج منك ما يرغب من معلومات، تُذكّر بقصّة سمعتها عن معلّم الابتدائي الضخم الجثّة والمخيف الوجه الذي رفع طفلة صغيرة في الصفّ الأوّل ووضعها أمامه على الطاولة في غرفة الصفّ صائحًا في وجهها: إذا

مرّة ثانية ما كنتِ كاتبة الوظيفة شو بدّي أساوي فيكي!؟ فما كان من الطفلة المرعوبة أمام هذه الخلقة الهائجة إلّا أن قالت له: أستاذ كُلني!

وجّه الضابط بعد ذلك أسئلة متعدّدة ثانويّة كانت أقرب إلى الدردشة، من دون أن يبدي تركيزًا أو إلحاحًا على شيء محدّد. إذ يبدو أنّ المهمّة الأساسيّة من حضوره ذاك هو رميي في دوّامة التحقيق وإشعاري بقوّة الأدلّة ضدّي. ولكن ماذا يعني هذا؟ لم أدرِ ما قيمة هذه الخطوة من ناحية الجدوى التحقيقيّة. حتى إنّه يمكن اعتبارها حركة ضعيفة من حيث إنّها كشفت لي ما بيد المحقّق من معلومات وتركت لي الوقت كي أتدبّر كيفيّة الردّ والتعامل مع هذه المعلومات. يعزّز هذا الاعتبار أنّ هذا الضابط لم يطلب منّي أيّة معلومات مستعجلة يمكن أن تفسّر اضطراره إلى كشف ما لديه للضغط عليّ. ظلّت هذه الخطوة سؤالاً عالقًا لم تجب عليه سيرورة التحقيق اللاحقة التي بدت كأن لا علاقة لها بها. هل كانت تلك خطوة ارتجاليّة مبتورة من الضابط ذي التكشيرة، أم أنّها خطوة لها غاية لم يستطع تحقيقها ذو التكشيرة.. كلّ هذه أسئلة بلا إجابات.

أعادوني إلى الزنزانة أكثر خوفًا وضعفًا ممّا كنت، إذ تيقّنت أنّ القضيّة أكبر ممّا كنت أتصوّر. وفي اليوم التالي تمّ نقلي إلى فرع التحقيق في حيّ الميسات.

في فرع التحقيق في الميسات

هنا تكتمل الصورة. يبدأ الرسم بخطوط مبهمة لا يفهمها المراقب، وفي لحظة معيّنة يضيف الرسّام خطًّا يعطي معنى لكلّ الخطوط السابقة، ويجمع كلّ ما سبقه من خطوط في شكل محدّد، ويحيل إبهامها إلى بيان. هذا الخطّ الساحر في لوحتي المرعبة كان

النزول على درج ضيّق طويل ينتهي إلى مكان فسيح تحت الأرض، إلى قبو! وهل أتاك حديث الأقبية؟! هنا تكتمل الصورة. للمرّة الأولى تجد نفسك في قبو. للمرّة الأولى يتحسّس جلدك رائحة تعذيب طاغية. تشعر أنّ دمك يهرب إلى أكثر النقاط مركزيّة فيك ويتركك شاحبًا ودائخًا وفي أحشائك رغبة شاملة بالتقيّؤ. ليتخيّل أحدكم، على سبيل التجربة فقط، قبوًا طولانيًّا منارًا بالكثير من النيونات السقفيّة، وتفوح من أرجائه رائحة عفنة ثقيلة، وفي كلّ مكان قضبان حديديّة عريضة تملأ الفراغات التي يغيب عنها الإسمنت، قضبان حديديّة عريضة منها الثابت ومنها «المتحوّل»، قضبان حديديّة عريضة كثيرة لا تعرف ماذا تفصل عن ماذا، وفي إحدى زوايا القبو الصقيل الأرضيّة ترى الإطار الخارجي الكوتشوكي لدولاب سيّارة متوسّط الحجم، وفي المنطقة الميتة تحت الدرج النازل ترى الكثير من الدواليب بأحجام مختلفة، لكنّ الدولاب متوسّط الحجم، مثل دولاب سيّارة الجيب واز، هو الحجم الأنسب لأنّه يلائم متوسّط حجم الإنسان. وليتابع أحدكم التخيّل ليضيف إلى اللوحة حنفيّة ماء تطلّ من أحد الجدران ويمتدّ منها نربيج طويل نسبيًّا، وليضيف أيضًا صورة الجلّادين: عناصر شابّة كلامهم شتم وزجر ولمساتهم دفش وضرب. ثم ليقول بعد أن تكتمل اللوحة في ذهنه: ألم يتحسّس بجلده رائحة التعذيب.

في السجون الأمنيّة (تمييزًا لها عن السجون القضائيّة حيث السجن هو مجرّد حجز حرّيّة لأجل معلوم أو في طريقه إلى أن يصبح معلومًا)، ولا سيّما في التحقيق، تتفعّل لدى الشخص حاسّات كامنة، لم يكن يدركها من قبل. في المحن الكبيرة تشعر أنّ الحواس تتكافل بصورة استثنائيّة، يمكن مثلاً للجلد أن يشمّ ويسمع، وللأذن أن ترى (كان باطن القدمين يتحسّس ويسمع صوت قرقعة الأبواب وصوت رنين

جرس المحقّق قبل الأذنين). وفي المحن تستنفر الحواسّ الداخليّة النائمة، ولكنّها للأسف لا تفيد صاحبها في شيء سوى أنّها تشعره بهول ما ينتظره، وكأنّها رجاء الروح الأخير، كأنّها تتوجّه إلى العقل المقرّر برسائل استغاثة قصوى كي يفعل كلّ ما يمكن أن يُنجي. أن يتخاذل إن كان ينفع التخاذل، أن يستجدي إن كان ينفع الاستجداء، أن يهرب إن كان ثمّة مهرب، أن يخون إن كان ثمّة أمل، أن يفعل أيّ شيء، فما ينتظر «العضويّة» أمر خطير لا يُستثنى منه الموت. في لحظة يتحوّل المرء إلى «عضويّة» تحكمها قوانين البقاء. استفاقة الحواسّ الداخليّة النائمة وتضافر الحواسّ هي استفاقة الجانب الغريزي الحيواني الجامع يشقّ قشرة الثقافة ليظهر على السطح منبثقًا من عمق منسيّ من التاريخ.

تتمّ مصادرة كلّ ما سبق أن صادروه في فرع اللاذقيّة وأعادوه، ثم صادروه في الكراكون وأعادوه، ولكنّ المصادرة الثانية في الكراكون ستكون نهائيّة لا إعادة فيها، ممّا جعلني أخسر الساعة التي أهداني إيّاها أخي الكبير قبل أن ينطوي أمله العليل بي. يتمّ تسجيل الاسم على لوحة تمثّل مخطّطًا للزنازين. يدوّنون اسمي في المربّع رقم ٨. (هذه هي الطريقة التي تستخدم في المشافي أيضًا لتحديد أماكن أسرّة المرضى. التقاطعات كبيرة بين السجون والمشافي، قرأت ذلك فيما مضى في قصّة «العنبر رقم ٦» لتشيخوف، وها أنا أدركها الآن بكلّ حواسّي، وكثيرًا ما أخطأت التعبير أثناء إقامتي في المشفى الجامعي في اللاذقيّة لدراسة الاختصاص بعد سنوات السجن، فسمّيت غرف المرضى مهاجع، وسُمّي مكتب الممرّضات مفرزة ومدير المشفى مدير السجن، مثيرًا دهشة تشبه الذعر عند من يسمعني وضحكًا عميقًا عند زملائي الذين يعرفون قصّتي). يقودني أحد العناصر إلى الزنزانة رقم ٨

مباشرة (في أسرتي أنا المولود رقم ٨ أيضًا!). واضح أنّهم غير مستعجلين بشأني.

زنازين فرع الميسات في دمشق نسخة عن زنازين الكراكون، بفارق أنّ زنازين الميسات تحت الأرض كلّيًا بحيث إنه إذا انقطعت الكهرباء لا يمكنك أن ترى شيئًا أبدًا حتى لو وضعت إصبعك في عينك، فهنا يستوي النهار والليل تمامًا. والفارق الآخر هو السبب المباشر للفارق الأوّل وهو عدم وجود طاقة خلفيّة للزنزانة، إذ لا يوجد فراغ تطلّ عليه طاقة. غادر الشرطي بعد أن حذّرني بشدّة من التكلّم مع أحد. إذن هناك أحد! بالفعل الزنازين كانت مأهولة بغالبيّتها، ومن أكثر من جهة سمعت، بعد أن خرج الشرطي، أصواتًا تناديني باسمي همسًا. كان هؤلاء الذين يملأون الزنازين هم أصدقائي في الجامعة، الأصدقاء التعساء الذين حاموا كالفراشات حول ضوء حارق. حين سمعت أصواتهم تناديني اشتدّت روحي واكتسبت قدرة أكبر على الاحتمال. من قال إنّ الميت لا يحمل ميتًا؟! كلّا، إنّ الميت يحمل ميتًا. إنّ شجرة على وشك السقوط يمكن أن تستند على شجرة أخرى على وشك السقوط فتسندها وتستند إليها ولا تسقطان. كما أنّه أن تكون خائفًا وسط مجموعة خائفة أهون من أن تخاف منفردًا. سحر وجاذبيّة المجموع. هؤلاء هم الأصدقاء التعساء الذين جرّبوا أن يطيروا نحو الشمس بأجنحة من شمع، فسقطوا، ذائبي الأجنحة، في هذا القبو.

في بداية الثمانينيّات من القرن الماضي كانت دمشق تحسم صراعها مع تنظيم الأخوان المسلمين، وكانت إسرائيل تقتلع منظّمة التحرير الفلسطينيّة من لبنان، وكانت السياسة حديثًا يوميًا لمختلف شرائح الناس. جمعتنا أحاديث السياسة في الجامعة، كنّا مجموعة

طلّاب من مختلف الكلّيّات ومن مختلف المحافظات والانتماءات الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. كانت تجمعنا الصداقة ويجمعنا انشغالنا بشأن عام كان حارًّا آنئذ، واكتشفنا من خلال نقاشات مرتجلة ومبعثرة مدى ضحالة معرفتنا، فاتّفقنا على تطوير معرفتنا بالقراءة المشتركة لمجموعة من الكتب، كتب كان يغلب عليها الطابع الماركسي، فقد كانت الماركسيّة لونًا طاغيًا في الثقافة بشكل عام. كان هذا بحسب المنطق الأمني دليلاً كافيًا على انتمائنا إلى تنظيم ماركسي معارض. كنّا جميعًا دون العشرين من العمر، يدفعنا الفضول والشباب ونزعة التمرّد إلى ارتياد مسالك لا تروق للأحكام العرفيّة ولا تراعي حرمة «الأمن القومي»، فكنّا نجتمع لنتحادث في كتاب أو في فصل من كتاب قرأناه. لنعرف فيما بعد أنّه حتى لو وضعنا جانبًا قراءة ومناقشة الكتب «الممنوعة» (الكتاب الممنوع لا يعني الكتاب الذي يحظر بيعه في المكتبات بل الكتاب الذي يمكن أن يكون سندًا فكريًّا أو سياسيًّا لتنظيم ما ممنوع، فقولك إنّ هذا الكتاب متوافر في المكتبات العامّة لا يعني أنّه مباح للقراءة في المنظور الأمني، القرآن على هذا هو من الكتب الممنوعة في لحظة التحرّك الإسلامي المعارض، وتاريخ الثورة الروسيّة كذلك في لحظة التحرّك اليساري.. وقس على هذا) وحتى لو صرفنا النظر عن طبيعة الأحاديث السياسيّة التي دارت بيننا، فإنّ مجرّد اجتماع أكثر من اثنين في مكان واحد، من دون ترخيص مسبق، يشكّل خرقًا للأحكام العرفيّة المفروضة ويستوجب عقابًا عرفيًّا غير محدّد، هكذا شرح المساعد المخضرم في الأمن السياسي (أبو أحمد) مبيّنًا مدى فداحة ما اقترفناه بحقّ الأمن القومي!

إحساسي بوجود صديقٍ من حولي سند روحي ومدّني ببعض القوّة. بعد وقت غير طويل فهمت من خلال همس الزنازين المقابلة،

خلفيّة اعتقالي. كان صديقي جلال بطل القصّة، شابًّا صغيرًا شديد الإيمان بما لديه من قناعات وشديد الإخلاص لمن يرتبط معهم بقضيّة، والإخلاص في الأقبية يعني تمامًا قبول طريق الجلجلة. اعتُقل جلال متلبسًا بنقل أدبيّات لحزبه من دمشق إلى محافظة أخرى. أسبوع من التعذيب من دون جدوى، صار جسد جلال مثالاً يعرض على كلّ من يبدأون التحقيق معه ليرى ما يمكن أن يحلّ به. يئس المحقّقون من جلال فحصلوا من أهله على اسم صديق قريب له، وحصلوا من هذا الصديق على قائمة بأسماء أصدقائهم في الجامعة فامتلأت بهم الزنازين.

التحقيق

في مساء ذلك اليوم والأيّام القليلة التالية، كنت الابن المدلّل لفرع التحقيق. فقد خصّني بكلّ اهتمامه ودلاله. وقفت في المساء أمام ضابط أراه للمرّة الأولى، واضح أنّه أكبر سنًّا وأعلى رتبة وخبرة من الضابط الذي قابلني في الكراكون. رجل هادئ متهكّم، يخاطبني طوال الوقت بلقب «دكتور» بنبرة يتلطّى فيها الهزل في ثنايا الجدّ. عرفت فيما بعد أنّ هذا الرجل هو ضابط برتبة رائد، وكان مساعدًا في الفرع ثم درس الحقوق وتطوّع في الشرطة وعاد ضابطًا إلى الفرع نفسه. خبرته واضحة. لم يبدأ معي أيّ حديث يتعلّق مباشرة بتحقيقي. بدأ بالتعبير عن تأثّره لعذاب الأمّهات على غياب أبنائهنّ، وهو يقصدنا نحن الأبناء الذين يملأون الزنازين في الداخل. وقال إنّه يغيب عن أمّه عشرة أيّام وحين يزورها تحضنه وتبوسه وتعدّ له البامية التي يحبّها، رغم أنّها مطمئنّة عليه وتعرف أنّه في عمله، فكيف حال الأمّ التي لا تعرف أين ابنها ولا تعرف ما مصيره!؟ يتكلّم كأنّه في سهرة وليس في جلسة

تحقيق. هذه الطريقة ناجحة، جعلتني بالفعل أقلّ حذرًا. غلبتني طبيعتي العفويّة. طلب لي كأسًا من الشاي، ثم أشار إلى صورة كبيرة لرئيس الدولة حينها (حافظ الأسد) معلّقة على حائط المكتب، وقال وهو يبتسم ألا تراه كالشمس. سكتُّ. فضحك ضحكة قصيرة ثم دخل إلى مواضيع شخصيّة عن الحبّ والعلاقات المنفتحة بين الشباب والبنات في الجامعة، وسأل عَرَضًا: ألا توجد صبيّة ما يتقطّع قلبها عليك وأنت معتقل الآن. قلت لا، قال مبتسمًا إذن أنت تتفرّغ للقضيّة، مع أنّك ناجح في جميع موادّك الجامعيّة، كيف تستطيع التوفيق بين الأمرين بسهولة. هذا النوع من التحقيق يشبه الإنزال ما وراء خطوط القتال، تصبح العناصر المعادية خلف ووسط العناصر الموالية. طريقة هذا المحقّق هكذا، هي لا تقتحم خطوط التماس بل تقفز فوقها، لا تواجه بل تتسلّل، لا يسألك هذا المحقّق مباشرة هل لديك نشاط سياسي ما، بل يفترض أنّ هذا قائم ويتعامل مع نتائجه المفترضة. ويتثبّت من افتراضاته بحسب الإجابات. طريقة ذكيّة وهادئة، غير أنّ كلّ هذا «التكتيك» تغيّر ما إن تلقّى المحقّق مكالمة هاتفيّة أنهاها بعبارة «حاضر سيّدي!».

تغيّرت هيئة المحقّق ونظر إليّ بطريقة جديدة أقلّ ألفة، وقال: لا أريد أن أتركك لهؤلاء الحمير كي يضربوك ويهينوك، أنت لا زلت بكرامتك إلى الآن، ولكن ما إن تمتدّ يد عليك حتى تتبهدل ولا يمكن أن تستعيد وضعك الحالي بعد ذلك، أنت الآن بلباسك وتجلس أمامي على الكنبة، أمّا إذا استلمك هؤلاء فمعناه أن تضرب وتجلس على الأرض بالكيلوت وتُهان. أريد منك أن تخبرني كلّ شيء (هذه الكلّ شيء المعرّفة والمغرقة في الإبهام في الوقت نفسه!) كي أساعدك. ثم السيناريو المكرور: أوراق وقلم، اكتب كلّ شيء. ولكن ماذا يعني كلّ

شيء؟ يعني كلّ ما تعرفه منذ ولادتك حتى الآن، اسم الأمّ والأب والأخوة والأعمام والعمّات والخالات والأخوال، وأين درست ومن تعرف وما هو نشاطك السياسي ومتى تنظّمت ومن نظّمك ومن هم أعضاء التنظيم ومن هم القياديّون وأين تجتمعون وأين المطبعة... كلّ شيء، كلّ شيء، يعني كلّ شيء! تكتب، ثم: أكل ما تعرفه لا يتجاوز نصف صفحة؟ اكتب من جديد! تكتب، ثم: تملأ الورقة بمعلومات فاضية لا قيمة لها، أنت تعرف ماذا نريد، اكتب من جديد... كلّ شيء يسير بك نحو الهاوية الأكيدة، قطار وضع على سكّة تنتهي بهاوية تفتح فمها بلهفة. السيناريو المحفوظ والمكرّر نفسه: يمسك الرائد الورقة التي كتبتها للمرّة الرابعة أو الخامسة ويمزّقها، ويقول بضيق إنّه حاول أن يساعدني ولكنّي أنا لا أساعد نفسي. هذا الكلام هو بسملة البدء بالتعذيب. سبحان من حلّلك للتعذيب!

ـ اشلح تيابك وخلّيك بالكيلوت!

لكن لا أدري ماذا دار في خلد أحد عناصر الجلد حتى يشرح لي من باب لزوم ما لا يلزم قائلاً «يعني خليك بالكلسون». لفظة الكيلوت أخفّ وطأة من لفظة الكلسون، أقلّ سوقيّة وأقلّ إيحاء. ربّما أراد هذا العنصر أن يعطي أمر الشلح شحنته الكاملة. الرائد يغيب عن المشهد، وقد قال لاحقًا إنّه لا يحبّ أن يراني بهذا المنظر (الحقّ أنّ هذا الرائد لا يميل إلى العنف، وهو لم يمدّ يده بالضرب عليّ أو على أيّ ممّن حقّق معهم من مجموعتنا على الأقلّ، بقيّة الضبّاط، بمن فيهم رئيس الفرع، لا يروي غليلهم ضرب عناصر الجلد فيضربون بأيديهم. ربّما لو كان الأمر للرائد لاتّبع التحقيق سبيلاً أقلّ عنفًا).

ـ انزل بالدولاب ولا!

حتى تلك اللحظة، ورغم كثرة ما سمعت قبل ذلك عن الدولاب

كوسيلة تعذيب، لم أستطع تخيّل كيفيّة استخدام الدولاب في الجَلْد. كنت أتخيّل أنّ المجلود يستلقي على ظهره ويمرّرون رجليه من الدولاب ثم يقيّدون قدميه معًا بحبل ويبدأون الجَلْد. ولكن هذا التصوّر لا يفسّر الحاجة إلى الدولاب في الأساس. وقفت حائرًا. حمل أحد الجلّادين الدولاب وتقدّم منّي ثم أنزله من رأسي ليستقرّ على كتفي، وطلب منّي أن أنزل الدولاب إلى تحت إبطي وأن أمسكه بيدي، كمن يريد أن يستعين بالدولاب للسباحة، وأن أستلقي، ثم طلب أن أثني رجلي وأمرّرهما من الدولاب، كان الأمر عسيرًا بعض الشيء لكن هذا العنصر ضغط بكلتا يديه بقوّة على رجلي، بحيث أصبحت مطويًّا على نفسي أكثر لتدخل رجلاي في حلقة الدولاب إلى أن صارت ركبتاي أمام أنفي. صار الدولاب حلقة تشدّ جذعي من تحت الإبطين إلى طرفيَّ السفليين من عند الركبتين، والنتيجة أنّ قدميَّ صارتا مواجهتين تمامًا للسقف بوضعيّة مناسبة للجلد. الوضعيّة بحدّ ذاتها تعذيب. تركوني على هذه الحالة من دون ضرب لفترة من الزمن بدأت أشعر بعدها بخدر شامل في رجليَّ. الغريب أنّي وأنا في هذه الوضعيّة كنت أقلّ خوفًا من لحظة نزولي إلى القبو يوم أمس.

دخل بعد فترة رجل قصير ذو كرش (سأعرف لاحقًا في سياق التحقيق أنّ هذا هو مساعد التحقيق الأساسي أبو أحمد، يقولون هنا إنّه الكلّ بالكلّ، وهو أوّل من سيستقبلنا في الفرع الجديد في العدوي عند عودتنا من سجن تدمر بعد «عمر طويل»، وقد بات بعد هذا العمر شبيهًا بكلب هرم) برفقة مجموعة من العناصر وبيد كلّ منهم خيزرانة. وللمزيد من التهيئة قام اثنان بشدّ ساقيَّ إلى بعضهما بقوّة بواسطة حبل مربوط إلى قطعة خشب متينة. إجراء مؤلم جدًّا تشعر أنّه يعصر الساقين إلى حدّ أنّ الألم يصل إلى العظم الذي تشعر أنّه يمكن أن يعجز عن

مقاومة كلّ قوّة الشدّ هذه. تقدّم ذو الكرش وقال بيقين وعاديّة من يطلب باكيت دخان من محلّ سمانة: مين هنّي أعضاء اللجنة المركزيّة في حزبكم. قلت له لا أعرف. ليس من باب القوّة أو الصلابة أو أيّ شيء من هذا القبيل بل لأنّني لا أعرف حقًّا. وكأنّ كلمة لا أعرف كانت إشارة البدء. تواتر رهيب من الضربات على باطن قدميَّ، كانت تلك خبرة قدميَّ الأولى بمعنى الدولاب. يمكن أن يصحّ قول إنّ الحذر أشدّ من الوقيعة في كلّ شيء إلّا في الألم. مهما حاولت أن تتصوّر الألم وتعيشه في خيالك وتحيط بأبعاده، فإنّك لا يمكن أن تتكّهن بشيء من حقيقته. ومهما خفت من الألم فإنّ خوفك لن يتفوّق على شعورك به. يتصاعد الألم بحدّة ويكسر كلّ حواجز النفس، فتصرخ وتستغيث وأنت الذي تخجل من رفع صوتك والتعبير عن حاجتك بقوّة وعلانيّة. تشعر أنّ الألم الذي يكتظّ به جسدك يحاول الخروج من حنجرتك غير أنّ سُبل خروجه مغلقة، فتصرخ كأنّك تريد أن تمزّق حنجرتك لعلّك بذلك تفتح سبيلاً لتحرّر الألم. ثم في لحظة يتوقّف الضرب وينتهي الألم. في لحظة! (سأعرف بعد سنين طويلة من هذه الخبرة أنّ هذه ميزة للخيزرانة مقارنة مع الكرباج الكاوتشوكي المسطّح الذي خبرته في سجن تدمر، فألم الكرباج المسطّح لا يتوقّف بتوقّف الجَلْد. يصحّ أن تقول إنّ الخيزرانة تلسع، أمّا الكرباج فيجب أن تقول إنّه يدحل أو يسحق أو يبطش). يا لها من متعة! متعة العودة إلى نقطة الصفر. متعة الشعور بجسد لا يتألّم.

ـ تذكّرتن يا عرصة؟! صرخ ذو الكرش.

ـ وحياة ألله ما بعرف يا سيّدي!

ـ ليش أنتو بتعرفو ألله؟!

يبدو أنّ كلمة ما بعرف هي بمثابة الأسيد الذي يكوي أعصاب

المحقّقين، ولا سيّما منهم أولئك الذين يعرفون الله جيّدًا! ذات مرّة سمعت أحد «منظري» الأقبية يقول ملاحظة مفادها أنّ المعتقلين السياسيين يقسمون في التحقيق بما لا يؤمنون به، فترى الشيوعي يقسم بالله وترى الإسلامي يقسم بعرضه.

الإنسان الصالح في الدول المتخلّفة هو الإنسان الذي لا يسمع ولا يرى ولا يحكي، ولكن حين يسقط هذا البشري في قبو أجهزة الأمن عليه أن يعرف، بل عليه أن يكون مخزن معلومات!

من جديد تبدأ نوبة من الألم الرهيب، نوبة تدوم أكثر من سابقتها. ثم من جديد، يسأل ذو الكرش إن كان الدولاب نشّط ذاكرتي. الدولاب كان على وشك أن يغرق وعيي، وليس فقط ذاكرتي، في عالم آخر مظلم. ولا أدري كيف توافرت لي قوّة القول إنّني لا أعرف شيئًا. أدرك المكروش أنّ الاستمرار في الجلد يعني فقد الوعي فأمر بالتوقّف. استراحة جلّادين وسكب ماء على الرأس ثم عود على بدء. ليت الجلّادين يستريحون طويلاً! فليعطَ الجلّادون حوافز مادّيّة من مال الشعب كي يطيلوا استراحتهم! ليكن بطل الإنتاج في مصلحة صناعة الألم هذه هو أقلّ الجلّادين إنتاجًا. لم يزل الجلّادون يستريحون ويستأنفون «الإنتاج» حتى اقتنع ذو الكرش فيما يبدو وأيقن أنّني لم أعد أحتمل المزيد من الضرب، فطلب فكّ قدميَّ وتحريري من الدولاب، وغادر صالون التعذيب متوعّدًا بزيادة «الطاقة الإنتاجيّة» في الجولات القادمة. بقيت مكوّمًا على بلاط القبو غير قادر على الحركة. غير أنّ أحد «المنتجين» رفسني بكعبه على كتفي قائلاً بحنق:

ـ فزّ ولا! يلعن أبوك عرص ابن عرص، هلكتنا!

لكنّي لم أستطع الوقوف. وخانتني نباهتي فلم أعتذر. انهمرت الخيزرانات كالمطر على هذه الكتلة الحيّة المنهكة التي أتعبت

الجلّادين. «ليت الفتى حجر»! أعوذ بالله من رجل هو من اللؤم والحقد على استعداد لتحمّل الألم إلى حدوده القصوى، لا لشيء إلّا لكي يُتعب الجلّادين! ألا يعقل أن يكون هذا الرجل حلقة في مؤامرة تستهدف الجلّادين إنهاكًا وتعبًا؟! ولكن مهلاً! أليس الجَلْد هو عرس الجلّادين وربيعهم؟! لماذا يتذمّرون إذن من رجل يقدّم جسده وليمة لخيزراناتهم وأبواطهم؟ رفسة أخرى على الرأس هذه المرّة، مشفوعة بأمر جديد بالنهوض متبوعًا بما يمكن أن يولّده تعب الجلّادين من شتائم. تحاملت على نفسي ووقفت، فلا أحد يعلم المكان الذي يمكن أن تختاره الرفسة الثالثة. توقّع أيّ شيء من تعب الجلّادين. لاحظوا! هذا الرجل يستطيع الوقوف إذن، ولكنّه يناكف ويعاند وغاية مسعاه إتعاب الجلّادين وإفساد رواقهم! طلبوا منّي الهرولة في المكان فوق بقعة من الأرض عليها ماء. حاولت أن أهرول على قدمي اللتين صارتا ضخمتين وثقيلتين وداميتين فلم أستطع، واستندت إلى الحائط. رأيت كيف راح دمي يتخلّى شيئًا فشيئًا عن كثافته للماء المسفوح على بلاط القبو.

جاءني صوت أحد عناصر الشرطة:

ـ تحرّك يا حمار! تحرّك، منشانك!

ها هو جلّاد يهمّه شأني! بات باطن قدميَّ حسّاسًا إلى حدّ الشعور بالألم إذا ما صادف وجود مجرّد حبّة رمل تحت قدميَّ. بات مجرّد تخيّل ضربة الخيزرانة على القدمين تعذيبًا. كان ثقل قدميَّ هائلاً فلم أستجب للأمر.

جاء الأمر بتنزيهي. النزهة هي أن تركض على طول الصالون ذهابًا وإيابًا، تحفّ بك عناصر الجلد من الجانبين، وفي يد كلّ منهم خيزرانته التي يستخدمها ضدّك حين تصبح ضمن مداه المجدي. أنت

دائمًا ضمن المدى المجدي لأحدهم، أنت إذن دائمًا تحت الضرب. لا السرعة تنجيك ولا البطء. امشِ إذن، المشي أسهل! غير أنّ هذا الضرب أقلّ إيلامًا لأنّ الضربات لا تتكرّر على النقطة نفسها، لكنّه ضرب مخيف واحتمال الأذى فيه كبير. يبدو أنّ الشرطي الذي أبدى اهتمامًا بشأني يعرف ما يقول، إذا لم تهرول من تلقاء ذاتك فإنّهم يجبرونك على الهرولة تحت لسع الخيزرانات.

هذه البداية في التحقيق معي أعطت انطباعًا عنّي بأنّي عنيد. أمّا الحقيقة فهي أنّني لا أعرف! عاد ذو الكرش، فأعادوني إلى الدولاب. ولكن هذه المرّة بسؤال جديد أكثر بلاهة وعبثيّة من السؤال السابق. وقد مهّد لسؤاله بجولة من الجَلْد أوقفها بإشارة منه وسأل فورًا:

ـ وين المطبعة ولا؟!

اسودّت الدنيا في وجهي، وأيقنت أنّني على هذه الحال قد أشوَّه أو أموت تحت الضرب من دون أن يكون أمامي مخرج. قد أكون جاهزًا لقول ما أعرف كي أتفادى الألم، قد أكون جاهزًا لخيانة أصدقاء ورفاق وأهل، ولكن ما يطلبه منّي هذا الرجل لا أعرفه. سوف أزيد من تعب الجلّادين حتى أنهكهم إذن.

ـ والله ما بعرف يا سيدي! قلت وأنا في قعر سحيق من اليأس، وقد بدأت حنجرتي تتشنّج ولا تطاوعني في الكلام، شيء أشبه بالبكاء الجافّ.

ـ بدّك تعرف! نحنا هون منشان نخلّيك تعرف!

هذا النوع من الكلام من مثل هذا النوع من الناس وفي مثل هذا الظرف أشبه ما يكون بمرور مدحلة على القلب. الكثير من اليأس مضافًا إلى الكثير من الألم الذي لا يُطاق ينتهيان بفقد الوعي. صحوت

على لطش ماء بارد، كان بدء الشعور بالصحو لذيذًا. حُرّرت من الدولاب وأُخذت إلى المكتب منهكًا لا أقوى على الوقوف، أجلسوني على الأرض أمام مكتب المحقّق، عاريًا مبلّلاً بالماء مرتجفًا من البرد ونفاد القوّة والروح. كان في المكتب الرائد وملازمان، أحدهما هو ذو الشفاه الغليظة الذي قابلني في سجن الشيخ حسن، والآخر شابّ طويل أشقر أراه للمرّة الأولى، لكنّه سرعان ما سيكشف بعد قليل عن نباهة فريدة. فبينما راح الرائد يجود عليّ بأقوال تشبهه: هل يعجبك هذا الوضع، ألم يكن من الأشرف لك لو سمعت نصيحتي، أنت تحبّ أن تبهدل حالك! (يا سيدي، أنا رجل أحبّ أن أبهدل حالي وأحبّ أن أعذّب الجلّادين وأتعبهم ولو على حساب ألمي ودمي، أنا مخلوق من هذا الطراز! يا لهذه المحنة التي ابتلاكم بها الله بأن رماني بين أيديكم!) قفل الرائد هذا «العتاب» فجأة وقال:

ـ شوف! بدّك تضلّ تاكل قتل حتى تعترف وين المطبعة، هي تعليمات المعلّم! منشان هيك ريّحنا وارحم حالك واحكي.

لماذا يطلبون طلبات عالية؟ هل يعتمدون سياسة اطلب العشرة كي تأخذ التسعة؟ ولكن هذا غير منطقي، فهذه العشرة لا تتضمّن التسعة، ثم ما هي التسعة التي يريدونها؟ يلحّون على طلب معلومات عالية وشديدة الحساسيّة من شخص غرّ لم يعترف حتى أنّه ينتمي فعلاً إلى الحزب الذي يدور التحقيق حوله.

ـ يا سيدي، والله ما بعرف! وحياة ألله ما بعرف!

نهض ذو الشفتين الغليظتين شاهرًا في وجهي سلاح تكشيرته الثقيل، وقال محاولاً فيما يبدو أن يظهر للرائد قدراته التحقيقيّة: رَحْ نخلّيك تعرف! خدوه! لم يتدخّل الرائد. شحط، تلبيس دولاب، جلد، صراخ يثقب الجدران، خلايا تموت، قلب يضمحل، وعي يتلاشى،

استغاثات «عضويّة» موشكة على الفناء. توقّف الجلد. كان ذو التكشيرة فوق رأسي مكشّرًا. كشّر كما يحلو لك، واشتم كما يحلو لك، شتائمك لطيفة، وتكشيرتك حلوة، فقط أوقف الجلد!

ـ تذكّرت وين المطبعة ولا؟! جاءني صوت أخنّ صادرًا من البلعوم أو من تحت اللسان أو من دهاليز الأنف أو من أيّ مكان سوى مصدر الصوت الطبيعي.

ـ تذكّرت! تذكّرت سيدي!

زها ذو التكشيرة بنصره الذي يؤكّد أنّ الدولاب يجعل من لا يعرف يعرف ومن لا يتذكّر يتذكّر. وأمل بعودة مظفرة إلى مكتب الرائد.

ـ وين؟ خلّصنا، العمى بعيونك!

رحت أخترع عنوانًا سرعان ما تبيّن له أنّه غير حقيقي وأنّه مجرّد مناورة يائسة للتخلّص ولو موقّتًا من الجلد، فما كان منه إلّا أن بصق عليّ ورفسني بقوّة وعاد إلى المكتب وهو يشتم ويتوعّد. ثم بعد قليل وجدت نفسي في المكتب أمام الثلاثي نفسه. بادرني الرائد ببرود: ما بدّك تقلّنا وين المطبعة وتريّح حالك يا دكتور! (مخاطبته الساخرة إيّاي بلقب دكتور تذكّر بقصّة الشيخ الذي وقع بين أيدي أناس حاقدين عليه، فقاموا بربطه من رقبته إلى عربة ثقيلة وطلبوا منه جرّها إلى أن أنهكوه، ثم تركوه. وفي مجلسه حكى الشيخ قصّة ما جرى له مع أولئك الزناديق مضيفًا، لوجه الحقّ، أنّهم طوال الوقت لم يخاطبوه بغير كلمة «يا شيخنا»!) أقسمت له بأنّني كنت أرحت نفسي من زمان لو أنّي أعرف أينها، أو لو أنّي أعرف شيئًا عنها. فالتمعت عينا الملازم الأشقر وقال كاشفًا عن نباهة واعدة:

ـ منعرف أنّك ما بتعرف وين المطبعة، بس بدّك تدلّنا عليها!

في أجهزة الأمن، القوّة تملأ كلّ الفراغات. تملأ فراغات ضعف الشخصيّة وعدم اتّساق المنطق وتضارب الأسئلة. . . إلخ.

كأنّ كلّ مشاعر الخوف والإهانة والألم واليأس ترجمت نفسها إلى شعور واحد هو الشعور بالبرد. رجفة خشنة تبدأ من القلب وتنتشر إلى المحيط، تليها أخرى وأخرى بتواتر يتسارع شيئًا فشيئًا. أحسست بخواء فظيع في داخلي وبغثيان عميق. تجمّعت على نفسي أكثر. تمنّيت يائسًا وقوع كارثة، اشتهيت جريمة كبيرة، أكبر من جريمة الماغوط، تلخبط الكون وتقلب المجريات. أعادوني إلى الزنزانة كما أنا عاريًا ومبلّلاً ومنهكًا، ورموا ملابسي خلفي داخل الزنزانة ثم أقفل الشرطي الباب وهو يقول: لسّا ما شفت شي، هَيْ بس تسلاية! سلّمت نفسي الكسيرة إلى النوم. النوم ترياق. نمت بعمق كما لم أنم من قبل. يستقيل الوعي، يرمي عن كاهله دفعة واحدة كلّ الأحمال التي أثقلت عليه في بضع الساعات السابقة، ويترك المادّة للمادّة، يترك الجسم يرمّم نفسه وفق قوانينه المستبطنة. استيقظت، لا أدري بعد كمّ من الوقت، على فتح باب الزنزانة وصوت العنصر:

ـ فزّ ولا!

يا ألله، هل نسوا العالم وعبدوني؟ أما من شغل لهم سواي؟ تشعر أنّ كلّ وزن الدولة يكبس على رأسك، ويطبق على صدرك. عصب ماكينة الدولة هو الأجهزة الأمنيّة، وحين تشاء هذه الأجهزة فإنّ الماكينة تتحرّك بحسب هذه المشيئة. تشعر أنّك الشغل الشاغل للدولة، السيّارات جاهزة لإحضار كلّ من تتلفّظ باسمه، وموظّفو الجامعة جاهزين لنبش الملفّات والأرشيف بحثًا عن اسم زعمت أنّه في الجامعة، وأجهزة الاتّصال الحديثة تصل البعيد والقريب لتنسيق

حركتهم كي يكتشفوا تلفيق أو حقيقة ما تقول. لا شيء ناقص، لا شيء متعثّر، فقط حين يتعلّق الأمر بك.

كانت الحركة في صالون التعذيب الرحيب والصقيل والشديد الإضاءة، مختلفة عن فترة الصباح. درجة الاستنفار عالية أكثر منها في الصباح، وجوه العناصر أكثر جدِّيّة، وتعاملهم أكثر قسوة. لمحت المساعد ذا الكرش الذي غاب عن معظم فترة التحقيق الصباحي. تقدّم منّي مهدّدًا وشاتمًا (الشتم الشديد البذاءة من الملامح الثابتة في التحقيق، وللشتم في مثل هذا الحال مفعول كاوٍ على النفس. من أين يكنُّ لك هؤلاء كلّ هذه الكراهيّة والعدائيّة وهم لا يعرفونك، وأنت لم تقترف شيئًا مشينًا يفسّر ظهور مثل هذه المشاعر تجاهك، أن يحمل العنصر خيزرانة ويضربك فهذا تنفيذ لأمر وأداء لمهمّة، ولكن أن يشتمك بكلّ هذا الحقد وكلّ هذا الفحش فهذا شيء شديد المرارة على النفس) وختم تهديداته بصفعة على وجهي أتبعها بأخرى ثم أمر العناصر بوضعي في الدولاب. رغم كلّ قسوة الصباح الفائت يبدو هذا المساء أكثر قسوة، لا شكّ أنّ في الأمر أمرًا! كلّ العناصر أسرعوا للمساهمة في عمليّة وضعي في الدولاب كما لو أنّهم يؤاجرون. الكلّ يبادرون بإعلان العدائيّة ضدّي بالضرب والنهر والشتم والتوعّد. لحظات وينحلّ اللغز، فبينما أنا في الدولاب في وضعيّة الاستعداد التامّ قالبًا (وفي وضعيّة غير الاستعداد التامّ قلبًا)، وبعد أن شدّوا وثاق قدميَّ معًا على أتمّ وجه، ظهر رجل مربوع بشعر أبيض خفيف سبق أن رأيته يوم وصولي من اللاذقيّة في مكتبه العالي، إنّه رئيس الفرع. ارتبك الجميع. توجّه سيادته إليّ مباشرة ووضع حذاءه على رقبتي، وقال بتكشيرة لا تضاهيها سوى تكشيرة الملازم ذي الشفاه الغليظة:

ـ أنت منظَّم ولا؟!

طوال الصباح يقطعون جَلْدي سائلين عن أعضاء قيادة وعن مطبعة، وها هو سيادته يُعيد الأمر إلى تتابعه المنطقي. ولكن ماذا يعني كلّ ما جرى في الصباح؟ من قاد التحقيق ومن حدّد الأسئلة؟

ـ لا، وحياة ألله يا سيدي! وحياة محمّد مو منظّم يا سيدي!

غضبٌ من السماء نزل عليّ. كانت فاتحته صياح أحد العناصر: «ولك هادا سيادة العقيد يا عرص». إذن بصرف النظر عن السؤال، يجب أن تقول نعم لسيادة العقيد رئيس الفرع، لا شيء إذن سوى النعم. «لولا التشهّد كانت لاؤه نعم!». من يقف فوق رأسك الآن ليس الملازم ولا المساعد ولا حتى الرائد، إنّه العقيد رئيس الفرع بشخصه. حتى الخيزرانات نفسها باتت أكثر نشاطًا وإيلامًا. ألمٌ يشتدّ كي يمزّق شيئًا يقاوم التمزّق، ليته يتمزّق فأستريح! ألمٌ يتصاعد ويتصاعد وينحشر في المنطقة الفاصلة بين أسفل الرقبة وأعلى الصدر على شكل كتلة كتيمة خانقة. غمرتني رغبة عارمة بالبكاء، ومن ثنايا حنجرة تتمزّق راح يخرج صوتي رسول استغاثة إلى قوم لا يرحمون. اقترب سيادته أكثر وحاول دسّ مقدم حذائه في فمي وهو يرفع صوته بكلام لم أفهمه، فاختنقت. بعد لحظات توقّف الجَلْد، وأنا على شفا هاوية سحيقة. تنهال فوقي المياه والشتائم. عندئذ أطلق سيادته نبوءته لي بكلّ ما أوتي من سلطة وكراهية وبذاءة: «بدّك تصير دكتور ما هيك يا خرا؟ بيكونو شواربي على كسّ شرموطة إذا بعمرك بتصير دكتور!». ورغم جحيم الدولاب وتغيُّم الوعي وطوفان اليأس فإنّ ذاكرتي التقطت هذه العبارة واحتفظت بها. وبعد سنوات طويلة انكشفت لي آليّة تنفيذ نبوءته الباصرة في ورقة صغيرة (توصية!) وضعها سيادته في ملفّي الذي رأيته في المحكمة بعد ١١ سنة ونصف السنة من توقيفي. وقد قضى هذا الرجل قبل أن يتحقّق من صحّة نبوءته، قضى في تواليت، كانت

آخر لحظات حياته في ذلك المكان المناسب. ولا يمكنني أن أنكر أنّ خوفي من تحقّق نبوءته كان ملازمًا لي طوال فترة دراستي، رغم أنّ صاحب النبوءة كان قد صار تحت التراب من سنوات. وعندي ما يكفي من الشعور بأنّه ما كان يمكنني متابعة دراستي لو ظلّ هذا الرجل «المتنبّئ» على قيد الحياة، قويًا ونافذًا وقادرًا على قيادة تنبّؤاته. ولعلّ موته المفاجئ هو ما أفشل نبوءته، فقد كان يمكن أن يوصي «حوارييه» بالسهر على نجاح تلك النبوءة لو أدرك أنّه سيموت وكان لديه ما يكفي من الوقت والقوّة ليوصي.

يغيب سيادته. يحرّروني من الدولاب، هرولة في المكان فوق الماء، تنزيه، ثم تنزيه، ثم أحمل الدولاب على كتفي وأقف في إحدى زوايا صالون التعذيب يحرسني عنصر شابّ. لعلّ سيادته تعب من تعذيب التعذيب ويستريح لشرب فنجان قهوة مثلاً. قليل أو كثير من الوقت لا أدري، فقد تعطّلت لديّ آلة الوقت، قليل أو كثير من الوقت ويعود الفيلق.. يتأخّرهم العقيد، ليبدأ جولة جديدة:

ـ بدّك تساوي حالك بطل ما هيك، الظاهر بتقرا روايات كتير؟ بس لازم تعرف يا عرص يا ابن العرص أنّه نحنا ما عنّا أبطال، الكلّ راسن تحت هالصرماية!

هذا سيادة العقيد رئيس الفرع، وإذا غضب، فإنّ ألف خيزرانة تغضب لغضبته. وها هي الخيزرانات الغضبى تشفي غليلها من قدميك المتورّمتين النازفتين.

ـ دخيلك يا سيدي بدّي أحكي!

تتوقّف ماكينة الدولة، تهنأ قدماي بقليل من الراحة. ليت التوقّف يطول ليطول الهناء!

- شو بدّك تحكي ولا ابن العرص!

- سيدي. . سيدي. . والله أنا مو منظّم يا سيدي! والله. .

يغضب العقيد ويشتم فتغضب الخيزرانات وتشتم، وهل لا زال في رصيد قدميَّ بقيّة لتسديد فواتير الغضب؟! غرقت في لجّة من الألم الثقيل الكاوي والصراخ الشاتم المهدّد من كلّ مكان. ضاق صدري وتيبّس الهواء في حنجرتي. .

- بدّي أحكي يا سيدي!

غير أنّ ماكينة الدولة لم تعبأ بي هذه المرّة وواصلت مهمّتها الرهيبة. كرّرت الصراخ من دون جدوى. «بدّي أحكي يا سيدي!» ولكن من دون جدوى. الألم ثقيل أكثر ممّا يمكن أن أحتمل، الهواء يغادر صدري من دون أن يعود، أشعر أنّ قلبي يلتفّ على نفسه ويتعثّر، وكذلك وعيي. أصرخ: أنا منظّم!!. . تهدأ ماكينة الدولة دفعة واحدة. تنعم قدماي باستراحة. يعثر دمي من جديد على وجهته. ماكينة الدولة ترتاح على إنجاز. وقدماي كذلك. اعتراف! لقمة تحتاج إلى مضغ! عقول شرسة تخبط في ظلمة دامسة بلا دليل ولا ضوء كاشف.

يعبر في ذهنك أنّ هناك مؤامرة أزليّة، مؤامرة كبرى في الخلق، وإنّ غاية خلق القدمين على هذا الشكل هي التعذيب ولا شيء آخر. أما كان يمكن تعديل الخلق فلا يكون باطن القدمين هذا المكان المناسب للجلد؟ يخطر في ذهنك أشكال افتراضيّة لقدميِّ الإنسان، شيئًا ما يشبه الأظلاف مثلاً، أو على الأقلّ قدمين بلا أصابع، إذ ما وظيفة أصابع القدمين سوى أن تكون نقاط ألم فظيع عند الجَلْد؟ سوى أن تكون مكانًا يختاره جلّاد كي يمارس عليه أقصى درجات الإلحاد؟

يعبر في ذهنك أنّ كلّ شيء في خلق الإنسان إنّما معدّ ليناسب أولئك الذين يعذّبون ويقتلون ويغلبون، «تؤخذ الدنيا غلابا!». ولكن انتظر! حين يتعذّر جَلد القدمين بعد تهتّك وتلف جِلد القدمين، هل يعدم الجلّاد الوسيلة؟ سيجمعك بعد حين كراكون الشيخ حسن مع فرحان، الشابّ الجميل الذي اشتهته السجون منذ بداية شبابه واستأثرت به طويلاً، لترى كيف يمكن أن يستعيض الجلّاد عن باطن القدمين بباطن الركبتين مثلاً، كيف يصير الجزء الداخلي من مفصل الركبة مكانًا احتياطيًّا للجَلْد. تجمعك السجون الأخرى بأناس شهدوا وسائل تعذيب لا تنتهي. الألم قاسم مشترك لكلّ الوسائل ولا حدود للألم الذي يعانيه جسد الإنسان. ولئن كانت متعة الجسد البشري محدودة فإنّ ألمه غير محدود.

يمكن أن يعجز الألم الجسدي عن قهر النفس وكسرها واستعبادها، فهناك أشخاص لديهم قدرة مميّزة على احتمال الألم، حينها يمكن أن يلجأ المحقّق إلى إنتاج ألم من نوع آخر. من القصص أنّ بحرة الكراكون شهدت ذات يوم التحقيق الذي جرى مع رجل كبير السنّ بتهمة إسلاميّة. لم تكتفِ البحرة بالمشاهدة فقط بل شاركت أيضًا بأن استقبلت في مياهها الباردة جسد ذلك العجوز عاريًا ومتورّمًا ومدمّى مرّات عديدة. غير أنّ الألم الجسدي فشل في تحطيم «مقاومة» هذا الرجل، ممّا أثار عدوانيّة المحقّق الذي كان معروفًا بأنّه لا يتورّع عن فعل أيّ شيء، فما كان منه إلّا أن أجبر العجوز على أن يتّخذ وضعيّة معيّنة وهو عار تمامًا ثم هدّده بأن يجعله موضوعًا جنسيًّا لأحد عناصره الشباب ما لم يعترف بكلّ شيء، الـ «كلّ شيء» التاريخيّة إيّاها. كان هذا كافيًا كي ينهار الرجل ويقدّم اعترافات أشبه ما تكون بالهلوسة، اختلط فيها الصحيح بالوهمي الأمر الذي جرّ المصائب على

أهل قريته بالكامل، من الفرّان إلى الدكنجي إلى كلّ من له موقع في ذاكرة ذلك العجوز!

يعود العقيد إلى فريسته. تستنفر الخيزرانات والدواليب والأكفّ والحناجر، حتى هواء القبو يعاند طبيعته الفيزيائيّة ويصبح متماسكًا ويستعصي على الشهيق، كما لو أنّه يرغب هو الآخر في التحوّل إلى عنصر في جوقة التعذيب يأتمر بأمر العقيد الظافر. لا شيء حياديًّا في هذا القبو، كلّ شيء منحاز إلى العقيد وجنده ضدّ هذه الفريسة المنتخبة.

ـ رحت ع لبنان ولا؟! قال العقيد مكشّرًا باستعلاء وقرف! ما هي قصّة التكشير؟ وإلى أيّ حدّ كنت غافلاً عن وجود هذا السلاح من قبل؟ فأنا لم أكد أستوعب تكشيرة الملازم الأوّل غليظ الشفتين حتى هوجمت بتكشيرة أخرى تفوقها قدرة على ختم القلوب وعمي الأبصار. تكشيرة العقيد دخلت بقوّة في هذه الجولة التحقيقيّة كسلاح فعّال على الحلبة. تفاديت التكشيرة وأجبت:

ـ لا، والله ما رحت يا سيدي!

ـ كذّاب!

وانطلقت آلة صناعة الألم الجبّارة في عملها. الجميع ينهمكون وينصبّ تركيزهم على جسد منهك دام متخبّط. أتخيّل صورة انهماك الرجال (الرجال فقط، لا يجوز للنساء ذلك!) في السيطرة على الأضحية قبل ذبحها.

في خريف عام ١٩٨٢ كان حزب العمل الشيوعي، في خطوة مرتجلة، قد أرسل إلى لبنان، إلى طرابلس بالتحديد، مجموعتين من أعضائه للتدرّب على القتال واستعمال السلاح في معسكرات تابعة

لحركة فتح. علم الأمن بذلك فصار السؤال عن السفر إلى لبنان جزءًا من كلّ تحقيق مع متّهمي حزب العمل الشيوعي.

ذهبت آلة صناعة الألم بعيدًا في عملها. وراح وعيي يتكسّر ويتلاشى تحت موجة الألم الرهيبة. بتّ أشعر أنّ رئتيَّ تنكمشان وتتحوّلان إلى كرة إسفنجيّة مشبعة بزيت ثقيل، تحاول الخروج من صدري عبر البلعوم. لا تريد رئتاي أن تتحمّلا مشقّة العيش في جسد يتعرّض لكلّ هذا الألم. تتوقّف الآلة ليكرّر صاحب الأمر سؤاله بمزيج من العدائيّة والقرف والتسلّط، ولأكرّر نفيي وأنا في حضيض من اليأس، ثم تستأنف الآلة الصمّاء عملها في معالجة جسد عالق في برزخ. ينهي سيادته المهمّة، يقرّر مصيري، ثم يودّعني برفسة مشفوعة ببصاقه وبذاءته.

هل خطر يومًا في بال أبي شيئًا كهذا؟ كان أبي من البعثيين الأوائل، وكان يكرّس نفسه للعمل الحزبي والنقابي على حساب اهتمامه بنفسه وبأسرته. صار ممثّلاً للبعثيين في مكتب الاتّحاد العام لنقابات العمّال في أواسط خمسينيّات القرن الماضي ورئيس النقابة العامّة لعمّال المناجم والمحاجر للإقليم السوري زمن الوحدة، بعد أن كان قد شارك، تحت إشراف «بعثي»، في تأسيس نقابة عمّال الإسفلت التي انضوت لاحقًا تحت النقابة الأولى. وانعكس إخلاصه «للبعث» على مجمل حياته وترك بصمته على أسماء أولاده. يناديه الواجب البعثي فيترك كلّ شيء خلفه ويلبّيه. ففي الوقت الذي ينشغل أرباب الأسر في الريف بشؤون الزراعة والسعي لاكتساب أراض جديدة على حساب الأراضي الأميريّة أو على حساب أراضي بعضهم بعضًا، كان أبي يجول في بلدان العالم الاشتراكي «الصديق» تنفيذًا لمهامّه الحزبيّة التي لا يعلو عليها شيء، تاركًا أراضينا الفقيرة والمحدودة موضوعًا

للإهمال ولطمع الفلّاحين المجاورين. كانت أمّي تقول بسخرية مريرة: أبوكم لا يطيع سوى أوامر حزبه، ليت هذا الحزب يأمره بزراعة أراضيه والاهتمام بأسرته بدلاً من هذا التجوال الدائم الذي لا نجني منه سوى الشقاء! اعتدنا على غياب أبي المتكرّر عن البيت. كان تعبير «مهمّة حزبيّة» حاضرًا دائمًا في حياتنا الأسريّة. يسافر أبي، تاركًا لأمّي كلّ شيء، تربية الأطفال والحراثة والزراعة والجني والحماية والعناية بالحيوانات وتأمين حطب المواقد للطبخ والغسيل وحطب التدفئة... إلخ. كان يترك لها كلّ شيء، سوى النقود. وتحكي أمّي أنّ أبي أوشك أن يضربها ذات مرّة لأنّها احتجّت على أخذه كلّ الرصيد المالي الهزيل من البيت قبل سفره «الحزبي» إلى دمشق، قائلة كيف ترضى أن تتركنا من دون نقود؟ ألا يؤمّن لك هذا الحزب مصاريف سفرك؟ لم تكن أمّي تدرك أنّه حين كانت تسطع شمس المهمّة الحزبيّة البعثيّة في ذهن أبي كانت تُكسف أمامها كلّ كواكب المهام «التافهة» الأخرى. فهل يتقاعس عن «المهمّة الحزبيّة» خشية أن يجوع ولد أو تشقى زوجة مثلاً؟ كان بعثيًّا مهووسًا وليس فقط مخلصًا. يُحكى أنّه في الثامن من آذار ١٩٦٣، حمل عَلَم البعث عاليًا في طرقات القرية قبل أن يعود ويرفعه على سطح بيتنا، ابتهاجًا بانتصار «الثورة». لم يكن يعلم أبي أنّ أمثاله إنّما هم وقود غيرهم في الوصول إلى السلطة، أمّا بعد ذلك فللسلطة وقود من نوع آخر. بدأ أبي بعد «الثورة» يشرب الخيبة شيئًا فشيئًا من كأسين، الأوّل هو كأس شعوره بتقصير «الثورة» عن تنفيذ ما كان يحلم به منها، من وحدة وتحرير وإنصاف للعمّال الذي قضى عمره يعمل للدفاع عنهم من دون أدنى مكسب شخصي بل بالكثير من الخسائر الشخصيّة، والثاني هو كأس شعوره المتزايد يومًا وراء يوم بالتهميش والإقصاء داخل حزبه نفسه. التهميش الذي انتهى

بأن تمّ فصله من الحزب على أيدي البعثيين الجدد، الذين كان يثقل على نفوسهم في الاجتماعات بجرأة نقده وسطوع تاريخه ونظافة يده.

هل كان يخال أبي أنّه بعمله «الحزبي» ذاك الذي كرّس له شبابه وحياته، إنّما كان يبني لابنه الأصغر الذي وُلد بعد أشهر قليلة من رفعه العَلَم البعثي على سطح البيت، قبوًا للتعذيب. هل كان يتصوّر أنّه في كفاحه ذاك إنّما كان يحمل على كتفيه أمثال هذا العقيد الذي سيشتمه في وجهي وعن طريقي بكلّ هذه البذاءة؟ هذا العقيد الذي لا يملّ من تكرار القول «الكلّ تحت هالصرماية!» مشبعًا بسلطته غير المحدودة وغير الخاضعة لحساب، هذا العقيد الذي تغذّى وأمثاله على عرق وشقاء ودم أبي وأمثاله، بات اليوم لا يرضى بأقلّ من السمع والطاعة، ولا يتناول أبي وأمثاله إلّا بالشتائم. وقد لاحظت، بالمناسبة، أنّ الكثير من السجناء اليساريين الذين التقيتهم في السجن هم أبناء لآباء بعثيين يشبهون في تاريخهم تاريخ أبي.

في الأيّام التالية عاد التحقيق معي إلى الأرض، أسئلة عن طبيعة علاقتي بهؤلاء الأصدقاء الذين في الزنازين، عن الكتب التي نقرأها، الغاية من هذه القراءات، علاقة الحزب بها، متى تلتقون، أين تلتقون، من اقترح فكرة اللقاء... إلخ. تحقيق «طبيعي». تراجع ضغط التعذيب قليلاً. المساعد ذو الكرش يتولّى الآن معظم مجريات التحقيق، يدوّن اعترافاتك على أوراق بيضاء، يتجاوب مع اعتراضاتك. لكن ذات مرّة غضب من اعتراضي على إحدى التلفيقات التي اعتبرتها هامّة ومضرّة وطلبت حذفها، فنهض وصفعني بعنف وهو يرفع صوته ويقول:

ـ يا حيوان، أنت محلّك هون خلف الطاولة مو هون! مشيرًا إلى مكاني حيث أجلس أمام الطاولة. لم أفهم في البداية معنى قوله، ولم أفطن إلّا بعد أيّام في خلوة الزنزانة إلى الدلالة الطائفيّة لكلامه.

هدأ بعد ذلك وكأنّه يدخل في مشهد جديد، وقصّ عليّ كيف أنّه نسي حاله مرّة وصفع ابنه، الطالب الجامعي، صفعة رهيبة حاسبًا أنّ ابنه موقوفًا. وقال إنّ ضغط العمل كبير ويجعل المرء عرضة للخلط. استغربت كيف ينتقل هذا الرجل بهذه السرعة وهذه الجذريّة، فيبوح لشخص انتهى للتوّ من صفعه بهذا العنف. في هذا المشهد البوْحي الجديد كان يمكنني أن أسأله.. فسألته ألم يختلط الأمر عليك ذات مرّة فتحسب الموقوف ابنك؟ غير أنّ سؤالي لم يرق له، فقال «لا» ناشفة، كما لو أنّه ظنّ أنّي أنصب له فخًّا، ذلك أنّ من شأن مثل هذا الشعور إذا صرّح به أن يهدّد حياته الوظيفيّة!

ذو الكرش يبهّر التقرير بأشياء كاذبة فقط ليعطي الكلام نكهة شيوعيّة، ولكنّها أشياء قليلة الأهمّيّة. ترضى عن ملفّك، توقّع عليه. ملفّك يقول إنّك غير منظّم في أيّ حزب، وأنّه لا علاقة مباشرة لهؤلاء الشباب بأيّ حزب. تشعر أنّه رغم كلّ شيء (كلّ شيء!) فالخاتمة سعيدة. سترفع الملفّات إلى جهة أعلى ثم ربّما إلى جهة أعلى، ثم يبتّ بأمرنا ويُخلى سبيلنا من دون شكّ. تفاؤلي المسكين هذا لم يفارقني طوال ١٦ سنة من السجن. ١٦ سنة، وهذا الطفل الغافل المطمئنّ يلهو في حديقة نفسي، لا يملّ، ولا أدري هل يتعلّق بي بأكثر ممّا أتعلّق أنا به. يضعف تفاؤلي أحيانًا وينكفئ، لكنّه يألفني كثيرًا فلا يملّني ولا يغادرني. أشعت في نفسي وفي نفوس من حولي أملاً بأنّنا خارجون من هنا إلى دراستنا وأهالينا. من يقرأ الملفّ لا بدّ أن يغزوه التفاؤل. لم يدر في خلدي أنّ هذه الأريحيّة من قبل المساعد في صياغة الملفّ تعكس عدم أهمِّيّته، وأن انطباع سيادة العقيد وتوصيته هو ما له القيمة أمام الجهة الأعلى والأعلى. انتهى التحقيق، فتحت معظم طاقات الزنازين. وارتاحت نفوسنا من ضغط الترقّب والخوف

والتعذيب. وراحت أجسامنا تطالب بما فاتها من طعام طوال فترة التحقيق. وراحت الأيدي في فترة توزيع الطعام تمتدّ من الطاقات مطالبة بالمزيد من الخبز. على أنّ فترة بقائنا في الفرع بعد انتهاء التحقيق لم تشهد اعتقالات سياسيّة ذات قيمة، كلّ ما حدث هو اعتقالات متقطّعة وفي قضايا غير سياسيّة فيما يبدو. ولم يكن هؤلاء المعتقلون يمكثون أكثر من يوم أو يومين في الفرع وأحيانًا لا يبيتون فيه، دلالة على ضعف فعاليّة هذا الفرع قياسًا على فروع الأمن الأخرى في تلك الفترة. ذات يوم من تلك الفترة وصلنا من داخل قبو التعذيب أصوات جَلْد وصياح رجل يقول:

ـ دخيلكم أنا ماني بألبا! دخيلكم خدو الجبس كلّو يا سيدي!

كان هذا بائع جبس قريب من الفرع اشترى العناصر منه واحدة، ولكن تبيّن بعد الكسر، كما يزعمون، أنّها بيضاء وقليلة الحلاوة. ويبدو أنّ العناصر كانوا متحاملين سلفًا على هذا الرجل لأنّه لا يسامحهم في السعر، كما قال أحدهم، فاغتنموا فرصة غياب الضبّاط ووجود رئيس مفرزة متساهل كي «يربّوه» متذرّعين بأنّ الجبسة التي اشتروها منه كانت «مغشوشة». (لكلّ مستوى من مستويات الفرع ظلمه الخاصّ. ظلم يتناسب مستواه مع مستوى الظالم في تراتبيّة الفرع، «فالظلم من شيم النفوس!»). علّق أحدنا على هذه الحوادث المتفرّقة والعابرة بالقول: إنّ هذه أصوات قرقعة أمعاء الفرع الخاوية.

ما حول التحقيق

في أيّام التحقيق الأخيرة، بعد أن رسم سيادة العقيد لنا مصيرنا وترك أمر الشكليّات لموظّفي الفرع وضبّاطه الأدنى رتبة، وبعد أن ينتهي الدوام ويفرغ الفرع من ضبّاطه، كان المناوبون من عناصر مفرزة

التحقيق يدخلون إلى كوريدور الزنازين، يخرجون من قميص الجلّادين ودورهم، يفتحون طاقات الزنازين علينا ويقضون سهرتهم معنا. لا شيء فيهم يشبه حالهم أثناء أدائهم وظيفتهم في التحقيق. حتى أشكالهم تختلف. قدرة رهيبة على الدخول والخروج من الأدوار. وقد كان الشرطي سبع سيّد هذه السهرات بقصّته الغراميّة مع من هي الآن زوجته. وسبع رجل من الساحل متطوّع ويبدو عليه الفقر، ويمكن أن أقول أيضًا إنّه يتمتّع برهافة الحسّ. وتظهر رهافة حسّه من المواويل جميلة المعنى والأداء التي كان يخفّف بها من ثقل ما نحن فيه، حتى إنّه كان يختار مواويل عن الغربة والسجن والافتقاد تلامس الحالة التي نحن فيها، وكثيرًا ما كان يكرّر موّالاً ينتهي بدعاء لعودة كلّ غائب إلى أهله. وتظهر رهافة حسّه من طريقة قصّه لغراميّاته وتركيزه على تفاصيل صغيرة، ومن طريقة كلامه معنا وإحساسه بمعنى الوضع الذي نحن فيه. فقد كنت كثيرًا ما تسمعه يقول بطيبة: «ألله يرجّعكم لأهاليكم، والله أنتو أوادم، ألله يفرجا عنكم». وكنت تشعر أنّ سبع حتى ذلك الوقت، ورغم مضيّ وقت غير قليل على زواجه ورغم الأبناء وأعبائهم، لا يزال يحبّ زوجته بطريقة جنونيّة. تحدّث بتنويعات كثيرة عن لقاءاته بها على النبع، فهو لا يزال يذكر بدفء كيف كانت تغسل له الخسّ وتعطيه الورق الغضّ والقلب، وكيف كان يغامر ليقطف لها أجود عنقود عنب. وكم كانت متعته كبيرة حين يساعدها على حمل جرّة الماء، وقد كان يتمنّى، لولا العيب، أن يحملها عنها ويريحها. وفي إحدى المرّات وبينما كان سبع يدخل الكوريدور متشوّقًا لمتعة قصّ ذكرياته تلك أو لمتعة أداء موّال ما، بالغ أحد الشباب في رفع الكلفة وسأله: شو أخبار فلانة؟ ذاكرًا اسم زوجته بدل أن يقول أمّ فلان. ظهر الاستياء واضحًا على وجه سبع، ونرفز وقال كلامًا كثيرًا

يأسف فيه على أنّه فتح قلبه لنا، وينضمّ فيه إلى فئة من يقول إنّه لا ينفع معنا سوى الدولاب. كلام كثير موجّه إلى من رفع الكلفة بهذا الشكل، كلام لم ينفع معه اعتذار ولا تبرير، كلام طويل ثقيل كنّا ننتظر أن يكون، لولا رفع الكلفة المشؤوم ذاك، كلامًا عن الحبّ والذكريات العذبة. تغيّر سبع بعد تلك المرّة، ومع ذلك لم يصبح عدوانيًّا تجاهنا، وقد جاء بعد تلك الحادثة يسألني، بصفتي من المحافظة نفسها، ماذا أريد من اللاذقيّة فهو ذاهب في إجازة، قلت له لا أريد سوى السلامة، فقال بصوته العالي الذي كثيرًا ما ملأ كوريدور الزنازين بالمواويل في السهرات الخوالي: معقولي مانك مشتاق لفرعة حبق من تراب الضيعة؟!

سبع لم يكن يدخّن، لا بل كان «يكرّز» ضدّ التدخين. وعلى خلاف ذلك، فإنّ المساعد نايف، رئيس المفرزة، كان يدخّن بكثرة. وكان دخوله إلى الكوريدور فرصة للمدخّنين من أهالي الزنازين. ولا شكّ أنّ المساعد نايف كان يدرك جيّدًا معنى الانقطاع القسري للمدخّن عن التدخين وحجم شوقه إلى سيجارة. وهو لم يكن يبخل، على الأقلّ بعد نشوء علاقة اجتماعيّة بيننا جرّاء تكرار السهرات، بإشعال سيجارة وإعطائها لمن يطلب رغم ما في ذلك من مسؤوليّة عليه. كان نايف يقدّم للسجين سيجارة كاملة من دون أن يستجرّ المذلّة من أحد أو أن يتلذّذ بكسر النفوس، على خلاف ما روى لنا سجناء الشيخ حسن، بعد أن انضوينا تحت رايتهم، عن أبي غازي الذي كان، قبل السماح بالدخّان هناك، أمبراطورًا في الكراكون، لمجرّد أنّه يدخّن. كان أبو غازي على حافّة التقاعد حين نقلونا إلى الكراكون من الفرع، وكان «قفّةً من العظام»، أحدبَ وبارز الأنف وطويل عظم الذقن، أي كان يشبه صور الساحرين أو الأبالسة. يمشي في التنفّس وهو يدخّن

سيجارة اللفّ فيتبعه من غلبته رغبة التدخين طالبًا منه سيجارة، فيماطله أبو غازي حتى تقترب سيجارته من نهايتها ويمدّها له من خلف كتفه من دون أن ينظر إليه، بعد أن يكون عقبها قد صار مشبعًا ببصاقه. فيتلقّفها السجين ممتنًّا، إذ حين تشتعل الرغبة لا يبقى محلّ للقرف. في أحيان أخرى يكون أبو غازي أكثر حذرًا فلا يعطي عليه أيّ مستمسك بأنّه يعطي السجناء من دخانه، وبدلاً من أن يمدّ السيجارة إلى السجين «الخرمان» الذي يلاحقه طمعًا «بكرمه»، كان أبو غازي يرمي سيجارته إلى الأرض ويتكرّم على السجين بأن لا يهرسها بحذائه، فيعمل السجين على التقاط السيجارة عن الأرض والتنعّم بها!

أمّا عامر، وهو شابّ نحيل مفرط الحيويّة يتميّز بشحّاطه الديري ذي الإصبع، فقد كان يطيب له التسلّي بخوفنا من الدولاب، يدخل الكوريدور وهو يصرخ ويهدّد مراقبًا ردود أفعالنا. وكان منه ذات مرّة أن جلب الدولاب من صالون التعذيب ورماه في كوريدور الزنازين متصنّعًا الجدّ ومهدّدًا به نبيل، الشخص الأكثر غضاضة بيننا، ليتسلّى بردود أفعالها.

في الصباح كنت أسمع صوت خطوات كندرة نسائيّة فوق زنزانتي. خطوات قصيرة وقليلة وبمرّات متباعدة تدلّ على أنّ هذه المرأة تتحرّك ضمن مجال ضيّق افترضت أنّه مكتب، لا مجال لافتراض آخر، على أيّ حال. لا شكّ أنّها موظّفة في الفرع. من المؤكّد أنّ هذا الصوت كان موجودًا طوال الوقت، لكنّي لم أنتبه إليه إلّا بعد انتهاء التحقيق وخلال فترة انتظار «قرار مصيرنا». صرت أترقّب الصوت وأستمتع به. ورغم أنّ هذه المرأة تعمل، كما يفترض، في مكتب تابع للفرع الذي «يحتفي» بنا، وقد تكون سكرتيرة أحد الضبّاط، إلّا أنّ أنوثة صوت وقع الكندرة طغت على قسوة الفرع. الأنوثة تشكّل

نوعًا من العمق الاستراتيجي للنفس يمكنها أن تنكفئ إليه في ساعات الشدّة، حين يطغى الظلم وتسيطر القسوة. الأنثى هي الحليف الأوّل لكلّ ضحايا العنف والقوّة. في السجن، كما في الشدّات الأخرى، تجد تعاطف النساء أكثر صدقًا. يقينًا أنّه من الأقسى على النفس أن تتلقّى التعذيب على يد نساء، كما كان يحدث في أيّام محاكم التفتيش مثلاً. حين تتلقّى التعذيب والمعاملة القاسية على يد من تجد فيهم النفس عادة جانبًا ليّنًا تلوذ به، تصبح النفس، كما أظنّ، أكثر عريًا ويأسًا.

انتهى التحقيق، لم نعد نسمع صوت جرس مكتب المحقّق كثيرًا. صوت جرس المكتب يعقبه صوت فتح باب شبك الحديد المطلّ على كوريدور الزنازين ثم صوت فتح باب إحدى الزنازين. تتابع اعتدناه أثناء فترة التحقيق، ولكن ما لم نستطع التعوّد عليه هو الخوف الذي يطلقه في نفوسنا صوت هذا الجرس، الصوت الذي بتنا نستقبله ببواطن أقدامنا قبل أن تستقبله آذاننا. لا نحسد من تفتح زنزانته، لأنّ الصوت الرابع الذي يلي هذه الأصوات الثلاثة هو صوت استغاثات وتوجّع صاحب الزنزانة المفتوحة. انتهى التحقيق وأمر الرائد بفتح الطاقات على البعض منّا. صار عناصر المفرزة أكثر جرأة في الدخول إلى كوريدور الزنازين وأكثر انفتاحًا معنا. وبعد كلّ وجبة غداء، كان جمعة، وهو شرطي مسجون في واحدة من الزنازين لسبب نجهله، يقضي وقتًا طويلاً في شطف الكوريدور من آثار توزيع الغداء، بالصابون السائل مرّة ثم بالماء، ثم تنشيف ثان بالمساحة. يتواجد جمعة فترة طويلة حرًّا بين الزنازين، يقوم بدور حلقة وصل فيما بيننا، ينقل رغيف خبز أو بضع حبّات من الزيتون أو أيّ شيء من واحد لآخر. وذات يوم فتح طاقة زنزانتي وأعطاني شيئًا قائلاً هذا من

جلال، كانت ورقة تحوي نصف قطعة حلو من الدوسير الذي وزّعوه علينا في الأمس، كانت هديّة رائعة وثمينة ولا سيّما أنّ دوسير الحلويات نادر وأنّ المرسل يموت في الحلويات أيضًا. فترة شطف الممرّ هي فترة استراحة ما بعد الغداء. غالبًا ما تكون الطاقات مفتوحة على الجميع، نقف ونتحادث، نقصّ مناماتنا على بعضنا بعضًا، نجتهد في التفسير، نتبادل التكهّنات، نبني قصورًا شاهقة على كلمة قالها المساعد أو تعليق صدر عن شرطي كما لو أنّ هؤلاء يعلمون شيئًا.

بعد أيّام من الراحة يرنّ جرس المحقّق في إحدى الأماسي، تلك الرنّة اللعينة عينها. ثم يحدث التتالي نفسه بعد أن تنقطع أنفاسنا: يفتح باب شبك الحديد، ثم خطوات الشرطي في الممرّ، ثم يفتح باب الزنزانة، إنّها زنزانتي! ما إن وضع الشرطي المفتاح في قفل باب الزنزانة حتى استعادت قدماي في لحظة واحدة سيرة أيّام قليلة خلت منذ أيّام قليلة ولا تزال آثارها حيّة فيهما. خرجت حافيًا خائفًا. في المكتب استقبلني الرائد بسخرية مواربة كعادته: أهلين دكتور! وراح كعادته أيضًا يقارب موضوعه من بعيد ويحوم حوله. تابعت كلامه واقتصدت في ردودي كي أتبيّن الأمر وأعرف سرّ طلبه لي، ونفسي مسرح خال للخوف. كنت خائفًا ليس لأنّي «صمدت» في التحقيق، وأخفيت أشياء مهمّة أخشى أن يكونوا قد توصّلوا إلى خيوطها، بل لأنّ أيّ ظنّ مهما كان ضئيلاً وضعيف السند يكلّفك هنا دربًا طويلة من الآلام. بعد كلام طويل قال الرائد:

ـ شو قصّة هالغرفة اللي خايف عليها واللي أخفيتها عنّا طول هالوقت؟

ـ أيّ غرفة!؟ قلت بصوت خال من الألوان، وأنا أستشعر نكبة.

ـ ولو يا دكتور! صحيح وقّفنا التحقيق بسّ إلنا جوّا مين عم

يراقب أحاديثكم مع بعض، وأنت قلت لواحد من رفقاتك إنّك خايف عالغرفة تروح، بقا شو قصّة هالغرفة؟ ما بدنا نرجع لأساليب ما منحبّا!

جيّد أنّه شرح. كان يمكن أن يلعن أنفاسي في الدولاب وهو يسأل شو هالغرفة؟ من شرحه فهمت. إنّه جمعة الشرطي الذي ينظّف الممرّ بين الزنازين ويتابع أحاديثنا لينقل لهم ما يراه مهمًّا. فمنذ يوم أو يومين كنت أتحادث مع ناصر الذي كانت زنزانته مقابلة لزنزانتي، وقلت له فعلاً إنّي أخاف على الغرفة! ولكن هذه الغرفة هي غرفتي المستأجرة في أحد أحياء دمشق الفقيرة. وقد اضطررت لاستئجارها بعد أن سُدّت في وجهي كلّ سبل الحصول على غرفة في السكن الجامعي التابع لجامعة دمشق. اتّضح أيّامها أنّ «توصية» سبقتني أو لحقتني تحظر حصولي على سكن جامعي. حينها كنت حسن الظنّ ـ ولا أزال للأسف! ـ وكثيرًا ما راجعت مسؤولي الاتّحاد الوطني للطلّاب، وهؤلاء كانوا يطلبون منّي قراءة القوائم المعلّقة على جدران المدينة الجامعيّة فلا بدّ أنّ اسمي بينها، وكثيرًا ما راجعت تلك القوائم عبثًا، وراجعت من ثم المسؤولين الذين يعيدونني إلى قراءة اللوائح ثانية قائلين إنّ هناك لوائح جديدة نزلت ولا بدّ أنّ اسمي... وهكذا. وكان يزيد من همّتي في متابعة هذا التعثّر معرفتي المباشرة بطلّاب دمشقيين حصلوا من دون أدنى صعوبة أو تأخير أو مراجعات على السكن ليس بغرض السكن، فقط كي يحصلوا على بطاقة سكن جامعي تمكّنهم من دخول المدينة الجامعيّة حين يروق لهم. كنت أقول في نفسي من غير المنطقي أن يحصل ابن دمشق على سكن، وهو من المفترض أنّه يسكن مع أهله، ولا يحصل عليه ابن اللاذقيّة الذي يفترض أنّه لا أهل له في دمشق، ولا سيّما إذا كان يدرس فرعًا علميًّا يحتاج إلى الالتزام بالدوام. وعلى سكّة هذا المنطق المغفّل مشيت، حتى تعبت ويئست

واضطررت لاستئجار غرفة، هي الغرفة التي يستفسر عنها سيادة الرائد. وهنا في هذا القبو، حين غلبني تفاؤلي بأنّ نتيجة التحقيق ستكون الإفراج عنّا بعد وقت غير بعيد، خشيت أن يستثقل أهلي دفع إيجار الغرفة لشهر أو شهرين ويتخلّون عنها، وهذا ما عبّرت عنه التعبير الذي كان يمكن أن يكلّفني الكثير. شرحت ذلك للرائد وقد اقتنع لحسن الحظّ. وأكثر من ذلك، فقد أوصى الشرطي بترك طاقة زنزانتي مفتوحة، بعد أن كانت قد فتحت باقي الطاقات سوى طاقة زنزانتي وطاقة زنزانة جلال.. يا له من كرم!

في الزنزانة، تخيّلت لو أنّ الملازم صاحب التكشيرة هو من تولّى التحقيق بموضوع الغرفة هذا، كيف كانت الحال وإلى أين كان يمكن أن تسير الأمور؟ وكلّما امتدّ خيالي، زاد كرهي لجمعة.

عذاب التحقيق يهوّن عليك عذاب الزنزانة. زنازين الفرع مرعبة. عزلة تامّة. عالم سفلي بكلّ المعاني. لا ضوء ولا صوت يمكن أن يصل إلى هذا القبو. الأصوات التي تدخل هي أصوات الفرع، والأضواء التي تكشف (يصعب أن تقول «تنير») هي أضواء الفرع. في زنازين الشيخ حسن (الكراكون) تصلك أصوات المدينة ويزورك ضوء الشمس. أمّا في زنازين الفرع فلا شيء لا يحمل دمغة «صنع في الفرع». يا لكلمة «الفرع» كم تبدّلت! في صغري كنت أحبّ هذه الكلمة حين كانت أمّي تقول: «طلع الفرع» دلالة على بداية الربيع، فالفرع كلّ ما هو غضّ وجديد وبازغ من النباتات. أغصان غضّة ووريقات صغيرة لامعة بخَضار في طور الاكتمال، هذا ما كان يتشكّل في مخيّلتي حين أسمع كلمة «الفرع». أمّا الآن فقد نسخت الدلالة الجديدة ما قبلها، «الفرع» بات حواجز حديديّة وبراميل باطون مدهونة بألوان العلم السوري أو علم البعث وعناصر حراسة بوجوه فارغة

ورشّاشات وجعب، وأبواب حديديّة وزنازين ودواليب وخيزرانات وأكبال واستغاثات وصراخ ألم رهيب، وشتائم بذيئة ونشفان ريق ونشفان دم واصطكاك ركب وغثيان وإذلال وتعسّف وتُهم لا تُرَدّ ورجال يزداد رصيدهم من السلطة بقدر ما يبطشون.. هذا ما صار يستيقظ في النفس حين تسمع كلمة «فرع». أيّ فارق! إنّ إحلال دلالة مرعبة مكان دلالة جميلة، هو نوع من الاعتداء غير المباشر، ولكنّ العميق والبعيد المدى، على الروح وعلى الكيان الليّن للإنسان. قال لنا سجناء من حلب تمّ نقلهم إلى سجن عدرا بعد إفراجات ١٩٩١ من أجل إحالتهم إلى المحكمة، إنّ حفلات التعذيب في سجن حلب كانت تتمّ على صوت فيروز. أليست فكرة شرّيرة بكلّ المقاييس؟ هل هناك أذى أكبر؟ كيف يمكن لمن يُجلد ويُعذّب على صوت فيروز أن يمحي من ذهنه لاحقًا هذا الترابط؟ ألا يحرم بذلك من كلّ جمال الاستماع إلى هذا الصوت؟ ينتهي التعذيب وتندمل الجروح ويرمّم الجلد، ولكن هذا الأذى لا ينتهي. أذكر أنّني بقيت سنوات طويلة في طفولتي لا أستطيع أن أضع في فمي حبّة زيتون، لمجرّد أنّهم نقلوا أختي الصبيّة المتوفّاة إلى قبرها بنقّالة ذات لون أخضر يشبه لون حبّ الزيتون المكبوس. هذه منطقة شديدة الحساسيّة في الذهن البشري، يجب حظر التعدّي عليها. فيها يكمن الشعور بالجمال والقبح، وفيها تنمو مشاعر الاستمتاع العليا. فيها تكمن البرمجة الفريدة الخاصّة بكلّ شخص، والتي يجب أن يكون التعدّي عليها جريمة كبرى.

هول التعذيب يجعل الزنزانة رغم كلّ فظاعتها حضنًا آمنًا. وبعد انتهاء التحقيق يبدأ هذا الحضن بالتحوّل تدريجيًّا إلى أن تظهر الزنزانة على حقيقتها بصفتها قبرًا للأحياء. بحر من الزمن، كنت أستعين عليه بإعادة قصّ ما حدث معي في التحقيق، كما لو أنّي أروي ذلك

لشخص أختاره وأفترضه أمامي. التحقيق كان الحدث الحارق، ولكن فيما بعد صرت أروي قصّة اعتقالي ونقلي من اللاذقيّة وكلّ تفاصيل ما جرى لي قبل التحقيق.. أحداث افترضت أنّ أهلي وأصدقائي يتوقون لمعرفتها، فكنت أندمج في سردها الافتراضي لهم إلى حدّ لا أشعر معه بالزمن، ثم صرت أروي أشياء من خارج التحقيق والاعتقال، أشياء عالقة في ذاكرتي من طفولتي أو مراهقتي، صرت أعيد صياغة خيباتي الكثيرة، بطريقة مواسية للنفس، ألعب بعناصرها قليلاً أو كثيرًا فتغدو الخيبة انتصارًا في مرّات، وفي مرّات كثيرة يخفّ شعوري بالحرج منها، وفي كلّ الحالات كنت أنا الرابح. وكنت إذا وُفّقت إلى صياغة تروق لنفسي، أستمتع بإعادة قصّها مرارًا حتى يصبح حضورها المروي في ذهني أقوى من حضور حقيقتها. ومع انهماكي في لعبة القصّ صرت أبتكر أشياء ترمّم ما أظنّه نقصًا أو فجوة، من هذه الأشياء المبتكرة ما له ركيزة واقعيّة واهية ومنها ما يحلّق مستقلًّا بجناحيه. القصّ هو الدواء الأنسب لمعالجة فيض الزمن هذا. ولاحظت أنّ القصّ الاسترجاعي، إن صحّ القول، ليس فقط علاجًا لفيض الزمن بل هو أيضًا ضرورة نفسيّة، كما لو أنّ النفس بذلك تُعيد ترتيب الحوادث المؤثرة. كما لو أنّ هذه الحوادث تكون مرميّة عشوائيًّا في مستودع النفس فيعمل القصّ الاسترجاعي على ترتيبها، بعد أن يكون قد شذّبها وليّن من قسوتها.

وما كان يفاجئني في محنة الزنزانة أنّ نفسي كانت ترتاح إلى النظر إلى أجزاء جسمي ولا سيّما إلى يدي. كنت أسند كفّي على الحائط حيث يسقط ضوء الكوريدور وأمعن في النظر إلى يدي، فأشعر براحة وطمأنينة أطيلها بإطالة النظر، على أنّي لم أجد في نفسي هذا الميل بعد انتهاء فترة الحجز الانفرادي ذاك والانتقال إلى السجن الجماعي.

في صباح أحد الأيّام فتحوا جميع الزنازين وأخرجونا جميعًا إلى الكوريدور كي نمشي - نوع من التنفّس. ورغم أنّنا كنّا نرى بعضنا بشكل دائم من خلال الطاقات، ونتحادث بشكل يومي، فإنّنا حين خرجنا معًا إلى فضاء من دون حواجز، دبّ في الجميع شوق إلى الجميع. كأنّنا لم نر بعضنا بعضًا منذ دهر. تحيّات حارّة واحتضان وقُبل. حوالى ربع ساعة من «الحرِّيّة» ثم أعادونا إلى الزنازين، وبعدئذ أحضروا عدّة حلاقة وأخرجونا واحدًا واحدًا لحلاقة الذقن. كان شيئًا مسلّيًا يقتل الوقت. الشرطي يقف في الكوريدور ويسلّم من يأتي دوره بالحلاقة شفرة جديدة، ويبدأ هذا بحلاقة ذقنه، ينتهي ثم يعود إلى زنزانته. هناك شيء يمكن متابعته والتفرّج عليه. وفي اليوم التالي نقلونا إلى سجن الشيخ حسن. لم يكن ثمّة من نودّعه سوى جمعة الذي أصرّ على تقبيل الجميع وهو يبكي (الرابط الإنساني شيء والدور المخابراتي شيء آخر!). قرار نقلنا إلى الكراكون هزّ عرش التفاؤل من دون أن يسقطه. مهما يكن من أمر فقد ضاق صدرنا من المكوث في ذلك القبو، وكان خروجنا إلى الكراكون مريحًا حتى وإن حمل في طيّاته دلالة تشاؤميّة بشأن قرار الجهات العليا المتعلّق بملفّنا.

الكراكون من جديد

ها أنا مرّة ثانية في الكراكون، ولكن هذه المرّة في الجماعيّة وليس في المنفردة، ولسنتين وليس ليومين. حال وصولنا إلى الكراكون قسموا مجموعتنا إلى قسمين، أدخلوا القسم الأوّل إلى الجماعيّة التحتانيّة والقسم الثاني (وكنت منهم) إلى الجماعيّة الفوقانيّة. سعادة خلاصنا من القبو ومن أجواء التحقيق، وسعادة اختلاطنا معًا نحن أبناء الدفعة الجديدة، وسعادة اختلاطنا مع السجناء الموجودين قبلنا في

الكراكون، وسعادة هؤلاء بقدوم «دم جديد» ينعش لبعض الوقت حياتهم ويحرّك قليلاً زمنهم الراكد، وسعادتنا برؤية خيرات المهجع من خضار وفواكه وشاي وقهوة ومتّة ودخان بعد انقطاع طويل. مجموعة من السعادات أضفت على دخولنا إلى الجماعيّة جوًّا احتفاليًّا عارمًا. كان هناك شيء من التحفّظ من جانب سجناء التهم الإسلاميّة وكانوا حينها قلّة، وربّما أيضًا من جانب بعض «اليساريين» ذوي الأوضاع والأمزجة الخاصّة.

الجماعيّة عالم مثير وفريد (في سجن عدرا وتدمر لا وجود لمفردة «الجماعيّة»، المفردة المستخدمة هناك هي «المهجع»، وتتناوب هذه المفردة في سجن عدرا مع مفردة مدنيّة هي «الغرفة»، لكن في فرع التحقيق وفي الكراكون المفردة المعتمدة هي الجماعيّة كمقابل للمنفردة). الجماعيّة ڤيترينا تعرض مختلف أصناف البشر، مختلف الأعمار ومختلف التنويعات النفسيّة والفكريّة، وها أنت تدخل الڤيترينا وتصبح جزءًا منها. معروضات الڤيترينا تنشئ علاقات فيما بينها. يتاح لك، بعد أن دخلت الڤيترينا، اختيار الصنف الذي تميل إليه، كما أنّك تصبح أنت أيضًا موضوعًا للاختيار. الدخول الجماعي لنا شكّل حالة من الاضطراب في الجماعيّة، عددنا يقارب نصف عدد أفراد الجماعيّة الموجودين سلفًا. في البداية يلتفّ أهل الجماعيّة حولنا وتبدأ الأسئلة. يطلّ الشرطي من طاقة باب الجماعيّة ويقول بودّ متوجّهًا للسجناء القدامى: «على مهلكم عليهم شوي!». وبالمناسبة لا أهمّيّة كبيرة في الجماعيّة لكون طاقة الباب مفتوحة أم مغلقة، على خلاف تامّ مع الحال في الزنزانة. علاقات السجناء مع الشرطة ودّيّة، يتخاطبون بالأسماء ويضحكون معًا، واللافت أنّ غالبيّة السجناء وغالبيّة السجّانين من سهل حوران، والثقافة الحورانيّة الغنيّة والمميّزة هي السائدة في

اللهجة والتعابير والأمثلة والأغاني . . إلخ.

في بداية دخولنا الجماعيّة يكون طلب «المعرفة» أقوى من عرضها. ثم بعد الإجابة على الأسئلة الرئيسيّة يشبع الطلب نسبيًا ويبدأ التجمّع بالتشظّي بشكل تلقائي، تتشكّل تجمّعات صغيرة مبعثرة نواتها واحد أو اثنان من الوافدين الجدد. بعد حين من الوقت ترضى قليلاً رغبة المعرفة لدى أهل الجماعيّة القدامى، وترضى قليلاً رغبة الوافدين الجدد في شرب الشاي والتدخين، ويبدأ النهار بالأفول، فيبدأ ما هو أهمّ، وهو تأمين مستلزمات الوافدين الجدد الذين لا يمتلكون شيئًا. مستلزمات أساسيّة من بيجامات وملابس داخليّة ومناشف وغير ذلك، ثم يبدأ توزيع أماكن النوم. ثم تدريجيًا وبشكل عفوي يبدأ تبلور العلاقات. الخطوة الأولى من تشكّل العلاقات الثنائيّة مبادرة السجين القديم بتأمين مستلزمات أحد الوافدين. في هذا بداية التعبير عن الميول، بداية نشوء العلاقات. هنا اختبار واسع لقيمة الانطباعات الأولى.

يستمرّ الاحتفاء بالوافدين الجدد ثلاثة أيّام. ثلاثة أيّام هي شهر العسل. عادة بدويّة! خلال ثلاثة أيّام يكون الوافد الجديد معفيًا من مهامّ السخرة (اعترض كثيرون على هذه التسمية على مدى سنوات السجن، واقترحوا بديلاً عنها «الواجب» أو «الدوريّة» أو «البلديّة» ولكن، من عجب، لم تتمكّن أيّة مفردة أن تنافس مفردة «السخرة»)، ويكون محطّ اهتمام ورعاية. الوافد الجديد يحمل رائحة العالم المقصي عنه السجين القديم. ومع الوقت تتلاشى هذه الرائحة ويحلّ محلّها رائحة السجن الراكدة.

هذا هو اللقاء الأوّل مع المشهد الداخلي للسجن، السجن بمعنى الكلمة الحرفي، المكان الذي يقضي فيه الإنسان سنوات. كلّ شيء أمامك له رهبة المعرفة الأولى. كلّ شيء هنا يهجر معناه المألوف،

ويكتسب معنى جديدًا ضمن هذه البيئة السجنيّة ذات الرهبة. الصناديق الخشبيّة، كيف تصبح مطبخًا. الكراتين، كيف تصبح خزنًا معلّقة بحبال ومسامير على الجدران. السطول، كيف تصبح «غلوبات»، كيف تعلّق في السقف بطريقة تمكن من رفعها، عند النوم، كي تصبح ساترًا للّمبات المدلّاة من السقف. هنا تلاحظ السخرة، كيف تقوم بواجباتها اليوميّة من صنع الشاي وتوزيع الكاسات ثم جمعها وغسلها وترتيبها في أماكنها. السجناء، كيف يقضون أوقاتهم. الاستسلام، كيف يعلو الوجوه على شكل طمأنينة يائسة أو يأس مطمئن. الروتين اليومي، كيف يكبّل وحش الزمن. السجناء الإسلاميّون، كيف يؤدّون واجباتهم الدينيّة وطقوسهم... ترصد بتمعّن وذهول هذا العالم الجديد الذي طالما قرأت عنه وسمعت به. هذا هو السجن إذن! (بعد سنوات طويلة في السجون، ورغم هذه السنوات، ستشعر بما يشبه هذه الرهبة حين سيتمّ نقلك إلى سجن صحراوي وتقول في نفسك: هذا هو سجن تدمر إذن!). بعد ساعات قليلة من دخولنا الجماعيّة، وبعد أن بدأت تخفّ حمّى الأسئلة وبدأ الجمع يتبعثر، أدهشتك إلى حدّ كبير حركة أحد السجناء القدامى حيث نهض وأصلح ضبّ بلوزته الخفيفة تحت بنطلون البيجاما، كمن يستعدّ لأداء مهمّة، وانطلق مسرعًا في فسحة المهجع بضع خطوات كأنّه يتّجه لغاية محدّدة، ثم ما لبث أن استدار وسار بضع خطوات سريعة في الاتّجاه المعاكس وعلى وجهه معالم الجدّيّة، ثم استدار ثانية وكرّر السير بخطوات سريعة وهكذا... حركة يظنّ من يراها للمرّة الأولى أنّها حركة جنون أو اختلال عقلي ما، ولكنّك ستلاحظ فيما بعد أنّها الحركة الأكثر شيوعًا وألفة في السجن، إنّها نوع من التريّض وتحريك الدم الراكد للسجين، يمكن أن تقول إنّها نزهة أو مشوار سجني. وفي أحيان كثيرة يمكن أن يتنزّه سجينان معًا

في هذه الفسحة ويتسايران كما لو أنّهما في حديقة أو على كورنيش. إذن، ضمن هذه الجدران وهذه الشروط يمكن لإنسان أن يعيش سنوات طويلة! تذكر أنّك اجتمعت مرّة، وكنت لا تزال في دراستك الثانويّة، بواحد من أصدقاء أخيك كان قد قضى ثلاث سنوات في السجن، حينها لم تملّ النظر إليه، ولم تشبع من التمعّن في طريقة كلامه وإشاراته، كأنّك ترى كائنًا من عالم آخر. كيف احتمل هذا الرجل كلّ هذا الزمن حبيس الجدران؟ أين هي آثار السجن عليه؟ وكان أكثر ما يدهشك قدرته الكبيرة على الضحك. كنت تحاول أن تتخيّله سجينًا فتفشل. الآن صار التخيّل أسهل.

أحيانًا، وفي الأوقات التي يهدأ فيها قليلاً اضطراب الجماعيّة وحرارة النقاشات العبثيّة (بالمناسبة هناك نقاشات بلا طائل تشغل السجناء لأيّام ولا أظنّ أنّ لمثل هذه «النقاشات» وجود خارج شروط السجن، مثلاً يختلفون على كلمات أغنية حورانيّة، فيرى فريق إنّ الأغنية تقول: «هبّت هبوبًا شمالي بردها شين!» أي شديدة البرودة، في حين يرى فريق آخر أنّ الأغنية تقول «بردها عجيلي»، نسبة إلى جبل عجلون في الأردن، وليس «بردها شين». ويبدأ سجال تزجّ فيه كلّ الأسلحة ويتردّى إلى حدّ اكتفاء كلّ فريق بترديد العبارة التي يدافع عنها، فتسمع: يا سيّدي «بردها شين» لا يا سيّدي «بردها عجيلي»، «شين».. «عجيلي».. شين».. «عجيلي».. ولا ينتهي السجال إلّا بتعصيب أو زعل أو رهان لا وجود لحكم يفصل فيه، ويكون الخلاف نفسه قابلاً للانتعاش في يوم آخر لدى أدنى إشارة إلى الموضوع. مواضيع السجال هذه تكون في المجالات قاطبة من مستوى: في ضربات الجزاء في كرة القدم، هل يرمي حارس المرمى نفسه لجهة قرّرها سلفًا أم يرمي نفسه وفق مراقبته لحركة اللاعب؟ أو هل الأفضل

أن تكون فقسة إنارة التواليت داخله أم خارجه؟ ثم تأتيك الخلافات على تفسير الأمثال الشعبيّة وعلى تسمية الألوان. . .) ويصبح الجميع منغمسين في شؤونهم الصغيرة، كنت أسلّي نفسي بمتعة المراقبة. أستقلّ بنفسي عن المحيط وأتخيّل أنّي أنظر من الخارج على هذه الحياة الضيّقة، هذه الحياة التي رغبت دائمًا أن أتخيّلها وحاولت ولم أفلح يومًا، وها هي الآن تنبسط أمام عينيّ: رجل ينتف شعر وجنتيه بالملقط معتمدًا على اللمس وهو يتّكئ على وسادته مثل شيخ بدوي. رجل يقيس طول فسحة الجماعيّة ذهابًا وإيابًا بخطى سريعة وهو يسبّح بمسبحته بسرعة عصبيّة. رجل آخر ينقر على آلة موسيقيّة مرتجلة من وترين ما إنزل الله بها من سلطان، ويغنّي مع شابّ حليق الرأس (عائد حديثًا من سجن تدمر!؟) أغنية حورانيّة: «حمامة ع النخل نوحي وأنا ابكيلك»، ولا يكفّ بين حين وحين عن مسح رأس أنفه بقفا يده مسحًا خفيفًا بحركة عصابيّة. مجموعة منهمكة في الجلي وتنظيف المطبخ. اثنان يلعبان الشطرنج وتتحلّق حولهما مجموعة. شابّ منهمك بحفّ بذر الزيتون على منطقة خشنة من حائط المهجع. شابّ آخر منهمك بصناعة حقيبة كبيرة من بنطلون جينز قديم. شخص بوضعيّة نصف استلقاء شارد في دنيا أخرى. شخص آخر لا يكفّ عن تخيّل أشياء تحوم حول رأسه ويدأب على التقاطها ودسّها تحت أحد فخذيه بعصبيّة. أشخاص نائمون والغطاء يسترهم من الرأس حتى القدمين. أحاديث هادئة مبعثرة ثنائيّة أو ثلاثيّة. . . عوالم مستقلّة لا تنفتح على بعضها ولا تتوحّد إلّا حين يحضر شرطي لأمر ما أو في مواعيد الطعام أو حين تحدث مشكلة داخليّة في الجماعيّة. صحيح أنّ الناس في الجماعيّة يعيشون بغياب الحواجز الماديّة التي تفصل عادة بين الناس وتجعلهم بمنأى عن رؤية بعضهم بعضًا، لكن هناك حواجز أخرى لا

مرئيّة تفصل وتحجب بين الناس. مع مرور الأيّام في الجماعيّة لا تفاجأ حين تنظر إلى شخص ما داخل الجماعيّة وتخال أنّك لم تره منذ أسابيع.

في الجماعيّة فراش الشخص هو بيته، من يجلس على فراشك كأنّما دخل بيتك ووجب عليك ما يجب على المضيف تجاه ضيفه. يُفسح المكان للضيف كي يجلس وظهره إلى الحائط، من غير اللائق أن يجلس الضيف وظهره إلى فراغ في حين يجلس المضيف وظهره إلى الحائط، إلّا إذا كان المضيف كبيرًا في السنّ أو مريضًا، وفي هذه الحالة يوضع للضيف ما يتوافر من وسائد كي يتّكئ ويرتاح. وأحيانًا يضطرّ المضيف إلى استعارة وسائد أو كاسات أو مصّاصات متّة أو سوى ذلك من عند جاره، وقد يضطرّ لاستعارة «بيت» جاره إذا كان عدد الزائرين أكثر من واحد. حين تقترب من فراش السجين وفي نظراتك علامات زيارة تكون كمن قرع جرس الباب، يستقبلك: يا حي الله! ويفسح لك المكان في الصدر. ربّما قضيت أمام ناظريه ساعة وأنت تذرع فسحة الجماعيّة ذهابًا وإيابًا، ولكن حين تدوس فراشه زائرًا تصبح كأنّك قادم إليه من بعيد ولم يرك منذ زمن، يستقبلك بحفاوة ويسألك عن أحوالك بجدّيّة. حياة كاملة ولكنّها مصغّرة، تكبر أو تصغر مع تحسّن أو سوء شروط السجن، لكنّها تبقى متشابهة كما تتشابه دمى الماتريوشكا الروسيّة.

الجماعيّة في الكراكون مكان إقامة طويلة، ليست مركز تجميع لموقوفين يجري التحقيق معهم ويتمّ ترحيلهم بعد ذلك بحسب نتائج التحقيق ونوايا المحقّقين السيّئة دائمًا، لذلك إذا زاد عدد «نزلاء» الجماعيّة تظهر مشكلة جديدة هي أنّ فرشات بعض النزلاء تمدّ وسط الجماعيّة أو أمام الباب أو لصق المطبخ، ولا بدّ أن يتمّ رفعها في

النهار من أجل سير حياة الجماعيّة. في هذه الحالة يبقى بعض السجناء من دون «بيت» في النهار. وغالبًا ما يستفيد هؤلاء المشرّدون من «البيوت» التي تبقى مفتوحة دائمًا، وهي فرشات بعض السجناء الذين هم من النوع «الدوّار» والذين نادرًا ما تراهم على فرشاتهم إلّا في النوم، تراهم يمشون في فسحة الجماعيّة أو يضيفون عند أحد ما أو يساعدون السخرة أو يحفّون بذر الزيتون... إلخ. وعليه يختلف سكّان بعض «البيوت» بين الليل والنهار.

كلّ سجين يرتّب فراشه وفق ذوقه وإمكاناته كما يرتّب بيته (هذا أمر ضعيف الحضور في سجن تدمر لأنّ الفرشات «اليطآت» تطوى عادة في النهار إلى وقت النوم). وقد يوفّق المرء بجار مريح أو لا يوفّق. وقد يترك «داره» إلى مكان آخر حين لا يوفّق بجار مريح. غالبًا ما تتوازع الألوان السياسيّة مساحة المهجع من دون تداخل أو بحدود دنيا من التداخل. وغالبًا ما يكون الجار المفضّل للسجين شخصًا قريبًا إلى قلبه من لونه السياسي نفسه. ويحدث أن يكون فراش السجين ملاصقًا تمامًا لفراش جاره، ويفصل، في الوقت نفسه، ما بين السجينين بحر من العداوة والقطيعة، لكنّ هذا البحر من الصنف الذي يمكن أن يغور في لحظة، عندها ترى السجينين في ضيافة بعضهما بعضًا ما إن يتّكئ كلّ منهما على فراشه متّجهًا إلى الآخر، حيث تغدو منطقة التقاء فراشيهما سهلاً رحيبًا لأهل أحبّاء يتبادلون فيه السجائر والأحاديث وما يتوافر من شراب وطيّبات.

حين تزول الأسوار والجدران والتضاريس والمسافات التي تفصل بين البشر، يبقى هناك شيء يفصل ما بين الناس يمكن أن نسمّيه غلافًا شخصيًّا. غلاف شفّاف لكنّه يكفي كي تقضي مثلاً سفرة كاملة تدوم ساعات في باص إلى جانب وفي لصق شخص من دون أن تتبادلا

كلمة، في الوقت الذي يمكن لكلمة أن تقوّض هذا الحاجز وتفتح عالمين على بعضهما بعضًا، وربّما تفتح طريقًا لبناء صداقة بين شخصين. في وسائل النقل العامّة وفي قاعات الانتظار يقوم هذا الغلاف بوظيفته، وظيفة العزل، تقع عيناك على الشخص ولا تراه، حضوره عابر ونادرًا ما تترك ملامحه أثرًا في الذاكرة. في السجن الجماعي تقوى وظيفة هذا الغلاف أو الكبسولة، هنا يعيش الفرد على مدار الساعة تحت أعين الجميع، ويا له من أمر محرج ولكن سرعان ما تعتاد عليه، سرعان ما تتكرّس أكثر وظيفة هذا الغلاف في وجه النظرات الغازية كما في وجه الضجيج وفوضى التحرّكات داخل الجماعيّة. ولهذا الغلاف وظيفة تبادليّة، يعترف باستقلاليّة حياتيّة وسلوكيّة للآخرين ويكسبك اعتراف الآخرين باستقلاليّتك. تنام تحت نظر الجميع وتعيش انفعالاتك كلّها تحت نظر الجميع، تعتاد على الحياة تحت «الأبصار». لكن هذه الحياة «المستباحة» تفرض نوعًا مواربًا من الصراع على حدود الاستقلاليّة التي يتمتّع بها كلّ فرد. صراع سلاحه الأهمّ هو السخرية، أو ما يمكن تسميته «التنقير الهزلي». إذا كان ثمّة من يمارس استقلاليّته الحياتيّة بشكل لا يروق لآخر أو لآخرين، كأن يقوم شخص بشرب الشاي بصوت عال، أو كأن يقوم أحد ما بنكش أسنانه بصورة مقزّزة، أو يستأثر بفسحة الجماعيّة فيمشي من دون أن يفسح المجال لغيره... إلخ، فإنّ مثل هذه الصغائر تحتلّ مرتبة محيّرة، هي أدنى من أن يتمّ تناولها بحديث جدّي وأعلى من أن يتمّ تجاهلها، لذلك يتمّ تناولها بالسلاح الأمثل وهو «التنقير». بواسطة التنقير هذا يتمّ إيصال رسالة للهدف المقصود بطريقة غير جارحة، وغالبًا ما يقوم بالتنقير شخص تربطه علاقة جيّدة أو على الأقلّ عاديّة بالشخص المقصود، ذلك أدنى إلى أن لا يُستثار.

أسلوب التنقير مهمّ كما أنّ الشخص الذي يصدر عنه التنقير مهمّ أيضًا، وغالبًا ما تحلّ هذه الوسيلة معظم هذه الإشكالات التي هي صغيرة بالفعل ولكنّها منغّصة في الحياة المشتركة. التنقير الهزلي طريقة غير مباشرة في رسم حدود التعايش بين الأفراد، كما أنّه وسيلة للدفاع عن الحقّ العام، إذا صحّ القول، حين يوجّه إلى شخص يقصّر بواجباته تجاه الجماعيّة مثل سوء قيامه بمهامّ السخرة أو سوء اهتمامه بنظافته الشخصيّة وما شابه ذلك. غير أنّ هذا السلاح غالبًا ما ينطوي على أشكال عديدة من القمع الذي يمارسه أشخاص يتمتّعون بمقدرة تنقير عالية ضدّ أشخاص لا يتمتّعون بقدرة مساوية على الردّ. ربّما يتقبّل الشخص المستضعف القمع ويكبس الجرح ملحًا، أو يغيّر طبيعة المعركة مستخدمًا سلاحًا يجيده أكثر، كأن ينقل الموضوع من مستوى التنقير الهزلي إلى مستوى النقاش الجدّي. في مثل هذه الحالة يمكن للطرف «المعتدي» أن يتراجع تحسّبًا لما يمكن أن يسفر عنه النقاش الجدّي لموضوع «تافه» من شجار أو قطيعة، أو يمكن له أن يواصل «عدوانه» متحدّيًا الإمكانات المفتوحة. وفي مثل هذه الحالات ينفتح الباب أمام تدخّل «الرأي العامّ» أو الشخصيّات ذات الوزن في الجماعيّة لقطع الطريق على التطوّرات غير المرغوبة للموضوع. ولكن رغم كلّ شيء فإنّ مجالات الحرّيّة الفرديّة غير متساوية ولا يمكن أن تكون متساوية، في تجمّع بشري يعيش هذه الشروط، إذ تختلف طاقات الأفراد وتختلف سعة مجالات حرّيّاتهم تبعًا لذلك، وطاقة الفرد في مثل هذه الشروط يمكن أن تستمدّ من منابع مختلفة، من ثقافته أو من مرتبته الحزبيّة أو من عمره أو من طبيعة شخصيّته أو من وضعه المادّي أو من استعداده الدائم للدخول في شجار أو من سلاطة لسانه وسفاهته. . . إلخ.

والمفارقة في السجن الجماعي أنّ القطيعة بين شخصين، ولا سيّما حين يكون سبب القطيعة خلافًا على حدود الحرّيّة الفرديّة، لا تعني انقطاع التأثير المتبادل بينهما، بل تعني، على خلاف ما يظنّ المرء، زيادة قوّة هذا التأثير. في مثل هذه الحالات، غالبًا ما يتّخذ قرار المقاطعة من قبل الطرف الضعيف الذي ضاق ذرعًا بتنقيرات وتعليقات طرف «معتدي» يمتلك إمكانيّات لا يمتلك هو ردًّا لها. المقاطعة توقّف التدخّلات المباشرة للمعتدي. ولكن بعد القطيعة تصبح تعليقات الطرف «المعتدي» السابقة وتعليقاته الحاليّة غير المباشرة أكثر حضورًا في ذهن الشخص المستهدف، وأكثر تأثيرًا في التحكّم بسلوكه. القطيعة بين شخصين داخل الجماعيّة هي حلّ لمشكلة ولكنّها بذرة لمشكلة في الوقت نفسه، لا سيّما إذا كان أحد طرفيها عدوانيًّا. غير أنّ علاقات الأفراد فيما بينهم لا تكون «ليبراليّة» إلى هذا الحدّ، فهي غالبًا ما تمرّ عبر موشورات عديدة ربّما كان أهمّها الكتل الحزبيّة. الفرد هنا ليس وحيدًا في الميدان، فهو يرتبط بعلاقات متعدّدة مع جماعته الحزبيّة - «أبناء تهمته» بحسب تعابير السجناء القضائيين - ومع أبناء منطقته أو طائفته، إن وجدوا، ومع أصدقاء له في الجماعيّة، ومع... إلخ، وكلّ هذه العلاقات تدخل وتشكّل حماية ما لنقاط الضعف عند الفرد. وحين يفتقد الفرد لهذه الحماية، وهو أمر نادر، تحميه علاقات التعاطف والشفقة والرأي العام، أو يحميه جناح شخص قويّ له نفوذ في الجماعيّة. أمّا إذا فشلت كلّ هذه الحمايات في ردع تمادي شخص أو أشخاص ضدّه، فقد ينفتح الباب أمام تدخّل مفرزة الشرطة. على أنّ كلّ ذلك لا يمنع وجود أشخاص من طبيعة خاصّة، في سلوكهم طرافة، يكونون، برضا عام، محطّ تعليقات ساخرة وتنكيت وضحك، وتكون ردودهم ونرفزاتهم طريفة كسلوكهم، لكنّهم لا يكونون عدوانيين

ويتقبّلون هذا الدور، لا بل تراهم سعداء به، ويضفي وجودهم على جوّ الجماعيّة لمسة من الحيويّة والبهجة. من هؤلاء مثلاً عبد الله الأردني، راع أردني اعتقل في طريق عودته من العراق إلى الأردن حيث دخل الأراضي السوريّة، تائهًا على الغالب، واستبقي بتهمة تجسّس لصالح الأردن ولا أحد يدري ما هي ملابسات قضيّته. رجل لا يقرأ ولا يكتب ويوحي شكله بالإعاقة العقليّة. شكله العامّ يشبه نقطة الماء، رأس صغير وصدر ضيّق وكرش كبير انسيابي يزداد انتفاخًا كلّما ازداد نزولاً، ويسنده حوض عريض يستند بدوره على رِجلين قصيرتين، وله عينان متقاربتان وأنف أفطس وفم كبير بأسنان ناتئة إلى الخارج. وهو مشهور بقصّة النمرين، ففي طريق عودته من بغداد إلى الأردن اعترض طريقه نمر جائع رهيب راح يعدو صوبه بسرعة، فاستدار عبد الله هاربًا ليصادف نمرًا آخر أكثر سرعة يتّجه إليه من الجهة المقابلة، فما كان منه إلّا أن تسلّق شجرة نخيل أسعفه الله بوجودها على مقربة منه، ومن على تلك النخلة شهد عبد الله العجب العجاب حيث واصل النمران عدوهما السريع باتّجاه بعضهما بعضًا، واصطدما، والتهم كلّ منهما الآخر فلم يبق منهما سوى الذيلين. وطالما أنّ الذيل لا يأكل، فقد نزل عبد الله من على النخلة وتابع طريقه بعد أن أنقذه الله من الموت افتراسًا. كان عبد الله مغرمًا لسبب ما غامض كغموض قضيّته، بكلمة «دبلوماسي». وكان أقصى مديح يمكن أن يقدّمه لشخص هو أن يصفه بأنّه «دوغلوماسي»، وعبثًا كان نور يحاول تصحيح اللفظة، فكلّ المقاربات المتنوّعة والطرق المختلفة، التي كان يتوسّلها نور من دون ملل، كانت تفشل أمام ثقة عبد الله وإصراره. وكان نور يختم جولاته الفاشلة معه بالقول: فعلاً يا عبد الله إنّك «دوغ» ـ «لوماسي»! فيقول عبد الله منتصرًا: «شفت!.. أنت تقول!».. دائمًا يكون في الجماعيّة

أشخاص بارعون في العزف على أوتار هذه النماذج، وخلق لحظات مسلّية في جوّ الجماعيّة الثقيل.

ومن هؤلاء أيضًا محمود المعتقل بتهمة «اليمين المشبوه» (التسمية الأمنيّة لحزب البعث / جناح العراق)، وهو من الأشخاص الذين يوحون بقدر كبير من الضعف. يجيد توليد التعاطف والشفقة لدى الآخرين ولا سيّما من أمثالي، يخدمه بذلك وجه طولاني بلون وملامح تنمّ عن مرض مزمن، وعينان غاربتان إلى النصف تحت جفنيه العلويين، إضافة إلى نوع من اللجلجة الذليلة في كلامه، وطبع متساهل للغاية في موضوع الكرامة الشخصيّة. كان محمود محطّ تعليقات وسخريات يبقى صامدًا لها من دون أن يهتزّ أو يعترض. لا بل يوحي لك أنّه سعيد طالما أنّ الحديث يدور حوله بصرف النظر عن مضمون الحديث. وحين يتاح له أن يتكلّم يحدّثك عن زواجه المبكر جدًّا وكيف «جرّه» أبوه من الشارع كي يدخل على عروسه، وكيف هرب في اليوم نفسه إلى السينما كي يرى الفيلم الهندي «ماسح الأحذية» تاركًا العروس وحيدة. يحدّثك وهو يقطع حديثه بالقول المتلجلج: يا سي.. يا سي.. قاصدًا أن يقول يا سيدي. وكان محمود يشكو من مشاكل هضميّة، وأحيانًا كان يسقط على الأرض وهو يرتجف وتصطكّ أسنانه لشدّة الألم، فأتبنّى مشكلته وأنهض لأخبط باب الجماعيّة حتى يأتي أحد أفراد الشرطة. وكان يغيظني برود الشرطة ومعظم أهل المهجع أيضًا في تعاملهم مع حالة بهذه الحرارة. الشرطي يفتح باب الجماعيّة ويخرج محمود ساعة أو نحو ذلك، ثم يعود محمود بحالة لا بأس بها. ملامح هذا الرجل مركّبة بحيث لا تستطيع أن تعطي انطباعًا بحالة أفضل من اللابأس. ذلك الشحوب الذي يصل إلى حدّ الزرقة والجحوظ الرخو في العينين لا يمكن أن يعطي الانطباع بحالة جيّدة.

كنت أشعر أنّ هذا الإنسان معذّب وأتعاطف معه، ودائمًا أقف، على نحو من دونكيشوتي، في مقدّمة من يخبط الباب طلبًا لإسعافه ومن يتبنّى مشكلته مطالبًا بحقّه في العلاج. وسأتعرّض من أجله لخطر الضرب والحبس في المنفردة، لأعرف فيما بعد أنّه كان يتصنّع ويبالغ ويضخّم مشكلته كي ينال ساعة من التنفّس خارج الجماعيّة أوّلاً، ثم كي ينال «عطفًا» من الفرع، ناله فعلاً فيما بعد.

من أجل تسهيل الحياة الجماعيّة هنا يتمّ وضع نواظم برضا عام. نوع من القواسم المشتركة العظمى بين الأفراد. مواعيد للنوم وللقيلولة وللطعام، مهام السخرة، نظام الاستحمام، نظام غسيل الملابس، نظام حرق الخشب أو بذر الزيتون، مواعيد إشعال البابور، مواعيد حظر التدخين.. إلخ. ولكن تبقى المساحة الكبرى من الحياة اليوميّة في الجماعيّة خاضعة لأدبيّات غير منطوقة ولاعتبارات ذوقيّة وأخلاقيّة. مثلاً، تحجب الأضواء بالسطول (الغلوبات) في الساعة الحادية عشرة ليلاً، الموعد «الرسمي» للنوم، ولكن ماذا عمّن لا يريدون النوم؟ ما هي حدود حرّيّتهم بعد هذا الموعد؟ ألا يزعجون غيرهم إذا تهامسوا؟ أو إذا أصدروا طرطقة صحون وهم يأكلون في الليل؟ ثم ماذا عن الذين يستيقظون باكرًا؟ ما يشبه هذه الحالات تخضع لتقديرات الأفراد ولنوع من توازن القوّة أيضًا. ما يُقبل من شخص لا يُقبل من آخر تبعًا لتوازن القوى الذي يكون مستقرًّا ويتجدّد ضمنيًّا بصورة دائمة، ترسيخًا أو تغييرًا، مع التغيّرات التي تجري في تركيبة الجماعيّة. توازن القوى يشمل الجانب الفردي، الخصائص الشخصيّة للفرد وعلاقاته، والجانب الحزبي، نفوذ الجماعة التي ينتمي إليها الفرد شرط أن تكون هذه الجماعة تحتضن الفرد ولا تنبذه. على أنّ الحياة في الجماعيّة هي مصنع للحساسيّات. تاريخ من علاقة متعثّرة بين شخصين تجعل كلّ

واحد منهما يرى في كلّ ما يقدم عليه الآخر استفزازًا له، لا يبرأ منه حتى شخيره. مثل هذه الحالة المتأزّمة مولّد مستمرّ لشجارات تضع الجماعيّة في استنفار دائم. واللافت أنّ كثير من هذه الحالات تتطوّر عن صداقات حميمة، فهناك نوع من الأشخاص علاقاتهم مع الآخرين تشبه حركة النواس، يقتربون إلى حدّ كبير ثم تنضب قوّة النواس ويبدأ بالعودة فينقلبون إلى الضدّ. ولا شكّ أنّ في جانب كبير من هذه الشجارات والمناكدات اليوميّة، ومن دون قصد من أبطالها، محاربة فعّالة لفيض الزمن ومعونة على تحمّله. مثلها في ذلك مثل النميمة، هذه النبتة المغرية التي تزدهر أيّما ازدهار في بيئة السجون. النميمة توقظ روح السجين وتشحن خلاياه المتبلّدة. كلّ المواضيع يمكن أن تصبح مملّة بعد حدّ معيّن إلّا النميمة، فهي كالنار كلّما التهمت أكثر باتت أكثر قوّة.

النمّ صفة بشريّة غالبة، حتى الحديث السياسي يحلو أكثر حين يكون من باب النميمة: تستحضر شخصًا غائبًا (عن الجلسة وليس عن الجماعيّة) ممّن تختلف معهم في السياسة وتبدأ بعرض أفكاره السياسيّة بالشكل الذي يجعلها سهلة التهشيم، ثم يجري تهشيمها، ثم يجري الانتقال إلى استبطان هذه الأفكار وردّها إلى اعتبارات «لاسياسيّة»، إلى اعتبارات طائفيّة غالبًا، لكي تصل بالتالي إلى تناول صاحبها شخصيًا. النميمة السياسيّة تنتهي غالبًا بنميمة شخصيّة. بيد أنّ النميمة الشخصيّة هي الأمتع والأكثر إثارة ومقدرة على تحريك الجوّ ومقاومة كسل الزمن وتراخيه في السجن. وفي السجن تُستخدم كنايات كثيرة عن النميمة، مثل «الدسّ» أو «سلخ الجلد» أو «الوضع في المقلاة».. إلخ. تسمع مثلاً شخصًا يتوجّه إلى اثنين أو ثلاثة منغمسين في حديث طويل من دون ملل، فيقول: «على مين عم تدسّو؟» أو «جلد مين عم

تسلخو؟» أو «مين حاطّين بالمقلاية؟». الضغينة والكيد والغيرة والحسد والغيظ والخيبة والعجز.. كلّها مشاعر حادّة توقد مرجل النميمة والنيل الغيبي من الآخر. النميمة هي القناة الأسهل لتحرير هذه المشاعر، من ينمّ يفرّج عن نفسه ويرتاح، ومن يستمع يستمتع، يستمتع أوّلاً لأنّ من ينم يمنحه ثقة، وثانيًا لأنّ السهام تستهدف غيره فيشعر بالأمان، ولكنّ الأهمّ أنّه يستمتع بتكسير غيره أمامه. غير أنّ متعة المستمع تخفت وتتلاشى حين يكون موضوع النمّ شخصًا لا يشكّل بالنسبة له أيّة أهمّيّة، لا ينافسه في شيء أو لا يعنيه معرفة أشياء شخصيّة عنه.. إلخ، عندها يصبح الإصغاء عبئًا مهما كان النمّام ماهرًا في نمّه. ويصطلح السجناء على هذه الحالة بالقول إنّ فلانًا «النمّام» يجلد فلانًا «المستمع». وقد يتقبّل السجين أن يُجلد كي يتاح له تاليًا جلد جالده بموضع نمّ جديد يهمّه، وإلّا فلا مصلحة له في الوقوع ضحيّة الجلد!

دائمًا يخترع السجين ما يعين قلبه على تحمّل السجن، وكلّ سجن يتيح بعض السبل إلى ذلك، لا يشذّ عن ذلك حتى شيخ السجون السوريّة، أقصد سجن تدمر. الكراكون لا يوفّر الكتب ولا الجرائد ولا الراديو ولا التلفزيون... الكراكون كما قلت هو فرع تحقيق يقوم بدور السجن، يبقى السجين فيه كما لو أنّه قيد التحقيق من دون تحقيق، ومع ذلك كان يمكننا أن نبتكر ما يعين: مائدة الاستيقاظ الباكر، أو حفلات الغناء الجماعي المسائيّة، التي كانت تتحوّل إلى جلسات استماع ممتعة حين يصادف وجود سجين ذي صوت جيّد ويتقن الغناء، أو جلسات القصّ التي يحكي فيها سجين ما قصّة رواية قرأها أو فيلم شاهده، أو جلسات النقاش السياسي التي كانت عبثيّة غالبًا وفولكلوريّة في جزء كبير منها، أو مباريات حفظ الشعر والأمثال والحزازير.

كان أبو رأفت يستيقظ مع أذان الفجر. وكي لا يزعج النائمين

كان يدخل البابور إلى التواليت ويشعله بهدوء، ويضع عليه إبريق الماء، ثم بهدوء يعدّ كاسات المتّة، ويعود ليوقظ أبا ثائر. يمهّدان مكان فراشيهما، فراشاهما متلاصقان، لجلسة الصباح الباكر. دقائق قليلة وتصبح مائدة المبكرين جاهزة. المتّة والقهوة والحليب وما يتوافر من تين يابس أو جوز أو عسل... كان ذلك في أيّام الوفرة، قبل أن ندخل في طور الشحّ والجوع حوالى النصف الثاني من ١٩٨٤. وبعد أن تكتمل المائدة، يبدأ أبو رأفت وأبو ثائر بتنبيه أشخاص متّفق معهم سلفًا على الاستيقاظ الباكر. حول هذه المائدة الغنيّة كانت تتحلّق نفوس غنيّة بالودّ والمحبّة. لم أكن من روّاد هذه الموائد ولم يكن لي علم بها أصلاً، لأنّي كنت غالبًا ممّن يتأخّرون في الاستيقاظ! لكنّي استيقظت باكرًا ذات يوم لأجد لمّة صغيرة (وائل وناصر وخير وعبد الحكيم إلى جانب أبي رأفت وأبي ثائر) تبتكر متعتها الصباحيّة من دون جلبة، حريصة على أن لا تزعج النائمين. وما إن لاحظ أبو ثائر استيقاظي حتى أومأ لي داعيًا، وعلى الفور صار لي مكانٌ بينهم، وصرت كأنّي في مَضافة: أحدهم يخيرني ماذا أشرب، وأحدهم يمدّ لي يده بقطعة خبز مدهونة بالعسل، وآخر يقترح عليّ شرب الحليب أوّلاً.. روّاد الجلسات الصباحيّة يخبّئون حصصهم من «خيرات» الزيارات كي يغنوا بها موائد الصباح. صرت من روّاد هذه الجلسات. كان جميلاً هدوء الصباح الباكر وأصوات استيقاظ المدينة النائمة، ولا سيّما ذلك الصوت الصباحي اليومي لعربة حصان كانت تمرّ باكرًا عقب أذان الفجر. ذلك العربجي يستجيب توًّا إلى دعوة المؤذّن: «الصلاة خير من النوم»، فيصلّي الفجر ويغتنم الأجر ثم ينطلق إلى عمله. كان صوت وقع حوافر الحصان وضجيج عجلات تلك العربة يدخلان الألفة إلى النفس. وكذا كان صوت طَرْق النحاس في سوق النحّاسين

القريب. ربّما كان الإحساس بأنّك في وسط المدينة ووسط الناس هو الفارق الحاسم بين سجن الشيخ حسن وسجن تدمر الصحراوي النائي. وقد كانت طِيبة النفوس واطمئنانها إلى بعضها والشعور بالضيافة والحميميّة كلّها أشياء تميّز هذه الموائد. وأذكر أنّ هذه الجلسات كان يغمرها الود وصفاء النفوس. كانت الأحاديث فيها قليلة، ربّما لأنّ النفس لا تميل إلى الكلام الكثير في أوّل الاستيقاظ، وربّما لأنّ المبكرين لا يودّون إزعاج النائمين بالكلام! ولكن ما لاحظته أنّه حين كانت تدور بعض الأحاديث الهامسة في هذه الجلسات، فإنّها كانت خالية من النميمة.

حديث البوابير

البوابير في سجن الشيخ حسن كانت عصب الحياة. تزعجنا بصوتها ورائحتها وتسمّم دمنا بالغازات الصادرة عنها، ولكنّها كانت عصب حياتنا. وكان الشرطة يدركون ذلك، ولذلك كانت أوّل وسيلة ضغط علينا وأوّل عقوبة هي سحب البوابير. وجاءت محاولة أحد أفراد الجماعيّة الانتحار بواسطة كاز البابور لتشكّل حجّة جاهزة دائمًا في يد الشرطة. سحب البوابير يعني السقوط في هاوية من الإحباط والخمول والنزق و.. الكآبة. لا شاي ولا قهوة ولا متّة ولا طبخ ولا شيء. كأنّنا أدمنّا غاز الفحم ورائحة الكاز وضجيج البوابير، فنصبح بغيابها قلقين لا رغبة بنا في الكلام ولا الطعام، وترى الغالبيّة نائمين مكفهرّين. شيء يعادل انقطاع الكهرباء في المدن. وكان أثر غياب البوابير يظهر جليًّا على المحامي عبد الله (أبو عمر) الذي كان يقضي وقته مستلقيًا، وما إن يسمع صوت شرطيّ على باب الجماعيّة حتى ينهض ويقاطعه بحدّة قائلاً:

ـ يا زلمي دخلولنا هالبوابير عاد! ودّنا نشرب شاي يا زلمي، إيه!

وحين لا يروق له جواب الشرطيّ كان يصعّد من وتيرة كلامه:

ـ يعني هسّع حرّرتو الجولان وما عاد هاممكو إلّا تسحبوا البوابير!؟ ويعود للاستلقاء على فراشه متمتمًا: «يلعن أبو شرفكو عرصات!».

على أنّ المفرزة لم تكن قادرة على الاستمرار طويلاً في سحب البوابير، لأنّ هذا يعني أنّه لا مجال أمامنا كي نستحمّ ونغسل ملابسنا، ولا مجال أمامنا كي نسلق أو نقلي البيض الذي كان يأتينا نيئًا. والحقيقة أنّه لم يكن يتجاوز إجراء سحب البوابير الأسبوع، ولكن كلّ يوم بلا بوابير كان يعادل دهرًا. والواقع أنّ إعادة البوابير كانت مصلحة مشتركة لنا وللشرطة. أوّلاً يتوقّف «نقّنا» المستمرّ لإعادة البوابير، ثانيًا يستريح الشرطة من عبء سلق البيض وإعطائه لنا، ثالثًا إعادة البوابير تعني استئناف نشاط صنع المسابح ولوحات الحرق وفي هذا مكاسب عينيّة للشرطة. أحيانًا كانت المفرزة تلجأ إلى حلول وسط، سحب جزئي للبوابير، يدخلون البوابير صباحًا كي نسلق البيض ونعدّ الشاي، ثم يسحبونها باقي اليوم.

وذات يوم كئيب مسحوب البوابير، توجّه أحد شباب الجماعيّة إلى أبي عمر قائلاً:

ـ حابب تشرب شاي أبو عمر؟

ـ يا زلمي حلّ عن سماي! أجاب أبو عمر بنزق.

ـ بسألك جدّ، حابب؟

ـ يا خوي حابب، بس كيف؟

ـ طوّل بالك!

أحضر الشابّ خيطًا طويلاً وربط في طرفه شنكلاً، ووقف على طاقة باب الجماعيّة وراح يرمي الشنكل مرّات عديدة باتّجاه البابور الموضوع في الكوريدور أمام باب الجماعيّة، حتى علق الشنكل في يد البابور وأخذ يجرّه بهدوء، ثم رفعه حتى وصل أمام طاقة الجماعيّة. البابور لا يدخل من طاقة الجماعيّة، أمسك الشابّ البابور وحقنه وأشعله ثم أنزله بالشنكل حتى صار على أرض الكوريدور أمام باب المهجع، وملأ إبريق الشاي بالماء وأنزله بالشنكل أيضًا ووضعه على البابور. بعد دقائق كان لدينا في الجماعيّة شايٌ ساخنٌ بدا لنا ألذّ من كلّ شاي شربناه من قبل. كانت سعادة الجماعيّة لا توصف بهذا الإبداع الذي كان بمثابة الفتح. وقف أبو عمر وأمسك الشابّ من رأسه وقبّله في جبينه، قائلاً:

ـ والله شكرًا للّي سجنوك معانا!

أمّا عبد المجيد فكان يأخذ على الجميع، ولا سيّما على من يبدو عليهم التأثّر جرّاء سحب البوابير، ضعفهم، فمثل هذا الضعف لا يليق بمعارضين يريدون تغيير نظام. من دون أن يعني هذا بالطبع تخلّيه عن حصّته من الشاي «المهرّب». وعبد المجيد هذا رجل قصير أصلع ذو كرش معتدل، ويعاني من مشكلة أورتوبيديّة، فتراه يقف ويمشي مع انحناء خفيف دائم في مفصل الركبة. كما أنّه كثير القرف والنحنحة، ودائمًا ينفخ الهواء من فمه كأنّه يبعد عن منخريه غبارًا عالقًا في الهواء، مع حركة متكرّرة بالعنق تشبه حركة المتضايق من وجود ربطة على عنقه. كان عبد المجيد في السنة الثانية من دراسته الجامعيّة، أدب عربي، حين اعتقل. ولكنّه كان بعمر أكبر بسنوات كثيرة من عمره الدراسي. وقد اعتقل، كما يكرّر القول، ليس لانتمائه إلى تنظيم حزب البعث الديموقراطي، بل لأنّ شهامته دفعته إلى أن يحاول شدّ أزر

الرجال الذين جاءت دوريّات الأمن تعتقلهم، والذين هم زملاؤه في المهجع الآن. وكثيرًا ما كان يكرّر سرد حادثة اعتقاله.

لو قُيّض للموتى أن يتحدّثوا إلى بعضهم بعضًا عن أسباب وكيفيّات وفيّاتهم، لتحدّثوا مثل السجناء عن أسباب وكيفيّات اعتقالهم. التشابه يفرض نفسه بقوّة تصعب مقاومتها. في هذا التقابل يكون ملك الموت مقابل عناصر أجهزة الأمن، وتكون أسباب الاعتقال مقابل الأمراض أو الحوادث المسبّبة للموت، وتكون حملات الاعتقالات الواسعة مقابل الجائحات المرضيّة أو الأوبئة القاتلة. تجد مجموعة شباب جرى اعتقالهم من بيت كانوا يجتمعون فيه، وتمكّن شابّ منهم أن ينجو بنفسه بأن قفز عن البرندا مثلاً، يمكنك أن تشبّه ذلك بحادث سيّارة حصد أرواح جميع الركّاب ونجا واحد منهم. وتجد سجينًا يقول إنّه مرّ عرضًا على صديق له فكانت دوريّة الأمن تقيم في غرفة هذا الصديق وتقبض على كلّ من يطرق بابها، يمكنك أن تقول إنّ الاعتقال كان مخبأ لهذا السجين في غرفة صديقه، كما يمكن أن يختبئ الموت لشخص تحت شجرة أراد أن يستظلّ بظلّها، فكان هناك على موعد مع لدغة أفعى مثلاً، أو كما يمكن أن يختبئ الموت لشخص آخر في رصاصة طائشة، أو في حادث سيّارة.. إلخ. هناك فاصل قطعي بين الموت والحياة، وفاصل قطعي بين الحرّيّة والاعتقال، لذلك لا يمكن أن يمحى من الذاكرة الحدث الذي أدّى إلى تجاوز هذا الفاصل، واللافت أنّ السجين يجد متعة واضحة ومتجدّدة في السرد المفصّل لحادثة اعتقاله.

يمكن مثلاً أن نشبّه المرض العضال بالملاحقة الأمنيّة. الأشخاص الذين تصيبهم أمراض لا شفاء منها، أمراض قاتلة، هم موتى مؤجّلون إلى حين يقصر أو يطول (صحيح أنّ كلّ الأحياء هم

موتى مؤجّلون، ولكنّهم يعيشون ساهين عن الموت طالما أنّهم أصحّاء، أمّا مرضى الأمراض المستعصية على العلاج، فيعلمون أنّهم مدرجون على جدول أعمال الموت ويعيشون خائفين من الموت الذي يقيم ويبقى حاضرًا في أذهانهم)، يشبههم في ذلك الأشخاص الذين يحاول رجال الأمن اعتقالهم فيفرّون ويصبحون مطلوبين للاعتقال، ويعيشون هاجس الاعتقال بشكل دائم. أولئك مطلوبون لموت ملحّ، وهؤلاء مطلوبون لاعتقال ملحّ أيضًا!

أحيانًا يأتي الموت سلسًا هيّنًا، وأحيانًا عنيفًا مؤلمًا. سريعًا أحيانًا وبطيئًا أحيانًا. وكذلك الاعتقال يمكن أن يكون صاخبًا وفي الشارع وأحيانًا هادئًا «ودودًا» كما حدث مثلاً مع عبد الكريم. إنّ أهدأ حادثة اعتقال يمكن أن يتخيّلها المرء هي حادثة اعتقال عبد الكريم. كان عبد الكريم ملاحقًا منذ حوالى سنتين، فقد أفلت من حملة الاعتقالات التي طالت عناصر حزبه (الحزب الشيوعي السوري ـ المكتب السياسي) في أوائل عام ١٩٨٠، وقد اعتاد خلال هاتين السنتين أن يزور بيته في القرية ليلاً بين فترة وأخرى، يسهر مع طفلتيه وزوجته، ثم يغادر البيت قبل الفجر. ذات ليلة راقت له برودة الجوّ في الفسحة أمام البيت بعد أن همّ بالابتعاد عن بيته تحت جنح الظلام، استمهل نفسه وجلس يستمتع ببرودة الليل وهدوئه قبل أن يبتعد عن قريته، غير أنّ النوم كان أقرب إلى عينيه ممّا كان يتصوّر، فاستيقظ بعد حين على مجموعة من رجال الأمن يحملونه ويضعونه في السيّارة المخصّصة لاعتقال أمثاله. رجال الأمن كانوا لطيفين معه كي لا يثيروا بلبلة في القرية، وعبد الكريم الذي ربّما كان يحلم بأنّه يطير على بساط ريح أو بأنّه نجم سياسي يحمله معجبون به، أو لا ندري كيف يمكن أن يكون حلمه المبتسر قد دمج حادثة حمل عناصر الأمن له في تلك

الليلة، أيقن حين أفاق أنّ «الموت» قد أدركه، فطلب من عناصر الأمن أن ينزلوه على الأرض واعدًا أنّه لن يحاول الهرب، ولا مجال للهرب أصلاً، ولن يحدث ضجّة، وطلب أيضًا أن يسمحوا له بالدخول، «شرعًا» هذه المرّة، إلى البيت كي يلقي «النظرة الأخيرة» على طفلتيه وزوجته. وكانت هذه الزيارات الليليّة الخاطفة والبعيدة عن عيون المخبرين قد أثمرت طفلاً عوّض لعبد الكريم عن كلّ الخيبات النضاليّة، كما كان يكرّر على أسماعنا في السجن، قائلاً إنّ خلدون (ابنه) هو إنجازه الأهمّ طوال فترة الملاحقة!

هذا التجاور في المعاني بين الاعتقال والموت يُكرَّس في حالة سجن الشيخ حسن بتجاور ماديّ محسوس وعريق بين السجن والمقبرة. فالكراكون يوجد إلى جوار مقبرة الباب الصغير التاريخيّة بدمشق. الحائط على الحائط. تلك المقبرة التي انتسبت إلى أحد أبواب دمشق السبعة الذي يُسمّى الباب الصغير، والذي يرمز إلى كوكب المشتري، كما كلّ باب من أبواب دمشق السبعة يرمز إلى واحد من الكواكب السبعة. كان إلى جوارنا إذن يرقد أسلاف لنا كبار: بلال الحبشي ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وأبو النصر الفارابي وابن القيّم الجوزيّة.. أسلاف ليسوا ساهين عنّا بأكثر ممّا نحن ساهون عنهم. همهمة المصلّين والداعين وقارئي القرآن المأجورين كانت تصل إلى أسماعنا في أيّام الجمع والأعياد. وكذا أصوات الزائرين الذين يأتون لتفقّد المكان الأخير الذي شهد وجود فقيدهم فوق سطح الأرض، ويخصّون هذا المكان بباقة من الريحان الأخضر الذي يختصر ويوحّد مشاعر الناس تجاه موتاهم.

إجمالاً، يقوم السجناء السياسيّون «بوظيفتهم» لمجرّد بقائهم في السجن بصرف النظر عن قدراتهم ونوعيّاتهم. ليس الغرض من

الاحتفاظ بالناس في السجون حرمانهم من حرّيّتهم، خوفًا ممّا يمكن أن تشكّله حرّيّة هؤلاء المحتجزين بالتحديد من خطر، كما لو أنّ حرّيّة هؤلاء أصعب احتمالاً على الدولة من حرّيّة غيرهم. إنّ «وظيفة» السجين هي أنّ الدولة توجّه عبره رسالة تظهر الجدّ والجهد الذي تبذله لحفظ الأمن، وهي لا شكّ توجّه بذلك رسالة ردع لمن هم خارج السجن، ولكنّ الأهمّ من هذا وذاك، أنّ سجن السجناء يشكّل جسرًا يمكن أن يعبر عليه من يحمل في نفسه دافعًا ما للمعارضة إلى ضفّة المسالمة والسلامة والولاء، إذ لا جدوى من هذا العمل والسجناء «القابعون» في السجن دليل بيّن على ذلك! إنّ السجون الخالية من السجناء لا تقلّ غرابة عن المقابر الخالية من الموتى. الميت أيضًا يقوم بوظيفته على أكمل وجه تجاه الأحياء حين يبقى الدهر صامتًا ومختفيًا عن النظر. حتى حين يُزار فإنّ زائريه لا يأتون لزيارته كي يروه، بل كي يروا بدلاً عنه كومة من التراب أو ركامًا من الحجارة أو ربّما صندوقًا مزخرفًا من الرخام يحمل اسمه. الرخام على جماله وقيمته أضعف من أن يحمل ملامح تميّز الهويّات مثل وجوه البشر، فيلجأ إلى استبدال الهويّات العضويّة بالأسماء. يقوم الميت بوظيفته على أكمل وجه حين يتحوّل إلى فكرة أو ذكرى مكتملة ومنتهية. ذكرى تنتمي إلى ذات المتذكّر فقط، ذكرى تسكن ركن الذكريات المؤلمة في الذهن، قد تثير الحزن والافتقاد وتحرّض على البكاء إذا ألحّت وسيطرت. الموتى يقومون بوظيفتهم كصلة وصل بين عالمين. كانوا معنا ومثلنا ثم انتقلوا بشكل تامّ وقطعيّ إلى عالم آخر لا نعرف شيئًا عنه، هم سابقون ونحن لاحقون. وظيفتهم أن يكونوا سابقين وأن يشكّلوا ربّما محطّة ما لنا لاحقًا في عالم نجهله بالكامل، ولكنّنا نحاول استيعابه وفق قواعد عالمنا، عالم الأحياء، فنعتقد أنّ القرابات

لها حضورها «هناك» مثلما هي هنا، وكثيرًا ما نوصي الميت الحديث بالسلام على ميت قديم قريب له أو لنا.

إنّ على الميت، ما إن يقرّر الاستغناء النهائي عن الهواء، أن يختفي نهائيًا، فقد أُحيل في الذهن إلى منطقة لا تقبل له الظهور مجدّدًا إلّا كمصدر للرعب. أيّ شكل لظهور الميت يشكّل خرقًا لقوانين راسخة، شيء يثير ريبة العقل في ثبات الأرض التي يقف عليها. وكما أنّ ظهور السجين الفارّ بين «الأحرار» يشكّل خرقًا لقوانين محميّة، ويثير نوعًا من الارتباك والخشية تمنع إقامة علاقات طبيعيّة معه، كذلك يمكن القول افتراضًا إنّ الميت الذي يظهر فجأة بين الأحياء يبدو، في العقول التي تدركه ميتًا، كما لو أنّه ميت فارّ. وعلى افتراض ذلك، فالأرجح أنّ أقرب الناس إلى هذا الميت الحيّ لن يتمكّنوا من إقامة علاقات طبيعيّة معه، ولن يتمكّن هو من استعادة مكانته القديمة في بيئته القديمة، فقد مات غصنه في شجرة العلاقات المتشابكة ويصعب إحياؤه. هذا التجاور في المعنى بين الميت والسجين يصمد للمقارنة على أكثر من صعيد.

السجن إلى جوار المقبرة. ربّما كانت أرضيّة الجماعيّة التحتانيّة على المستوى نفسه الذي ترتاح عليه بقايا الموتى، أمّا أرضيّة الجماعيّة السفلى «تحت التحتانيّة» التي تمّ ردمها بعد ١٩٧٠ كما قيل، في محاولة لدفن ماضيها الشنيع، فإنّها كانت بلا شكّ أدنى من المستوى الذي يصل إليه حفّارو القبور في عملهم الدؤوب لإخفاء الموتى والسيطرة على روائح التفسّخ البشري. أي أنّ عمقًا أقلّ يكفي حفّاري القبور، في حين يبدو الساعون إلى إخفاء الأحياء والسيطرة على «روائحهم» أقلّ اطمئنانًا، فيحفرون عميقًا أكثر في الأرض.

حديث البوابير، الذي قادنا للحديث الذي لم يكتمل عن عبد

المجيد ثم عن قصّة عبد الكريم، وردّنا مئات السنين إلى الخلف، لم ينته. فأهمّيّة البوابير في سجن الشيخ حسن كانت كما قلت توازي أهمّيّة الكهرباء في المدن اليوم. ولذلك فقد كان من الضروري لنا أن نتقن التعامل مع هذه الوسيلة التي يُفترض أنّها نُسقت أو «انقرضت». غير أنّ السجون تكسر الزمن على غرار تقنيّات الرواية الحديثة. السجن جزيرة زمنيّة لها استقلاليّتها عن الزمن المحيط بها. تخلق السجون نوعًا عبقريًّا من تجاور الأزمنة. إنّ لإيقاع الزمن داخل السجن وتيرة مختلفة عن وتيرة إيقاع الزمن خارجه، السنة في السجن لا تعادل سنة في الخارج، سنة السجن أقصر وأسرع على عكس ما يمكن أن يخطر في البال لأوّل وهلة. أليست الحركة هي مقياس الزمن؟ اليوم المليء بالحركة هو يوم طويل واليوم الفارغ هو يوم قصير. يعرف إيقاع الزمن السجني كلّ من طال به السجن إلى حدّ أنّه «استقلّ» عن الخارج استقلالاً استطاع به أن يلامس إيقاع ذاك الزمن، ذلك أنّه قبل هذا «الاستقلال» يكون زمن السجن ثقيلاً وبطيئًا، لأنّه لم يتحرّر بعد عن صلته بالزمن الخارجي. ولهذا التحرّر صلة مباشرة بما سمّيناه «الاستحباس»، أي استسلام السجين وخضوعه للدوران في فلك السجن.

يبدو أنّ حديث البوابير يثير الشطط ويغري بالتشعّب! ربّما لم يكن لأبناء المدن من السجناء أدنى معرفة بالبوابير، أمّا أنا فكانت ذاكرتي تحتفظ من طفولتي ببقايا صور عن البابور. لذلك كان عندي شعور بالمتعة في استعادة هذه الصور وترميمها واستكمالها، كنت أوشكت أن أنسى رائحة الكاز وطريقة إشعال البابور، أوشكت أن أنسى النكّاشة والفالة والدفّاش والشمبر والجرن والجلدة... وها هو السجن يعود بي إلى تلك البقعة من الحضارة الفائتة والمتروكة بعيدًا خلف حضارة الغاز

والكهرباء. أوشكت أن أنسى تعابير تلك البقعة من الحضارة البابوريّة: دقّ البابور أو إحقن البابور، نفِّس البابور، حمِّ الرأس، انكش الفالة، غيّر الجلدة، عبِّ البابور كاز... إلخ. ها هو السجن، مثل من دونكيشوت له قدرة على الانتصار، يبعث الروح في قيمة منسيّة. وما أسهل أن يعتاد الإنسان. فبعد حين قصير عشنا وانسجمنا مع جوّ البوابير ونسينا أنّ هناك وسائل تسخين أخرى حديثة، وقف الزمن بنا عند تقنيّة البوابير، أو كأنّ الكهرباء والغاز صارت، بالنسبة لنا، حضارة غابرة منسيّة قياسًا على حضارة البوابير.

العبء الأكبر كان يقع على البوابير يوم الحمّام. في هذا اليوم الأسبوعي كان أبو منار، الشيوعي الحمصي الذي كان ضمن مجموعة الشيوعيين الذين نقلوهم من سجن القلعة المدني إلى سجن الشيخ حسن في صيف ١٩٨٤، يُشعل البابور الكبير منذ الصباح ويضع عليه حلّة الماء الكبيرة، ويقوم طوال اليوم على شأن الحمّام.. يوزّع الماء الساخن بالعدل على الجميع، يُدخل كلّ شخص بدوره إلى التواليت، يناوله أبو منار سطل ماء ساخن، يتدبّر المستحمّ أمره بهذا المقدار من الماء، فيعدّل حرارة الماء من حنفيّة التواليت كما يناسبه. ويبقى أبو منار قريبًا، يُكمل للمستحمّ ما ينقصه، ويحثّه على الإسراع إن هو تأخّر. وإن تأخّر المستحمّ كثيرًا فإنّه يقع تحت طائلة سيل من التلطيشات والتعليقات والكنايات والتهكّمات التي تنصرف كلّها إلى تهمة المستحم باستغلال الحمّام لممارسة العادة السرّيّة. ولم يكن أبو منار يبخل بطاسة ماء ساخنة إضافيّة لمن يطلبها من المستحمّين؛ وهناك من البدينين من كان يحتجّ على قانون توزيع الماء الساخن، مطالبًا بتوزيع مقادير الماء بما يتناسب مع حجم الجسم. وبين خروج مستحمّ ودخول آخر، كان أبو منار يعلن بالابتسامة التي لا تفارقه عن فرصة

لدخول التواليت لمن يرغب، قبل أن يشغل التواليت مستحمّ آخر، صائحًا: أوكازيون يا شباب!

هكذا بآليّة طبيعيّة عفويّة، وكأنّما من خلف ظهور الناس، تفرز الجماعة الشخص المناسب ليقوم بالوظيفة المناسبة. الآليّة الطبيعيّة العفويّة هذه تبرز الأكفأ والأنسب للمهمّة المعيّنة. هكذا يكون حين لا تشوب مصلحة الجماعة مصالح فرديّة أو فئويّة أنانيّة، وحين تكون خدمة الفرد للجماعة عملاً طوعيًا، يلبّي حاجة الجماعة لهذه الوظيفة وحاجة الفرد إلى أن يحقّق ذاته في هذه الخدمة. تكامل طبيعي لا انحراف فيه ولا تشويه ولا قسر. وبالفعل خسرت الجماعيّة كثيرًا حين أفرج عن أبي منار (أفرج عنه في سياق الإفراجات الفرديّة التي شملت عددًا من شباب الحزب الشيوعي السوري ـ المكتب السياسي في ١٩٨٥ عقب مقابلة «نسمّيها مساومة» أجرتها معهم لجنة أمنيّة فردًا فردًا، حيث كان يتمّ الإفراج عن واحد أو اثنين من هؤلاء الشباب كلّ حوالى الشهر، ولذلك فقد أطلق عبد المجيد، البعثي الديموقراطي، على هذه الإفراجات تسمية «العادة الشهريّة»، وحين كان يتأخّر استدعاء السجين التالي عن الموعد الافتراضي قليلاً كان يُبدي أحد ما، ممازحًا عبد المجيد، خوفه من انقطاع «العادة» ربّما بسبب الحمل، فيردّ عبد المجيد بأنّ الخوف الأكبر ليس من الحمل بل من سنّ اليأس). وقد أفرزت الآليّة الطبيعيّة العفويّة نفسها بديلاً لأبي منار لم يكن أقلّ كفاءة، هو أبو سعيد الذي قاد بنجاح مرحلة تقشّف طويلة بسبب شحّ الكاز محافظًا للجماعيّة على تلبية حاجاتها الأساسيّة.

جاء نظام الحمّام الصارم هذا حلًّا لا بدّ منه لكثرة العدد وضيق المكان وندرة الموارد. قبل ذلك، قبل اكتظاظ السجن بسبب نقل السجناء السياسيين من سجن القلعة إلى الكراكون، كانت المفرزة

تسمح لنا بالاستحمام في حمّام الكراكون كلّ يوم جمعة. كان حمّامًا نظاميًّا بقاظان يؤمّن ماءً ساخنًا وافرًا.

في الأيّام التالية للحمّام، تحمل البوابير عبئًا أكثر ثقلاً من عبء الحمّام هو عبء تسخين الماء للغسيل. كلّ مجموعة بحسب حجمها تختصّ بيوم أو نصف يوم لغسيل الملابس. ولأنّ غسيل الملابس مهمّة شاقّة ومستهلكة للوقت، فقد كان يجري توزيع مشقّتها على أفراد المجموعة وفق مبدأ السخرة نفسه في الجماعيّة. كلّ أسبوع يتولّى مسؤوليّة الغسيل اثنان أو ثلاثة من أفراد مجموعة الغسيل هم سخرة الغسيل، وأحيانًا يمكن أن يصادف كون الشخص في سخرة الغسيل وسخرة المهجع معًا، فيكون يومه أسود ما لم يعينه أحد ما، والحقيقة لم يكن المعينون قلائل.

ولكن، رغم الحمّام وغسيل الملابس الدوري والنظافة العامّة في الجماعيّة، فإنّنا لم ننجُ من الجرب. الإصابة بالجرب كانت الضريبة التي دفعناها بسبب طبيعة الكراكون الذي يجمع بين كونه سجنًا وكونه فرعًا للتحقيق، الأمر الذي يعني أنّ الزنازين هي نقطة تماسّ دائمة بيننا وبين أناس مغفلين كثر يجري اعتقالهم واحتجازهم إلى حين في الزنازين، وربّما كانوا يحملون أمراضًا معدية كالجرب.

قصّة الجرب بدأت مع نبيل (حزب عمل شيوعي) الذي عوقب ووضع في الزنزانة، لأنّه غافل الشرطة وأعطى الحارث، أحد المعتقلين الجدد من الحزب نفسه، بطّانيّة وهو لا يزال قيد التحقيق. بضعة أيّام، ثم عاد نبيل إلى الجماعيّة وهو لا يرتوي من هرش بطنه وما بين فخذيه. انتقلت العدوى إلى أكثر من شخص. الجميع صار يحكّ ويهرش، بعضهم بفعل الجرب الفعلي وبعضهم بفعل الجرب النفسي. كانت محنة فعليّة زاد من شدّتها الطقس الشتوي، إذ لا بدّ من غلي

الملابس الداخليّة بشكل يومي وطلي كامل الجسم بالدواء ثم الاستحمام. لذلك كانت البوابير على موعد مع مهمّة ثقيلة طارئة. هي أيّام تترك ندبًا في الذاكرة مثل ندبات الحروق على الجلد. أيّام كريهة كأنّنا كنّا خلالها «قيام على الجمر». وهذه الأيّام تكرّر ذاتها بين حين وحين بلبوسات متنوّعة. مثل مقدار من الألم يجول في الجسم ويلجأ إلى مختلف الأعضاء ويتظاهر بشتّى الأمراض والعلل والعذابات. تبدأ هذه الأيّام في محنة التحقيق، وتتّخذ فيما بعد أشكالاً شتّى، في سجن الشيخ حسن أيّام الجرب وأيّام الجوع وأيّام الاكتظاظ، وفي سجن عدرا أيّام الفسفس (البق) وأيّام الغبار وأيّام الحصار وأيّام الجوع، والغالبيّة الغالبة من الأيّام في سجن تدمر. هذا ما يطال المجموع، أمّا الأيّام القاسية الخاصّة بالأفراد فهي صفحات محجوبة لا يعلم بها في الغالب الأعمّ إلّا أصحابها. وهناك أيّام قاسية تقع بين كونها جماعيّة وكونها خاصّة بالأفراد، هي القسوة التي تطال فئة معيّنة من السجناء. مثل محنة إعادة التحقيق مع مجموعة، أو ترحيل مجموعة إلى سجن تدمر، أو معاقبة مجموعة.. إلخ. ومن هذه الأيّام اليوم الذي جاء فيه الملازم أوّل ذو التكشيرة إلى سجن الشيخ حسن وهو يحمل بيده خيزرانة، ووقف على طاقة باب الجماعيّة وفي عينيه شرّ (الشرّ الذي في عينيّ هذا الرجل مقيم لا ينافسه خير مهما قلّ). أخرج من الجماعيّة صفوان وعلي (بصفتهما قياديين في حزب العمل الشيوعي) وبعد قليل جاء رئيس المفرزة وطلب خروج كلّ «جماعة الرابطة». في كوريدور الزنازين كان صفوان يجلس على كرسيّ، وهناك شرطيّ يجزّ له شعره على الصفر بماكينة يد، وكان في أرض الكوريدور دولاب. في حين كان عليّ واقفًا وذو التكشيرة يلوّح بالخيزرانة ويستفزّه بالكلام. كان صفوان قد رفض في البداية أن يحلق على الصفر، ثم

وافق بعد بضع خيزرانات في الدولاب، مفسّرًا ذلك فيما بعد على أنّه من الواجب أن لا تسلّم رأسك للحلاقة طائعًا من دون شيء من المقاومة. فعندما خيّره ذو التكشيرة بين كرسي الحلاقة والدولاب، اختار صفوان الدولاب فقط كي يوافق على الحلاقة بعد عدّة خيزرانات. بعد حين من الوقت عاد إلى الجماعيّة أكثر من ١٢ شخصًا من أبنائها برؤوس حليقة. فهمنا لاحقًا أنّ هذه العقوبة كانت ردًّا على بيان أصدره حزب العمل الشيوعي، فانتقم ضبّاط الأمن من معتقليه. وقد رأى عبد المجيد، الذي ينتظر الجميع تعليقاته على الأحداث، أنّ الأمن بسلوكه هذا إنّما يعلّق أوسمة على صدور حليقي الرؤوس، مضيفًا:

ـ يا ريتني كنت معكو، بس وينك! أَنِيْ أصلع ما لهم منّي فايدة!.. وينك! أصلاً هيك صرتو أحلى لأنكو صرتو شبهي! خاتمًا قوله بضحكته الحنجريّة المميّزة المترافقة مع حركات عصابيّة في الكتفين والرقبة، ثم، وتماشيًا مع هذا الموقف، أبدى استعداده لتحضير المتّة على شرف ذوي الرؤوس الحليقة.

اللباس الموحد

الشيء الذي نجوت منه في كلّ مراحل سجني هو اللباس الموحّد. من حسن الحظّ لم يفرض اللباس الموحّد علينا في أيّ من السجون التي أدّت قسطها في قضم أعمارنا. حتى في سجن تدمر، الذي ينطوي على كلّ ما يعمل لتدمير النفس، لا يفرضون اللباس الموحّد. وقد تكون علّة ذلك هناك أن تقوم الملابس مقام الأسماء الممحيّة، فيتمّ تمييز السجناء من قبل الشرطة بألوان ملابسهم: أبو الكنزة الحمرا.. أبو الأخضر... إلخ. ولكن مهما كان السبب، فإنّ

النجاة من اللباس الموحّد ساهمت من دون شكّ في حماية أرواحنا شيئًا ما من الهلاك. لا أظنّ أنّ هناك ما هو أقسى على النفس من اللباس الموحّد داخل السجن. وكثيرًا ما تساءلت في نفسي عن سرّ التساهل في تطبيق هذه الفكرة من قبل أصحاب القرار «الأمني». هل هو نوع من تخفيف النفقات؟ أم نوع من الفساد؟ مهما يكن السبب فنتيجته جيّدة، وإذا كان الفساد هو السبب فإنّه الفساد الأجمل! صحيح أنّ حلاقة الشعر والشوارب في سجن تدمر تعمل على توحيد الأشكال، وصحيح أنّ الألوان تهجر الملابس في ذلك السجن الرهيب، غير أنّي كنت أشعر طوال سنوات السجن المديدة أنّ قرار فرض اللباس الموحّد سيكون ثقلاً قد لا تستطيع روحي احتماله. وكنت دائمًا أخشى مثل هذا القرار. إنّ التنوّع في اللباس يحافظ للنفس على تميّز ما أو على خصوصيّة مريحة، الاختلاف بالشكل ليس أمرًا قليل الأهمّيّة أبدًا. من جهتي كنت أهرب في السجن حتى من لبس البيجاما وأميل إلى لبس البنطلون حين يتوافر لي ذلك. وفي الشتاء كنت أميل، ولا سيّما في سجن عدرا المرحرح، إلى لبس بنطلون وحذاء أيضًا، وكثيرًا ما كان يثير ذلك تعليقات مثل: تأخّرت عن الشغل؟! أو: شو.. نازل ع السوق؟.. ولكنّ الناس اعتادت عليّ بهذا اللباس اللاسجني أو المدني، وكان ذلك يريح نفسي. فأنا استهلكت من البناطلين والقمصان في السجن أكثر ممّا استهلكت من البيجامات. ربّما كان هذا نوعًا من مقاومة السقوط في هوّة السجين النمطي، الهرب من تطابق صورتي مع الصورة السلبيّة المستهلكة التي أحملها في ذهني عن السجين، محاولاً أن أتطابق مع تصوّري عن كيف يجب أن يكون السجين. نوع من عدم الاعتراف بالعطالة أو عدم الإقرار بالبؤس الذي يحيط بصورة السجين. وفي اعتقادي، أنّني كنت

سأكون أكثر المتضرّرين نفسيًّا من قرار فرض اللباس الموحّد فيما لو تمّ فرضه.

أبو ربيع

إلى جانب عناصر المفرزة الذين يحتكّ معهم السجناء بشكل دائم ويعرفونهم جيّدًا ويعقدون معهم أحيانًا صداقات، يوجد عناصر شرطة في الكراكون لا احتكاك لنا معهم ولا نعرف حتى وجوههم، هؤلاء هم حرس السجن. وغالبًا ما يوكل إلى هؤلاء الشرطة «المغفّلين» مهمّة ضرب أو جلد السجين إذا ما تقرّر ذلك، بغرض تجاوز الحرج الذي يمكن أن يشعر به الشرطي العادي ذو الاحتكاك اليومي بالسجناء من أداء هذه المهمّة. ويمكن لأهل الجماعيّة الفوقانيّة أن يروا عناصر الحرس الذين يتناوبون على حراسة السطح. هؤلاء الحرّاس يصعدون إلى السطح من طريق درج يمرّ مقابل باب الجماعيّة. وفي صعودهم وهبوطهم لا يلتفتون خشية أن يشي بأيّ حركة يقومون بها مخبرٌ ما من بين السجناء إلى رئيس المفرزة وربّما إلى ضابط في الفرع، لذلك تراهم يلتزمون سكّة السلامة. كان جاسم أحد هؤلاء الحرّاس يذهب في التزامه «المهني» إلى أبعد ممّا يقتضي منه واجبه ووظيفته كحارس على سطح سجن، فقد كان يقضي فترة مناوبته وهو يخبط برجليه على السطح، ويدحرج حجارة ثقيلة يبدو أنّها موجودة على السطح لأمر ما.. كان يصيح ويصفّر على طريقة كشّاشي الحمام، فلا يسمح لأحد بالنوم، وذلك إمعانًا في مضايقة وتعذيب السجناء الذين يستحقّون الإعدام لولا رحمة القيادة. مشكلة جاسم كانت أكبر حين تصادف مناوبته بعد منتصف الليل حيث يكون غالبيّة السجناء نائمين. غير أنّ أحد عناصر الحرس هؤلاء كان يشذّ عن القاعدة. كان يرفع يده عن

بعد للجماعيّة محييًا أثناء صعوده وهبوطه، وكان في فترة حراسته على السطح يرفع صوت الراديو الترانزستور الذي يحمله ويدليه قليلاً، بحيث يمكننا سماع أغنية ما من شبابيك الجماعيّة الكائنة تحت السقف بقليل. هذا الحارس هو أبو ربيع، شابّ من محافظة السويداء. لا أزال اذكر أنّ أوّل أغنية سمعتها بعد أكثر من ستّة أشهر من اعتقالي كانت من راديو أبي ربيع، وكانت «بترحلك مشوار» لوديع الصافي. كان أبو ربيع يجرؤ أحيانًا على الاقتراب من طاقة باب الجماعيّة ليعطينا شيئًا ما سبق أن طلبناه منه. وغالبًا ما تكون أشياء ممنوعة مثل بطّاريّة لساعة اليد الرقميّة التي فيها راديو، الراديو الكنز التي استطاع علي تأمينها عن طريق أحد الشرطة وحرص على إخفائها. تلك الراديو كانت مزوّدة بسمّاعة ناعمة وتنقل برامج إذاعة سوريّة فقط. لقد كانت شيئًا لا يصدّق داخل سجن الشيخ حسن. في أوّل تجربة لي معها سلّمني إيّاها علي ملفوفة في محرمة ورقيّة، ودخلت إلى التواليت ليكون حظّي معها سماع موجز أخبار، كان الخبر الأوّل فيه كما أذكر تمامًا هو قرار قبرص التركيّة بالانفصال عن قبرص اليونانيّة. ولكن هذه الراديو كانت دائمًا مصدر قلق بالنسبة لنا من أن يفتضح أمرها، وتجرّ بالتالي علينا الويلات من الفرع.. تحقيق ومصادرات وحجز في الزنازين.. إلخ. ولذلك، وعند أدنى شكّ بأنّ مخبر الجماعيّة قد علم بأمر الراديو، قام أبو عمر بلفّها في قطعة نايلون ورميها في كيس الزبالة. كان ذلك آخر عهدنا بها.

في الجماعيّة من كان يردّ تعاطف هذا الحارس إلى وجود سجناء بيننا من أبناء منطقته، التي تتميّز بقوّة الروابط المذهبيّة فيما بين أهلها. وفيها من كان يردّ ذلك إلى أنّ لهذا الشرطي ميولاً سياسيّة معارضة بحكم شيوع التيّارات السياسيّة اليساريّة في منطقته. ولكن كلّ

التحليلات تبهت تحت ضوء ما يقوم به الشرطي من خرق لسور العزلة المفروض على السجناء، وتبهت أمام جرأة الفعل. لهذا الفعل قدرة ساطعة ترفع الفاعل في نظر السجناء إلى مصافّ عليا، مصاف رسوليّة ربّما، أليس الرسول هو صلة وصل بين عالمين، عالم حرّ وآخر مقيّد، أو عالم حاكم وآخر محكوم؟

في فجر أحد الأيّام، استيقظنا على صوت ارتطام مكتوم أعقبه صوت أنين وتوجّع عميق. كان صوت التوجّع مؤثّرًا إلى حدّ يدفع المرء لإغلاق أذنيه. في الصباح، علمنا أنّ شرطيًّا سقط أثناء تبديل نوبة الحراسة عن السطح، زلّت قدمه وهو على حافّة السطح فسقط في ممشى التنفّس عن ارتفاع طابقين أو جماعيتين، وأنّ هذا الشرطي هو أبو ربيع. كان حزننا عليه كبيرًا. لم يكن أبو ربيع هو الشرطي الوحيد الذي ساعد وتحمّل مسؤوليّة المساعدة، ولكنّ النهاية المؤلمة له هي ربّما ما جعله يعلق في الذاكرة أكثر.

الحاج أبو محمّد

أبو محمّد رجل فلسطيني في أواخر الستّينيّات من عمره، واسع الثقافة وشديد الحساسيّة، كان يطرب لمن يناديه بلقب الحاجّ، وكان يستفيض في شرح الظلم الواقع عليه وفي تبيان براءته ما إن تتاح له الفرصة. وحين لا تتاح له فرصة ذلك كان يستفيض في شرح عادات العرب المستعربة وفي التميز بين العرب العاربة والعرب المستعربة، أو يقتحم أيّ حديث لإظهار معرفته في الموضوع المطروح. جاهز دائمًا للحديث ولإبداء الرأي بكلّ شيء، ممّا كان يدفع الغالبيّة لتجنّبه ثم للتهكّم عليه وعلى «كبر معلاقه»، فينتقل في لحظات من شغل منزلة العارف المتباهي بسعة اطّلاعه إلى شغل مكانة المسكين المهمّش

المغلوب على أمره. كان لأبي محمّد علاقة مع الأخوان المسلمين في الخمسينيّات من القرن العشرين وانقطعت منذ زمن بعيد، وهو الآن معتقل ضمن مجموعة شاميّة، غالبيّتهم من الشباب، يُشتبه بعلاقتها مع جماعة الأخوان المسلمين. في التحقيق لم يظهر لدى الفرع ما يدين أفراد هذه الجماعة، فلم يرحّلوهم إلى سجن تدمر واحتفظوا بهم في سجن الشيخ حسن. خلال وجودهم في سجن الشيخ حسن قام أهاليهم بزيارتهم أكثر من مرّة، ولكنَّ أهل أبي محمّد تأخّروا في زيارته. اكتأب أبو محمّد، وامتنع عن قبول أيّ شيء وارد في زيارة أحد من أفراد مجموعته. حساسيّة مفرطة من أن يمنّنه أحد. لا يرضى أن يأخذ من دون أن يعطي. أخذ منهم، ولكن حين تأخّرت زيارته وعجز عن الردّ امتنع عن قبول أيّ شيء. كانت حساسيّته عالية من هذه الناحية. قد يكون ما حرّض لديه هذه الحساسيّة تعليق ما من أحد رفاقه. ولكن أبا محمّد انقلب رأسًا على عقب بعد أن جاءته زيارة من أهله (كانت الزيارة الأولى والأخيرة له في سجن الشيخ حسن)، وكانت زيارته مليئة بالخيرات بناء على التوصيات المتكرّرة التي كان يرسلها إلى أهله عبر زيارات رفاقه. وراح أبو محمّد يجود على الجماعيّة بما جاءه في الزيارة بروح من يستردّ نقاء كرامته.

لقد أثرى وجود هذه المجموعة فيترينا الجماعيّة الفوقانيّة، مجموعة منوّعة وشعبيّة وبعيدة عن التعصّب. مهنّد لاعب الكاراتيه المهذّب والمسالم، رغم قوّته البدنيّة، والملتزم بأداء فروضه الدينيّة، والذي سألته مرّة، من باب الفضول، عن الفكرة في جعل ماء الوضوء تنحدر من الكفين نزولاً إلى الكوعين (على طريقة الجرّاحين نفسها في تغسيل أيديهم قبل العمل الجراحي) فوضعني على قائمة الهداية لأكثر من شهر. وعدنان الفتى الغنج ذو اللحم البضّ والحوض النسائي

والأرداف الممتلئة، والذي كان بلا شكّ يوقظ النائم من الرغبات الشاذّة عند الأسوياء، الفتى الذي «يُرغب له عن المناكح» كما كان يقول أحد الشباب الملاعين والمولعين بالتعابير العربيّة البائدة. والبلهوان ذو اللون الأسود المتّسخ، برأسه الصغير وكرشه الكبير ويديه الغريبتين: ناعمتان كيدي الطفل، ظهرهما أسود وراحتيهما ورديّتان مع بعض البقع الغامقة. مظهره، وليس فقط مهاراته، يوحي بأنّه سليل قوم عالمهم المطابخ. وهو إلى جانب مهاراته الطبخيّة يتمتّع بصوت رائع. كان يفرض الصمت على كلّ أهل الجماعيّة ما إن يبدأ الغناء، وهذه، لمن لا يعرف، مقدرة خارقة أن تفرض الصمت طوعًا وحبًّا على فيترينا الجماعيّة المتنوّعة المشارب والأمزجة والعقليّات. وخليل الذي يعاني من مرض يحيل العضلات إلى شحم فلا تعود قادرة على حمل الجسم، وصل إلى الجماعيّة عاجزًا عن الوقوف على قدميه، بعد أن أتى هذا المرض على كامل كتلة عضلات طرفيه السفليين وأحال رجليه إلى كيسين من الشحم الرخو. كان المرض يزحف صاعدًا باتّجاه الصدر، وكانت مهلة حياة خليل هي الوقت المتبقّي لوصول المرض إلى عضلة القلب! ومع ذلك فقد كان ذلك الشابّ هادئًا ورائقًا ومزوحًا. كان خليل يجلس إلى جانب البابور ساعات ويتفنّن في إعداد الطبخة، وكان مديح طبخته هو الأجر الكافي. وحين يقع اختيار السخرة عليه كي يعدّ الطبخة للجماعيّة، فإنّه كان يبتهج كأنّه يتسلّم جائزة اعتراف بقدراته. ولكن حين كانت السخرة تختار البلهوان بدلاً عنه فإنّه كان يحاول عبثًا مداراة شعور الإحباط والغيظ. تلك كانت القضيّة الوحيدة التي تثيره وتستخرج منه كلمات وتصرّفات لا تنسجم مع الصورة الهادئة والسمحة التي رسمها لنفسه في الجماعيّة. غير أنّي لم أستطع أن أفهم سرّ ثورته البركانيّة ذات مساء، حين صرخ فجأة،

خلال جلسة كانت تبدو هادئة له مع رفاقه، بصوت غير بشري، وأمسك بما طالته يداه من حوله وضرب به على وجهه بعنف فظيع وهو يشتم ويكفر. كان ثمّة إذن بركان خامد طوال هذا الوقت. وقف رفاقه حوله مذهولين، وحين بدأ يكفر ويشتم أسرع مهنّد ووضع يده بقوّة على فمه كي يمنعه من أن يرتّب على نفسه، في لحظة شيطانيّة، المزيد من الذنوب أمام الله. وأبو مصعب، الشابّ الذي كان مهووسًا بصنع مسابح بذر الزيتون، فبعد فترة وجيزة من دخوله الجماعيّة صار القمّام رقم واحد لبذور الزيتون عن موائد الجماعيّة، وسرعان ما صار يميّز البذور الجيّدة من الرديئة، ويموت على بذور نوع من الزيتون يسمّى قلب الطير. والحاج أبو صفوان ومحمّد و.. لقد كانت مجموعة جميلة بتنوّعها وشعبيّتها.

بعد أشهر عديدة من وجودهم معنا، تمّ استدعاؤهم جميعًا إلى المفرزة. وبعد حوالى الساعة عاد الجميع، وكانوا يبدون سعداء جميعًا سوى أبي محمّد. قالوا إنّ المساعد أبو أحمد حضر من الفرع إلى الكراكون وطلب منهم، بناء على تعليمات من الفرع، التوقيع على محاضر التحقيق تمهيدًا للإفراج عنهم. وقّع الجميع من دون اعتراض، ربّما بفعل الاستسلام اليائس لما هو «مكتوب» عليهم. غير أنّ أبا محمّد رفض التوقيع، وطلب أوّلاً قراءة محضر التحقيق الذي سيوقّع عليه. أعطي المحضر، قرأه ورفض التوقيع. لم يثنه عن موقفه القول إنّ هذه إجراءات شكليّة وإنّ قرار الإفراج عنهم صدر، وليس من مصلحته أن يقف في وجه أو يعرقل هذا القرار. أصرّ أبو محمّد على موقفه ورفض التوقيع. عندها صاح بوجهه المساعد المخضرم أبو أحمد (هو نفسه رجل التحقيق، ورجل المساومات، ورجل الاستقبال من سجن تدمر) قائلاً:

ـ عم تساوي حالك فهيم يا خرا. لو أنّك بتفهم بتوقّع متل اللي وقّعو، لأنّك رح توقّع برضاك أو بالصرماية!

بعد هذا التوضيح الوافي من سيادة المساعد النموذجي، وقّع أبو محمّد، وهو يدرك أنّه بذلك إنّما يوقع على رحلة عذاب مجهولة الخاتمة. وعاد أبو محمّد كأنّه زاد في عمره سنوات. رجل يستشعر كارثة. قد تمرض مرضًا ثقيلاً، وقد تصبح معاقًا، وقد تموت.. ولكنّ الأمر يهون حين تكون بين أهلك! أمّا بالنسبة لرجل في عمر أبي محمّد وحساسيّته، فإنّ ما تخوّف منه كان يعادل كارثة مكتملة فعلاً. أن تكون عجوزًا في غربة السجن، وليس أيّ سجن، في غربة سجن تدمر بكلّ ما يحيط به من سمعة، فهو أمر شاقّ على النفس. مجرّد الحياة في ذلك السجن مشقّة، فكيف إذا مرضت أو عجزت؟! أبو محمّد راح يؤكّد لكلّ من في الجماعيّة فردًا فردًا أنّ هذا التوقيع يعني الترحيل إلى سجن تدمر. لعلّه كان يريد أن يخفّف من خوفه بمواصلة الحديث والتهرّب من الصمت والوحدة، أو يريد أن يضع علامة لدى كلّ فرد على قدرته على التحليل وقراءة سلوك أجهزة الأمن، أو ربّما كان يريد من أحد ما إن يدحض له مخاوفه أو يهدّئ شيئًا من روعه. ففي حين كان أفراد مجموعته ينعمون باستبشار الإفراج، كان أبو محمّد يشقى في قلقه ومخاوفه. أفراد المجموعة الشباب قليلو الخبرة وطيّبو النوايا، يعلمون أنّهم لم يرتكبوا ما يستدعي سجنهم، فما بالك ترحيلهم إلى سجن تدمر! ومن هنا جاء تفاؤلهم. أمّا أبو محمّد فكان، بسبب سنّه أو تجاربه أو ثقافته، شقيًا بوعي أنّ أجهزة الأمن تعتمد سياسة الأرض المحروقة، حيث كلّ شبهة تساوي جريمة، وحيث المراتب الدنيا ترضي المراتب العليا بوهم تحقيق إنجازات أمنيّة على حساب أبرياء.

بعد التوقيع بيومين، كان ترحيل المجموعة إلى سجن تدمر. حين

فتح باب الجماعيّة في الرابعة صباحًا، نهض أبو محمّد كأنّه على موعد مع الدوريّة التي جاءت تنفّذ قرار ترحيلهم. تصرّف وفق ما سيقوله الشرطي قبل أن يقول. انهمك بضبّ بعض الملابس والأغطية التي كان أهله قد أحضروها له في الزيارة الوحيدة التي جاءته إلى سجن الشيخ حسن. كان الهلع يسيطر على بقيّة أفراد المجموعة الذين بدا واضحًا عليهم الارتباك والتشوّش ما إن علموا بالخبر. كيف يمكن لعقل كان ينتظر الإفراج، أن يستقبل قرار الترحيل إلى سجن تدمر؟ (سوف أعيش أنا هذه التجربة المرّة والشاقّة والكافرة بعد سنوات). تحت إلحاح عناصر الشرطة وزجرهم (فوق الموت عصّة القبر) كانت المجموعة جاهزة خلال بضع دقائق. بعض أفراد المجموعة نسي أن يودّعنا، وبعضهم تلعثم بكلام غير مفهوم وهو خارج من الجماعيّة، وبعضهم غلبه البكاء وهو يودّعنا، أمّا أبو محمّد فقد وقف في باب الجماعيّة وهو خارج، التفت إلينا محاولاً أن يبدو متماسكًا قدر استطاعته، وقال: استروا ما شفتو منّا، نشوفكو بخير، ادعولنا! بالكاد طاوعته شفتاه لقول الكلمة الأخيرة. حينها كان هذا الرجل مؤثّرًا، أكثر من أيّ وقت سابق. لم يذكّرنا، كما كان يمكن التوقّع منه، «بنبوءته» بعد عمليّة التوقيع. لم يبالغ في التعبير عن مشاعره. تصرّف «برضا وتسليم» كبيرين. انقطعت أخباره، مع أخبار المجموعة كلّها منذئذ. ترى هل قطع تلك «المفازة» ليروي ما جرى له باستفاضاته ولغته المطعّمة بالكثير من التعابير الفصحى المهملة في بطون الكتب العتيقة؟ بعد سنوات طويلة، جرى ترحيلي أنا أيضًا، في ظروف مختلفة، مع مجموعة إلى سجن تدمر. وهناك تخيّلت بطريقة راجعة ما كان يمكن أن يكون قد تعرّض له الحاج أبو محمّد، وكانت ذكرى هذا الرجل حاضرة معي دائمًا في تضاعيف مأساة سجن تدمر.

قلم رصاص

في الصيف، تخفّ الحاجة إلى الأغطية، فيعمل السجناء على تسميك الفرشات بالبطّانيّات التي كانت تستخدم كأغطية. وفي بداية الشتاء تتمّ عمليّة معاكسة. في أوّل شتاء لنا في الجماعيّة الفوقانيّة، وأثناء قيامنا بفكّ الفرشات لأخذ بطّانيّات من أجل استخدامها كأغطية، عثرنا على قلم رصاص مخبّأ في ثنايا إحدى البطّانيّات. قلم رصاص لا يتجاوز طوله طول الإصبع، ولكنّه لقيّة مهمّة. القلم والأوراق (الورق متوافر بتوافر الدخان) يمكن أن تقلب جوّ الجماعيّة. كان الخوف من افتضاح أمره يعكّر صفو فرحتنا به. وكان تصوّري لما يمكن أن يخدمنا به القلم قد دفعني إلى المغامرة بتحمّل مسؤوليّة الاحتفاظ به. غير أنّ الحذر في استخدامه ومداراته عن عيون المخبرين المحتملين والمكشوفين حدّ كثيرًا من فوائدة، والأهمّ أنّ هذا الحذر وتلك المداراة لم ينفعا في كتمان أمره. ولم ندرِ أنّ هذا القلم كان مكشوفًا، وأنّه جزء من مخزن المعلومات الذي كشفه المخبر المعتمد في الجماعيّة، عقب مشكلة لنا معه، لرئيس المفرزة.

تحقيق ودواليب وزنازين بسبب قلم الرصاص. قاد أبو عيد (الطويل العمر!) التحقيق المقتضب. أحد عناصر الحرس تولّى الضرب. انتهى التحقيق الذي كان أقرب إلى العقوبة منه إلى التحقيق. ثم تمّ وضعي في إحدى الزنازين التحتانيّة. عنصر الحرس هو من أوصلني إلى الزنزانة وأنا أعرج على قدميَّ الداميتين والمتورّمتين. أغلق باب الزنزانة وفاجأني بالقول:

- يرحم أبوك لا تواخذني يا أخوي! أنا عبد مأمور، لا أنا بعرفك ولا إلي شي عندك. ألله يلعن أبو هالشغلة! واضح أنّ هذا

الشرطي الذي كان يغطّي رأسه وقسم كبير من وجهه بلفحة حمراء، متأثر وصادق فيما يقول.

صرت إذن من أهالي الزنازين التحتانيّة، قريب من الجماعيّة التي تضمّ النصف الثاني من مجموعتنا. وبقدر ما قسا عليّ رئيس المفرزة بمنعي من التنفّس وإغلاق طاقة الزنزانة، بقدر ما دعمني أهل الجماعيّة واستقبلوني واحتضنوني. هذه الإقامة في الزنزانة، التي دامت حوالى الشهرين، شهدت حادثة غرق زنزانتي وحادثة نجاح أبي كامل في فكّ إضراب المحامي. كما شهدت، بعد أن سُمح بفتح الطاقات، سهرات رائعة مع «سكّان» الزنازين الأخرى: علي وعبد الحكيم (شيوعيّان) وأبو ثائر وأبو عمر وأبو رأفت (بعث ديموقراطي). هذه السهرات التي سأل أبو عمر في إحداها بصدق وبجرأة:

ـ هلا شو يعني الديالكتيك؟ بتمنّى حدا يشرحلي!

وانهالت عليه الإجابات من كلّ طاقة زنزانة، وتزاحمت الإجابات. لم يقل أحد منّا إنّه لا يعرف، الجميع بادر إلى الشرح مقاطعًا أو زائدًا أو معارضًا. زاد تشوّش أبي عمر مع تزايد «الشرح»، فطالب بوقف الدرس على أن يُستكمل في سهرة اليوم التالي. ضحك علي وقال لأبي عمر:

ـ يا زلمي، حدا بيكشف عن طيزو بين العجيان؟!

تذكّرت كثيرًا هذه السهرة وأنا في سجن تدمر، حين كنّا نتحايل على أنفسنا ونغلّف قلقنا ومخاوفنا باختلاق المواضيع والتسلّي بها. كنّا مجموعة أصدقاء نجلس في منأى عن «شراقة» المهجع المسمّى المستوصف في ساعة ما قبل النوم، ونطرح موضوعًا ما ثم يعطي كلّ شخص تعليقه على الموضوع. في إحدى المرّات كان السؤال: من منّا

يظنّ نفسه رجلاً عاديًّا؟ لم يجد أحد من المجموعة في نفسه رجلاً عاديًّا. بتبريرات وتخريجات وفلسفات مختلفة رأى كلّ شخص في نفسه أنّه غير عادي. السؤال الذي كنت أبحث دائمًا عن إجابة له هو: ما القاسم المشترك بين السجناء السياسيين وبالتحديد اليساريين منهم؟ مبرّر السؤال أنّ سورية لم تمرّ في مرحلة تحرّك جماهيري فعّال يشدّ قطاعات الناس المختلفة إلى الفعل السياسي، وإذا كان الإسلاميّون قد تجاوزوا في تنظيمهم بشكل ما مرحلة النخبويّة إلى مرحلة جماهيريّة، فإنّ الأحزاب اليساريّة لم تتجاوز هذه المرحلة. هؤلاء السجناء اليساريّون هم نخبة، ولا بدّ أن يكون ثمّة قاسم مشترك بين أفرادها، قاسم لا يتعلّق فقط بالثقافة والميول السياسيّة بل أيضًا بالشخصيّة. يلفت النظر مثلاً أنّ غالبيّة السجناء السياسيين هم الأبناء البكر في عائلاتهم. وأنّ الغالبيّة الساحقة هم من الطلّاب، وأنّ نسبة طلّاب الكلّيّات العلميّة أعلى من نسبة طلّاب الكلّيّات الأدبيّة. أمّا على الصعيد «المورفولوجي»، فقد اكتشف تيسير أنّ الغالبيّة العظمى هم من أصحاب الأنوف الكبيرة!

أعود إلى قلم الرصاص، فشل القلم الأوّل في تحقيق ما كنّا نطمح إليه منه، لأنّنا اعتمدنا في حمايته على الأمن وليس على السياسة. اعتمدنا على إخفائه عن عيون المخبر، بدل أن نرتّب اتّفاقًا ضمنيًّا معه يقضي بسكوته عن القلم، وغير القلم، مقابل تخفيف حصارنا عنه مثلاً. القلم الثاني كان أجدى بكثير. بعد فترة العقوبة في الزنزانة أدخلوني إلى الجماعيّة التحتانيّة. جوّ الجماعيّة التحتانيّة خانق، لكنّ حرّيّة الأعمال الممنوعة فيها أكبر. أوّلاً، المخبر شبه الرسمي للمفرزة والفرع يسكن الجماعيّة الفوقانيّة؛ ثانيًا، تضاريس الجماعيّة التحتانيّة تسمح بالتستّر أكثر؛ ثالثًا، سكّان الجماعيّة التحتانيّة هم،

عادة، الأكثر «شغبًا»، ذلك أنّ العيش في الجماعيّة التحتانيّة هو بمثابة عقوبة، فهي لذلك عادة تجمع السجناء الأكثر نشاطًا وجرأة.

لا أدري من أين جاء القلم الثاني، ولم أكن مسؤولاً عن حفظه! ومع ذلك، ولحكمة لا يعرفها إلّا الله، أوشكت أن أدفع أنا ثمن وجوده واستخدامه. وكما كان القلم وسيلة بيدنا للتدرب على كتابة الجمل والمواضيع باللغة الإنكليزيّة، كان وسيلة بيد عدنان لتدوين الأشعار التي تخطر له، ووسيلة بيد آخرين لحلّ الكلمات المتقاطعة أو لكتابة رسالة يجري تهريبها في الزيارة. صمد القلم فترة طويلة في أيدينا. صار بين يدي عدنان كدسة من القصائد، وصرنا نحن، جماعة الإنكليزي، أكثر مهارة في صياغة الجمل والمواضيع باللغة الإنكليزيّة بمساعدة من علي خرّيج الأدب الإنكليزي. ولكن ذات يوم وقعت الواقعة، بينما كنت منهمكًا في كتابة موضوع باللغة الإنكليزيّة، فُتحت طاقة باب الجماعيّة فجأة وأطلّ رأس أبي عيد (الطويل العمر نفسه!). كنت في مكان مكشوف تمامًا على الطاقة (استرخاء أمني!). طلب الطويل العمر من الجميع أن يثبت في مكانه، وفتح باب الجماعيّة وطلب منّي أن أعطيه ما بيدي: القلم والأوراق. أعطيته ما في يدي. طلب منّي أن أتبعه، تبعته. في الكوريدور وقف وقال:

- يعني ما بدّك تبطّل تهريب قلام ومشاكل؟

كنت، رغم كلّ شيء، أستشعر قوّة في داخلي، قوّة مصدرها صغر السنّ أو الحالة العامّة في البلد أو حداثة العهد بالسجن، لا أدري! لكنّي أذكر أنّي قلت له:

- نحنا شغلتنا نهرّب اللي بتمنعوه عنّا، وأنت شغلتك تفتّش وتصادر. بدا أنّه لم يُستفزّ من كلامي، كما كان يمكن أن يتوقّع المرء منه، وأعادني إلى المهجع، بعد تهديدات وتحذيرات روتينيّة ختمها

بعبارة (ما في داعي!) هذه العبارة «المثقّفة» التي اكتسبها من أحاديثنا معه، وراح يستخدمها ضدّنا على الطالع والنازل كما لو أنّه وجد فيها ضالّته! فمهما أكثرنا في شرح أيّ مطلب كان يكتفي بهذا الردّ الساحق الماحق (ما في داعي!) وكانت هذه العبارة وهي تخرج من فم ذاك المساعد الجلف شبه الأمّي ثقيلة على القلب كالمدحلة. على أيّ حال كان غريبًا منه «كبر العقل» هذا، كما كان جنونًا منّي هذا التحدّي وهذه المواجهة المباشرة. ولكن ما إن عدت إلى الجماعيّة حتى بدأ القلق يسيطر عليّ، فقد خشيت أن يرسل الأوراق الإنكليزيّة التي صادرها إلى الفرع، وهناك سيترجمونها وستحلّ البلوى عليّ لما فيها من «حرّيّة تعبير». نقلت مخاوفي إلى علي الذي حاول طمأنتي بالقول إنّ هذه الأوراق التي تخيفني تنام الآن لا شكّ في ركام زبالة المفرزة. لم أستطع أن أطمئنّ. وبدا أنّ مخاوفي في محلّها، ففي المساء جاء شرطي وطلبني إلى المفرزة. ها أنا أقع إذن فيما كنت أتحسّب له! كان خوفي كبيرًا، وزاد فيه أنّي سألت الشرطي عن موضوع الاستدعاء، فأجاب أنّ هناك ضابطًا من الفرع يريد مقابلتي. ارتخاء ركب وتشوّش في الرؤية ودوخة وجفاف فم ووشّة في الأذنين. حينها شعرت بما لا أذكر أنّي شعرته في حالات الخوف السابقة، وهو أنّ مركز الشعور بالخوف يقع عميقًا في الأذنين. دخلت خلف الشرطي من الباب الحديدي (دائمًا حديد!) المفضي إلى مبنى المفرزة، فلمحت مجموعة من الضبّاط باللباس العسكري الكامل يدخلون من الباب الرئيسي للكراكون. سارع الشرطي إلى إيقافي وإعادتي إلى ممشى التنفّس.

ـ خلّيك هون حتى ناديك!

لا شكّ أنّ بين هؤلاء الضبّاط مترجم سيواجهني بما كتبت من كتابات «كبيرة»، سيشهد بقيّة الضبّاط على إدانتي ومن ثم ستقرّر

العقوبة. لا يوجد قاع للجحيم. هناك زنازين الكراكون مع منع التنفّس، وهناك زنازين الفرع والتعذيب اليومي، وهناك سجن تدمر، البعبع المقيم في ذهن كلّ سجين سياسي سوري، وهناك ما لست أدري من عقوبات مكرّسة أو مبتكرة.. هذا هو السيناريو الذي ارتسم سريعًا في ذهني. بعد قليل عاد الشرطي واصطحبني إلى الغرفة التي دخلها الضبّاط. كان ذلك بعد أيّام قليلة من عقوبة حلاقة الشعر. فتى في الواحدة والعشرين من عمره، نحيل، حليق الرأس، سلب الخوف ما ترك المكوث بعيدًا عن ضوء الشمس من لون في وجهه، يدخل إلى غرفة مليئة بالضبّاط باللباس الرسمي، يشغلون صفّيْ الكنبات المتوازيين أمام المكتب، الذي يجلس خلفه ضابط مدني، هو نفسه الضابط ذو التكشيرة (رمز الشؤم الأبدي!). عناصر الكارثة مكتملة. حيث يوجد ضبّاط أمن توجد كارثة ما، فكيف إذا كان في الموضوع موضوع باللغة الإنكليزيّة لا يعبأ بالخطوط الحمر ولا بالمقامات العليا، ويتحرّك على ورق السجائر الأبيض بحرّيّة «سياسيّة» تامّة. هل تظنّ أنّ جريمتك تخفى إذا ارتدت ثوبًا إنكليزيًّا؟ عناصر الكارثة مكتملة، وهي ليست: مذنب وذنب ومحاسبة، بل ضحيّة وجلّاد وذريعة. وحين يكون الذنب ذريعة تكون الضحيّة في حضيض بؤسها، ويكون الجلّاد في قمّة ساديّته. العناصر مكتملة، والكارثة تنتظر دخولي كإشارة بدء.

زاغ بصري حين دخلت الغرفة. ذو التكشيرة وحده يكفي لضخّ مزيج قاتل من السموم الشعوريّة في نفسي، فكيف إذا كان معه هذا الرهط من الضبّاط؟ ولكن عند دخولي فوجئت بأنّ أحد الضبّاط وقف واتّجه صوبي واحتضنني، ثم التفت إلى الضابط ذي التكشيرة وقال:

ـ شو هادا يا زلمي، شو عاملين فيه؟! قال ذلك بنبرة ودّيّة.

كان هذا ضابط من أقربائي جاء يطمئنّ عن حالي مستفيدًا من

معرفته برئيس الفرع أو بأحد ضبّاط الفرع. عرّفني بالجملة على الضبّاط الآخرين على أنّهم زملاؤه، وجعلني أجلس على الكنبة المجاورة له. جلست وأنا لم أتغلّب تمامًا بعد على خوفي وانكماشي، وكان الضبّاط الآخرون ينظرون إليّ باستغراب واضح. وأذكر أنّه لم يتفوّه أحد منهم بحرف طوال حوالى ١٠ دقائق هي مدّة بقائي في الغرفة. ولا شكّ أنّ ذا التكشيرة كان فخورًا في نفسه لأنّه معتاد على رؤية أمثالي بهذه الأوضاع المزرية، والأكثر أنّه معتاد على صناعة هذه الأوضاع المزرية التي يستغربها ضبّاط الجيش هؤلاء. وقد أراد قريبي أن يساعدني على استرداد الروح مخمّنًا بذكاء الخوف الذي يمكن أن يكون قد انتابني جرّاء مثل هذا الاستدعاء المفاجئ، فراح يمزح ويشيد أمام الضبّاط بإنجازي الدراسي وتفوّقي.. إلخ. إذن لا علاقة لموضوع الإنكليزي بالأمر. إنّها مجرّد مصادفة. وربّما كان تخمين علي بأنّ أوراق الإنكليزي صارت في حاويات الزبالة صحيحًا، أو لعلّ زيارة الدعم هذه أخمدت أيّة عواقب سيّئة محتملة لموضوع الإنكليزي.

كان قريبي ضابطًا متوسّط الرتبة في الجيش، وكان قد أثبت جدارة عسكريّة في حرب تشرين ١٩٧٣ حيث أصيب بحروق شديدة، وأثبت بعدها جدارة أيضًا في المهمّات التي أوكلت لكتيبة الدبّابات التي كان يقودها في لبنان. ولكنّ الواقع أنّ معظم ضبّاط الجيش مسحوبو السلطة إذا ما قيسوا بضبّاط الأمن. ومهما يكن فإنّ عقليّة ضابط الجيش ونفسيّته تختلف عن عقليّة ونفسيّة ضابط الأمن. ضابط الأمن لا يعترف، عليه أن لا يعترف، بالقيم الخالدة الثلاث: الحقّ والخير والجمال. هذه القيم كلّها تذوب في «قيمة» الأمن، وهذه القيمة ترتفع أكثر كلّما افتقد الفرد «المواطن» لأمنه أكثر، فتكون وظيفة ضابط الأمن عمليًّا هي نزع الأمن من المواطن. نوعيّة العدوّ بالنسبة لضابط

الأمن تفرض عليه ذهنيّة ونفسيّة محدّدة، هنا العدوّ داخلي، العدوّ من أبناء جلدته، من مواطنيه، من أهله. وكما أنّ كلّ جيش خارجي هو بالنسبة لضابط الجيش عدوّ محتمل، يجب مراقبته ومعرفة إمكاناته وأسراره قدر الإمكان، كذلك فإنّ كلّ فرد في الداخل هو عدوّ محتمل بالنسبة لضابط الأمن. أهل البلد هم سند واحتضان وموضوع حماية من منظور ضابط الجيش، وهم مصدر خطر وعدوّ دائم لا يؤتمن جانبه إلّا بالمزيد من المراقبة والتخويف من منظور ضابط الأمن. طبيعة المهمّة مختلفة، والمهمّة تستلزم وتستدعي العقليّة المناسبة.

صُعق قريبي الضابط من الهيئة التي رآني عليها، وأبدى «بلطف» شيئًا من هذا أمام ذي التكشيرة الذي قال باسترخاء مقزّز:

ـ شو صاير عليهم؟ عم ياكلو ويشربو وينامو، ما هيك؟ موجّهًا السؤال إليّ.

غير أنّ قريبي قلب موجة الحديث وفتح مباشرة الموضوع الذي جاء فيما يبدو بشكل أساسي من أجله، توجّه إليّ بالكلام قائلاً:

ـ شوف، أهلك داقو الويل حتى وصّلوك ع الجامعة وناطرين من الله تتخرّج تيشوفو ثمرة تعبن، وأنا هون جاي قلّك إذا بتنسحب من حزبك بتطلع لأهلك ولدراستك فورًا. كلامي بضمانة رئيس الفرع، شو قولك؟ أنا بعرفك عاقل وبيوجعك ع أهلك!

ـ بس أنا ماني منظّم بحزب، من أيّ حزب بدّي انسحب؟

ـ كيف مانك منظّم؟! بالفرع قالولي منظّم وقيادي كمان!

ـ هَيْ سيادة الملازم أوّل كان حاضر تحقيقي، اسألو!

التفت قريبي إلى سيادة الملازم أوّل الجالس خلف المكتب. سيادة الملازم أوّل كشّر بما يفترض أن يكون ابتسامة ثقة بالنفس وبالجهاز وبالوضع العامّ، وقال:

ـ نحنا مناخد بالاحتمال الأسوأ، اللي ما بيعترف بيجوز يكون منظّم وما عم يعترف، نحنا منعتبرو منظّم!

ـ وبتعاملوه متل الثابت عليه التنظيم؟ سأل قريبي محاولاً إخفاء صبغة الاستنكار عن سؤاله.

ـ تقريبًا، قال الملازم أوّل، وأضاف ضاحكًا: بيجوز الثابت عليه التنظيم بياكل قتل أكتر!

أُسقط في يد قريبي. ويبدو أنّه قلب صفحة ما جاء أساسًا من أجله، وراح يسأل عن صحّتي وأحوالي واحتياجاتي، قبل أن يطلب الملازم أوّل إعادتي إلى المهجع.

عودة الروح كانت بالعودة إلى المهجع. أسطورة العود الأبدي!
وما إن أغلق الشرطي الباب ومضى حتى تنحنح عبد المجيد، وقال:

ـ خبّر! قمحة ولّا شعيرة؟

ـ زيوانة! قلت له ممازحًا.

ـ هسّع مش وقت برادتك يا زلمي!

حكيت لهم ما جرى معي. وبدأ سيل التعليقات والتحليلات والاستنتاجات القطعيّة عند من يستهويهم ذلك، ويتميّزون باستعداد عجيب على القطع وعلى الثقة العمياء بما يقطعون فيه.

ـ يا سيدي إذا معتبرينك بالفرع قيادي، سمّك لحف!

ـ أنا براهن إنّهم رح يطالعوك عن قريب، ألله ييسّرلك يا سيدي!

ـ طالما قال قريبك إنّ كلامه بضمانة رئيس الفرع معناها باب المساومة مفتوح!

ـ برأيي هي شغلة ناكتي ما إلها قيمة، المهمّ شغلة الإنكليزي مرقت على خير، الحمد الله ع السلامة!

وكان رأي عبد المجيد إنّ هذه الزيارة دليل على تماسك عائلتنا التي يسأل أفرادها عن بعضهم بعضًا وليس كعائلته (عبد المجيد دائم النقمة على عائلته)، مضيفًا:

ـ المهمّ هالزيارة إشي منيح، بس مو لدرجة إنّي أتبرعلكو بعمل المتّة!

ولكن هناك من يذهب في التحليل مذاهب أخرى تشكيكيّة. ودائمًا لهذه المذاهب في السجن أتباعها ودوائرها الباطنيّة. يمكن مثلاً أن يشكّ أحد ما بكلّ الرواية التي أتيت بها، «فلا ملك جاء ولا وحي نزل»، ويعتبر أنّ قصّة قريبي الضابط ورهط الضبّاط معه مجرّد ستار لإخفاء الغرض الحقيقي من استدعائي إلى المفرزة. وتمامًا كما أنّ الشبهة حول علاقة الرجل بالمرأة تدور دائمًا حول موضوع الجنس، فإنّ الشبهة في العلاقة بين السجين والشرطة تدور دائمًا حول موضوع الإخبار أو التعامل مع الشرطة ضدّ السجناء. هذا هو المرمى الذي تسجّل فيه الأهداف، بصرف النظر عن كلّ المسارات المتشابكة والمعقّدة التي يمكن أن تتّخذها الكرة/التحليلات. وهذا النوع من الشكوك يمكنه أن يستعير من الوقائع لحمًا ودمًا وأرجلاً يسير عليها ويسعى، وذلك يتوقّف على مدى ذكاء ومهارة الشكّاك في اختراع الواقع، أو في تركيب واقع مغاير بدءًا من الوقائع نفسها. ومن طبيعة هذه الشكوك أن تتمّ من وراء ظهر المشكوك فيه! ولكن من خلال اطّلاعي على مثل هذه الطرق في التفكير بصفتي طرفًا ثالثًا في حالات أخرى، يمكنني تطبيق الطريقة نفسها من التفكير على حالتي هذه. يمكن مثلاً أن يطلّ الشكّ برأسه بالسؤال عن سرّ هذه الصدفة التي جعلت قريبي يزورني بعد ساعات قليلة من ضبط رئيس المفرزة قلم الرصاص في يدي! ثم تتوالد الأسئلة التي توجّه الاستنتاج إلى جهة

محدّدة سلفًا: ما الحديث الذي دار بيني وبين رئيس المفرزة في الكوريدور؟ وهل يعقل أن يسكت رئيس المفرزة المعروف بجلافته عن جوابي المتحدّي له، ويعيدني إلى الجماعيّة من دون عقوبة؟ وهل كان جلوسي في مكان مكشوف على طاقة باب الجماعيّة أثناء استخدامي قلم الرصاص للكتابة أمرًا متّفقًا عليه من قبل لتقديم الذريعة؟.. ومثل هذه الشكوك لا يمكن دحضها، فالوقائع التي يمكن أن تشذّ عن الترسيمة أو تتعارض مع ما ترمي إليه هذه الشكوك يمكن جعلها دعائم لها باعتبارها نوعًا من التمويه. تمامًا كما لا يمكنك دحض مبدأ الجبريّة والتسيير أو إثبات الحبّ لمن يشكّ فيه. هذه أشياء لا يبتّ فيها المنطق، الموضوع موضوع قناعة أو إيمان أو حتى ميل وهوى. كلّ الوقائع المخالفة لما يذهب إليه الشكّاك لا تحبط النهم إلى الشكّ، يرتوي النهم إلى هذا النوع من الشكّ نفسيًّا وليس عقليًّا، يرتوي فقط إذا اطمأنّ الشكّاك للشخص، عندها فقط يمكن أن تخمد شكوكه. مسافة قصيرة تفصل هذا النوع من التفكير عن البارانويا، حيث تسقط البراءات كافّة ويتحوّل كلّ فعل، وكلّ حركة (حتى اللاإراديّة منها) إلى محطّ شبهة. ما يتغيّر هو المرمى الذي تسجّل فيه الأهداف. في الشكّ، المرمى أو المحرق هو العلاقة غير النظيفة للسجين مع الشرطة أو لنقل تعامله مع الشرطة. في البارانويا، المرمى هو التأثير السلبي على ذات المريض التي تصبح مركزًا مستهدفًا لا تُفهم تصرّفات الآخرين إلّا بالنظر إليها من خلال موشور هذه الذات المستهدفة، موشور ينزع البراءة عن أيّ سلوك ويصبغ عليه غايات «شرّيرة».

طنين الجماعيّة

استدعائي إلى المفرزة ذلك المساء كان مثل حجر أُلقي في بركة

ماء راكدة. تحدث مجموعة من الارتدادات السريعة قبل أن تمتصّ الركودة اللزجة ارتدادات سقوط الحجر. هكذا هو الأمر. كان حدث الاستدعاء مركز جذب وحّد الجماعيّة حوله لفترة وجيزة، بعدها بدأت مراكز الجذب تتعدّد وعادت الجماعيّة إلى طورها الثابت. عاد طنين الجماعيّة إلى ما كان عليه، طنين كامل الإبهام ناجم عن اندماج مجموعة من الأصوات: صوت البوابير وأصوات المجموعات المبعثرة في لعبها وأحاديثها ومزحها وجدّها وأصوات أعمال السخرة... طنين كثيرًا ما كان يتصاعد بآليّة ذاتيّة، فارتفاعه يدفع المتحدّثين إلى رفع شدّة أصواتهم فيرتفع الطنين أكثر فيرفعون أصواتهم أكثر، حتى يصبح من المتعذّر على المتحدّثين سماع بعضهم بعضًا، ممّا يضطر بعضهم، على الأقلّ، للسكوت، فيخفت الطنين فجأة، ويكتشف من لم يسكت أنّ صوته مرتفع فيخفضه، ليعمّ هدوء قصير، ثم لحظات وتعود شدّة الطنين إلى التصاعد مجدّدًا بالآليّة نفسها. الشيء الذي يمكن أن يحلو للمرء أن يدعوه الطنين النابض أو المعاود أو المتواتر.. طنين يشتدّ ثم يخفت، ثم يشتدّ ويخفت وهكذا.. قوانين طبيعيّة تحدّ ذاتها بذاتها. وقد كانت فيزياء الجماعيّة التحتانيّة تزيد في مشكلة الطنين تلك، كما لو أنّها مصمّمة لخلق هذه المشكلة عند اكتظاظها بالسجناء. ذلك أنّ الأصوات التي تخرج من شبابيك الجماعيّة الضيّقة والمتراصفة تحت السقف بقليل، والتي تشلّ الكراتين والصناديق الخشبيّة المعلّقة على الجدران فاعليّة الكثير منها، كانت تصطدم بعد خروجها بالجدار العالي الذي يحيط بمبنى السجن، فترتدّ لتدخل إلى الجماعيّة بعد أن تكون قد تشظّت وشوّهت، لتشارك في جوقة توليد الطنين الرهيبة. هذه المشكلة لا تعاني منها الجماعيّة الفوقانيّة بالدرجة نفسها لأنّ شبابيك الجماعيّة الفوقانيّة مفتوحة على فضاء مفتوح.

وبعد أن ازداد تعداد الجماعيّة عقب نقل السجناء السياسيين من سجن القلعة إلى سجن الشيخ حسن، صار طنين الجماعيّة عاليًا ومزعجًا إلى حدّ لا يطاق، ولا سيّما في فترة السهرة. وفشلت آليّة التنظيم الذاتي، فقد صار هذا الطنين نوعًا من التعذيب بالنسبة للأشخاص الأقلّ احتمالاً، الذين كان يضطرّ أحدهم إلى أن يقف ويصرخ بصوت عال طالبًا من الجميع تخفيف الصوت:

ـ منشان ألله شويّة هدوء يا شباب!

وكثيرًا ما كان يكرّر الصراخ مرّات حتى يستطيع اختراق «جدار الطنين» ولفت انتباه المتحدّثين، فتهدأ الجماعيّة لحظات ليبدأ الطنين مجدّدًا بجمع أشلاء ذاته ومراكمتها شيئًا فشيئًا وصولاً إلى قمم طنينيّة لا تحتمل. وكان بعض السجناء في الصيف، حين يجتمع اشتداد الطنين مع ركودة هواء الجماعيّة وارتفاع حرارة الجوّ فيها، يفقدون قدرة السيطرة على الذات.. فمنهم من يصرخ بطريقة هستيريّة طالبًا الهدوء، ومنهم من يفقد الوعي، ومنهم من يضيق نفسه وتجحظ عيناه بطريقة مرعبة. كان يوشع أوّل من افتتح طريق فقدان القدرة على الاحتمال جرّاء هذا المزيج الفظيع من الطنين والحرارة وركودة الهواء. فجأة ضاق صدره وصار وجهه محمرًّا وعيناه جاحظتين، فلجأنا إلى خبط باب الجماعيّة حتى جاء شرطي وفتح الباب، وأخرج يوشع من الجماعيّة إلى ممشى التنفّس كي تستقرّ أخلاط بدنه ويستعيد جسمه توازنه. فيما بعد تكرّرت الحالة مع آخرين بنوبات هستيريّة أحيانًا وفقد وعي أحيانًا أخرى، كان العلاج الكافي لها هو الخروج من الجماعيّة شديدة الاكتظاظ.

في هذا الجوّ من الحريق والازدحام الشديد وتشبّع الهواء الراكد برائحة الأجساد والأنفاس، كان التدخين يزيد في صعوبة الوضع. لا

المدخّن قادر على الامتناع ولا الهواء يحتمل المزيد من التلوّث. التدخين في هذا الجوّ يظهر، كما سيظهر لاحقًا أيضًا في جحيم سجن تدمر، على أنّه فعل أناني لا بدّ منه. لا هامش كافيًا للمدخّن كي يرضي مطالب نفسه وجسده إلّا على حساب راحة وأعصاب البقيّة. كان التدخين عبئًا أيضًا على المدخّن ومدعاة لتأنيب الضمير. لكنّ القوّة التي ربّما تدفع المدخّن إلى التفكير بالإقلاع عن التدخين، هي نفسها القوّة التي تشدّه إلى السيجارة وتُكرهه على التدخين.

في ساعات الركودة القصوى في الهواء وازدياد نسبة التلوّث إلى درجة يضيق معها النَفَس، خرجت الجماعيّة باختراع التهوية بالشراشف الرطبة. كنّا نبلّل أحد الشراشف القطنيّة بالماء ويمسكه أربعة أشخاص من زواياه الأربع، يرفعونه ويخفضونه بتواتر هادئ كي يحرّك الهواء ويرطّبه. وكانت حقًّا طريقة فعّالة تعيننا على الاحتمال. وكان الأشخاص الأكثر ضيقًا من الحرارة يتسابقون على الاستلقاء تحت الشرشف الذي تتمّ التهوية به. وقد كان من محاسن الكراكون التي لا بدّ من ذكرها أنّ الماء فيه لا تنقطع.

الطاموسة

تأتي ساعة النوم المتّفق عليها بين السجناء (العاشرة في الليل شتاء والحادية عشرة في الليل صيفًا) فيهدأ الطنين ونرتاح من ضغطه المتواصل على الرأس. تصمت البوابير ويصمت الناس وتُرفع الغلوبات لتخفّف من حدّة ضوء اللمبتين المتدليّتين من السقف. تهدأ الحركة الدائبة داخل الجماعيّة، هذه الحركة التي تشكّل طول النهار ما يمكن تسميته الطنين الحركي أو الطنين البصري الموازي لطنين الجماعيّة الذي يصمّ الآذان. الجوّ صار ملائمًا للنوم. غالبيّة أهل الجماعيّة

ينامون. الجوّ صار ملائمًا إذن لازدهار الطاموسة. لا يمكن لكلّ معاجم اللغة العربيّة أن تفيدك في فهم معنى كلمة الطاموسة. عبثًا تبحث في المعاجم عن هذه الكلمة، لا بردّها إلى الثلاثي ولا بغير ذلك. الطاموسة هي شيء خاصّ بالجماعيّة التحتانيّة في سجن الشيخ حسن، لم أجد شبيهًا لها سوى في مهاجع الباحة الخامسة في سجن تدمر. على أنّ هذه المهاجع لم تبنَ فيما يبدو لتكون مهاجع للسجناء بل مهاجع للعساكر. الطاموسة هي مساحة منخفضة بمقدار نصف متر تقريبًا وسط الجماعيّة يحيط بها من ثلاث جهات مصطبة مخصّصة لنوم السجناء، والجهة الرابعة مفتوحة على الباب. الطاموسة في الأصل غير مخصّصة للنوم، إنّها فيما يبدو حلّ «معماري» لمشكلة تأمين أماكن لوضع أغراض الجماعيّة. ذلك أنّها محاطة بمناطق مفرغة واقعة تحت المصطبة (طاقات)، وهذه الطاقات واسعة ومتعدّدة وهي وسيلة ممتازة لتخزين أغراض الجماعيّة. وكان يمكن الظنّ أنّ الطاموسة مخصّصة لممارسة أعمال الجماعيّة من غسيل وجلي لولا أنّها غير مزوّدة بمصرف للماء. وقد كان هذا الخلل «الهندسي» من أسباب شقاء السخرة في الجماعيّة التحتانيّة حين تشطف الطاموسة، فعمليّة رفع الماء منها كانت تتمّ بطريقة لا تخطر على بال، ويشكّ المرء بجدواها إلى أن يجرّبها، وهي رفش الماء بالمجرود أو الرفوشة وسكب ما يحمله المجرود من ماء في سطل ثم سكب هذا بعد أن يمتلئ في التواليت.

باب الجماعيّة التحتانيّة أعلى من أرضيّة الجماعيّة، لذلك حين تدخل من الباب عليك أن تهبط درجًا من ستّ درجات حتى تصل إلى الطاموسة ومنها تصعد إلى المصطبة. مستوى الباب أعلى أيضًا من مستوى المصطبة. المكان الوحيد في الجماعيّة الواقع على مستوى الباب، الذي هو مستوى كوريدور الزنازين، هو تواليت الجماعيّة. إنّ

هذه «الرفعة» التي يتميّز بها التواليت هنا، رأيتها على صورة أوضح وأجلى في المهجع السادس من الباحة الخامسة في سجن تدمر. هناك يحتلّ التواليت مكانًا «مرموقًا» أكثر وسط المهجع، فالدخول إليه ارتقاء، ولا يرتقيه إلّا من يقدر على صعود الدرج، في هندسة تعيد الاعتبار لأهمّيّة ما يمارس داخله. التقارب الهندسي المعماري واضح بين الجماعيّة التحتانيّة في سجن الشيخ حسن ومهاجع الباحة الخامسة في سجن تدمر. في المكانين هناك ثلاثة مستويات داخل المهجع هي: مستوى الطاموسة وهو الأخفض ومستوى المصطبة وهو المتوسّط ومستوى التواليت وهو الأعلى. هذه فيما يبدو هندسة فرنسيّة، وذلك قياسًا على الباحة الخامسة في سجن تدمر، وهي بناء فرنسي على الأرجح، من حيث علوّ السقف وشكل النوافذ وارتفاعها. وكان يمكنني ببساطة ملاحظة التشابه بين بناء مهاجع الباحة الخامسة وبين بناء البيوت والمكاتب التي بناها الفرنسيّون في قريتنا من أجل سكن وعمل إدارة شركة الإسفلت ذات الأصل الفرنسي، حيث اكتشف الفرنسيّون الإسفلت واستثمروه. وعليه، ربّما كانت الجماعيّة التحتانيّة في سجن الشيخ حسن بناء فرنسيًا أيضًا.

تزدهر الطاموسة حين تتخفّف الجماعيّة من العدد الأكبر من أهلها بالنوم، ويبقى قلّة من الساهرين الذين تصبح الطاموسة مملكتهم، فسحة لتبادل أحاديث هامسة، أو للعب الشطرنج، أو لقراءة الجريدة (التي سمح الفرع بإدخالها لنا بعد إضراب قصير عن الطعام، وهو غير إضراب النقل إلى سجن عدرا) أو لقراءة كتاب مهرّب، أو للكتابة إذا توفّرت شروطها، أو لمجرّد الاستمتاع بلحظات هدوء مفقودة طوال النهار. الطاموسة التي تشكّل رئة للساهرين ممّن اعتادوا على السهر أو ممّن جافاهم النوم في تلك الليلة، تكون مصدر إزعاج أحيانًا للنائمين،

إذ لا يمكن للساهرين أن يحترموا دائمًا حاجة النائمين للهدوء، ويمكن للأصوات أن توقظ خفيفيِّ النوم أو أن تمنع البعض من الدخول في النوم، ما قد يثير المشاكل والجدالات الثنائيّة الحادّة، ويؤدّي إلى طرح الموضوع على الجماعيّة ومناقشته والتصويت على مقترحات وإصدار «فرمانات». والطاموسة هي المكان الذي يقف فيه من يريد أن يعلن «فرمانًا» على أهل الجماعيّة. والطاموسة هي مسرح المشي المكّوكي للسجناء الراغبين بتحريك دمائهم خلال ساعات النهار الطويلة. وهي المكان المناسب للتهوية بالشراشف المبلّلة في أيّام الصيف الحارّة.

بعد نقل سجناء سجن القلعة إلى الكراكون، بدأت محنة التحايل على المكان الضيّق لاستيعاب كلّ هذه الأجساد المحكومة به. في السجن السياسي لا يوجد امتيازات خاصّة ولا حقوق محفوظة لأحد من دون آخر. يوزّع المكان بعدل. هكذا كان الحال في سجن الشيخ حسن وهكذا كان في سجن عدرا وفي سجن تدمر. كان هناك لا شكّ مراعاة للمرضى وكبار السنّ، وهذا يتمّ برضا الجميع وعلى أرضيّة المساواة وليس ضدّها. يتمّ تقسيم المكان لاستيعاب أكبر عدد ممكن. وكما هو الحال دائمًا، تفرز الجماعيّة بآليّة «طبيعيّة» الأكفأ لكلّ مهمّة، يبرز الأشخاص الذين يتميّزون بقدرة ممتازة على التوزيع وباستعداد طوعي لخدمة المجموع. توزّع الأماكن، تحصل اعتراضات، الاعتراضات هي دائمًا على الموقع وليس على المساحة، إذ من الممكن توحيد المساحة، ولكن لا يمكن توحيد المواقع. التنافس يكون دائمًا على احتلال الزوايا، الزوايا محدودة والراغبين بها كثر. وهي غالبًا ما تُعطى لكبار السنّ أو للمرضى أو لمن يمتلك الجرأة على إظهار أنانيّته وسط ترفّع الآخرين. هناك دائمًا من يشعرون بالظلم ويحتجّون على أيّ شيء، وهناك من يقبلون بأيّ شيء لتسيير وتيسير

الأمور، وهناك من يقبلون ولكن من دون رضا، وهؤلاء يشكّلون ألغامًا مستورة يمكن أن تتفجّر مشاكل وصدامات عند أدنى احتكاك.

النفوس في مثل هذا الجوّ تفقد الكثير من مرونتها وتصبح جاهزة للانفجار عند أدنى سبب. السجناء المنقولون من سجن القلعة يشعرون بالغبن، فقد كانوا في سجن القلعة «أبناء عزّ» ويحقّ لهم أن يحنقوا على تردّي وضعهم بهذا الشكل، وهم أيضًا سجناء قدامى (كان هؤلاء هم شيوعيّو «المكتب السياسي» الذين اعتقل معظمهم في ربيع ١٩٨٠، وكانوا قد قضوا أربع سنوات في السجن حينها، وقد كانت تلك فترة سجن ثقيلة على التصوّر قبل أن يحيلها الزمن الأمني السوري التالي إلى مزحة) يحقّ لهم أن يرتاحوا. وسجناء الكراكون «الأصليّون» يشعرون أنّ سجناء القلعة جاؤوا ينافسونهم على «مملكتهم». كلّ فئة تستعرض الرحرحة التي كانت عليها قبل حادثة الدمج. غير أنّ فئة الكراكون «الأصليّة» لا تستطيع مع ذلك أن تنكر التفوّق الحضاري للفئة الوافدة، وما جرّه الدمج من فوائد لها. فهؤلاء كانوا يتمتّعون بوجود أجهزة الراديو والأقلام والدفاتر والكتب والزيارات الدوريّة التي تنعكس اطمئنانًا وراحة على وجه السجين وروحه. قدوم سجناء القلعة شكّل ثورة في الكراكون، فقد كان تماسًّا مع «ثقافة» جديدة. الثقافة هنا هي الشكل الذي استقرّ عليه استيعاب المجموعة المحبوسة لشروط حبسها، هي طريقة تعاملهم فيما بينهم وطريقة سيطرتهم على الوقت وتأقلمهم مع ظروف السجن. ففي كلّ سجن تسود «ثقافة» معيّنة، لكلّ سجن لغته التي يستوعب بها تفاصيل السجن، وفي كلّ سجن نظامه الذي تسير وفقه حياة الأفراد. كلّ ثقافة سجنيّة هي حاصل لقاء طبيعة الناس المسجونين وظروف السجن، وهذه الثقافة تتغيّر بتغيّر أحد طرفيها.

مع مجيء سجناء سجن القلعة صار لدينا في الجماعيّة «راديو»، وصار هناك موعد يومي تستمع فيه الجماعيّة إلى نشرة أخبار مونتي كارلو الأخيرة (البانوراما) قبل موعد النوم، وصار لدينا بعض الكتب التي نجت من المصادرة في زحمة الأغراض. والأهمّ (بالنسبة لنا نحن دفعة طلّاب الجامعة التي اعتقلها فرع الأمن السياسي بتهمة حزب العمل الشيوعي) أنّه صار بيننا شيوعيّون مختلفون سياسيًّا عنّا، يرون إلى الأمور من منظور آخر، أشخاص أكبر سنًّا منّا، أكثر برودة وواقعيّة. أشخاص مثقّفون وأصحاب تجربة ونضال، الأمر الذي يفرض عليك التأمّل والتفكير في هذا الاختلاف وليس إدارة الظهر له استعلاءً، كما كان يجري مع «المختلفين» الآخرين. من جهتي كان هذا الاحتكاك مؤثّرًا ومفيدًا للغاية. اكتسبت لديّ السياسة جرّاءه معنى أقلّ تجريدًا وأكثر فاعليّة، حيث هبطت من حدّة الرياضيّات وصرامتها إلى مرونة الفيزياء وملاءمتها. ومن جهتي ساهم ذاك الاحتكاك في جعلي أكثر قبولاً للاختلاف وتقبّلاً للمختلف. كنت قبله وخلاله أرى أنّ للحقيقة وجهًا واحدًا، وأنظر إلى أيّ نقاش سياسي نظرتي إلى حلّ مسألة حسابيّة لا تقبل نتيجتين مختلفتين.

التنفّس في الكراكون

«باحة» التنفّس في الكراكون هي ممرّ على شكل مربّع يحيط بمبنى الكراكون (المنطقي أنّ الممرّ يفضي إلى شيء، ولكن ممرّ التنفّس هذا مغلق ولا يفضي إلى شيء، لذلك من الأدقّ أن نسمّيه ممشى). هو إذن ممشى محصور بين مبنى السجن، وبين سور يرتفع حوالى ٤ أمتار يحيط بمبنى السجن ويعلوه، فوق هذا، أسلاك شائكة على ارتفاع حوالى المترين. الواقف في هذا الممشى لا يمكنه أن يرى من العالم

شيئًا إلّا إذا رفع رأسه إلى الأعلى فيرى السماء. ولكن من إحدى زوايا الممشى المربّع، الزاوية الشماليّة الشرقيّة، يمكن لمن يقف ويرفع رأسه قليلاً وينظر صوب الغرب، رؤية رأس شجرة كينا ضخمة، كان هذا كلّ ما هو متاح لنا من العالم الرومانسي.

ينفرد سجن الشيخ حسن بأنّ التنفّس فيه طواف. والطواف حول البيت صلاة، كما يُقال. يطوف السجناء حول مبنى سجنهم بتعبّد من نوع خاصّ. حركة دائريّة لانهائيّة حول مركز ينزع من الطائفين محاورهم الذاتيّة وأنانيّاتهم، فيتوحّدون في الدوران حوله وفي تبعيّتهم له. طواف في الممشى وسعي في المهجع والأجر على «ربّ البيت»! ورغم أنّ هذا الممرّ لا يتّسع عرضه لأكثر من شخصين، إلّا أنّه كان مع ذلك يستوعب حيويّة بعض السجناء النشيطين الذين يستغلّون نصف ساعة التنفّس لممارسة رياضة الجري حفاة بين المشاة وعلى غير ترحيب من هؤلاء. وبعد كلّ هذا فقد كان للتنفّس في الكراكون بهجته التي كنّا ننتظرها ونتأهّب لها، ونحبط أيّما إحباط حين يلغى التنفّس لسبب ما. أيُّ انشغال عند الشرطة يكون دائمًا على حساب تنفّس السجناء. تنفّس السجناء دائمًا هو سندريلا أشغال الشرطة وأوّل ما يسقط من الحساب. كنّا ننتظر هذا التنفّس الذي لا يعدو كونه سيرًا في ممشى ضيّق وعميق، كما لو أنّنا ننتظر نزهة. هناك من ينتظر متعة السيجارة وكاسة الشاي في إحدى زوايا الممشى، وهناك من يلبس ثيابًا خاصّة للتنفّس. هناك من كان يرتدي في التنفّس طقمًا وكرافات رغم كلّ جعك التخزين. ربّما بذلك يقترب أكثر من هيئة الإنسان غير السجين فتطمئن نفسه قليلاً. ربّما يحاول أن يثبت بذلك لنفسه ولغيره أنّه يصلح أن يكون شيئًا آخر غير كونه سجينًا. اللباس ينعكس على النفس، ومن حسن الحظّ، ولا أشبع من تكرار هذا، أنّنا في كلّ

السجون التي تقلّبنا فيها لم يفرض علينا لباسًا موحّدًا. أظنّ أنّ من أكثر الشروط تدميرًا للنفس هو فرض اللباس الموحّد على السجناء. التنفّس في الكراكون هو تغيير جوّ على أيّ حال، واستنشاق هواء أقلّ تلوّثًا. هو أيضًا فرصة لمن يريد أن يحلق ذقنه على المغسلة الموجودة بجانب الباب المفضي من ممرّ الزنازين إلى الممشى، وفرصة لمن يريد أن يحلق شعره عند أحد السجناء الذين يقدّمون هذه الخدمة، ذلك أنّ عدّة الحلاقة يجب أن تبقى خارج الجماعيّة خشية على السجناء من أنفسهم. والتنفّس أيضًا فرصة لمن يريد أن يتداول موضوعًا خاصًّا مع شخص بعيدًا عن جوّ الجماعيّة المحصور.

أذكر، وأنا أكتب الآن، أنّنا طوال فترة مكوثنا في سجن الشيخ حسن لم نتّجه في طوافنا حوله إلّا باتّجاه واحد. لم يحدث يومًا أن شذّت حركتنا عن هذا الاتّجاه. اتّجاه عفوي. نخرج من الباب المفضي إلى الممشى ونتّجه يسارًا ونبدأ طوافنا. الطواف حول البيت العتيق في الحجّ جهته إلى اليسار. الأرض تدور حول نفسها باتّجاه اليسار. القلب يميل إلى اليسار. فقط الشرطي أبو كامل، وكان في الستّينيّات من عمره ويتّصف بأنّه مربوع القامة وقليل الكلام وشديد الالتزام بالنظام ومغرم بتوفير الكهرباء، كان يطيب له معاكسة اتّجاه مشي الجميع، رغم أنّه لا يحمل في نفسه أدنى نوازع المعارضة. كان يمشي باتّجاه مخالف ويصطدم بالتالي بالجميع ولا سيّما بممارسي الطواف جريًا، وكان يكرّر جملته الشهيرة كلّما اصطدم به أحد «الرياضيين»: «يقطع عمرك شو غليظ!» من دون أن يجد غضاضة في مخالفته هو «القواعد السير». أبو كامل الذي لا أذكر أنّي رأيته يومًا بغير بدلته الرماديّة، كان يسهل ردّه، إذا اعتمدنا فكرة ردّ أشكال البشر إلى سواهم من المخلوقات، إلى فرس النهر. وكان يتميّز بحرصه

الشديد على الطاقة الكهربائيّة، فما إن يأتي إلى الجماعيّة لأمر ما حتى يطفئ وهو راجع اللمبة الوحيدة المعلّقة في سقف كوريدور الزنازين مبربرًا بكلام لم نستطع يومًا فهمه، وتاركًا الممرّ إلى عتمته الطبيعيّة. وحين طلب منه برهان ذات يوم أن يكفّ عن إطفاء اللمبة، التفت إليه وقال بدون عدائيّة، فالرجل للحقّ لم يكن عدائيًّا أبدًا: «انضبّ ولا! يقطع عمرك شو غليظ!». وكان يتميّز أيضًا بأنّ وجهه لا يشارك لسانه الغضب، حين يغضب، فتراه يرمي القذائف الثقيلة بلسانه في حين يكون وجهه محايدًا لا يوحي لمن يراقبه بأيّ مشاعر. وقد تبيّن أنّ أبا كامل يمتلك من المشاعر الإنسانيّة (التي لم تعبّر عن نفسها في حادثة غرق زنزانتي لاحقًا) ما لا يقلّ عن حرصه على الطاقة الكهربائيّة، فقد لعب أمام ناظريَّ دورًا تفاوضيًّا إنسانيًّا مهمًّا مع أحد النقابيين (أعضاء من نقابتي المحامين والمهندسين في سورية اعتقلوا في ١٩٨٠ إثر إصدار هاتين النقابتين بيانًا اعتبرته السلطات السوريّة حينها منحازًا لصالح الأخوان المسلمين في صراعهم على السلطة آنذاك). كان هذا النقابي ويُدعى أبا أنس، وهو محام، مضربًا عن الطعام، وكعقوبة له نقلوه من سجن القلعة المدني المجاور لسوق الحميديّة في دمشق القديمة ووضعوه في إحدى زنازين الشيخ حسن. وقد صادف أنّ هذه الزنزانة كانت قبالة زنزانتي التي كنت أقضي فيها فترة عقوبة أنا أيضًا ولكن لسبب آخر، وهو حيازتي قلم رصاص داخل الجماعيّة. دارت أحاديث قليلة بيني وبين هذا المحامي الذي بدا غير ميّال للحديث، وكان يتكلّم بفوقيّة تقوم عنده على أكثر من سند، ليس أقلّها أنّه مضرب عن الطعام. حدّثني عن تقاعس زملائه وعن صموده لأكثر من شهرين حتى الآن من دون طعام مكتفيًا بالسوائل، والسوائل طبعًا هي كلّ ما يصل إلى المعدة من دون معونة الأسنان. وعليه وبفضل الصمود، فقد

كان هذا المحامي قادرًا بعد شهرين من الإضراب عن الطعام على الوقوف والمشي والتحدّث بفوقيّة أيضًا.

ذات مساء، جاء أبو كامل وفتح باب زنزانة المحامي وبادله بعض كلمات الودّ وغادر تاركًا باب الزنزانة مفتوحًا. كان قد أفل الصيف وبدأت روائح الخريف تظهر في الجوّ. بعد قليل عاد أبو كامل وراح «يفاوض» المحامي أن يفكّ إضرابه. ويبدو أنّ بساطة أبي كامل فعلت ما لم تفعله غطرسة ضبّاط الفرع. فبعد «محادثات» قصيرة، قدّم المحامي خطبة موجزة عن تاريخه وطباعه الشخصيّة، ولا سيّما أنّه لا يحني رأسه لغير الله. وكانت تلك الخطبة مقدّمة للتراجع أو نوعًا من تغطية الانسحاب، أو من القصف العنيف الذي يمارسه المحتلّ قبل أن ينسحب من الأرض المحتلّة. المهمّ أنّ المحامي أبدى ليونة، وطلب مقابلة أحد ضبّاط الفرع، فكان له ذلك، ثم عاد بعد المقابلة وقد فكّ إضرابه. وكنت شاهدًا على احتفاء أبي كامل بهذه الخطوة، من دون أن أفهم حتى الآن سرّ فرحته بذلك! هل هو نجاحه في حلّ عقدة هذا المحامي حيث فشل رؤساؤه، أم إنسانيّته وراحة نفسه بانتهاء محنة إنسان لم «يأكل» منذ شهرين؟ إذ سرعان ما خرج أبو كامل إلى السوق القريبة من السجن وأحضر للمحامي فاتورة خاصّة كان على رأس القائمة فيها العنب الأسود، ونحن، للتذكير، في أواسط الخريف. في تلك الظروف التي كنّا نعيشها في الكراكون لو ترك العنب يسرح حرًّا وافرًا في الشوارع والأزقّة لما عرف طريقًا له إلى «أهل» الكراكون. فبعد أيّام رخاء ظاهر كنّا خلالها نتكرّم على عناصر الشرطة بإعطائهم صناديق من المعلّبات الفائضة والمتراكمة، حلّت علينا فجأة أيّام قحط رهيبة. توافق ذلك مع مقاطعة دول الاتّحاد الأوروبي للنظام في سورية أواخر ١٩٨٤. كان ما يصل من الطعام إلى «ابن» الزنزانة في اليوم لا

يكفيه لوجبة. غالبًا ما كان الفطور مثلاً خبزة صغيرة (مرقدة) مع نصف ملعقة من مربّى المشمش. كان الشحّ شاملاً، حتى إنّ صديقي علي كان لا يجد ما يبلّ به ريقه قبل السيجارة (بعد أن سمحوا بالتدخين) سوى القليل من معجون الأسنان. ولا أزال أذكر أنّني ذات ليلة سقطت فريسة جوع مفاجئ ظالم، جوع مفاجئ كالهاوية العميقة المستورة بسطح خادع، ولم يكن عندي في الزنزانة ما يمكن أن يؤكل. حاولت النوم فالصباح رباح، ولكنّي لم أستطع. وبتّ أشعر برجفة ناعمة تشمل كلّ أنحاء جسمي، وشيء من التعرّق البارد، وكانت رغبتي وحاجتي تئنّان خلف جدار صلد من الحرج والخجل. جدار يحول بيني وبين الخبط على الباب كي أستعين بالمفرزة على حلّ مشكلتي. لم نكن قد طوّرنا بعد تقنيّات التواصل بين الزنازين. وحتى لو كانت هذه التقنيّات موجودة، فمن أين يمكن أن تجد عند أحد فائضًا ما من الطعام يعين به غيره. وبينما كانت يدي مشلولة عن طلب العون، امتدّت يد أخرى، في ذلك الوقت المتأخّر من الليل، وفتحت باب كوريدور الزنازين. كانت تلك يد أبي ممدوح، المساعد «الحوراني» الوديع، وقد كان يقصد الجماعيّة التحتانيّة لأمر ما. لا شكّ أنّه يريد أن يستفسر كالعادة، ولكن ليس في مثل هذا الوقت المتأخّر، عن آخر أخبار مسبحة زيتون ما ربّما وعده بها أحد السجناء. نقرت بخفّة على باب الزنزانة، فصاح أبو ممدوح من دون أن يتوقّف عن سيره باتّجاه الجماعيّة «شو في يا...!؟»، تلك كانت عادته التي يتحرّر بواسطتها من عبء حفظ الأسماء ويحافظ في الوقت نفسه على لباقته، فلا يقول كلمة الزجر الشهيرة التاريخيّة التي تميت بجلافتها وقسوتها كلّ الأسماء: «وْلا!». كان الوقت متأخّرًا في الليل ولم يكن من المنتظر أن يدخل أحدٌ كوريدور الزنازين قبل الصباح. أيّ صدفة جميلة أرسلت

هذا المساعد الجميل في هذا الوقت! أجبته: «أنا الزنزانة رقم واحد، أبو ممدوح!». تابع المساعد سيره إلى غايته من دون أن يقول شيئًا، وقف بعض الوقت على طاقة باب الجماعيّة مع أحد ما، وعاد يتفقّد من ناداه. نقرت ثانية على الباب ففتح لي الطاقة:

ـ «شو في يا. . . !؟».

ـ «ألله يخلّيك أبو ممدوح بدّي شي آكله!».

ـ «شي تاكله!؟» فوجئ بهذا الطلب، صمت قليلاً، التفت صوب الجماعيّة وقال: «مش قادر تنام آ. . هسّع منين أجبلك شي تاكله؟. . ملعون أبو العازة. . !».

كانت عبارته الأولى تدلّ على تفهّم، وعبارته الأخيرة تعبيرًا عن تضامن، أو هكذا فهمتُ. وكنت واثقًا كلّ الثقة ومطمئنًا تمامًا إلى أنّ أبا ممدوح لن يتركني على حالي، لن ينام قبل أن يؤمّن لي حاجتي كي أنام ودون أن أكرّر طلبي. يمكن التردّد في تلبية أيّ طلب سوى طلب الطعام. مؤثّر عمومًا أن يطلب إنسان الطعام، أن تشعر أنّك أمام إنسان جائع لا يملك ما يأكله. وبالمقابل ربّما كانت أقسى حاجة يعبّر عنها إنسان هي حاجته للطعام. وإذا كان يمكن لشخص ما إن يتقاعس أمام جيشان القيم العميقة التي يثيرها مثل هذا الطلب، فإنّ هذا المساعد الناشئ في بيئة تحمي نفسها بالتكافل والنصرة والكرم لن يتقاعس. غاب أبو ممدوح وعاد بسندويشة حلاوة من القياس الكبير.

ـ خوذ يا. . . !

تناولتها بامتنان، وقد بدا الرضا الذاتي على وجه المساعد الذي ترك طاقة الزنزانة مفتوحة قائلاً: «قبل ما تنام سكّرها متل ما بتعرف، عشان جماعة بكرا!» كرم إضافي! كانت الخبزة وحدها شيئًا له قيمة

عالية في ذلك الزمن القاسي، فكيف إذا كانت مع الحلاوة! كانت أيّامًا قاسية تلك، ومع ذلك أفلح فيها أبو كامل في فتح أسوار صمود المحامي «المضرب» عن الطعام.

في ذلك المساء الخريفي الذي فكّ فيه المحامي إضرابه وراح يوزّع خصلات صغيرة من العنب الأسود على أهل الزنازين، من شيوعيين وإسلاميين وسواهم، كانت فرحة أبي كامل لا توصف حتى إنّه قبل خروجه من كوريدور الزنازين نظر إليّ وأنا أتسلّى بمراقبة ما يجري، وكانت زنزانتي هي الأقرب إلى باب الكوريدور، وغنّى وهو يهزّ رأسه، أغنيته المفضّلة: «فكّرنا الباشا باشا طلع الباشا زلمي». لم يكن مألوفًا أن تجد أبا كامل بهذا المزاج، وربّما كان خروجه عن مداره المألوف في ذلك اليوم هو ما جعلني أذكر جيّدًا تفاصيل ذلك. ولسبب ما غامض ومستغلق، كما هو غامض ومستغلق سرّ فرحة أبي كامل بقرار المحامي فكّ إضرابه، يتمتّع أبو كامل هذا بحضور قويّ في ذاكرتي عن الكراكون. من أيّ باب جئته تراه رجلاً نمطيًّا يكاد لا يتميّز بشيء، لذلك من الطبيعي أن يثير الاستغراب حضوره هذا في ذاكرتي. تحمل ذاكرتي عنه أيضًا أنّه دخل ذات يوم إلى الجماعيّة بعد أن خرجنا جميعًا إلى التنفّس. في الجماعيّة كان علي يقوم بمهامّ السخرة حينها مستغلًّا خلوّ الجماعيّة من الناس، وقد شمّر عن ساقيه حتى منتصف الفخذ كعادته وراح يشطف أرضيّة الجماعيّة. كان أبو كامل يكره أن يتأخّر أحد ما من السجناء عن الخروج إلى التنفّس، ويفسّر ذلك بأنّه حرص منه على السجين وعلى صحّته. ولذلك كان يتفقّد الجماعيّة بعد خروجنا إلى التنفّس ليتأكّد من خلوّها من النيام والكسالى، وربّما من أصحاب النوايا السيّئة أو الشاذّة الذين يمكن أن يستغلّوا خلوّ الجماعيّة لتحقيق مآربهم وممارسة شذوذهم، كما يمكن أن يخطر له. وحين

وجد عليًّا على تلك الصورة غضب وبربر كلامًا لم نفهم منه إلّا عبارة: «يقطع عمرك متل النسوان!» كانت طبيعة ساقيّ علي أنّهما خاليتان من الشعر، فهل ظنّ أبو كامل، على بساطته، أنّ علي ينتف الشعر عن ساقيه «متل النسوان» فغضب، أو أنّه غضب لأنّ عينيه وقعتا على شذوذ في الطبيعة، أن يرى ساقيْ رجل بلا شعر، بما يحمل ذلك من نذر شؤم، جريًا على قناعات ريفيّة تتشاءم من كلّ ما هو مخالف للمألوف والطبيعي، كسماع صوت كلب يعوي مثل بنات آوى أو دجاجة تصيح مثل ديك.

في عصر أحد أيّام شهر تشرين الثاني ١٩٨٤، وبعد حوالى شهر من حرمان أهل الزنازين من التنفّس، سمحوا لنا بالخروج من الزنازين إلى ممشى التنفّس. كان شيئًا يعادل عيدًا صغيرًا. المشي في الزنزانة يسمح لك بخطوتين فقط تستدير بعدهما ثم خطوتان وهكذا، مشي أشبه ما يكون بالدوران حول الذات. أمّا أن تمشي من دون أن يقف في وجهك حائط، فهذا حلم. صحيح أنّ سجن الشيخ حسن لا يحوي باحة للتنفّس، ولكنّ الطوافّ حول مبنى السجن، في ذلك الممشى الشهير، شيء رائع إذا ما قورن مع «المشي» في الزنزانة. خرجنا، نحن أهل الزنازين «الضالّين والمغضوب عليهم»، مبتهجين ومشينا وتحادثنا ونسينا ما يحيط بنا، هناك حالات داخل السجن تنسي السجين سجنه، وربّما لولا ذلك لما أمكن احتمال السجن. بعد حوالى نصف ساعة (نصف ساعة من التنفّس كانت كرمًا كبيرًا من قبل الشرطي الذي يراقبنا، أو ينطرنا، أو يرعانا، فالوقت المخصّص لأهل الزنازين من التنفّس لا يتجاوز عادة ١٠ دقائق أو ربع ساعة بالحدّ الأقصى)، وقف أبو كامل عند باب الكوريدور وطلب من المتنفّسين، من دون كلام، البيات إلى زنازينهم. هل هو كرم أخلاق من أبي كامل أم أنّ ذهنه

شرد في أمر ما ونسي النظر إلى ساعته؟ لا أدري! لكنّها كانت نصف ساعة جميلة من التنفّس. غير أنّي لم أكن أدري ما ينتظرني بعدها. فحين دخلت زنزانتي رأيتها غارقة في الماء: البطّانيّات والعازل والخبز وكلّ شيء! أحد ما من المتنفّسين دخل إلى زنزانتي كي يشرب أو كي يتبوّل، باعتبارها الزنزانة الأقرب إلى الممشى، وعجز عن إغلاق حنفيّة الماء العاطلة ثم نسي أن يخبرني. كانت الماء تغدق من الحنفيّة بقوّة هائلة. أغلقت الحنفيّة بعد جهد. وحين وصل أبو كامل لإقفال باب زنزانتي وجد الحالة المزرية التي أنا فيها، فأبدى أسفه: لَهْ، لَهْ، لَهْ... وأغلق باب الزنزانة ومضى. عذاب الضمير أهون عند أبي كامل من عذاب مساعدة ما يقدّمها في مثل هذه الحالات، أو أنّه لم يجد في تجاهله ذاك ما يعذّب الضمير. كوّمت أغراضي المبلّلة فوق جورة التواليت وتركتها تتخلّص ببطء من حملها الثقيل من الماء. ومن حسن الحظّ أنّ المنشفة كانت معلّقة على الطاقة الخلفيّة للزنزانة ولم يصلها البلل، فرشتها تحتي وتوسّدت شحّاطتي حتى الصباح.

بعد أيّام قليلة من حادثة غرق الزنزانة جاء إلى نظارة الشرطة (غرفة مستقلّة عن السجن خاصّة بحجز عناصر الشرطة المخالفين)، التي غالبًا ما تكون فارغة، شرطي حوراني شابّ مفعم بالحيويّة، أسمعنا خلال الساعات الأولى له في النظارة كلّ الفولكلور الغنائي لمنطقة جبل حوران، بدءًا من «تايه الشور يَللي تحاربنا» إلى «خشّيت بستانكم دوّر على طيري» مرورًا على «تحلالي حمرا تحت ناثر الشوشة» وصولاً إلى «حطّي على النار يا جدّة، حطي على النار عيدان». وبين أغانيه التراثيّة كان ينثر عبارات امتعاضه واحتجاجه على السجن وعلى أوّل من اخترعه. الشرطي السجين يقضي عادة كلّ وقته في ممشى التنفّس إلّا حين يخرج السجناء «الأصليّون» إلى التنفّس. في

أوّل يوم له في السجن وقبل أن تغيب الشمس بقليل، وقف هذا الشرطي تحت شبّاك زنزانتي الخلفي المطلّ على الممشى ورفع صوته قائلاً: هات كاستك أبو شريك! وضعت كأسي في الشبّاك، فتسلّق الشابّ وأخذ الكأس ثم أعاده مليئًا بالشاي الساخن المحلّى. كانت أيّام قحط، وكان كأس الشاي المحلّى يعني الشيء الكثير. كان ذاك كأس شاي «حوراني»، ثقيل وشديد الحلاوة. بعد قليل مدّ الشابّ يده إليّ من الشبّاك بسيجارة مشتعلة، منبّهًا إيّاي بالقول: مدّ إيدك أبو شريك! نحن إذن شريكان، يجمعنا مصاب السجن. يتعامل هذا الشرطي على هذا الأساس بكلّ إخلاص. يتحايل على زملائه من الشرطة كي يوصل لي غرضًا ما. هذا الشرطي الذي كان يمكن أن يكون أحد جلّاديَّ، ويمكن في أيّ وقت لاحق أن يكون أحدهم، هو الآن سجين. السجن يجمعنا ويجعلنا شركاء. يمتصّ كلّ التباينات في عتمته ليجعل من نفسه قاسمًا مشتركًا لضحاياه. قبلت شراكة هذا الشرطي من دون تحفّظ، وإن كانت شراكتي له غير متوازنة، فأنا لا أملك ما أقدّمه له سوى مداراة «علاقتنا» من الافتضاح. سوف يعاقب هذا الشابّ لا شكّ إذا ما اكتشف شرطة السجن ما يقوم به. لذلك أطفأت السيجارة التي قدّمها لي ورميتها في جورة التواليت كي لا تشكّل رائحة الزنزانة دليلاً ممكنًا على «جريمته»، ساعدني في ذلك أنّني غير مدخّن، ولا يوجد في دمي مخلوقات صغيرة تنادي مطالبةً: «نيكوتين! نيكوتين!..» حين ينقص مستوى هذا في دمي، على حدّ التشبيه البليغ لصديقي «الحشّاش» بكر، الذي كنت أشبّه طريقة تدخينه بطريقة تنفيذ لاعب كرة القدم البرازيلي الشهير سقراط لضربات الجزاء. فبكر بعد أن يمتصّ دخان سيجارته لا يفتح فمه كي «يشهق» الدخان إلى صدره، بل يبقي فمه مغلقًا ويستخدم قوّة الشهيق التي يؤمنها له أنفه

الواسع بدلاً من ذلك، وكذا سقراط كان يركل الكرة باتّجاه المرمى من دون أن يبتعد عنها. لا أدري إن كان يكفي هذا لتبرير التشبيه، لكنّه كان كافيًا تمامًا بالنسبة لي، فما إن أجد بكر «يؤدّي» تدخينه المميّز ذاك حتى أذكر تميّز سقراط في أدائه ركلات الجزاء.

أذكر أنّي قبلت شراكة هذا الشرطي من دون تحفّظ، ولكن بعد سنوات طويلة من هذا، سنوات تشمل تلك التي قضيتها في سجن تدمر العسكري الرهيب، وجدت نفسي متحفّظًا على أريحيّة وتودّد الشرطة الذين نقلونا من سجن تدمر إلى فرع التحقيق في دمشق. إذن بعد هذه السنوات، تراجعت قابليّتي على «الشراكة»، وصرت أكثر خضوعًا لاستقطاب يشوّش على صفاء النفس وعلى طبيعيّة الإنسان.

انتقام علي

أحيانًا تُخرج المفرزة أفراد الجماعيتين معًا إلى التنفّس لاختصار الوقت. وأحيانًا يحدث ذلك تحت ضغط المطالبة وشوق المفصولين عن بعضهم بعضًا للتلاقي. التنفّس المشترك كان بالنسبة لنا عيدًا. وقت تنفّس أطول. ولقاء بعد فراق. وتبادل للنميمة. وتبادل للأخبار الطريفة وغير الطريفة بين الجماعيتين. غير أنّ التنفّس المشترك بالنسبة لآخرين لم يكن يعني سوى المزيد من الازدحام في الممشى الضيّق، ورؤية أشخاص لا يرغبون في رؤيتهم، حتى إنّ البعض كان يعزف عن الخروج إلى التنفّس حين يكون مشتركًا.

أمّا بالنسبة لعليّ، فكان التنفّس المشترك فرصة لفتح موضوع سياسي ما مع شخص جديد من الجماعيّة الأخرى. عليّ الذي ينغمس ويستمتع بالنقاشات السياسيّة استمتاع النمّامين بالنميمة، تشعر كأنّ عقله يحكّه ولا بدّ له من عقل آخر يحاككه. كان صعبًا على عليّ أن يقتنع

أنّ هناك سجينًا سياسيًّا لا يحبّ النقاش السياسي. وحين يعرض له الواقع بإلحاح سجينًا من هذا النوع، فإنّه كان يضطرّ إلى قبول هذا الواقع، ولكن بعد أن يكون قد أسقط هذا الشخص من حسابه ووضعه في خانةٍ دنيا، فالسياسة بالنسبة له هي الشيء الأعلى. والنقاش السياسي في نظره ليس مجرّد استعراض آراء سياسيّة وسندها وتدعيمها بحجج ومنطق، بل هو معركة فيها رابح وخاسر، إذ لا يجوز أن يكون طرفا النقاش على حقّ، هناك من هو مخطئ ومن هو مصيب، وعلى النقاش أن يكشف من هو المخطئ ومن هو المصيب. وبالتالي على المخطئ أن «يستسلم». والحقّ أنّ علي كان يطابق فكرتي عن السجين السياسي. شعلة لا تنطفئ، رجل نشيط واسع الاطّلاع يحمل الهموم السياسيّة كما لو أنّها هموم شخصيّة، إذ لا معنى للقناعات السياسيّة ما لم يكن هناك عمل دؤوب على نشرها و«الدعوة» إليها واختبارها بنقاشات لا تنتهي. علي بحركته ونشاطه وقطعيّته لا يترك مجالاً لأحد أن يقف منه على الحياد. وهو إلى هذا شابّ أبعد ما يكون عن الأنانيّة، فذاته معطاة بالكامل إلى الشيء الذي يشغله. يتحمّل تبعات مواقفه برجولة ولا يخذل أصدقاءه، ومع ذلك فإنّ في شخصيّته ما يفسد عليه حصاد ثمرة نشاطه، وما يجعله موضع خصومة كثيرين. كانت حركته في جوّ السجن ظاهرة ولافتة إلى حدّ أنّ رئيس المفرزة (الطويل العمر نفسه!) كان على قناعة أنّه ما من مشكلة بين السجناء والمفرزة إلّا وعلي وراءها. إنّ حماسة علي واندفاعه للشيء الذي يعمل له تجعل المراقب يخال أنّ له مصلحة خاصّة في ذلك. طاقة كامنة تتحرّر عبر مسارب الحركة والأحاديث، وحين لا يكون ثمّة هذه ولا تلك، يبدو كما لو أنّ هذه الطاقة تتحرّر بالإشعاع فتلفت النظر. فعلى عكس غرونوي في رواية «عطر» الذي كان يستخدم رائحة عدم

لفت الانتباه كي يفلت من الانتباه لتنفيذ «جرائمه»، كان علي يبدو كما لو أنّه ينضح برائحة لفت الانتباه. في أيّة مشكلة مع المفرزة تقع العين عليه أوّلاً، وعلي لا يهرب من أن تحوم حوله الظنون، ولا يلقي الحمل على غيره. والحادثة التي تبقى تعذّب علي ولم يستطع أن يحرّر ذاكرته منها، كانت حين دخل أبو عيد «رئيس المفرزة» إلى الجماعيّة التحتانيّة، بمناسبة مشكلة تهريب بطّانيّة إلى زنزانة الحارث، وتقدّم من علي وصفعه وسط ذهول الجميع وبالأخصّ علي نفسه. كان شيئًا غير مألوف أن يدخل شرطي إلى الجماعيّة وسط السجناء. فمثل هذا السلوك يدينه وقد يشكّل خطرًا عليه. لا شيء يبرّر دخول الشرطي إلى الجماعيّة وسط السجناء. مع ذلك دخل أبو عيد إلى قلب الجماعيّة، نزل إلى الطاموسة وصعد إلى المصطبة التي ينام عليها السجناء وهو يتّهم ويهدّد، ثم وقف أمام علي وقال:

ـ المشاكل كلّا منك! ثم صفعه فجأة، قبل أن يسارع بالانسحاب وهو يغطّي خروجه من الجماعيّة برفع صوته بالاتّهامات والتهديدات مجدّدًا.

كان الجميع مذهولين من سلوك «طويل العمر»، ولا سيّما علي الذي جمد لا يعرف ماذا يفعل. بعد قليل راح علي ينفّس عن الغضب المحتقن داخله بسرد صدمته بما جرى، وإعادة سرد ذلك بطريقة جديدة. كان يغلي كمرجل على وقود الشعور بالاستغفال والإهانة. في أثناء غليانه، قال له صفوان ما كان يشغل بالي ولم أتجرّأ على طرحه خشية أن أزيد من أزمته:

ـ ملعون أبو شرفو، كنت اضربو يا زلمي!

ـ بشرفي ما خطرلي. يعني مش أنو خطرلي أضربو وتردّدت، ما خطرلي أبدًا!

من جهتي أراحني جواب علي، لأنّه كان قد خامرني الشكّ بأنّ علي جبن عن ردّ الصفعة تحسّبًا لتبعاتها، ولم أكن أتمنّى أن تسجّل ذاكرتي موقفًا جبانًا لعلي.

لو ردّ علي الصفعة داخل الجماعيّة لكان فعله مبرّرًا وقليل التبعات، أمّا بعد ذلك فقد كان من الحماقة الانتقام إلّا إذا كرّر أبو عيد غلطته بالدخول إلى الجماعيّة ثانية، لكنّه لم يفعل، لا بل ظلّ بعد ذلك حذرًا من علي كأنّه يعلم بما يضمره له. ولكن بعد انتقالنا إلى سجن عدرا بسنوات طويلة، وتحت تأثير العقدة التي شكّلتها صفعة أبي عيد، استيقظ فجأة حذر علي من أن يقع ثانية ضحيّة مثل ذاك الاستغفال، فوجّه صفعة «استباقيّة» لمساعد كان يريد أن يفرض عليه خدمة الشرطة بنقل طعامهم إلى مقرّ المفرزة. رفض علي طلب المساعد وارتفعت نبرة الحديث بينهما، وبمجرّد أن استشعر علي حركة من الشرطي توحي بأنّه يمكن أن يضربه، تحرّكت يده كأنّما وفق برمجة مسبقة إشارة بدئها هي مثل ذلك الاستشعار، فدوّت صفعة جعلت كلّ من كان في مطعم السجن يلتفتون ليروا علي مستعدًّا لتوجيه الصفعة الثانية فيما لو حاول المساعد الردّ، في حين كان المساعد المصفوع يحاول استعادة توازنه المفقود بفعل الصفعة الجسديّة والصدمة النفسيّة معًا. وسرعان ما تكاثر الناس بينهما. هذا هو السجن، أبو عيد يأكل الحصرم في الكراكون والمساعد أحمد يضرس في سجن عدرا. لكنّ المفاجئ أنّ علي نجا يومها من العقوبة التي كان يمكن أن تكون من عيار ثقيل. السبب الأوّل في النجاة هو ذكاء علي الذي أنكر أمام رئيس المفرزة أنّه صفع المساعد أحمد قائلاً إنّه حاول صدّ صفعته ليس أكثر، وإنّه ما من أحد يشهد على ذلك وإنّ المساعد يتّهمه بذلك لتشديد عقوبته. المساعد أحمد التقط بدوره الفكرة، إذ وجد أنّ هذا

الإنكار أمام كلّ عناصر المفرزة يحفظ له صورته ويرمّم له كبرياء مهدورًا، فدخل من الباب الذي فتحه له علي ولم يكذّبه، وخفّض بالتالي المشكلة من مشكلة اعتداء بالضرب إلى مستوى رفض الطلب و«عدم الامتثال». والسبب الثاني، وربّما الأهمّ، لنجاة علي من العقوبة هو كرم الطبيعة الذي جاء في الوقت المناسب، حيث توفي في اليوم نفسه رئيس الفرع الذي كان حينها يستجمّ على البحر، فانشغل الفرع عن القضيّة واختفت تلك الصفعة عن جدول أعمال الفرع لتبقى حيّة حيوات ثلاث: حياة معذِّبة في ذهن المساعد أحمد، وحياة مواسية في ذهن علي، وحياة مبهجة في أذهان السجناء الذين شهدوا صفعة لمساعد ثقيل الظلّ، كثيرًا ما كان يفهم نفسه خطأً على أنّه آمر ناه على السجناء. وبذلك يكون علي قد أعاد اعتباره، ولو بعد حين، أمام نفسه وبدون خسائر تذكر.

مُخبر

في أيّامي الأولى في الجماعيّة، كنت أتأمّل سجينًا ما أختاره وهو جالس يدخّن أو ساهم أو منغمس في حديث، وأتخيّل الأشخاص الذين يفتقدونه ويتوقون الآن لرؤيته وسماع صوته: أمّه، أبوه، أبناؤه، زوجته، أخوته، أصدقاؤه... كم هناك من الناس الذين يودّون لو تتاح لهم رؤيته كما أراه! وفي عيون هؤلاء يبدو لي كلّ سجين محبوبًا ومحترمًا. غير أنّي لم أستطع أن أرى فيصل على هذا النحو.

في يومنا الأوّل الحافل في الجماعيّة، لفت نظري شابّ طويل وضخم يلبس بنطلون بيجاما قماشيّة وتي شيرت أحمر فاقع. لفت نظري حجمه (طوله حوالى المترين) أوّلاً ثم انطوائه ثانيًا. إنّه فيصل، أوّل مخبر صريح أو شبه صريح أقابله في السجن، وكان يبدو لي من

غير المفهوم وجود مخبر في السجن، إذ كيف يتعاون شخص مع جهة تسجنه؟! ولكن يكتشف المرء أنّ مثل هذا المنطق فقير إلى حدّ كبير، وأنّه حتى في الدرك الأسفل من النار، هناك مكاسب يسعى الإنسان دائمًا للفوز بها أو لعدم خسارتها. وما إن علمت أنّه مخبر حتى تركّب في نفسي موقف مكتمل ونهائي تجاهه، موقف رفض ونفور.

شابّ بدوي من عشيرة قويّة في شمال سورية معتقل بتهمة «اليمين المشبوه»، وهي التسمية المعتمدة عند الشرطة لحزب البعث العراقي. كان مقاطعًا من قبل معظم أفراد الجماعيّة بسبب نقله معلومات عن الجماعيّة إلى الشرطة. وقد كان قدومنا فرصة حاول أن يستفيد منها لفكّ الحصار الخانق الذي يعيشه، ولا سيّما أنّه كان من ضمن مجموعتنا واحد من أبناء منطقته. وحين فشل في فكّ الحصار عن نفسه حاول الانتحار. في الواقع فإنّ دخولنا الجماعيّة زاد من حصاره، فنحن معبّأون سلفًا ضدّ المخبرين، وبالتالي لم نمتنع فقط عن فتح علاقة معه، بل أيضًا شكّلنا في الجماعيّة دعمًا قويًّا لاتّجاه الرافضين لأيّة علاقة معه، وساهمنا في دفع بعض المتراخين تجاهه على مقاطعته. صبّ فيصل كاز البابور على جسمه وحاول إشعال نفسه بعود كبريت. كانت تلك أوّل مرّة أشهد فيها محاولة انتحار، وأذكر أنّه قد تولّد لديّ شعور بالغضب من الرجل الذي حاول الانتحار، بدل أن يتولّد لديّ شعور بالشفقة أو التعاطف. عقب هذه الحادثة أخرجه رئيس المفرزة من الجماعيّة ووضعه في المنفردة، وهذه كانت غاية هذا المخبر للتخلّص من جوّ المقاطعة من جهة، وربّما للتخلّص من ضغط الفرع عليه لنقل معلومات عن الجماعيّة من جهة ثانية.

لم يكن هذا الرجل مخبرًا بسيطًا مغلوبًا على أمره، بل شخص يستخدم علاقاته مع الشرطة كما مع السجناء بطريقة انتقائيّة. بطريقة

يحاول فيها كسب ودّ الطرفين وتحسين شروط حياته في السجن، ولا سيّما أنّ زياراته كانت شبه مقطوعة بحكم بعد أهله. فهو ينقل للشرطة أشياء ولا ينقل أشياء أخرى، يؤذي شخصًا ولا يؤذي آخر، وفق معايير خاصّة به. وبالمقابل، ينقل معلومات عن الشرطة إلى الجماعيّة، مثل نوايا الشرطة وخططهم المحتملة تجاهنا، أو تحليل الشرطة لبعض الأحداث التي جرت في الجماعيّة أو تقييماتهم لبعض الأفراد... إلخ. حتى إنّه كان يستطيع إعادة بعض الأشياء المصادرة من الشرطة إلى الجماعيّة «سرًّا». أكثر من ذلك لم يكن هذا الرجل عينًا للشرطة على السجناء فقط، بل كان عينًا لضبّاط الفرع على الشرطة أنفسهم، وهذا ما كان يُكسبه خشية الشرطة منه، خشية تنطوي على مشاعر كراهية واحتقار كان البعض يعبّر عنها أمامنا.

حين يضيق الخناق عليه من جهة اليساريين، يتقرّب من الإسلاميين ويبدأ فجأة بالصلاة، وكان هؤلاء جاهزين دومًا لاحتضانه فالله «يهدي من يشاء»، ولكن هداية هذا الرجل لا تطول وسرعان ما كان يضلّه الشيطان ما إن تستنفد الهداية وظيفتها. وكان يشاركنا أحيانًا احتجاجاتنا على إدارة السجن وحتى إضراباتنا عن الطعام. ولكن كلّ ذلك لم يكن يغفر له كثيرًا عندنا، ولم ينفكّ الحصار بالفعل عنه إلّا حين جرى نقل السجناء السياسيين الذين كانوا محتجزين في سجن القلعة في دمشق القديمة إلى كراكون الشيخ حسن. فهؤلاء كانت لهم سياسة أقلّ حدّة تجاه أمثال فيصل. هم لا يقاطعونه ويستفيدون من علاقاته مع الشرطة ومن الحرّيّة النسبيّة في حركته. ولكن، لكي تكون مثل هذه السياسة مجدية لا بدّ من وجود سياسة مجاورة أخرى أشدّ يتبنّاها آخرون، بشكل يجعل من شخص مثل فيصل يرى في الناس الذين لا يقاطعونه مكسبًا يحرص عليه. وهكذا، كان الحال في سجن

الشيخ حسن مع هذا المخبر! كان «المرنون» يستفيدون من علاقاتهم مع هذا المخبر، وهم يحسبون أنّ هذه الفائدة هي ثمرة مرونتهم، ناسين أنّ مطرقة المرونة لا بدّ لها، كي تؤتي ثمارها، من سندان التشدّد.

حبس طفل

معظم معتقلي الجماعيّة القدامى كانوا من المتّهمين بالانتماء إلى حزب البعث الديموقراطي المناصر لاتّجاه صلاح جديد. وقد بدأ هذا الحزب بالتشكل عقب انقلاب ١٩٧٠ واعتقال ما صار يُعرف بالقيادة السابقة. أفراد الجماعيّة القدامى هؤلاء كانوا جميعًا من محافظتي درعا والسويداء، وهم في العقد الخامس أو السادس من أعمارهم. لم يتعرّض هؤلاء للاعتقال إلّا بعد إصدارهم بيانًا في ١٩٨١ يدينون فيه قيام أنصار رفعت الأسد بإرغام النسوة المحجّبات على خلع حجاباتهنّ، ويحمّلون النظام المسؤوليّة. لكنّ الأمر المفاجئ كان وجود طفل بينهم اسمه عمّار. هذا هو الطفل الذي لمحته في أوّل يوم لي في الزنزانة في الكراكون أثناء خروج أفراد الجماعيّة الفوقانيّة للتنفّس.

كان عمّار في الصفّ الثامن حين جرى اعتقاله. وُجدتْ دستة من المناشير التي تتناول حادثة الحجابات تلك في مدرسته، واتّهم بأنّه هو من أحضرها إلى المدرسة لأنّه شوهد «يلعب» بها، (يمكن أن يكون عمّار قد عثر على هذه الأوراق خارج المدرسة وحملها بيده إلى داخل المدرسة). في التحقيق قال هذا الطفل إنّه فعل ذلك، فثبت ذلك في ملفّه وأودع السجن. بعد انتهاء التحقيق مع المجموعة، احتجّ أبو ثائر، وهو المعتقل رقم واحد في المجموعة، لدى المحقّق على استمرار اعتقال هذا الطفل. احتجّ أبو ثائر من باب أخلاقي وإنساني وحتى

سياسي ـ أمني، إذ إنّ عمّار لا علاقة له بالحزب، وهو لا يعرف عواقب ما يقول. طلب المحقّق إحضار عمّار معصوب العينين، فجيء بعمّار (يجب أن لا يغيب عن الذهن أنّ عمّارًا طفل في الصفّ الثامن) وهو لا يعلم أنّ أبا ثائر في الغرفة. سأله المحقّق:

ـ مين حطّ المناشير في المدرسة يا عمّار؟ (كان يمكن أن يقول له يا شاطر!).

ـ أنا سيدي! قال عمّار بصوت متلجلج. أشار المحقّق للعناصر بإعادة عمّار إلى زنزانته، وقال لأبي ثائر:

ـ سمعت بدانك؟ كيف فيني طالعو وهو عم يعترف بعضمة لسانه؟

وحين قال أبو ثائر إنّ هذا طفل ويمكن أن تخيفه وتجعله يعترف بأيّ شيء، قال المحقّق: متل ما شفت، الولد قال اللي سمعته من دون ضغط! وللزيادة في «متعة» القراءة سأستبق السنين وأقول إنّه بعد عشر سنوات أفرج عن عمّار مع سائر أفراد مجموعته، أي أنّه عومل تمامًا كأيّ رجل خمسيني أو ستّيني في المجموعة. لا بل إنّ الفرع أفرج من قبلُ عن اثنين من المجموعة، بعد حوالى ٣ سنوات من الاعتقال، واستبقى عمّار.

في الزنزانة، كان الخوف يحرم عمّار النوم. الخوف من الوحدة ومن الجرادين ومن العتم ومن الشرطة... وقيل إنّه أراد يومًا أن يتراجع عن «اعترافه» بتوجيه ونصح من «رفاقه» في السجن، فكان من شأن صفعتين «أبويّتين» وتهديد «تربوي» بالدولاب أن أعادته إلى قول ما جعل المحقّق «مضطرًّا» بأسف لإبقائه رهن الاعتقال. وفي الجماعيّة، كنت ترى أبا رأفت (رجل خمسيني وأحد أفراد مجموعة عمّار) يضع عمّار في حضنه، يغنّي له ويسرّح له شعره الأملس الناعم. ولكن لا بدّ من القول إنّه في كلّ مرّة كان يزور فيها أحد ضبّاط الفرع الكراكون ويدخل إلى

الجماعيّة، كان يخصّ عمّار بسؤال عن حاله. وكان عمّار يردّ بمزيج من الخجل والخوف والارتباك بكلمته الدائمة: تمام!

في الوقت الذي يعمل فرع الأمن في بلداننا على إنتاج وإعادة إنتاج الولاء والطاعة لدى الخاصّة والعامّة، فإنّ موظّفي وعناصر وضبّاط الفرع يكونون هم أنفسهم محطّ اختبار دائم لإثبات الولاء والطاعة. ليس من السهل على ضابط أمن في حالة مثل حالة عمّار أن يتصرّف كما يملي عليه ضميره أو أخلاقه أو حتى قناعاته. ليس بسيطًا أن يقول في هذه الحالة كلمة «حرام!» مثلاً. في فروع الأمن هناك مزاودة مقلوبة، إن صحّ القول. مزاودة على الاستهانة بكلّ شيء واحتقار كلّ شيء لإثبات الولاء. شيء شبيه بفكرة مسرحيّة البقرة لناظم حكمت، حيث تعيش فكرة محبّة البقرة بقوّة المزاودة وخوف كلّ جهة من عدم إظهار محبّة البقرة أمام الجهة الأخرى. في المسرحيّة كلّ طرف يظنّ أنّ الطرف الآخر يحبّ البقرة فعلاً، فيقوم هو بتمثيل محبّة البقرة كي لا يصدم الطرف الآخر، حتى إنّه يبالغ في إظهار محبّته ظنًّا منه أنّه بذلك يرضي ويسعد الطرف الآخر. أمّا في فرع الأمن، فالأمر أكثر بساطة! على الضابط أن يثبت الولاء أمام جهة واحدة، فهو إن اتّخذ قرارًا جائرًا إزاء حالة مثل حالة عمّار إنّما يثبت ولاء أكثر بكثير من اتّخاذ قرار منطقي في حالة تستدعي ذلك، لأنّ القرار المنطقي أمر عادي. أمّا في حالة عمّار فإنّ الرسالة القويّة التي يوجّهها الضابط إلى من يهمّه أمره هي التالية: إنّي على استعداد لعمل أيّ شيء غير منطقي، بما في ذلك سجن طفل شوهد يلعب بأوراق ممنوعة. على أنّ الضابط الذي له رصيد عال من الولاء، سواء بحكم «إنجازات» معيّنة أو بحكم منبت أو انتماء، يمكنه أن يتّخذ قرارات «جريئة» أكثر من غيره ممّن لا يزالون يبنون أرصدة الولاء الخاصّة بهم. وعلى هذا، فإنّ

فرع الأمن ماكينة تنتج الولاء للسلطة وتنتج في الوقت نفسه وفي الآليّة نفسها العناصر والكوادر الأكثر مناسبة لإنتاج الولاء، من خلال مبدأ أنّ العملة الرديئة «أخلاقيًا» في جهاز الفرع تطرد العملة الجيّدة.

بعد أسابيع قليلة من انتهاء التحقيق مع مجموعة عمّار، دخل شرطي إلى ممرّ الزنازين في الكراكون وصاح: عمّار الصفدي ضبّ غراضك، إفراج! وبما أنّ عمّار فلسطيني ومن صفد، فقد زيّنت له ظنونه أنّه المقصود. صاح عمّار: حاضر! فتح الشرطي باب زنزانة عمّار الذي كان قد ضبّ أغراضه وخرج ملوّحًا بيده لمن رآه من مجموعته قائلاً: قلتلكو أنا ما بيتركوني متلكو! ارتاح أفراد مجموعته لأنّ هناك خطأ يصحّح، ولكن في مكتب رئيس المفرزة تبيّن أنّ هناك خطأ بالفعل ولكن عند من ظنّ أنّ هناك خطأ يصحّح، وأنّ المقصود ليس عمّار الطفل بل شخصًا آخر اسمه عمار وكنيته الصفدي! هكذا شاءت الصدف. رئيس المفرزة بهدل الشرطي الذي لم يتأكّد من الاسم قبل فتح الزنزانة، ثم ربت على ظهر عمّار وقال: انشالله بيفرجوا عنك عن قريب، بس هلّق معليش حبيبي ارجع لزنزانتك! جهد عمّار كي لا تظهر الخيبة على وجهه وقال: حاضر عمّو! (كان عمّار يخاطب الشرطة بكلمة: «عمو»). يُقال إنّ أحد عناصر الشرطة، ويُدعى أبو سعدو وهو أيضًا من حوران، غلبه البكاء أمام هذا الموقف. رجع عمّار إلى زنزانته وهو يخفي عن أفراد مجموعته الذين ودّعهم قبل قليل، خيبته بضحكته الحادّة المتقطّعة، التي يسهل لمن عاشر عمّار أن يسترجعها في ذاكرته سريعًا ولو بعد سنوات طويلة.

الإضراب

بعد أيّام قليلة من نقل سجناء سجن القلعة إلى الكراكون، جاء

ضابط من الفرع يتفقّد الوضع. يجيء هؤلاء ليس على هيئة مسؤولين بل على هيئة أسياد أو أرباب. يستمعون باستخفاف ويتكلّمون بتعال. فتح الشرطي باب الجماعيّة، وقف الضابط ونظر ببرود فيه تشفّ، وسأل عن الوضع. فتقدّم الدكتور فايز (أبو محمّد) وقال بلهجة انفعاليّة:

ـ بالله لو عندك بقر بترضى تحطن بهيك وضع؟

ـ مين قالّك إنكن أحسن من البقر؟! أجاب الضابط كأنّه كان مستعدًّا لمثل هذا السؤال.

ضجّت الجماعيّة، فانسحب الضابط وأغلق الشرطي الباب. ربّما كان ذلك الجواب هو اللبّ الذي راحت تتشكّل حوله فكرة الإضراب. وكان مفيدًا لنفاذ الفكرة أنّ ذاك الجواب جاء في وجه أبي محمّد، ذلك لأنّه كان يتمتّع بقيمة اعتباريّة عند غالبيّة السجناء. فهو طبيب قديم وقيادي في الحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي) وذو شخصيّة مؤثّرة.

كلام الضابط المتخم بالسلطة، والذي استُفزّ فيما يبدو من نبرة سؤال أبي محمّد، كان تحدّيًا واضحًا لا بدّ من الردّ عليه. السكوت في مثل هذا الوضع يساوي مصيبة، فهو يعني الهوان، ويعني انهيار الحدود التي يمكن أن تقف في وجه تمادي الشرطة. خلال ساعات قليلة سيعلم كلّ عناصر الشرطة بما قاله الضابط لنا على باب الجماعيّة، وتمرير كلامه من دون ردّ يعني أنّنا في منتهى الضعف، وأنّنا أصبحنا «هملاً يطمع فيها من يراها». كان لا بدّ من الردّ، ولم يكن من سبيل أمامنا للردّ سوى الإضراب. خلال وقت قصير اتّفقت الكتل الثلاث الرئيسيّة في السجن (المكتب السياسي، العمل الشيوعي، البعث الديموقراطي) على تنفيذ إضراب. لو كان الضابط أكثر

دبلوماسيّة في إجابته لجعل الاتّفاق على الإضراب أصعب من دون شكّ. كان المطلب الرئيسي للإضراب هو النقل من سجن الشيخ حسن إلى سجن دمشق المركزي (عدرا)، من دون التشتّت وراء مطالب ثانويّة، ولا سيّما أنّه كان قد تمّ قبل أشهر نقل السجناء النقابيين إلى سجن عدرا. ولكن من المنطقي أنّ قرارًا بهذا المستوى يحتاج إلى وقت. يحتاج إلى موافقة جهات عليا، وإلى ترتيب جناح خاصّ بالسياسيين في سجن عدرا، وإلى تعيين مفرزة من الأمن السياسي لهذا الجناح.. إلخ. وعليه لا يعقل الاستمرار في الإضراب إلى أن يتمّ النقل. الخطّة كانت كما يلي: المطلب الرئيسي هو النقل إلى سجن عدرا، ونعتبر أنّه تمّت الاستجابة لهذا المطلب إذا وعد الفرع بذلك على لسان رئيس الفرع أو نائبه. وإلى حين يتمّ النقل هناك مطالب فرعيّة معيشيّة في سجن الشيخ حسن يجب تلبيتها، مثل السماح بالزيارات وتحسين الطعام والسماح بفاتورة (قائمة دوريّة «أسبوعيّة أو يوميّة أو شهريّة» من الحاجيّات يدوّنها السجناء ويشترونها على حسابهم عن طريق المفرزة) وبالكتب والأقلام والطبابة وإطالة فترة التنفّس، والسماح بالاستفادة من بعض الزنازين المغلقة كمستودع لبعض أغراض الجماعيّة أو الأغراض الشخصيّة، والسماح لمن يشاء بالخروج من الجماعيّة إلى إحدى الزنازين (صارت الزنزانة مطلبًا وسط الازدحام والحريق وتلوّث الجوّ في الجماعيّة).

تمّ التشاور مع بقيّة السجناء من خارج الكتل الثلاث، التزم غالبيّة السجناء، ما عدا الإسلاميين الذين لم يلتزم منهم سوى سجين واحد. تحدّد موعد الإضراب، وأُبلغ الموعد للجميع عشيّة الإضراب بعد أن انتهى التنفّس المسائي، وصار من المتعذّر على أيّ مخبر إبلاغ المفرزة بالموعد. اختارت كلّ مجموعة سياسيّة ممثّلاً عنها يتكلّم باسمها.

الدكتور فايز عن جماعة المكتب السياسي، وأبو منصور عن جماعة البعث الديموقراطي، أمّا جماعة حزب العمل فقد وقع اختيارهم عليّ. في الصباح رفضنا استلام طعام الفطور. حدثت الصدمة وبدأت التداعيات. رئيس المفرزة يأتي مضطربًا ويستفسر وينصح ويتوعّد. بعد قليل يأتي من الفرع الضابط نفسه صاحب الإجابة الوقحة التي سهّلت توحيد كلمة السجناء والإعداد للإضراب. المعروف عن هذا الضابط أنّه هادئ ومتّزن في كلامه، ولذلك كان ردّه ذاك مستغربًا. وقد مارس خلال معالجته موضوع الإضراب كلّ ما يختزن من هدوء ودبلوماسيّة وطول نَفَس بشكل أوشك أن يُفشل الإضراب.

في البداية استدعى هذا الضابط ما يمكن تسميته «لجنة الإضراب» وقابلهم كلًّا على حدة. وحرص على القيام بحركة إيحاء للضغط والترهيب، حيث تعمّد وضع دولاب وخيزرانة في مكان قريب من باب الغرفة التي يقابلنا فيها، رغم أنّ هذا الضابط، كما عرفته في الفرع أيّام التحقيق، لا يميل إلى العنف بالفعل. دخل الدكتور فايز، في حين طُلب منّا (أبو منصور وأنا) أن نقف ووجوهنا إلى الحائط (إجراء يقصد منه أن يمحو في لحظة واحدة كلّ ما يمكن أن يكون قد تشكّل في نفس السجين من شعور بأحقِّيّة ما ناجمة عن قدمه في السجن، وكلّ ما يمكن أن يكون قد تشكّل من ألفة واعتياد بين السجين وعناصر الشرطة خلال فترة السجن السابقة، ممهّدًا السبيل إلى عودة العلاقة إلى أساسها، إلى طابعها الوظيفي الأوّل التي يشغل فيها الشرطي دور الأداة الجاهزة للردع والتأديب بصرف النظر عمّن يقع عليه الفعل). الأصوات القادمة من داخل الغرفة كانت مبهمة، من الصعب تفسيرها. ولكن حين خرج الدكتور فايز كان يبدو الانفعال من صوته، ووقعت في أذني عبارة بصوت رئيس المفرزة يقول: «ع الزنازين الفوقانيّة».

واضح إذن أنّ الأمور تسير نحو التصعيد. دخل أبو منصور وخرج بعد وقت قصير. دخلت إلى الغرفة، كان الضابط هادئًا كعادته، استقبلني بالقول: «أهلين دكتور!» بنبرة فيها سخرية مبطّنة، مُعيدًا إلى ذهني أيّام التحقيق التي كان هو أحد أبطالها. وتابع، بعد عبارات المودّة التي يشعرك فيها كما لو أنّك تزوره في بيته:

ـ شو الأحسن الإفراج ولّا النقل على عدرا، يا دكتور؟!

ـ الإفراج طبعًا!

ـ طيّب معقولة الواحد يعرقل قرار الإفراج منشان ينتقل على عدرا؟ أنت أكيد أذكى من هيك!

ـ بس يعني شو العلاقة بين الإفراج والنقل على عدرا؟

ـ لأ، العلاقة بين الإفراج والإضراب. إضراب السجين هو تمرّد، والتمرّد له عقوبة أوّلاً، وثانيًا يسوّد صفحة السجين في الفرع ويعيق قرار الإفراج عنه.

ـ ظروف السجن هون صارت موت، وأهمّ شي بالنسبة إلنا ننتقل لسجن مقبول. ولمّا بيجي الإفراج أهلاً وسهلاً.

ـ فيه ناس ما صايرلن سقف يتآووا تحته، اشكروا الله أنّكم عم تناموا تحت سقف وعم يوصلكن أكلكن وشربكن.

ـ هادا السقف سقف سجن، اتركونا وخلّونا ننام تحت المطر. يعني بتسجنوا العالم وبتمننوهن كمان؟!

ـ في ناس ما بتعرف النعمة اللي هي فيها حتى تخسرها. ومتل ما بيقول المثل: «الجاجة إذا حفرت، على راسا عفرت»!

ـ نحنا ما بقا فينا نتحمّل وضعنا هون، وأنا ملتزم بالشي اللي اتّفقنا عليه كلّنا.

أردت أن أصل إلى النهاية التي يدور حولها كعادته. صمتَ وراح يحدّق إليّ وعلى وجهه ابتسامة خفيفة غير مفسّرة. بعد قليل قال:

ـ ليش اختاروك جماعتك تحكي باسمُن، منشان توقع العقوبة براسك؟ هادا شي بتسمّيه تضحية؟

ـ ليش العقوبة إلي أو لغيري يا سيادة الرائد. من زمان عم نقول وأنتو شايفين إنّو السجن هون صار ضيّق كتير على عددنا، وإنّو أكلنا سيّئ وزياراتنا مقطوعة ولا عنّا كتب ولا دفاتر ولا طبابة، وما حدا بيردّ علينا، إذا حاولنا نوصّل صوتنا بطريقة ما منستحقّ العقوبة؟ سيادتك مانك ضابط كلّيّة، سيادتك حقوقي قبل ما تكون ضابط، وأكتر واحد ممكن يقدّر وضعنا.

ـ لحتى نقدّر وضعكن فيه طرق نظاميّة بتتّبعوا. اكتبوا طلب للفرع والفرع بيدرس الوضع.

ـ يعني الفرع ناطر نبعتلو ورقة حتى يعرف وضعنا ويدرسو، إنتو شايفين وضعنا ما بينطاق، بس اللي إيدو بالمي مو متل اللي إيدو بالنار.

ـ أنت بتعرف إنّو بيجوز غيري ما يضيّع كلّ هالوقت بالحكي معكن، وبتعرف إنّو عنّا وسائل تانية أنا ما حابب استخدما.

ـ نحنا ما عم نتحدّاكن ولا عم نكاسركن، يعني إذا كان اعتراضكن عالمطالب فهادا ظلم كبير. وإذا شايفين المطالب معقولة ليش ما بتحقّقوها وبتخلص المشكلة؟!

بدا الاستياء على وجهه، وقال لكي يختم الحديث:

ـ يعني ما بدّك تفكّ إضرابك؟

ـ حتى تتجاوبوا مع الشي العم نطلبو!

أطرق وأومأ برأسه كي أخرج. خرجت فاستلمني رئيس المفرزة، وسلّمني إلى شرطي كي يودعني في إحدى الزنازين الفوقانيّة.

لكلّ زنزانة من الزنازين الفوقانيّة شبّاك صغير عال يطلّ على المدينة، وكان شبّاك الزنزانة التي وُضعت فيها يطلّ على سطح بناية. الأفضل أن لا أقول يُطلّ بل أن أقول يُرى منه إذا ما مطّ السجين نفسه للأعلى ووقف على رؤوس أصابعه، الجزء العلوي من سطح بناية، الجزء الذي تشغله مناشير الغسيل والمداخن. وكان أن رأيت في تلك الساعات القليلة التي قضيتها في هذه الزنزانة، بينما كان مبعوث الفرع يكمل مهمّته في فكفكة الإضراب، يديْ امرأة تقطفان الملابس الناشفة عن حبل الغسيل. يا لها من صدفة رائعة. كان من العبث القيام بأيّ محاولة لرؤية ما هو أكثر من اليدين، ولكن كان ذلك كافيًا ليجعل تلك الثواني ثمينة، فأحتفظ بها في المكان الذي يليق بها من ذاكرتي ولا أنساها. كانت احتكاكًا حرًّا مع العالم الخارجي، ومع ما يمثّل من العالم الخارجي ما تمثّله الزهرة من الطبيعة. في خضمّ الإضراب ذاك، من جوع وخوف وتوتّر وعزل وتهديد، كان ليديّ تلك المرأة المجهولة فعل ساحر لا يشعر به ربّما إلّا من سلبت حرّيّته، وقيّضت له فتحة صغيرة يرى منها طرفًا من العالم الخارجي، كما يرى الفلكيّون الكواكب بأن يعزلوا أنفسهم عن ضوء الشمس وينظروا عبر منظار ضيّق وطويل ومظلم!

قضى الضابط جلّ النهار وهو يقابل المضربين فردًا فردًا، ضاربًا على وتر المصلحة الشخصيّة لكلّ منهم: فكّ الإضراب يمكن أن يجعل اسم السجين على قائمة الإفراج! لم ينجح مع أكثر من واحد أو اثنين. لكنّ صبره ومثابرته أتت أكلها في لقائه مجموع المضربين في الجماعيّة التحتانيّة مساء.

طلب الضابط جمع كلّ السجناء الملتزمين بالإضراب في الجماعيّة التحتانيّة، ثم جاء واستمع مجدّدًا ليس فقط إلى المطالب بل إلى الشروحات المتعدّدة عن شتّى جوانب المعاناة التي نعيشها في الكراكون. استمع بلا ملل وبطول بال، ثم قال إنّ موضوع النقل ليس في يده، أمّا باقي المطالب فإنّه يعد بدراستها. وطلب مقابل هذا أن نفكّ الإضراب. حدث الكثير من الأخذ والردّ، خاطب الضابط أشخاصًا محدّدين يعتبرهم سلفًا، أو لمس خلال الحديث معهم ربّما، أنّهم حلقات ضعيفة. عبد المجيد مثلاً شارك في الحديث وقاده لسانه إلى القول إنّ كلام الضابط مقنع، ويجب أن نفكّ الإضراب بناء عليه. التقط الضابط هذا الشرخ الظاهر وراح يعمل على توسيعه إلى أن تمكّن من جعل عبد المجيد، ذا الطبع الشخصي الخاصّ، يخرج من الجماعيّة ويقول إنّه شخصيًّا يفكّ إضرابه، بعد أن قال له الضابط إنّ الشخص المستقلّ يعمل وفق رأيه وليس وفق رأي آخرين. ثم أدخل الضابط سلاحًا جديدًا وهو الإيحاء بأنّ الاستمرار في الإضراب قد يدفع الفرع إلى التعنّت، لأنّ الفرع لا يحبّ أن يستجيب تحت الضغط. وراح يوحي بأنّ هناك قوائم تعدّ في الفرع وستُقترح لإفراج قريب. يوحي بذلك من بعيد قائلاً إنّه لا يستطيع أن «يقشّرها أكثر». استطاع الضابط أن يحدث بالفعل زعزعة في تماسك الإضراب، وحين لمس ذلك طلب فورًا أن نبلغه قرارنا بالاستمرار أو بالتوقّف عن الإضراب، وأن نتّخذ القرار أمامه. طلب علي منه أن يعطينا مهلة ربع ساعة فرفض. لمس الضابط أنّ إعطاءنا فرصة لالتقاط الأنفاس قد يعرقل مهمّته، فأصرّ على أن يأخذ الجواب في الحال وأمامه. قال الدكتور فايز إنّنا بدأنا الإضراب بعد نقاش جماعي وننهيه بنقاش جماعي. فأجاب الضابط لا بأس تناقشوا وأنا أستمع. حاول الدكتور

فايز أن يستثمر كبر سنّه ومكانته بأن موّن نفسه على الضابط وراح يدفشه بلطف كي يختفي عن الأنظار ولو خمس دقائق. فرفض الضابط. كان ماهرًا في تقييم أهمّيّة اللحظة.

صار موقفنا محرجًا. إذا أعلنت «لجنة الإضراب» أنّنا مستمرّون في الإضراب فهي تغامر بأن يخرج جزء غير قليل من المضربين على هذا القرار، بعد هذه الزعزعة وتحت ضغط الضابط وضغط الجوع والحالة الصحّيّة. ومن جهة ثانية، فإنّ القبول بفكّ الإضراب وفق شروط الضابط أمر يشبه فشل الإضراب. حاول الدكتور فايز أن يخرج من الإحراج بأن قال:

ـ سيادتك وعدت بدراسة موضوع النقلة من السجن، ونحنا قبلانين. ووعدت بتلبية المطالب الأخرى متل الفاتورة والزيارات والطبابة والكتب.. إلخ. وعلى هذا الأساس نحنا ممكن نفكّ الإضراب!

ـ أنا قلت موضوع النقلة من السجن مندرسًا، نعم. أمّا موضوع المطالب التانية فمنلبّيها بحسب الإمكان. قال الضابط، مضيفًا: برجع بقلكن الضغط ع الفرع مو لصالحكن!

بدأت تخرج أصوات من مجموع المضربين: منفكّ.. إذا هيك منفكّ.. كان ينظر الشخص إلى الآخر مستطلعًا موقفه وقائلاً: منفكّ ما هيك؟! بدأت تفلت الأمور عن السيطرة فوقف الدكتور فايز ورفع صوته بالقول: شو يا شباب قبلانين نفكّ؟ مريدًا من جهة أن نبدو موحّدين في قرار وقف الإضراب، ومن جهة ثانية أن ينأى بنفسه عن تهمة إعلانه قرار وقف الإضراب من دون رأي من المضربين. تعالت أصوات الموافقة، وأعلنّا وقف الإضراب. حينها فقط غادر الضابط، وقد حصد بالفعل أفضل ثمرة ممكنة لمهمّته، التي استغرقت يومًا

كاملاً، وهي العودة إلى الفرع وقد فكّ الإضراب من دون أن يستخدم العصا، ومن دون أن يبدو أنّه رضخ لضغط الإضراب.

غير أنّ البعض كان لهم رأي آخر. رأي لم يجاهروا به أمام الضابط لحسابات مفهومة. ولكن بعد أن استقرّ الرأي على وقف الإضراب وغادر الضابط، انتقد هؤلاء القبول بما عرضه الضابط وانتقدوا وقف الإضراب على أنّه خسارة وتضييع للإضراب.. إلخ. ولكن مهما يكن الأمر فقد كان الإضراب إنجازًا. أوّلاً توحّدنا على أمر واحد، ولم نتشرذم رغم المحاولات الماهرة من الضابط، وانتهى الإضراب كما بدأ جماعيًّا. وثانيًا تحقّق بالفعل ما نريد، إيصال صوت قويّ إلى الفرع حول سوء أحوالنا، وقد تلقّينا وعدًا بالنقل من سجن الشيخ حسن من هذا الضابط، وكان حينها نائبًا لرئيس فرع التحقيق. كما بيّنت الأيّام التالية أنّ معظم المطالب الأخرى قد تحقّقت، حيث فتحت الفاتورة والزيارات وخفّ التشديد على الكتب والأقلام.. إلخ. كلّ هذا يضع الإضراب في دائرة الإضرابات الناجحة.

بعد أشهر قليلة من الإضراب جاء قرار النقل إلى سجن عدرا. في كلّ نقل من سجن إلى سجن، على الإدارة أن تعرف كيف تفصل السجين عن أمتعته. ذلك أنّ نقل السجين مع أمتعته أمر صعب ومتعثّر وربّما متعذّر. وكلّما كان السجين قديمًا في السجن الذي يُنقل منه كانت هذه المشكلة أكبر، نظرًا إلى ما يمكن أن يراكم السجين من أغراض وأمتعه مع الوقت. وليس من السهل أن ينفصل السجين عمّا يملك من أغراض، حتى قرار الإفراج يعجز أحيانًا عن ذلك، فترى سجناء، وقد تبلّغوا أمر الإفراج، يجمعون كلّ ما يمكن لهم حمله من أمتعة يصطحبونها معهم إلى بيوتهم. تعرف كلّ إدارات السجون هذه المشكلة، وتحلّها عادة بإحدى طريقتين، إمّا بالحيلة، وإمّا بالعنف.

في حالتنا، استخدمت الحيلة مع النقابيين حين نقلوهم من الكراكون قبل أشهر من قرار نقلنا نحن. وهؤلاء النقابيّون كانوا إجمالاً من كبار السنّ وغالبيّتهم من أصحاب الثروة والجاه. فقد طلب منهم رئيس المفرزة أن يحلقوا ذقونهم، وأن يرتدوا ما يليق بلقاء رسمي لهم مع وفد أمني عالي المستوى، وطُلب منهم أن يأخذوا أغراضهم الشخصيّة فقد يقتضي الأمر قضاء يوم أو يومين أو أكثر في المكان الذي سيقابلون فيه الوفد. يسهل على المرء أن يتخيّل ما دار في أذهان النقابيين الذين قضوا حوالى عشر سنوات في السجون وهم يعتبرون أنفسهم ضيوفًا عند الرئيس وليسوا سجناء، وذلك استنادًا إلى قول رئيس الفرع في أيّام اعتقالهم الأولى. وكان بالفعل أن استعدّ النقابيّون لهذا اللقاء المزعوم وحملوا المعدّات الشخصيّة في حقائب صغيرة، وعرج بعضهم علينا يودّعنا ويطلب لنا من الله أن يفكّ أسرنا كما فكّ أسرهم. وقد كان أكثرهم جرأة أو تواضعًا، لا أدري! في توديع الشيوعيين والتحدّث إليهم، محام حلبي ناصريّ الانتماء ذو شخصيّة خطابيّة ودودة واجتماعيّة النزعة. فقد راح هذا المحامي يرفع صوته في كوريدور الزنازين التحتانيّة موجّهًا كلامه للجميع، لأهل الزنازين كما لأهل الجماعيّة:

ـ لا تنسوا أنّ لكم أخًا في حلب!

وقد كان أبو علي سليم بين النقابيين، وهو مهندس شيوعي وحيد، قريب إلى الحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي)، لم يستطع طوال فترة سجنه مع هذه المجموعة أن ينسجم معها، كما لم تستطع المجموعة أن تهضمه. وكان في علاقاته وسلوكه ونمط حياته ونظرته إلى نفسه ووضعه المادّي جزءًا من الشيوعيين. وقد كان النقابي الوحيد الذي أُحيل إلى محاكمة بعد أن تمّ الإفراج عن جميع النقابيين

سواه، فقط لأنّه رفض التوقيع على أيّ شرط للإفراج.

في اليوم التالي من نقل النقابيين «للقاء الوفد»، جاء عناصر الشرطة وهم يحملون قوائم بما ترك كلّ نقابي من أغراض وأشياء وأمتعة خلفه، كي يتمّ ضبّها ونقلها إلى سجن عدرا حيث أودع النقابيّون، وحيث لم يكن ثمّة بالطبع لا وفد أمني ولا من يحزنون. وكانت تلك القوائم مثار تندّر تستحقّه، فأحد النقابيين الأثرياء، ممّن كان يقال إنّه يملك أكثر من سفينة تجاريّة في البحر، ضمّن قائمة أغراضه علبة مربّى مفتوحة. كان هذا الرجل قد فتح علبة مربّى ممّا يوزّع على السجناء في السجن واستهلك شيئًا منها، وها هو يطلب تضمينها في حزمة أغراضه التي ستنقل له إلى سجن عدرا. ولم يفاجأ بهذا أحد ممّن يعرف هذا النقابي عن قرب، ذلك لأنّ هذا السجين الذي يعتمد في لباسه غالبًا الزيّ التقليدي المؤلّف من قنباز وحزام يناسبان ضخامة جثّته، كان قد هرّب البيض أثناء نقل النقابيين من سجن القلعة إلى سجن الشيخ حسن في حزام قنبازه. وهذا السجين «الاقتصادي» نفسه كان يشغل في مجموعته النقابيّة، التي كانت مخصوصة بالجماعيّة الفوقانيّة من الكراكون، مركز المدير الغذائي للمجموعة، يدير كمّيّات الأطعمة الكبيرة التي كانت تردهم عبر الزيارات «الدسمة» والمتواترة التي لم تنقطع عنهم، فيحتفظ بأطعمة الزيارات الحديثة ويوزّع عليهم أطعمة الزيارات القديمة التي لم تنفد بعد والتي بدأ يدبّ فيها الفساد، وحين يأتي دور أطعمة الزيارة «الحديثة» تكون قد فسدت أو كادت. في الوقت الذي كان بقيّة السجناء المحشورين في الجماعيّة التحتانيّة يتدبّرون أمرهم بما يَرِدهم من طعام السجن، وما قد يأتيهم خلال الزيارات القليلة والفقيرة فوق هذا. فلم يكن غريبًا والحال هذا أن ترد علبة المربّى المفتوحة على

قائمة أغراض هذا السجين.

المهمّ أنّ الإدارة نجحت بهذه الحيلة في إنجاز مهمّة فصل النقابيين عن أمتعتهم لنقلهم إلى سجن عدرا. وإذا كان من الممكن أن تنجح مثل هذه الحيلة مع النقابيين قليلي العدد والذين يجمعهم ملفّ أمني واحد، فإنّها لا يمكن أن تنجح في حالتنا. فأعدادنا كبيرة من جهة، ومن جهة ثانية تختلف الملفّات الأمنيّة بحسب الجهة السياسيّة التي اعتقل على اسمها الشخص، وربّما تختلف الملفّات ضمن التهمة نفسها بحسب تقييم الفرع لمستوى صلة كلّ سجين بالحزب الذي اعتقل على اسمه. هذا إذا لم نذكر أنّ الحيلة التي تنجح في مرّة تصبح محروقة وضعيفة القدرة على النجاح في المرّة الثانية، مع الجماعة نفسها على الأقلّ. فالسجين، ونظرًا إلى الفقر الشديد في المعطيات التي بين يديه والمتعلّقة بما يرسم له في الدوائر الإداريّة والأمنيّة، يطوّر استشعارًا قويًّا للدلالات والبوادر والإشارات الثانويّة. تمامًا كما يطوّر الأعمى قدرة فائقة على الاستفادة من حواسّه الأخرى.

ولكن حين لا تنفع الحيلة ينفع العنف والقسر. في أواخر صيف ١٩٨٥ كان يوم الانتقال إلى عدرا، استنفر الفرع وأرسل أشرس مساعديه، المساعد أبو حسن، لتنفيذ المهمّة. القليل منّا كان يعرف المساعد أبا حسن. فهو كما عرفنا فيما بعد أحد أبطال فرق المداهمة وليس التحقيق، ولذلك لم يكن لنا احتكاك معه. دخل عنصران من الشرطة وقرآ قائمة بأسماء الدفعة الأولى طالبين منهم الخروج من دون حمل أيّ غرض مهما يكن:

ـ خلّي كلّ شي بأرضو، كلّ شي! والغراض بتوصلكم متل ما هي على عدرا! أنا قلت كلّ شي، أحسنلكن هاه! قال أحد الشرطة بلهجة واثقة.

خرجت الدفعة الأولى وقد عزّ على بعضهم ترك أشياء صغيرة لها قيمتها في نظرهم، مخافة أن تضيع أو تتلف. فحمل هؤلاء بعض الأشياء الصغيرة والشخصيّة بأيديهم. استعرض المساعد أبو حسن الرتل المترادف أمام مبنى الإدارة، واقترب من كلّ من يحمل في يده أيّ شيء، مهما كان، وصفعه بكلّ عنف على رقبته طالبًا منه رمي ما في يده على الأرض. أحد السجناء أوشك، من عنف الصفعة، أن يرتمي هو على الأرض قبل أن يرمي ما في يده، لولا أنّه اتكأ على السجين الذي أمامه ممّا أربك الصفّ ودفع المساعد إلى الصراخ:

ـ باستعداد ولا منايك!

هكذا، وكأنّ هؤلاء مجموعة من المعتقلين الجدد أو من سكّان بناية «متمرّدة» جرى تمشيطها! وبعد أن اكتمل رمي كلّ الأشياء (مسابح زيتون ولوحات حرق على الخشب وأعمال خرزيّة وصور شخصيّة لأبناء..) راح أبو حسن يحطّمها بحذائه بهمّة عالية كالمهووس، كما لو أنّها زواحف سامّة يجب قتلها بسرعة قصوى قبل أن يتمكّن أحدها من الفلتان وإيقاع الأذى بأحد. وهكذا فرض أبو حسن الجوّ الذي يرغب بفرضه على الجميع، حتى عناصر مفرزة الكراكون لم يسلموا من تأنيبه وشتمه أحيانًا، على أيّ سلوك منهم لا يبدو له «عسكريًّا» أو «أمنيًّا» كما ينبغي. خرج الرتل إلى باص النقل ذي الشبك الذي نقلهم إلى سجن عدرا.. وعاد لنقل الدفعة الثانية. ورغم أنّ عناصر الشرطة نبّهوا أفراد الدفعة الثانية على ما وقع على أفراد الدفعة الأولى من غضب أبي حسن، وحذّروهم من حمل أيّ غرض شخصي مهما يكن، غير أنّ تعلّق بعض أفراد الدفعة الثانية ببعض مقتنياتهم الخاصّة، ولا سيّما المسابح، كان أكبر من تحذيرات الشرطة ومن التحسّب لما يمكن أن يصدر عن أبي حسن من سلوك. فلم يخل الرتل الثاني أيضًا من

أفراد يحملون بأيديهم أشياء خفيفة ولكن غالية على قلوبهم.

كنت في عداد الدفعة الثانية، ولكن لم يكن لديّ من المقتنيات الخاصّة ما يستحقّ المغامرة. قاد أبو حسن حملة تشليح الأغراض ولكن، للعجب، بقسوة أقلّ. بعد ذلك اتّجهنا إلى الباص. غير أنّ ما لفت نظري وسرّني قليلاً حينها هو الموقع الثانوي لـ «طويل العمر» في هذه المعمعة. فقد كانت سطوة المساعد أبي حسن طاغية إلى حدّ أنّها جعلت من أبي عيد مجرّد شرطي يتفرّج على ما يجري. كان أبو عيد يقف جانبًا، مدليًا يديه على جانبيه كالفائض عن الحاجة، وقد ذوت في عينيه لمعة اللؤم ورغبة الأذى وكره الآخرين. «لا يركع اللؤم إلّا للؤم أشدّ!». أسعدني أن أراه مهملاً وفاقد السطوة ولو للحظات، وأن أرى أبا حسن الفائض السلطة والغطرسة يضنُّ عليه بأيّ اعتبار خاصّ أو تمييز ما عن بقيّة مرؤوسيه. سرّني ذلك، وأعلم أنّ هذا ولا شكّ سرور البائسين. غير أنّه سرور على أيّة حال.

كان فم الباص المشبّك مقابلاً تمامًا لفم الكراكون، فما أن لفظنا هذا حتى تلقّفنا ذاك وانطلق قاصدًا رمينا في فم آخر أكثر اتّساعًا. فم يلفظنا وآخر يتلقّفنا، أفواه تتغذّى على أعمار الناس. غير أنّنا كنّا فرحين بخروجنا من تلك البئر. هناك مسافات بين السجون قريبة من المسافات التي تفصل بين السجن والحرّيّة. بعد أسابيع قليلة من نقلنا إلى سجن عدرا فوجئنا بسماع خبر موت ذلك المساعد المتغطرس. قتل، كما قيل، في عمليّة مداهمة لمجموعة إسلاميّة. وقيل إنّه لم يقتل في عمليّة مداهمة بل اغتيل من قبل مجموعة إسلاميّة انتقامًا. وقيل إنّ ذلك جرى بعد يومين فقط من قيادته لعمليّة نقلنا إلى سجن عدرا. كانت عمليّة نقلنا إذن هي استعراض القوّة الأخير له.

* * *

عدرا

بشهيّة فاترة تناولنا فم هذا السجن الواسع الممتدّ. باب حديدي عملاق يفتح باعتياد شديد وكسل، ومحاطًا بالعيون الذاوية للحرس المتواجدين على الباب، يدخل الباص (باصنا) ويجول قليلاً في شوارع تمتدّ وتتقاطع داخل «صرح الحرّيّة» هذا، ثم يتوقّف ببلادة ويلفظنا إلى فضاء حقيقي واسع! ما أبعد شبهه بسجن الشيخ حسن الصغير والملتمّ على نفسه.

كنّا حينها نشبه ثياب ميت رحل منذ زمن غير قليل عن هذه الدنيا، وطال خزنها بعد أن غابت اليد التي كانت تمتدّ إليها وغاب الجسد الذي كان يكتسي بها ويتزيّن. ثم بعد وقت طويل تجيء يد حيّة أخرى لتخرجها إلى النور والهواء، سعيًا وراء إحياء ذكرى الميت أو التخفيف من احتقانها ومحوها. مثل تلك الثياب تتوق إلى يد تخرجها إلى الهواء والنور وتنفض غبار الموت عنها، تمهيدًا لأن تسبغ عليها حياة جديدة مشتقّة من حياة مستخدمين جدد. لكنّ الشعور بالإهمال والفيض عن الحاجة والإقصاء والموت لم يكن قد تملّكنا بقوّة بعد،

فنحن كنّا، من دون دراية منّا، في أوّل الطريق. وكان ينتظرنا الكثير ممّا لم نكن ننتظره.

كانت مجموعتنا المكوّنة من طلّاب جامعة جمعتهم الصداقة والثرثرة في قضايا عامّة، والتي كانت صيدًا سهلاً، غير ثمين، لفرع الأمن السياسي في دمشق، هذه المجموعة التي يروق لي أن أسمّيها أحيانًا مجموعة «الأجنحة الكسيرة»، كانت مثل براعم تنطوي على كلّ القوّة التي تمتلكها الحياة في بداياتها وتحتاج إلى شروط ملائمة، لم تكن متوفّرة في سجن الشيخ حسن، لتتفتّح. وكان خروجنا إلى هذا الفضاء والامتداد فرصة نأمل أن تسمح لنا بقدر أكبر من الحياة.

ها نحن نترجّل من الباص ونسير وفق توجيهات عناصر الشرطة، فيما شعورنا حائر في لبوسه، نسير مستسلمين ويملأ أرواحنا أمل المجيء إلى مكان أرحب منشغلين باستكشاف ملامح هذا المثوى الجديد. نصعد درجًا ونلتفّ لنصعد آخر وندخل عبر بوّابات من قضبان حديديّة مطليّة بدهان فضّي، ونسير مترقّبين مستطلعين هذا المكان الذي لا ندري كم سيقتطع من أعمارنا. بعد قليل نصل إلى المكان المخصّص لنا. جناح في الطابق الثاني من سجن دمشق المركزي المتعارف عليه باسم سجن عدرا. وهو في الواقع نصف جناح حيث إنّه يضمّ نسقًا واحدًا من المهاجع لا يقابلها نسق آخر كما في الأجنحة الكاملة. وقد تمّت تهيئة نصف الجناح هذا ليستقبل سجناء مختلفين عن نزلاء هذا السجن المدني، سجناء سياسيين يُخشى منهم على أمن الدولة. سدّت النوافذ الخارجيّة (المطلّة على الفضاء خارج السجن) سدًّا مُحكمًا بقطع إسمنتيّة مصمّمة على مقاس فتحة النافذة، وسدّت النوافذ الداخليّة (المطلّة على باحات السجن الأخرى) بصفائح حديديّة فيها ثقوب ناعمة، لا يمكن الرؤية من خلالها إلّا إذا لصقت عينك

على الثقب، فصار نزيل هذا الجناح معزولاً كما ينبغي له أن يكون.

كوريدور بطول حوالى ١٥٠ مترًا، باتّجاه شمال جنوب (وبالمناسبة لست ممّن يتمتّعون بحسّ جغرافي عال، على العكس من ذلك قلّما أهتمّ بالجهات، ويمكن أن أقضي فترة طويلة في مدينة ما من دون اكتراث بالجهات، فلا أستفيد منها في الاستدلال على المواقع، ولكنّ الصلاة اليوميّة التي كان يؤدّيها السجناء الإسلاميّون في سجن عدرا، متّجهين بطبيعة الحال إلى الجنوب، هي الصورة التي رسّخت في ذهني توزّع الجهات في ذلك السجن، وكان أن ساهم ضعف هذا الحسّ المكاني في أنّني أمضيت ثلاث سنوات ونصف السنة في سجن تدمر من دون أن أتمكّن من رسم شكل تقريبي لامتداده وتوزّع باحاته، هذا الموضوع الذي كان يستهلك ساعات من التخمين وتركيب التصوّرات فيما بيننا لرسم صورة متكاملة عن سجن تدمر الذي خبرنا منه بقعًا داخليّة خبرة تفصيليّة ملّيمتريّة، وعجزنا إلى حدّ كبير عن تشكيل تصوّر شامل له)، يحدّه من الغرب حائط مسمّط من الإسمنت، ومن الشرق ستّة مهاجع مرقّمة بأرقام زوجيّة تبدأ بالمهجع ٢ وتنتهي بالمهجع ١٢. وبين المهجع والآخر توجد مسافة طويلة تعادل طول باحة التنفّس تتوسّطها نافذة «مشبّكة». المهاجع إذن غير متلاصقة بل متباعدة. في كلّ مهجع شبابيك ممتدّة على طوله من الحائط إلى الحائط، تقع تحت السقف بقليل، وتطلّ على باحة تنفّس. باحة التنفّس التي خصّصت لنا كانت تقع في الطرف الشمالي من الجناح، وقد سدّت نوافذ كوريدورات الأجنحة «المدنيّة» الأخرى المطلّة عليها بصفائح حديديّة مثقبة كالتي تُسدّ بها نوافذ كوريدور جناحنا.

كانت الدفعة التي سبقتنا (شيوعيّون) قد استقرّت في المهجع الأوّل (المهجع رقم ٢)، أمّا دفعتنا (شيوعيّون أيضًا) فقد استقرّت في

المهجع التالي (المهجع رقم ٤)، في حين استقرّت دفعة الإسلاميين في المهجع الثامن، على أنّ المهجع السادس خصّص للنقابيين «ضيوف الرئيس» (غالبيّتهم إسلاميّو الهوى) الذين كان قد تمّ نقلهم إلى سجن عدرا قبل ذلك بحوالى السنة وخصّص لهم مهجع بين السجناء المدنيين أو القضائيين (تمييزًا لهم في التسمية عن السجناء السياسيين) ليتمّ نقلهم إلى جناح السياسيين هذا بعد ذلك. وظلّ المهجع العاشر لسجناء القضايا الفرديّة والمهجع ١٢ للشرطة المعاقبين. على أنّ هذه «الجغرافيا السياسيّة» سوف تعبث بها يد التغيير مع مرور السنوات وتغيّر الأحوال.

* * *

الفرق كبير بين أن تُنقل إلى سجن مأهول وأن تُنقل إلى سجن عليك أن تبدأ به من نقطة الصفر. كان هذا الفرق واضحًا لنا نحن مجموعة «الأجنحة الكسيرة»، بين الانتقال اللذيذ من فرع التحقيق إلى سجن الشيخ حسن، والانتقال الشاقّ إلى سجن عدرا. بين أن تكون ضيفًا على وضع مؤسّس ومستقرّ وأن تبدأ أنت في تأسيس وضع ناقص العناصر مبعثرها. فرق كبير! مهاجع واسعة فارغة إلّا من مجموعة فرشات فرديّة من الإسفنج العاري موضوعة فوق بعضها بعضًا في كتلة واحدة. مهاجع واسعة متّسخة الأرضيّة والجدران والشبابيك. لا مكان للجلوس ولا شيء يريح النفس سوى الاتّساع وتوقّع حياة سجنيّة أهنأ هنا. في المساء تصلنا أغراضنا من سجن الشيخ حسن. ركام من الأغراض وضجّة وفوضى وحركة أفراد مكّوكيّة دائمة قليلة الجدوى ثقيلة على القلب. أشخاص يتفقّدون الأغراض يطمئنون إلى أغراضهم الخاصّة. شرطة تعبون لا يملكون من أمرهم سوى الصراخ والتذمّر. فوضى في النفس وفوضى في المكان. أنا من النوع الذي يقعدني مثل

هذا الوضع عن العمل ويثبطني ويقتل همّتي. ولكن، كما دائمًا، ينتخب الظرف رجاله المناسبين. يبرز من جمع السجناء أشخاص لهم القدرة على اقتحام هذه الفوضى بقلب ذكي ويد نشيطة والبدء بإدخال النظام فيها. هذا النوع من الأشخاص يخوّله نشاطه وموهبته في التنظيم أن يسخّر الآخرين في أداء شيء من المهامّ لتسريع الإنجاز. هذا العمل الطوعي والاستعداد الذاتي لتنظيم الأمور العامّة من قبل مثل هؤلاء الأشخاص يجعل من الصعب على أيّ شخص، مهما كان بليدًا، أن يرفض مهمّة كلّف بها منهم. وهكذا يجري تنظيف المهجع وتوزيع الفرشات والأشياء العامّة. لا بل إنّ أحد السجناء الشباب المغامرين استطاع أن يصنع الشاي للجميع، حين كانت مثل هذه الإمكانيّة بعيدة حتى عن متناول الخيال. فقد صعد هذا الشابّ على كتف صديقه وفكّ الغطاء الزجاجي المعشّق الذي يغطّي إحدى لمبات السقف في المهجع، وملأ هذا الغطاء بالماء ووصل مسريين كهربائيين إلى ملعقتين صغيرتين كان قد استلّهما، مع الشاي والسكّر، من كومة الأغراض المكدّسة في الكوريدور، وغمرهما في الماء الذي سرعان ما بدأ بالغليان، فأضاف إليه الشاي والسكّر، وكرّر العمليّة بحيث شرب كلّ من حوله، وقد كانت فرحته بذلك ظاهرة وهو يوزّع الشاي ويضحك، حتى إنّه نسي أن يشرب هو نفسه، إلى أن ذكّره أحدهم فجلس يستمتع بنتائج مغامرته مع سيجارة مستحقّة.

بعد مرور وقت غير قليل تتراجع الفوضى، ويبدأ المهجع يستعيد أحقّيّته باسمه، فيأخذ شكل المكان الصالح لأن تهجع فيه. صار بمقدور المهجع أن يمتصّ غليان الحركة من الكوريدور. صار يمكن للسجين أن يرتاح على فرشته الإسفنجيّة الخاصّة التي تفصلها مسافة (وجيبة) تصل إلى حوالى ٤٠ سم عن فرشة جاره. وما لبثت هذه

الفرشات بعد أيّام أن ارتفعت على أعمدة من حديد اسمها أسرّة، لتصير منطقة ما تحت السرير حلًّا لمعضلة كثيرًا ما يعاني منها السجين، حيث صارت مخزنًا ممتازًا للأغراض والمستلزمات. ومع الوقت، ونظرًا إلى أنّ باب السجن كان صمّامًا ذا اتّجاه واحد يسمح بالدخول وقلّما يسمح بالخروج، فقد تزايدت أعداد السجناء وصار السجناء ينامون في طوابق داخل المهجع، حيث ارتفعت أسرّة حديديّة جديدة فوق الأسرّة الأولى واختُصرت (الوجائب) بين الأسرّة وتحوّل المهجع إلى مخزن بشري مكتظّ، يغلي بالخلافات والضغائن والمكائد الصغيرة، وأيضًا بالصداقات والدراسة والأعمال اليدويّة وجلسات الودّ وجلسات النقاش.. حياة جمعت من المقوّمات ما يمكنها من إعادة دورتها المستقلّة، حياة لها كيانها الخاصّ، غير أنّها مع ذلك تستمدّ ديمومتها من حبل سُرّي ليس له أن ينقطع مع حياة المجتمع في الخارج.

بعد قليل، ونحن في غمرة كفاحنا التأسيسي هذا، سوف نتعرّف على ملمح مميّز في هذا السجن الجديد. إنّه مطعم السجن. في موعد الغداء، جاء أحد عناصر شرطة الجناح السياسي وتوجّه بثقة صوب بوّابة حديد مشبّك كائنة في صدر الكوريدور من الناحية الشماليّة، وهو يدعو من يصادفه من السجناء في الكوريدور دعوة جديدة تمامًا على أسماعنا: «ع المطعم يا شباب!» لطالما ستطرق هذه الدعوة أسماعنا بعد ذلك! ولطالما سنفتقد إلى هذه الدعوة ونحنّ إليها في السنوات التي غمر فيها بؤس وعذابات سجن تدمر أرواحنا!

فُتحت البوّابة. ولجنا لأوّل مرّة إلى صالة كبيرة فيها صفّان متوازيان من الطاولات والمقاعد الإسمنتيّة. كلّ طاولة مخصّصة لثمانية أشخاص. كان الطعام موزّعًا على الطاولات. توزّعنا بدورنا نحن على

الطاولات ثمانية ثمانية. تناولنا طعامنا بتسرّع وعشوائيّة، قبل أن يحضر رئيس المفرزة ويخطب فينا قائلاً، فيما أرجاء الصالة العارية ترجع صدى كلماته، إنّ المهاجع يجب أن تبقى خالية من الطعام، وإنّ الأكل مسموح في المطعم فقط، ويمنع إخراج أيّ شيء من المطعم إلى المهاجع، حرصًا على نظافتها. بعد أشهر قليلة بدأ هذا الكلام «الرومانسي» يتكسّر تحت ثقل الحاجة والإلحاح والعادة. كانت البداية بإخراج الدوسير ثم بعد ذلك الخبز ثم كلّ شيء. فيما بعد تحوّل المطعم إلى نافذة استلام ليس أكثر، مكان يوضع فيه الطعام ويذهب مندوب عن كلّ مجموعة يستلم الطعام المخصّص لمجموعته ويعود به إلى المهجع. حتى إنّ السخرة التي كانت تجلب الطعام إلى جناح السياسيين لم تعد توزّعه على الطاولات، بل تحضر البلوات وتسكب الطعام مباشرة في الطناجر التي كان يحضرها مستلمو الطعام من كلّ مهجع. وهذا ما أراح الشرطة الذين كانت مهمّتهم تستدعي البقاء في المطعم حتى ينتهي الجميع من تناول طعامهم، والوقوف طوال الوقت على باب المطعم لمنع إخراج أيّ شيء من داخل المطعم إلى المهاجع. الآن باتت المهمّة تقتصر على فتح باب المهجع وإغلاقه بعد أقلّ من عشر دقائق. وهكذا اضمحلّ هذا الملمح المميّز في هذا السجن إلى أن تلاشى بالكامل بعد وقت غير طويل. على أنّه بين فترة وأخرى، وتحت تأثير ظروف العلاقة بين السجناء والفرع، أو بتأثير تغيّر رئيس المفرزة ورغبة الرئيس الجديد بأن يظهر «احترامه» للقانون وحزمه واختلافه عن غيره، كان يُفرض علينا العودة إلى نقطة الصفر في العلاقة مع المطعم، لكنّها كانت دائمًا عودات هشّة وسرعان ما كنّا نعود عنها إلى الوضع «الأساس» الذي استقرّ حالنا عليه، وهو الاستغناء التامّ عن صالة المطعم.

في الأيّام الأولى لنا في هذا السجن الجديد الواسع، لاحظ الجميع أمرًا غريبًا. الجميع يستيقظون باكرًا نشيطين من دون أيّة رغبة في المزيد من النوم. حتى إنّ من كنّا نسمّيهم من قبل «دببة النوم» تراهم الآن مستيقظين ساعين باكرًا في أرجاء المهجع وكأنّهم ليسوا هم. فسّر البعض ذلك بتغيّر المكان وأثره على عادات وسلوك الفرد، وفسّر آخرون الأمر بأنّه ناتج عن الفرح العميق بالخروج من بئر الشيخ حسن. من جهتي فسّرت الأمر بأبسط من ذلك، فقلت إنّ هذا ناجم عن تحسن التهوية بتحسّن نوعيّة الهواء. في الكراكون كان الهواء راكدًا وملوّثًا يمَيل بالمرء بطبيعة الحال إلى الكسل والبلادة والنوم، أمّا هنا فالمكان مفتوح والهواء متجدّد ولا ازدحام في المهاجع، طبيعي إذن أن تكتفي أعصاب المرء بوقت أقلّ من النوم.

لم نكن في الفترة الأولى أكثر من اثني عشر شخصًا في المهجع الواحد. لكلّ فرشته، لكلّ بيته و«مجاله الحيوي». وكان اتّساع المكان وانقطاع الاحتكاك المباشر مع الشرطة قد انعكس راحة في النفوس وصفاء. تلاشت خلافات وانبسطت شخصيّات السجناء أكثر، فبدا من طباعها ما لم يكن باديًا في مقبرة الأحياء السابقة. وكان التحوّل الكبير الذي طالما انتظرناه وتقنا إليه هو إحضار الكتب من مكتبة السجن. فبعد أيّام قليلة من استقرارنا في مثوانا الجديد أحضر عناصر الشرطة لنا مجلّدًا كبيرًا يحوي بين دفّتيه عناوين كتب غالبيّتها الغالبة باللغة العربيّة وبعضها باللغة الإنكليزيّة والقليل منها باللغة الفرنسيّة، كان ذلك المجلّد هو فهرس مكتبة السجن، وقد تسلّمه سجين تطوّع أن يتولّى أمر تنسيق طلبات المهاجع من الكتب. كان يحقّ لكلّ سجين أن يطلب عنوانين فقط كلّ شهر، حيث كان يتمّ تبديل الكتب شهريًّا. جال الفهرس على المهاجع، وراح السجناء المتقاربون في توجّهاتهم

وأهوائهم ينسّقون فيما بينهم لطلب زوّادة من الكتب تكفيهم لشهر. الكتب والوقت ورغبة جارفة بالقراءة، عناصر تكاملت وتركت طابعها على العصر العدراوي الجديد الذي يمكن تسميته بأمانة عصر القراءة. كان ذلك بالنسبة للكثيرين، وأنا منهم، وقود الديناميّة التي تحيل الشرنقة إلى فراشة، الديناميّة التي تقطع الكثير من الخيوط الحريريّة الناعمة المكبّلة للعقل، وتمنحه مع الوقت أجنحة يعلو بها على ذاته فيرى قصورها واضطرابها. ربّما لم يشهد مكان في العالم على مرّ العصور حمّى قراءة كالتي شهدتها فترتنا الأولى من المرحلة العدراويّة. كانت بعض الكتب تنتقل على مدار الساعة من يد قارئ انتهى الوقت المخصّص له، إلى يد قارئ آخر جاء دوره. كنت ترى أهل المهجع وكأنّهم يستعدّون لامتحان حاسم وشيك. لم يعد ثمّة حاجة إلى قيلولة، فالهدوء عامّ. حتى من كان لا يجد في نفسه رغبة للقراءة، كان يحترم جوّها ويسلّي نفسه بشيء ما أو يخرج من المهجع. وكثيرًا ما كان يعلّق عناصر الشرطة العابرين: شو فاتحين لكم مدرسة!؟

من جهتي، كانت تلك فترة لإرواء عطشي للمعرفة، ولاكتشاف ميولي وقدراتي واكتساب ثقتي بنفسي. شيء شبيه بأن تروي وترعى تربة لتكتشف مع الوقت ما تضمر من بذور. كما فعل مرّة صديقي عمّار الذي أراد أن تنطق الأرض باسم الفتاة التي أحبّ، فطمر في التربة التي تطلّ عليها نافذة بيتها خطوطًا مدروسة من بذور الذرة التي ما إن سقاها المطر حتى انبثقت شتلات خضراء غضّة متناسقة ومتّصلة وأمينة للغاية التي أرادها منها عمّار بأن تكون على شكل اسم حبيبته «لينا»!

في السنوات الأولى من مرحلتنا العدراويّة كان السجن أقرب إلى كونه مدرسة. ويمكن تشبيه الحال بالمدرسة الداخليّة الإجباريّة التي كانت تفرضها العائلات الأرستقراطيّة الروسيّة القديمة على أبنائها في

فترة تبلور وعيهم الراشد الأوّل، لكي يجبروا على دراسة الأدب الروسي والآداب العالميّة والموسيقى والعلوم.. إلخ. في عدرا صار السجن حاضنة ومأمنًا وملاذًا أعكف فيه على معالجة نقصي المعرفي الهائل. كانت تلك فترة بدأت أتعرّف فيها على الفكر الذي كنت أدفع ضريبة اعتناقي له! نعم كنت أدفع ضريبة اعتناقي لفكر لا أعرفه. ولا مفارقة في الأمر، ألا يعتبر من ينطق الشهادتين مسلمًا وهو ربّما لا يعرف من الإسلام إلّا ما شهد به؟ السياسة لا تستدعي من المرء أكثر من مناصرة الأفكار العامّة، فلا حاجة للتعمّق أو التوسّع، لا بل يُستحسن من الأنصار عدم التعمّق والتوسّع! في تلك الفترة بدأت أتعرّف على الوجه الذي أحببته من دون أن أراه، من دون أن أراه جيّدًا على الأقلّ. على أنّني بدأت أتعرّف على ذاك الوجه، لا لأنقده أو لأميّز ضلال اختياري من صوابه، بل بالأحرى لأحبّه أكثر، فأنا كنت قد «هويت وانتهيت»!

بعد سنوات قليلة من القراءة قصرت مكتبة السجن عن تلبية حاجاتنا، وكان لا بدّ من الاعتماد على تهريب الكتب عبر السجن القضائي، وطلب الكتب التي يمكن أن تسمح بها «الرقابة الثقافيّة» للمفرزة عبر الزيارات. ولكنّها للأمانة كانت رقابة صارمة من كلّ النواحي، وليس فقط الناحية السياسيّة. ففي إحدى الزيارات مثلاً أحضر لي أهلي مجموعة قصصيّة منشورة حديثًا من تأليف أحد أقربائي. ولكنّ الرقابة الثقافيّة للمفرزة أوقفتها، وحين استفسرت عن الموضوع قال لي رئيس المفرزة إنّها رواية خلاعيّة! قلت له إنّها من منشورات وزارة الثقافة السوريّة، فهل تنشر الوزارة أشياء خلاعيّة؟ لكنّ رئيس مفرزة الشرطة أراد أن يثبت استقلاليّته عن وزارة الثقافة فقال: لا يهمّني ذلك، المهمّ أنّي قرأت فيها أنا أشياء غير أخلاقيّة! تقبيل وضمّ

وما إلى ذلك! وبعد إلحاحي الشديد أحضر الكتاب وأراني المقطع الذي يقصده، ولكن لو لم يجتزئ صاحبنا هذا المقطع لاكتشف أنّه مشهد لأب مع طفلته الصغيرة.

قلّت الزيارات!؟ نعم إنّها العلامة الفارقة الكبيرة لسجن عدرا الرحيم. فبعد انتقالنا إلى سجن عدرا بوقت قصير فتحت الزيارة للجميع، زيارة كلّ أسبوعين ولمدّة ساعتين. صحيح أنّ الزيارة كانت تتمّ عبر شبكين متباعدين وللأقارب من الدرجة الأولى فقط، وصحيح أنّ أصوات الزائرين والمزارين كانت تملأ كوريدور الزيارات المغلق، فيصبح السمع نافلاً بعد أن تختلط الأصوات وتتمازج وتصبح طنينًا يصمّ الآذان كأنّه الطرف الآخر من الصمت. إلّا أنّ الزيارات أدخلت نار الحياة إلى السجن.

في البداية، كانت المسافة التي تفصل بين شبكي الزيارة سبعين سنتيمترًا، وكان الشبك ناعمًا فلا يستطيع السجين تمرير إصبعه من فتحة الشبك، وكان يُمنع إدخال أيّة موادّ تتعلّق بالأكل عبر الزيارة. وضاعت هباء مطالباتنا بتحسين شروط الزيارة. ولكن مع حملة الاعتقالات الاقتصاديّة في أواخر الثمانينيّات من القرن الماضي، والتي شملت أعدادًا كبيرة من «الحراميّة»، كما كانوا يُسمّون من وراء ظهورهم، دخل عنصر جديد فاعل بقوّة إلى السجن، وتغيّرت أشياء كثيرة إلى الأحسن. كان من بينها تحسين شروط اللقاء مع الزائرين.

كانت الزيارة مشتركة أو مفتوحة، يقف جميع الأهالي على جانب من الشبك والسجناء على الجانب الآخر، وبذلك يتعارف الجميع، وتنشأ علاقات وصداقات فيما بين الأهالي وفيما بين السجناء والأهالي من خلال الشباك.

موعد الزيارة الثابت كان في صباح يوم الثلاثاء كلّ أسبوعين.

صباح الثلاثاء كان على نفوسنا أجمل من كلّ الصباحات التي يتنعّم بها «الأحرار» خارج السجن. صار يوم الثلاثاء أشبه بعيد صغير نخرج فيه عن روتيننا، ونعد أنفسنا فيه برؤية وجوه أخرى غير وجوهنا تلك التي اعتدناها ومللناها والتهم السجن الطويل نضارة الحياة فيها. الثلاثاء يوم جميل، نرى فيه وجوهًا طازجة لا يعلوها لون السجن، وجوهًا تحمل هموم الحياة الحرّة، الحياة خارج السجن، هموم وانفعالات غير المحبوسين، تعابير نحاول أن نشمّ منها رائحة الحرّيّة، وأن نستعيد من خلال أحاديثها طعم حرّيّتنا السابقة. الثلاثاء يوم جميل، نرى فيه وجوهًا نسائيّة جميلة، كلّ وجه نسائي جميل حتى في حياديّته، فكيف إذا كان وجهًا ينظر إليك متعاطفًا ودودًا وحتى معجبًا. كانت نظرات النساء إلينا تجمع على نحو غريب بين النظر إلينا كأبطال والتحسّر علينا، بين الإعجاب والشفقة، نظرات تدعم النفس وتسقي تربة الروح الجافّة. يوم نرى فيه أطفالاً لا يرون في ابتكار «الكبار» هذا أكثر من طرفة تسلّي أو تثير الاستغراب، إذ إنّهم يرون خلف الشبّاك كائنات بلا مخالب ولا أنياب ولا تبدو مغايرة لمن هم خارج الشبّاك، يبدو من هم داخل هذا القفص الواسع أناس يضحكون ويتحدّثون بوداعة وودّ، لا شيء يفسّر لهؤلاء الأطفال سبب حجب هذه الكائنات التي من بينها ربّما أخ أو أب لهم بهذه الطريقة.

يوم الثلاثاء، يوم الزيارة، تفرح قلوبنا كما يفرح طفل بالعيد. تمتدّ أيدينا إلى ملابس أخرى غير البيجامات، ملابس مخزونة لمثل هذا اليوم. ملابس يعود تاريخ أغلبها إلى يوم الاعتقال، جديدة القماش لقلّة اللبس وعتيقة الزيّ لطول الحفظ. يوم الزيارة تخرج الأحذية من مخابئها وإهمالها، حتى صار لمنظر الحذاء في قدم السجين بشارة الزيارة، تأثير تفوّق على دلالات الشؤم التي ارتبطت بلبس الحذاء عند الاستدعاء إلى

الفرع (مركز التحقيق) لاستجواب متأخّر أو لعقوبة ما. الثلاثاء يقصي الأمل بالزيارة كلّ نشاط آخر. لا رياضة صباحيّة ولا قراءة ولا شيء سوى الاستعداد لاحتمال الزيارة، فبعد قليل سوف يأتي الشرطي ويقرأ قائمة أسماء السجناء الذين أنعم عليهم أهاليهم بزيارة. القائمة ليست نهائيّة، على كلّ حال، فقد تأتي قائمة ثانية وثالثة، والأمل لا ينقطع. وحتى من لم يرد اسمه في القوائم ولم يكن له نصيب بزيارة، فإنّه يعيش أجواء الزيارة من خلال السجناء الأوفر حظًّا. بعد ساعتين سيعود السجناء من الزيارة وينقلون رائحة الخارج إلى الداخل. سلامات وأخبار وأغراض وربّما رسائل مهرّبة. لا أحد من السجناء يفوته نعيم الزيارة وإن اختلفت الدرجات والنسب.

بالنسبة لي، وقبل أن أبدأ ماراتون السجن، كان لأيّام الأسبوع على نفسي وقعان، خفيف وثقيل، ثلاثة بثلاثة. الأيّام الخفيفة في نظري كانت الأحد والثلاثاء والخميس، أمّا الثقيلة فهي السبت والإثنين والأربعاء. ولا أعلم سرّ هذا الانقسام المتناوب، لكنّي أظنّ أنّ السبب في ذلك هو أنّنا في الدراسة الابتدائيّة كان هناك حصص إضافيّة في الأيّام التي تكرّس لها انطباع ثقيل في نفسي. والآن صدف أنّ يوم الزيارة هو أحد الأيّام الخفيفة التي كنت أحبّها سلفًا، فصارت المحبّة مضاعفة (بعد سنين قليلة سيأخذ يوم الاثنين شرف الزيارة وهذا سيخرجه من قائمة الأيّام الثقيلة على نفسي).

وفوق كلّ هذا صار يوم الثلاثاء (ومن ثم الاثنين) موعدًا لرؤية وفاء، الصبيّة الجميلة والحيويّة والتي كانت عنصرًا ثابتًا في الزيارات. كانت تأتي لزيارة أخيها، الذي كان صديقي، تحطّ قليلاً مثل فراشة خفيفة على شبك الزيارة، تسلّم على الجميع قبل أن تعود وتستقرّ على شبّاك أخيها. كنت أنتظر قدومها وينعشني سلامها وسؤالها عنّي،

صارت إطلالتها جزءًا جميلاً من زيارتي ثم صارت الجزء الأجمل.

لا يملك شابّ أن يبقى حياديًّا أمام حلاوة وحيويّة وفاء وانطلاقتها، لكنّي وأنا سجين لم تكن لديّ القدرة الكافية لأعبّر لها عن إعجابي، شعرت أنّ هذا سيكون استجداء عاطفيًّا غير مباشر ينال من كبريائي. غير أنّ في المرء أشياء لا يمكنه السيطرة عليها، أشياء تخون إرادته وتتواطأ مع هواه. وفي المرأة قدرة على قراءة هذه الأشياء وفهمها. حين كانت تحطّ وفاء على شبك زيارتي كفراشة، كان جريان دمي في عروقي يصبح نوعًا من التنزّه الحرّ أو السيران، وكان ينعكس ذلك بلا شكّ في عيوني وملامح وجهي ولون بشرتي. غير أنّي كنت أجهد نفسي كي لا ينعكس ذلك في كلّ ما يمكنني السيطرة عليه، من كلام وحركات والتفات.. إلخ. وقد بيّنت لي الأيّام أنّ انشغالي في كتم ما يولّده حضور وفاء في نفسي حرمني ربّما من رؤية ما يتولّد في نفسها هي من هذا الحضور.

عشيّة الزيارة يصبح جوّ المهجع مشبعًا برائحة الزيارة القادمة، الزيارة الموعودة أو المأمولة. ويأتي حكيم، شريكي في هموم الحبّ العسير، ليهمس في أذني داعيًا إيّاي إلى سهرة ما قبل الزيارة. حكيم أنهى دراسته في المعهد العالي للفنون المسرحيّة وكان يحضّر مع زملائه لتقديم عرض التخرّج حين اعتقل. واعتُقل حكيم، الذي لا يحبّ السياسة، لأنّه كان يستقبل في غرفته المستأجرة صديق شيوعي له مطلوب للأمن. في سهرة ما قبل الزيارة مع حكيم أسمع منه شكايات حبّه المظلوم لكِنْدة، الصبيّة التي كلّما زادها من اهتمامه زادته من إهمالها، وكلّما أنفق الساعات في إنجاز هديّة لها ضنّت عليه سوى بالضحك والدلال. حبّ مظلوم مرّتين، مرّة لأنّه من خلف قضبان السجن ومرّة لأنّ كِنْدة لا ترعاه. كان حكيم يعلّق إلى جانب سريره

شكلاً مصغّرًا ناعمًا لكندرة نسائيّة تختصر كلّ الأنوثة. وكان يشكو من تطنيش كندة له وهو يتطلّع إلى هذه الكندرة ويزفر طويلاً ويقول بصوت هادئ: ملعون أبو هالحالة، ثم يرفع صوته قائلاً: بدنا نطلع يا خيووو! بدنا نطلع يا أبو باسل (كناية عن الرئيس حافظ الأسد الذي ظلّ يُكنّى بأبي سليمان لفترة طويلة قبل ذلك)! يا خيّو غلطنا ومنك السماح! ويختم بضحكة صاخبة تميّزه. كان البعض لا يروق له هذا الكلام حتى ولو على سبيل المزاح، فالسجين السياسي يجب أن يكون وقورًا أكثر من ذلك، وأن لا يعطي للنظام أيّة إشارة على أنّه تعب من السجن لأنّ هذا معناه الهزيمة!

من جهتي كنت أتمنّى أن أبذل جهدي ووقتي في صنع هديّة لوفاء ممّا نصنعه في السجن من أعمال الخشب والخرز وبذور التمر. أتمنّى أن أكتب لها، أن أتحدّث عنها، أن أسمع حديثًا عنها، كان ذكرها يريح قلبي. ولكنّي كنت أبتعد عن كلّ ما يمكن أن يثير الشكّ لدى أحد باهتمامي بها. التمويه والتلطّي خلف ستار من الحياديّة شيء تجيده طبيعتي في مثل هذه الأمور.

في إحدى الزيارات غابت وفاء. كان من شأن غيابها أن يجعل الزيارة بلا طعم، مهما كثر الزائرون وتنوّعوا. وخفّف من ثقل غيابها أنّها أرسلت لي سلامًا مع إحدى قريباتها. وأنا بدوري سألت عنها بأقصى ما أستطيع من حياديّة. في نفسي مملكة ملوّنة كاملة لوفاء ولكنّي أكابر وأرفض الاعتراف بها. مملكة محاصرة بالنكران ولا تكفّ عن إرسال إشارات الاستغاثة لمن يغيث، ولا مغيث سوى وفاء نفسها التي كانت تدرس فيما يبدو سبل فكّ الحصار عن هذه المملكة وإنقاذها من الهلاك.

في الزيارة التالية، جاءت وفاء وكانت أجمل من أيّ مرّة رأيتها

فيها من قبل. بحركاتها وضحكها وتنقّلاتها وحديثها، كانت شديدة التأثير عليّ إلى حد أوشكت سدودي على الانهيار دفعة واحدة. لكن ما حدث حينها كان غريبًا. ففي تلك الزيارة، وفي الوقت الذي كنت أكابد من كظم رغبتي في كسب إعجاب هذه الصبيّة وتطويبها لي، أو حتى احتلال ركن ولو صغير من قلبها، جاءت وفاء ووقفت على شبك زيارتي وتلعثمت في طلب الحديث معي على انفراد، ثم تلعثمت في عرض ما تريد بعد أن ابتعد زوّاري عن الشبك مفسحين لها المجال. إنّها تريد أن تربطنا علاقة أو عهد بأن نكون لبعض حين أستعيد حرِّيّتي مهما طال الزمن.

كأنّ أمنية عصيّة تستجاب أو حلمًا بعيدًا يتحقّق فجأة. الغريب أنّ سدودي التي كانت توشك على الانهيار تماسكت قليلاً أمام هذا العرض غير المتوقّع، ووجدت في نفسي ما يكفي من القوّة كي أحاججها في لامعقوليّة مثل هذا النوع من العلاقات. كنت أحاجج كي أُهزم، كقائد جيش يرمي بجنوده إلى الهلاك ويجد نصره في هلاكهم، في هزيمتهم. أين المعقوليّة في نشوء عهد بين شابّ سجين سياسي في ظلّ أحكام عرفيّة لا يعرف إلّا الله متى يمكن أن يخرج من السجن، وصبيّة حرّة يتراجع نصيبها في الزواج مع مضيّ كلّ سنة من عمرها؟ أليس من الظلم أن ترهن صبيّة حياتها بهذا الشكل؟ أليس من الأنانيّة أن يقبل شابّ سجين بأن يتغذّى على حرّيّة صبيّة بهذا الشكل؟ أسئلة منطقيّة يفرزها العقل بتلقائيّة غير أنّ الحبّ لا يرى مثل هذه الأسئلة ولا يعترف بها. الحبّ يفرض على الجميع الاعتراف به ولا يعترف إلّا بذاته. إنّه يبلغ أعلى درجات الغيريّة سالكًا طريق الأنانيّة. قلت لها: إنّه من الأنانيّة أن أقبل هذا العهد بيننا، فقالت: بل من الأنانيّة أن ترفضه.

فتاة ترغب في أن تقتسم معك حرِّيّتها وتقاسمك قيدك. دافع جبّار

يقتحم السجن ليكون معك فيأخذ من حبسك ويعطيك من حرِّيّته. في الصداقة تتآخى القلوب أمّا في الحبّ فتنصهر، وهكذا كان. تصبح هي سجينة بك، وتصبح أنت حرًّا بها. تتشاركان المواقع. خليط متنافر ومتضامّ في آن.

في السجن الرتيب المديد، حيث يغرق السجين في بحر من الإهمال والنسيان وفقدان القيمة، يكتسب السلام العابر الذي ينقله لك زوّارك من صديق أو قريب أو أيّ كان، قيمةً كبيرة يحاول السجين أن يردّها بهديّة يقضي ساعات وربّما أيّامًا من الجهد لإنجازها. فكيف إذا غمرك كلّ هذا الفيض الدافئ من فتاة جميلة ومرغوبة، فتاة اختارتك وأنت سجين، اختارتك أملاً قد لا يتحقّق.. ولم يتحقّق!

حين عدت إلى المهجع من تلك الزيارة، صعدت إلى سريري (الطابق الثاني) وتلفّعت بغطائي وأغلقت عينيَّ على هذا الكنز الذي أعطتني وفاء مفتاحه والذي رأيته بحجم الكون. كانت سعادتي أكبر من طاقتي على التحمّل، فراح جسمي يرتجف كالمحموم. يحاول عقلي أن يستوعب حجم الرحمة التي أنزلت عليه، حجم وقيمة هذا الاعتراف الذي حزته فجأة، ويفشل في محاولته فتزداد سعادتي ويخفق قلبي خفيفًا لطيفًا. لم تكن وفاء صبيّة عاديّة، مجرّد موضوع للحبّ. كانت أكثر من ذلك أو أقلّ ربّما، لكنّها كانت كما يعجبني الأمر أن يكون. كانت تتمتّع باحترام الجميع وثقتهم، إلى جانب جمالها وجاذبيّتها وحيويّتها، وهي حين تختارني رغم حبسي وتعبّر عن حبّها لي، فإنّها تغني رصيدي برصيدها، تزيدني ثقة بنفسي. هذا هو نوع الحبّ الذي أحبّه. حبّ جدّيّ أو رزين أو وقور إذا صحّ مثل هذا القول. فأنا أحبّ شخصيّة المرأة كما أحبّ شخصها.

شعرت أنّني أحبّ وفاء إلى حدود قصوى. كنت أتأمّل الصورة

التي أرسلتها لي، صورتها وهي واقفة ببنطلون جينز وكنزة صوف رماديّة ثقيلة، وأستمتع بحسّ امتلاكي بالحبّ لصاحبة الصورة. وكانت تجمعني بها كلّ صباح أغاني فيروز اليوميّة في إذاعة دمشق. وفي ليل كلّ أربعاء كانت تجمعنا ساعة فيروزيّة رائعة على إذاعة الكويت قبل أن يحتلّها الجيش العراقي. وكانت الرسائل التي نهرّبها في الزيارات عبر الشبك غنائم روحيّة لا تقدّر بثمن، كنت أقرأ رسالتها مرّات عديدة وأمضغ كلماتها طويلاً حتى أتذوّق أقصى طعومها، وأكتب لها ساعات لتكون لها صفحة واحدة. وكان الوقت الذي أكتب لها فيه وقتًا ممتعًا وحرًّا ولا يحسب من زمن السجن. غير أنّني كنت أسأل نفسي، بنوع من الكلبيّة المضمرة في دخيلة كلّ إنسان، هل هذا حبّ حقيقي أم مجرّد ميل عنيف للتمسّك بخشبة خلاص في لجّة السجن؟

مرّت سنوات على هذا العهد الذي أثقله الزمن. وتعذّر على وفاء القدوم في الزيارة بعد أن أُفرج عن أخيها في العفو الكبير في الأيّام الأخيرة من عام ١٩٩١، الذي شمله مع كثيرين. وتمّت إحالة كلّ من لم يفرج عنهم، وأنا منهم، إلى محكمة أمن الدولة العليا لكي تقتطع المزيد من أعمارهم. صار عليّ بعد ذلك أن أردّ الدين إلى وفاء التي أعفتني، ولو من دون قصد منها في بداية العلاقة، من عبء الاستجداء العاطفي، وصانت هيبتي الذاتيّة وتحمّلت عبء مسؤوليّة البدء بهذه العلاقة الغريبة، واليوم يتعيّن عليّ أن أنهي هذه العلاقة من طرفي كي أعفيها من الثقل الأدبي لاتّخاذ هذا القرار من طرفها. وهكذا فعلتُ. والحقيقة أنّني في الفترة الأخيرة من العلاقة بتّ أشعر نفسي عبئًا عليها رغم كلّ ما تقوله وتفعله لتؤكّد لي عكس ذلك. بدأ عهدنا وانتهى من دون أن ألمس وفاء أو أشمّ رائحة جسدها، أو حتى أن أرى وجهها من دون تقطيعات شبك الزيارة. لكن ما لم يحدث طوال عمر هذه

العلاقة حدث لاحقًا في لحظة شديدة التأثير، لحظة ولدت كي تبقى.

قبل أن يتوقّف الباص أمام محكمة أمن الدولة العليا في شارع ٢٩ أيّار، رأيت وفاء في ذلك اليوم الذي وُلد كي يترك بصمته في داخلي مدى الحياة، تنتظر أمام باب المحكمة.. وقد بدا عليها أنّها انتظرت طويلاً. وقفتْ بعيدة عن الباص في حين كنّا نحن «المتّهمين» نترجّل منه، ثم تقدّمت وفاء منّي بعد أن استأذنت رئيس الدوريّة المرافقة للباص. كانت يدي اليسرى مقيّدة إلى يمين صديقي عزيز، أحد رفاق المحنة. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها وفاء على هذا القرب ومن دون تقطيعات الشبّاك. كانت المرّة الأولى التي ألمس فيها تلك الصبيّة التي صاغت منّي أملاً، وأمدّتني بما أعانني كثيرًا على مقاومة السجن. اضطرب سلوكها للحظات، أرادت في البداية أن تقدّم لي قرنفلة حمراء كانت تحملها في يدها، ثم عدلت عن ذلك حين لاحظت قيدي وحاولت احتضاني بكلتا يديها، احتضنتها بيمناي الحرّة فيما ابتعدت يسراي مع ابتعاد عزيز كي يفسح ما استطاع مكانًا لهذه اللحظة. فصرت بيد تضمّ بكلّ قوّتها وأخرى تنأى بقدر استطاعتها. وكان داخلي منقسمًا على هيئة هذا الانقسام بين يديَّ. فجزء منّي انغمس في مياه هذه اللحظة الجميلة وجزء آخر نأى بنفسه عنها وكأنّ شيئًا لا يعنيه، وكأنّه لا علاقة له بالجزء الأوّل. كما لو أنّ نصفي وقف حارسًا أو رقيبًا على نصفي الآخر. كيف لشخص أن ينخرط في شيء سيخرج منه إلى نقيضه في ثوان؟ ولا سيّما شخص مثلي من طبعه أن لا يسلّم نفسه بالكامل لشيء حتى حين تتاح له شروط التسليم؟

كان هذا اللقاء وداعًا أخيرًا. توهّج ما قبل الانطفاء! لم أر وفاء بعد ذلك أبدًا، حتى حين خرجتُ من السجن بعد سنوات عديدة من هذا، لم تأتِ لتبارك لي استعادة حرّيّتي وتطمئنّ عليّ، ولم تُعد لي

رسائلي الكثيرة التي هرّبتها لها طوال عمر عهدنا، ووعدتني أن تحرص عليها مهما كان مصير علاقتنا. لم تبادر للاتّصال بالهاتف حتى. وبنظرة راجعة بدا لي لقاء المحكمة ذاك بمثابة اعتذار مسبق عمّا ستقدم عليه من قطيعة بائنة معي.

وكان ما حدث لتلك القرنفلة الحمراء التي أهدتني إيّاها وفاء في ذلك اليوم غريبًا ودالًّا. فبعد أن عدنا من المحكمة وضعت القرنفلة في كأس ماء إلى جانب سريري. وفي المساء جلست ألعب الشطرنج مع زميل لي في المهجع. كنت أنظر بكسل إلى القرنفلة وأنا أنتظر خصمي كي يقرّر نقلته القادمة، حين انكسر فجأة عنق الوردة فمالت هذه على غصنها كحمامة ذبيحة. اقتربت منها فقرأت كلمة مكتوبة على كؤيس الوردة، كلمة لم أنتبه إليها من قبل، وما كان لي أن أنتبه إليها لولا هذا الانكسار الغريب الذي جعل كؤيس الوردة بوضعيّة كأنّه يعرض لي ما كُتب عليه. كانت وفاء قد كتبت بقلم أزرق كلمة «بحبّك». شعرت بالذنب والتقصير لأنّه لم يخطر لي أنّ وفاء يمكن أن تكون قد أضافت إلى الوردة شيئًا من روحها، لأنّي تعاملت معها كهديّة حبّ روتينيّة، ولم أكن على مستوى إبداع وفاء ونضارة حبّها. لكنّ الوردة كشفت لي «مكنونها» قبيل موتها، وربّما كانت تنطوي بذلك على مغزى لقاء المحكمة ذاك.

هما يومان جميلان لي في سجن عدرا لا يمكن أن أنساهما. يوم اقترحت عليّ تلك الصبيّة، بعد أن كانت قد أنضجت قلبي خلال زياراتها إلى السجن لمدّة تزيد عن السنة، أن نرتبط بعهد. ويوم التقيت تلك الفتاة أمام مبنى محكمة أمن الدولة العليا في دمشق بعد انكسار عهدنا ذاك تحت ثقل الزمن.

❊ ❊ ❊

الإفراج الكبير

في أحد صباحات سجن عدرا التي لا تنتهي، دخل إلى «صومعتي» جاري أبو ثائر خَلَف الذي كان قد أنهى فترة حكمه (٦ سنوات) منذ حوالى ستّة أشهر ولم يُفرج عنه، قائلاً وفي داخله دهشة فرحة:

ـ أبو شريك، تعال شوف!

كان من طبيعته أن يعطي للحوادث أبعادًا فوق طاقتها، فهو من كتّاب الشعر والقصّة القصيرة وله محاولة في كتابة رواية. وكان قد وصل به العمر إلى أواخر الأربعينيّات، لكنّ روحه بقيت في العشرينيّات من العمر وهي مطعّمة بما يدخل في مفهوم الرجولة في منطقة حوران.

ذهبت معه إلى «صومعته» (لكلّ سجين سرير ومساحة من المهجع يسوّرها بالشراشف فتصبح مكانًا منعزلاً له، كان يحلو لنا أن نمزح فنسمّيه صومعة)، فأشار لي إلى منفضة السجائر المصنوعة من بذور

التمر والموضوعة على سحّارة خشبيّة مشذّبة ومغلّفة لتقوم بوظيفة التربيزة بجانب السرير. حين نظرت إلى حيث أشار، رأيت مشرب السيجارة الطويل (الأمزك) والمصنوع من عود المكنس، منتصبًا على حافّة المنفضة بشكل عمودي. ليس من اليسير على الشخص أن يجعله يقف على هذه الوضعيّة حتى لو تقصّد، ذلك أنّ المشرب طويل وقاعدته صغيرة. تأمّلت المشهد قليلاً ثم نظرت إليه فشرح قائلاً:

ـ خلصت السيجارة وطفيتها، ورميت الأمزك كيفما اتّفق فأخذ هذه الوضعيّة!

ـ شغلة طريفة بالفعل! قلت.

ـ بتراهن أبو شريك إنّي اليوم بدّي أطلع؟! قال أبو ثاثر ضاحكًا بثقة.

ما توّج غرابة ذلك الحدث البسيط أنّه تمّ بالفعل الإفراج عن أبي ثائر بعد ساعات قليلة. حين جاء الشرطي وطلب منه ضبّ أغراضه للإفراج وراح يستعجله، أجهد نفسه كي يتماسك وهو يتوجّه إليّ بلهجته الحورانيّة الثقيلة:

ـ ما قُتْلك أبو شريك، والله العظيم إنّي كنت عارف!

قبل هذا الحدث الغريب بسنوات كان قد جرى في سجن عدرا ما هو أغرب وأبعد عن التوقّع. ففي ١٤/١٢/١٩٩١ أفرج عن الغالبيّة العظمى من السجناء دفعة واحدة. أطلق سراح كلّ الإسلاميين ومعظم الشيوعيين. دخل رئيس مفرزة السجن بعد الظهر وقرأ قائمة طويلة من الأسماء تمّ نقلهم إلى الفرع للمساومة (يطلب من السجين أن يوقّع على ورقة تتضمّن ثلاثة بنود: الأوّل هو الانسحاب من الحزب المعتقل على اسمه، الثاني التعهّد بالامتناع عن العمل السياسي، الثالث مراجعة فرع

الأمن السياسي في المحافظة كلّ عشرة أيّام لإبلاغهم بكلّ ما يحدث، أي التعامل مع الأمن. إذا رفض التوقيع لا يفرج عنه، هذا ما كنّا نسمّيه المساومة). بعد ذلك جاء بقائمة أخرى قرأها وقال:

ـ اللي ما طلع اسمو لا يخاف، الكلّ بدهن يطلعو اليوم!

في المساء كان قد أفرج عن معظم الأسماء الواردة وعاد إلى السجن من رفض التوقيع على ورقة الشروط. كلّ من عادوا كانوا من الشيوعيين، وغالبيّتهم من الحزب الشيوعي السوري ـ المكتب السياسي. كثيرًا ما حاول عناصر الشرطة بصدق ثني هؤلاء عن قرارهم مذكّرينهم بعائلاتهم وأبنائهم ومستقبلهم المعطوب. في اليوم التالي نقل هؤلاء مجدّدًا إلى الفرع، وأفرج عمّن رضخ للشروط في حين أُعيد من أصرّ على رفض التوقيع إلى السجن وعومل معاملة من استثني من العفو. كان هناك أسماء استثنيت سلفًا من العفو وكان اسمي من بينها.

كنّا نحن المبعدين عن رحمة العفو نراقب حركة السجن الغريبة التي تجري من حولنا. كان هذا امتيازنا الوحيد الذي لا قيمة له أمام امتياز الخروج من هذا المكان الأصمّ القاتل إلى الحياة الحقيقيّة. رأينا كيف يختلّ توازن السجين تحت وطأة الفرحة بالإفراج، فيرتبك ويودّع البعض ويتجاوز البعض من دون قصد. كيف يجد من شمله العفو نفسه في موضع حرج أمام صديقه الذي لم يشمله العفو، فيغطّي اللحظة بكلام مرتجف: انشالله اسمك يجي بالدفعة الجاي. رأينا كيف تتفاوت الطباع في اللحظات الحاسمة: سجين لا ينسى أن يضبّ كلّ ما لديه من أشياء حتى علبة الحمّص المفتوحة، وآخر لا يحمل بيديه شيئًا من حطام السجن تاركًا كلّ «ممتلكاته» خلف ظهره. رأينا فرحة عناصر الشرطة بهذا الإفراج الكبير، فرحة لا يبرّرها سوى غلبة قوّة الخير في نفوسهم على القسوة التي تفرضها عليهم وظيفتهم. كلّما تدرّجنا نزولاً

في رتب عناصر الشرطة زادت الطيبة في نفوسهم. رأينا كيف يقف السجين المفرج عنه على الباب الرئيسي للجناح في طريق الخروج، ويلقي نظرة أخيرة على هذا المكان الذي يفترس الأعمار بنهم لا يشبع، نظرة من يتأمّل في ضرسه المقلوع الذي طالما آلمه. رأينا سجناء يصرخون وهم في طريق خروجهم النهائي من السجن بصوت يخرج من مكان غير مألوف منهم: انشالله جايكم الدور يا شباب، أمانة الله سامحونا! رأينا كيف تمضي الحياة أمام عيوننا وتخلّفنا وراءها ككائنات غير جديرة بها، أو كائنات لحقتها لعنة إقصاء لا تردّ. ثم شعرنا في ثنايا خيبتنا كم نحن من القوّة والأهمّيّة بحيث تحتاج الدولة وهي تغدق العفو على هذا الكمّ من السجناء إلى أن تستثنينا من بينهم. ومن بين «السجناء المهمّين» الذين تمّ استبعادهم من العفو، مَن جلس يدخّن على سريره غير مكترث بكلّ ما يجري، قائلاً من دون صوت إنّ فرحة السجين السياسي بالإفراج عنه على يد النظام نفسه الذي سجنه إنّما تثلم صورة كفاحيّته واستعداده النضالي. السجن والحرِّيّة متساويان طالما لم يتغيّر النظام، الحرّيّة هي تغيير النظام.

في العاشرة من مساء ذلك اليوم تحلّقنا، نحن الباقين، حول الراديو لنسمع أخبار مونتي كارلو. كان خبر العفو هو الخبر الأوّل في برنامج بانوراما الإخباري. قيل في العناوين إنّ السلطات السوريّة أفرجت عن حوالى ثلاثة آلاف سجين سياسي، وفي التفصيل لم يضف إلى العنوان إلّا كلمة «بالفعل» التي كثيرًا ما كان يستخدمها صحفيّو مونتي كارلو عند البدء بتفصيل عنوان ما. لا تفاصيل إذن يمكن أن تغذّي الأمل.

بعد أن انقشع الغبار اكتشفتُ أنّه أُفرج عن كلّ أفراد مجموعتنا، وأنّني الوحيد الذي استثنيت من العفو. اكتشفت أنّ عليّ أن أكمل بعد

الآن وحيدًا من دون جلال ووائل وناصر وبرهان ونور ومحمّد وحسن وخير وميشيل وعبد الحكيم وعلي ودانيال وإياد وأحمد ونبيل وعبد الله وطلال و . . ، كان ذلك اعتقالاً ثانيًا لي. إبادة لكلّ عناصر استقراري واطمئناني. استفرادًا بي. سمكة تفرغ الماء من حولها فجأة. لم يعد الهواء المحيط بي مناسبًا لرئتيّ. وكان الاحتجاج على عدم الإفراج عنّا شيئًا متعارضًا مع أخلاقنا السياسيّة. الإضراب لتحسين شروط الحياة في السجن أمر مقبول وواجب، فهو جزء من النضال ضدّ النظام، أمّا الإضراب من أجل الإفراج عنّا فهو ضعف وإعلان هزيمة. وعلى السجين السياسي أن لا يظهر ضعفه أمام سجّانيه. مع ذلك، عندما جاء رئيس الفرع يتفقّد السجن بعد هذا الإفراج الكبير، أعربت عن احتجاجي على عدم الإفراج عنّي مثل بقيّة أفراد مجموعتي. نظر إليّ رئيس الفرع برخاوة المتيقّن من سيطرته وقال، بعد أن سألني عن اسمي:

ـ أنت عامل حالك زعيم!

ولكنّي سوف أعرف حقيقة الأمر بعد إحالتي إلى المحكمة، فملفّي الذي أُحيل إلى محكمة أمن الدولة العليا في دمشق كان ينطوي على السرّ.

صار عليّ أن أبدأ من جديد، باتّجاه نهاية مجهولة، المعلوم الوحيد فيها أنّها تزداد ظلمة مع مرور الأيّام. كثيرًا ما أصبح وحيدًا، أنا الذي أكره الوحدة وأخشاها دائمًا. تعكّزت في مرحلة التحوّل الكبير هذه على أمل بأنّ للعفو تتمّات قريبة. غذّيت هذا الأمل بلامعقوليّة استثنائي من مجموعتي في العفو، وغذّيته بأقاويل عناصر الشرطة وبكلام رئيس الفرع نفسه وبالتحليلات، التي تفضي كلّها إلى أنّه لن يطول سجن من بقي بعد هذا الإفراج. السجن هو المكان

الأوّل لتصنيع الأمل وتسويقه وقبوله. والمفارقة أنّ السجن، هذه الأرض القاحلة الجرداء، مكان خصب لنموّ الآمال. المفارقة أنّ دنوّ اليأس هو ما يفرّخ الأمل، وإلّا ربّما مات معظم السجناء كمدًا.

بدأت من جديد ألملم أشلاء محيطي، بدأت أتأقلم مع موت ما مات في بيئتي وأبحث عن عناصر استقراري الجديد. فمهما كبر الأمل في نفس السجين المزمن، تبقى في زوايا نفسه قوّة آمرة تملي عليه التصرّف كأنّ سجنه لا ينتهي. يتحدّث عن إفراج وشيك وهو يخيط غطاءه من أجل الشتاء القادم. كأنّ الأمل في ذاته ليس أكثر من نافذة تبقي النفس حيّة في حضيضها.

اضطرب نظام السجن بعد هذا الإفراج الكبير. لم يبق في السجن الذي كان يضمّ أكثر من ١٧٠ سجينًا سوى حوالى ٣٠ سجينًا. أغلقت الأبواب علينا وفرض علينا نظام شبيه بنظام الزنازين. وضع ٥ ـ ٦ سجناء في كلّ مهجع ومُنع الاتّصال فيما بين المهاجع. تفتح الأبواب في فترة التنفّس فقط التي لا تتجاوز نصف ساعة في اليوم لكلّ مهجع على حدة. أوقفت الفاتورة الأسبوعيّة. أوقفت الزيارات المشتركة. ولكن مع ذلك هناك من استجرّ من هذا التشدّد أملاً، وأنا منهم.. الأمل رفيق السجين الدائم ولا سيّما في لحظات الشدّة.

كان شتاء ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ الشتاء الأقسى على مرّ سنوات السجن. صار ارتفاع الثلج في باحة التنفّس حوالى نصف متر، الثلج الذي لم يلوّن الأرض ببياضه طوال السنوات السابقة. البرد القارس عنصر إضافي من طبيعة العناصر التي تتالت لتزيد من وحدتي وصعوبة سجني. السجن يبدأ عادة قاسيًا وشديدًا على النفس ثم يهون ويسهل بعد أن تتحسّن شروطه وتتآلف نفس السجين مع واقعها الجديد ومع النفوس التي تعيش المحنة المشتركة، ولكن نكوص حالة السجين إلى

وضع قاس بعد أن هان السجن وتروّض أمر عسير، يُعيد السجين إلى نقطة الصفر، شيء يشبه لعنة سيزيف في تدحرج الصخرة إلى الحضيض كلّما رفعها إلى الأعلى.

بعد أشهر قليلة من هذا الوضع اغتنى جناحنا بالسجناء السياسيين المنقولين من سجن حلب وسجن حمص. جميعهم سجناء قدامى شملهم العفو، ولكنّهم رفضوا قبول شروطه ولم يفرج عنهم. سرعان ما امتصّت ركودة حياتنا المزمنة جدّة هذا الحدث. سجناء قدامى ينضمّون إلى سجناء قدامى. السجن المزمن يبدّد نضارة الأرواح ويحوّل الشخص إلى كائن سجني شديد التأقلم مع السجن ومعتاد وراضخ تمامًا لتفاصيله، حتى إنّ السجين الجديد، بالرّغم من الحيويّة التي يدخلها على حياة السجناء القدماء، يشكّل إلى حدّ ما عامل اضطراب مزعج في عالمهم إلى أن تمتصّه حياة وتفاصيل السجن ومساربه. غير أنّ قدوم سجناء حلب وحمص أنهى حالة الحصار المفروضة على السجن. ففُتحت المهاجع وعادت حياة السجن إلى سابق عهدها، أو بالأصحّ إلى عهد جديد.

المحاكمة

كلّ هذا كان مقدّمة لتحويلنا إلى المحكمة. المحكمة عنصر جديد يدخل في حياتنا المصادرة. الاستبداد لا يشوّه حياة منكوبيه فقط بل يشوّه المفاهيم والأسماء أيضًا. سوف نجد بعد إحالتنا إلى المحاكمة أنّ المحكمة هي وسيلة إضافيّة للظلم والإذلال وسلب الأعمار والتنكيل ليس فقط بالسجين بل وبأهله وأصدقائه. سوف نكتشف كم هو سهل و«طبيعي» على الاستبداد أن يحشو المفاهيم بنقيضها. سنكتشف، ويا لكثر ما سنكتشف، أنّ سلب «حقّ» المحاكمة من السجين أعدل له من

منحه إيّاه، مثلما اكتشفنا بعد سنوات طويلة في سجن تدمر العسكري أنّ حقّ السجين بالتنفّس هو «حقّ» له بالتعذيب والإرهاق والإذلال والإهانة. يقول لك الاستبداد بلغة تسمعها بجلدك وأعصابك ودمك وباطن قدميك وبصلات شعرك وبكلّ ما يطاله الرعب فيك: تريدون محاكمة؟ سأمنحها لكم لكي تترحّمون على زمن التوقيف العرفي! تريدون تنفّسًا؟ سأمنحه لكم لكي تتمنّوا أن يصير باب المهجع حائطًا فلا يفتح عليكم!

في أحد صباحات آذار ١٩٩٢ أخذت دوريّة من الفرع أوّل دفعة منّا للمحاكمة. مرّت المجموعة من أمام مهجعنا محاطين بعناصر الشرطة فلم ندر ما الخبر. هل هي مساومة جديدة، أم تحقيق بأمر ما أم محاكمة؟ اشتغلت ماكينة التحليلات. التحليلات كانت تسلية عقولنا في متاهة المجاهيل التي نعيش فيها، كنّا نجهل أكثر الأشياء صلة بحياتنا وبمصائرنا. تتقرّر مصائرنا وتفاصيل حياتنا بعيدًا عنّا بالكامل، يتقرّر لنا ما نأكل وما نقرأ وما نرى، لا ندري أنبقى حيث نحن حتى ينقضي الأبد الذي طوّبه النظام لنفسه، أم توزّع أعمارنا على سجون أخرى، هل يحقّ لنا رؤية أهلنا في الزيارة أم لا، من هم الأقارب الذين يُسمح لهم بالزيارة، وكم من الوقت، ما المسافة الفاصلة بين شبكي الزيارة، بماذا يمكن لأهالينا أن يتحدّثوا وماذا يمكنهم أن يحضروا لنا معهم من أغراض، هل الكتب مسموحة وأيّ نوع من الكتب، هل يحقّ لنا تبادل الرسائل مع الأهل، هل يكون الشرطي لطيفًا معنا أم فظًّا، عند أيّ مستوى من دفاعك عن كرامتك الشخصيّة داخل السجن يمكن أن تطالك الكرابيج أو أن تحال إلى الفرع وتدفع ثمن فعلك (الشرّير) أيّامًا أو أسابيع في زنازين الفرع... إلخ. متاهة من المجاهيل التي تحدّدها حينًا سياسة الفرع وأحيانًا أمزجة العناصر والضبّاط.

بعد ساعات قليلة عادت المجموعة. وأثناء مرورهم من أمام المهجع بدا السجناء مسرورين، يضحكون مع العناصر.. ومن بين الجميع أشار لي مازن بإبهام يده اليمنى علامة الارتياح. لم تكن هذه الإشارة في محلّها أبدًا، كما كشفت لنا الأيّام. ظننّا أنّ إحالتنا إلى المحكمة هو مخرج للإفراج عنّا، ظننّا أنّ المحكمة تعني مخرجًا قضائيًّا لجريمة سياسيّة. وهذا ربّما ما أثار سرور السجناء. فبعد سنوات طويلة من الاعتقال العرفي وبعد أن دُمّرت الأحزاب السياسيّة المعارضة التي ينتمي إليها أو يعتقل على اسمها هؤلاء السجناء، لم يعد من معنى لإبقائهم في السجن. وحيث لم يشملهم العفو، أو شملهم العفو ولكنّهم لم يوافقوا على شروطه، لا بدّ من إخراج ما يناسب هذه الحالة، وهذا المخرج هو المحاكمة كما ظننّا. لكن في الاستبداد شرور لا يحيط بها عقل، وحسن الظنّ في نظام مستبدّ غباء قاتل وحتى جريمة.

في الجلسة الأولى لمجموعتنا في المحكمة، وقفت أمام من يسمّونه قاضي التحقيق. كان رجلاً بدينًا باردًا تعلو وجهه التصبّغات الجلديّة الناجمة عن التقدّم بالعمر. وقد طلب هذا الرجل بحزم من عنصر الأمن الذي دخل معي إلى المكتب الخروج، فانصاع العنصر بعد تلكّؤ. سرّني انكفاء عنصر الأمن. كان أمرًا غريبًا علينا أن نجد قوّة تحدّ من قوّة الأمن. شعرت أنّ هناك حدودًا ملموسة بين السلطات وأنّني أمام قاض حقيقي. ولكن سرعان ما بدّد هذا الرجل شعوري ذاك، وألغى الفارق الذي وضعته في ذهني مسبقًا بين المحقّق وقاضي التحقيق. فبعد أن أجلسني على كرسي وتفحّص سريعًا الملفّ الذي بين يديه، سألني:

ـ متى تنظّمت في الرابطة «رابطة العمل الشيوعي»؟ (منذ سنوات

طويلة حوّلت هذه المنظّمة نفسها في أوّل مؤتمر عام لها إلى حزب سمّته حزب العمل الشيوعي، ولكن أجهزة الأمن، ومن ضمنها المحكمة، بقيت دائمًا تعتمد التسمية القديمة وتختصرها بكلمة «الرابطة». وذلك برأيي للاستخفاف، ذلك أنّ اعتماد الاسم الجديد ينطوي على تقدير ما واعتبار لما يقرّره هذا التنظيم. لأجهزة الأمن تسمياتها الخاصّة للأحزاب التي تقع تحت قبضتها. فهي تسمّي حزب العمل الشيوعي «الرابطة»، والحزب الشيوعي السوري ـ المكتب السياسي «جماعة رياض الترك»، وحزب البعث العربي الاشتراكي العراقي «اليمين المشبوه» وهكذا..).

قلت له إنّني غير منظّم، فصرخ في وجهي بطريقة من يستعجل الانتهاء من عمله:

ـ كذّاب!

ـ اعترافاتي بين يديك، رغم أنّها مأخوذة تحت التعذيب كما تعلم.

اتّضح لي أنّه لم يقرأ الملفّ، وأنّ كلّ ما يعرفه عن الملفّ هو ورقة صغيرة موضوعة ضمن الملفّ وتتضمّن «حكم» رئيس فرع الأمن السياسي في دمشق حينها عليّ. وسارع هذا القاضي، من دون خجل ومن دون أدنى اعتبار لصفته كقاض، بانتشال هذه الورقة من الملفّ وقرأها عليّ كأنّها دليل قاطع ضدّي يثبت كذبي. الورقة تقول إنّني مسؤول عن تنظيم الطلّاب في جامعة دمشق لصالح «الرابطة». وقد كان هذا «الانطباع» لدى رئيس الفرع هو «الأساس» الذي بُني عليه استبعادي من العفو وبُني عليه حكم المحكمة عليّ بالعقوبة القصوى وهي السجن لمدة ١٥ سنة، ثم الاحتفاظ بي بعد انقضاء المدّة الكاملة للحكم، سنة إضافيّة، لم يفرج عنّي بعدها، فوق كلّ ذلك، إلّا «بعفو»

مشروط يحتاج مرّة أخرى أن أوافق على الشروط الشهيرة إيّاها لكي يصبح نافذًا.

رئيس الفرع يصدر حكمه بحقّي بعد انتهاء التحقيق بناء على انطباعات باهتة لكي يظهر أمام رؤسائه على أنّه يحقّق إنجازًا في اكتشاف تنظيم طلّابي «للرابطة» في الجامعة واعتقال مسؤول هذا التنظيم. المحكمة تستند إلى هذا الحكم في إصدار حكمها. وفي إحدى المساومات، وهي المساومة التي سبقت إحالتنا الفظيعة إلى سجن تدمر العسكري، سألتُ اللجنة الأمنيّة التي كانت تستدعينا واحدًا واحدًا لتبشّرنا بأنّ القيادة قد شملتنا برحمتها وعفت عنّا، وبأنّ كلّ ما هو مطلوب منّا هو التوقيع على ورقة الشروط «الخالدة»، ما هي الجريمة التي ارتكبتها كي أسجن ١١ سنة ونصف السنة (كان قد مضى على اعتقالي حينها ١١ سنة ونصف تقريبًا) ثم لا يفرج عنّي إلّا بعفو مشروط. أجابني رئيس اللجنة قائلاً: لو لم تكن جنايتك كبيرة لما حكمتك المحكمة بالسجن ١٥ سنة! حلقة متّصلة جوهرها جهاز الأمن الذي يمكن أن يتجلّى بأشكال ظهور لا حصر لها من بينها محكمة.

مهما يكن، فقد كان النزول إلى المحكمة تنفّسًا خارجيًّا بعد طول انقطاع عن العالم الخارجي. نزهة تبدأ من السجن إلى شارع ٢٩ أيّار في دمشق حيث مقرّ محكمة أمن الدولة العليا. نرى الحركة الطبيعيّة للناس في مشاغلهم اليوميّة، نرى أماكن كان لنا فيها ذكريات قبل أن يبتلعنا السجن. كثيرًا ما كنت أتردّد على المركز الثقافي السوفييتي في شارع ٢٩ أيّار، وعلى الزواريب الفرعيّة الهادئة والمليئة بالأشجار المجاورة للمحكمة والتي تصل هذا الشارع بشارع الثورة، وكثيرًا ما قرأت وأنا أتمشّى هناك من دون كثير اكتراث اسم المحكمة المكتوب بالخطّ الفارسي، من دون أن يخطر في بالي أنّ هذه المحكمة ستقتطع

من عمري ما يعادل ربعه قياسًا على متوسّط عمر الفرد عندنا. كنت أتأمّل حركات الناس العفويّة في الشارع ووجوههم ومشيتهم، وأخمّن مقاصدهم. أبحث عن وجه قد أعرفه. أحتفظ في ذاكرتي بصور صبايا جميلات كزوّادة حياة. ولا أزال أذكر حتى اليوم نظرة تلك المرأة التي التفتت، حين وقف باصنا على إشارة ضوئيّة، لتفاجأ بباص تغطّي نوافذه شباك معدنيّة خلفها بشر. لعلّها المرّة الأولى التي ترى فيها كيف ينقل بعض البشر في سيّارات تشبه سيّارات نقل الدجاج، أو لعلّها أم لسجين، فنكأ هذا المنظر جرحها. لقد ارتسم على وجهها تعبير يجمع بين الأسى والاستنكار والتعاطف وحتى اللهفة، شعرت أنّها يمكن لو طال وقوف الباص أن تقترب منه وتسأل الشرطة لماذا تنقلون هؤلاء هكذا أو ما ذنبهم، أو تسألنا نحن كيف يمكنها أن تساعدنا. علقت نظرتها في عينيَّ ليس كصورة أو انطباع عابر بل كوشم. راقت لي كثيرًا تلك النظرة وقلت في نفسي وأنا أغالب سخريتي من نفسي على ما تبادر لها من قول: إنّ هذه النظرة تلخّص نظرة شعبنا لنا: مستنكر من دون قدرة على الفعل، ومتعاطف من دون قدرة على المساعدة. قلت في نفسي ما قلت، وشعرت بالخجل من هذا الكلام الذي بدا لعقلي ضربًا من الرومانسيّة الثوريّة عتيقة الزيّ.

كنّا نستعدّ لمشوار المحكمة بلهفة تعادل لهفة الزيارة وربّما تزيد عنها. وكثيرًا ما كانت تخبو هذه اللهفة وهذا التشوّق شيئًا فشيئًا، وتتحوّل إلى خيبة وغيظ مرّ حين تمرّ ساعات الصباح من دون أن تستدعينا المفرزة للنزول إلى المحكمة. نعرف حينها أنّنا خسرنا التنفّس الخارجي وأنّ الجلسة تأجّلت، وأنّ المفرزة ستخبرنا بالموعد الجديد الذي غالبًا ما يكون بعد فترة تزيد عن الشهر. المحكمة ليست في عجلة من أمرها، رغم أنّها تحاكم أناسًا قضوا سنين طويلة بالتوقيف

العرفي، وهذا يعني، منطقيًا، أنّ المحكمة قد تحكم على البعض بأقلّ من الفترة التي قضوها سلفًا أو حتى بالبراءة.. وهذا يعني، أخلاقيًا، ضرورة الإسراع في الحكم. لكن للمحكمة العسكريّة الاستثنائيّة، الجناح القضائي لأجهزة الأمن، منطق وأخلاق مختلفان!

قلّب من يسمّى قاضي التحقيق ورقات ملفّي ثم سألني أسئلة عامّة لا معنى لها، وختم بكلام عن الطيش وتضييع المستقبل وما إلى ذلك، قبل أن يصرفني من مكتبه.

أمّا في جلسة الإحالة، فقد كان من يسمّى قاضي الإحالة أكثر ظرافة. رجل أشيب يحمل على وجهه علامات جدري قديمة، ذو نظرة مسترخية وطمأنينة من نال من الحياة كلّ ما يبتغي ولا قلق لديه عمّا بقي له فيها. حين دخلت مكتبه تأكّد منّي من المعلومات التي أمامه على الورقة، وقال شيئًا ما عن ملاحظته وجود أكثر من طالب طبّ في المجموعة، وقال، مستعيدًا طرفة قديمة، إنّ وجود أطبّاء كثر في حكومة بلد تعني أنّ البلد مريض. وبعد أن أبدى استغرابه ممّن يعارضون وتساءل ماذا ينقصهم وماذا يريدون، وهل يحرّكهم غير البحث عن المناصب، بدأ يقدّم نصحًا، لوجه الله، فحواه أن نعلن الانسحاب من التنظيم ونرسل طلب استرحام إلى سيادة الرئيس، الذي لا يشكّ بأنّه سيرحمنا ويفرج عنّا ونعود إلى عائلاتنا الملهوفة علينا.

يعتقد المرء أنّ القضاء يقف بين المتّهم والمدّعي، أي بين المعتقل وأجهزة الأمن، ولكن أمام هذه المحكمة يسقط كلّ اعتقاد يعتقد ذلك. تشعر أنّك في فرع أمن ولكن على هيئة محكمة. في الأنظمة الاستبداديّة المزمنة ينشأ اعتقاد حلولي خاصّ. تصبح أجهزة الأمن هي الكائن الكلّي القدرة الذي يحلّ في كلّ شيء. المدارس والجامعات، الجوامع والكنائس، النقابات والنوادي، المحاكم

والصحف، المعامل والمؤسّسات، كلّها أشكال ظهور لجهاز الأمن. حيثما توجّهتم فثم جهاز الأمن!

تتالت الجلسات المؤجّلة والمتباعدة، جلسات تؤجّل مع حرمان من المشوار، وجلسات تؤجّل بعد المشوار. المحكمة ليست في عجلة من أمرها، والحكم يحتاج إلى نار هادئة ودراسة متأنّية، لذلك جاء الحكم بعد ما يزيد عن سنتين ونصف السنة.

في إحدى الجلسات، وبينما كنّا في قفص الاتّهام، دخل رجل قصير بدين يمشي بخطى قصيرة وسريعة التواتر، وتميل قامته أثناء المشي إلى الخلف أكثر ممّا يتوقّع المرء. لاحظنا أنّ دخوله أربك المحكمة. الفتيان الذين يخدمون العَلَم بلباس مدني في مطبخ المحكمة ويقومون بدور الحجّاب، تسمّروا في أماكنهم عندما مرّ هذا الرجل، من دون أن يلتفت إلى أيّ منهم. شعرت بحركة غير مرئيّة طرأت على المحكمة مع دخول هذا الرجل الذي بدا لي مفتقرًا لأدنى مقدار من الهيبة. مرّ الرجل من أمام قوس الاتّهام الذي كنّا فيه ورمقنا بنظرة، فهمتها على أنّها تهديد ووعيد، بعد أن عرفت أنّ هذا الرجل هو رئيس المحكمة، ذلك أنّنا لم نقف له احترامًا عند مروره. تعرّفنا إذن على الرجل الذي سوف يخرج من فمه تقرير مصيرنا للسنوات القادمة.

ولكن قبل تقرير المصير كانت جلسة الدفاع، حيث تربّع رئيس المحكمة على كرسيّه في المنصة العالية، وتوزّع على كلّ جانب منه قاض، لم يتكلّما قطّ. . كانا بمثابة ديكور للمحكمة لا أكثر. ووقف المحامون أمام هيئة المحكمة في الصالون الطولاني الضيّق المفتوح على الدرج الخارجي للبناء، والذي يشكّل قاعة المحكمة. المحامون هنا لا معنى لهم لوجودهم إلّا أن يكونوا شهودًا على ما يجري. سواء كان أيٌّ منهم محاميًا معيّنًا من قبل المحكمة لتمثيل المتّهم أو موكلاً

من قبل السجين نفسه. قرأ الرئيس التهم علينا، وفجأة تدخّل أحد المحامين وصحّح للرئيس نصّ المادّة التي تستند إليها التهمة. قال الرئيس: الانتماء إلى تنظيم سرّي يهدف إلى قلب نظام الحكم. صحّح له المحامي أنّه لا وجود لكلمة سرّي، فامتعض الرئيس وقال بلهجة استخفاف: «طيّب بلا كلمة سرّي». لكن تدخّل المحامي الشابّ ذاك، على بساطته، خدش بقوّة ما يحيط بالرئيس من حصانة.

تهم ودفاعات، صوت زاجر من رئيس المحكمة، تدخّل عناصر الشرطة العسكريّة لإسكات متّهم وإعادته إلى قفص الاتّهام، محامون متعاطفون يقتربون منّا ويشرحون عجزهم عن فعل أيّ شيء، أجراس ترنّ، وعناصر الخدمة في المحكمة يسرعون بتلبية الطلبات إلى المكاتب الموزّعة حول قاعة المحكمة. بعد قليل سمح لبعض الأهالي بالدخول إلى المحكمة. كان أبي بينهم. تقدّم أبي وسط الزحمة منّي وأنا داخل القفص. قبّلني، هو الأب القاسي الذي لم يعتد أو يعوّدنا أن يسلك تجاه ابنه ما يفترض أن تسلكه الأمّهات من إظهار فاضح للحبّ، وسألني عن حالي، وقال إنّ أمّي تسلّم عليّ كثيرًا.. ثم وقف لا يعرف ما يقول! تحسّس ساعدي براحة يده كأنّه يريد أن يحسّ بقوّة حضوره بجانبي، أو أن يتأكّد من حقيقة أنّه بجانبي أو أن يستمتع بلحظات من ملكيّته لابن سلب منه سنوات طويلة ولا يدري أيستعيده أم لا، أو أنّه قام بهذه الحركة لا لشيء سوى أنّه لم يدر ماذا يفعل فقام بذلك بفعل الارتباك، وكرّر السؤال عن صحّتي، وتأكّد إن كنت بحاجة إلى «مصاري» ثم صمت. شعرت بالملل وبثقل الوقت وشعرت أنّه يشعر الشيء نفسه. فقلت له يمكنك أن تذهب كي لا تتأخّر في السفر. وكما لو أنّني حرّرته، ارتاح وجهه وقال وهو يهمّ بالذهاب: «يعني ما بدك شي؟!».

الطعم المرّ للمحكمة كان في جلسة الحكم صرفًا خاليًا من الشوائب. حكم على أربعة من مجموعتنا، المؤلّفة من ٨ سجناء، بالسجن لمدّة ١٥ سنة مع الأشغال الشاقّة الموقّتة، وحكم على من تبقّى بالسجن ٨ سنوات. كانت الأحكام تزيد على المدّة التي قضاها السجين سلفًا بين سنة وثلاث سنوات. لم تكن المحكمة، إذًا مخرجًا قضائيًا للإفراج عمّن لم يفرج عنهم بالعفو. بل كانت عقوبة لهم. على أنّ هناك أفرادًا ومجموعات حزبيّة أفرج عنها عن طريق المحكمة، وذلك تبعًا للتقييمات الأمنيّة لهؤلاء وطريقة تعاملهم مع المحكمة. فمجموعتنا مثلاً رفضت تعيين محام للدفاع، لأنّ ذلك يعني اعترافًا بالمحكمة وهو ما لا نريده، وقدّمت المجموعة دفاعًا جماعيًا يتضمّن موقفًا واضحًا أثار غيظ المحكمة وسادتها، حيث قلنا فيه إنّ الاستبداد هو احتلال داخلي، وهو لا يقلّ سوءًا عن الاحتلال الخارجي. وإذا كانت محكمة فرنسيّة قد أفرجت عن المناضل الكبير إبراهيم هنانو وهو من واجه فرنسا بالسلاح، فإنّ محاكم الاستبداد لا تملك من أمرها شيئًا وهي ليست أكثر من واجهة قضائيّة لأجهزة الأمن. وربّما كان هذا الأمر (الموقف من المحكمة وتقييم مدى انكسار السجين بفعل السجن) ما يفسّر التباين في الأحكام بين سجناء لهم أوضاع متشابهة. وقد تكون التدخّلات (الواسطة) لعبت دورًا في تخفيف الحكم عن بعض الأفراد، غير أنّ هامش التخفيف عبر المحكمة لم يكن يزيد عن سنة، كما بدا لنا. وكان استرخاص الأعمار والتجبّر والاعتباط حاضرة في سياق تلك المحاكمات.. فحُكم مثلاً على آرام (أحد السجناء الشيوعيين) بالسجن لمدّة ١٣ سنة، وحكم في الجلسة نفسها على محمّد خير (المسؤول الحزبي عنه) بالسجن لمدّة ١٢ سنة. وحين اعترض آرام ظانًّا أنّ هناك خطأً في القراءة، قال رئيس المحكمة

باستعجال وامتعاض: آرام ١٣ ومحمّد خير ١٢ واضح؟!

مع ذلك، كانت جلسة الحكم صادمة لنا ولأهالينا الذين سُمح لهم بالدخول بعد صدور الحكم إلى قاعة المحكمة. أن تتوقّع الحكم استنادًا إلى تحليلات وقياسًا على حالات مشابهة سابقة شيء، وأن تسمعه حكمًا مبرمًا وتعيشه شيء مختلف. دائمًا يصدمك الاستبداد بما هو أشدّ ممّا تتوقّع من بطش. حين يوجد الولاء تجد الاستبداد لينًا متساهلاً مع أفظع الجرائم بحقّ الوطن (السرقات والتهريب واستغلال النفوذ وسوء الإدارة وحتى القتل.. إلخ) أمّا حين يغيب الولاء فتصبح الكلمة جريمة. دائمًا يعكس الاستبداد السياسي المنطق، فتجد الجريمة بلا عقاب والعقاب بلا جريمة!

* * *

السجن

في السجون يوجد فائض هائل من الزمن، فائض يخنقك ولا تجد مصارف له فيتراكم على مسام روحك ويقتل فيها نضارتها. في سجن عدرا كان يمكن تصريف هذا الزمن بالنشاطات الكثيرة المتوافرة: قراءة، رياضة، تلفزيون، راديو، أعمال خشبيّة، أعمال خرز، لعب بأنواعه، مشي، زيارات لأفراد من المهجع نفسه أو من مهجع آخر..، مع ذلك ورغم أهمّيّة هذه الأنشطة ومساعدتها على التحرّر من عبء السجن، وإمكانيّة تحويل الزمن معها إلى عنصر مفيد وفي صالح السجين، فإنّ هناك أوقاتًا تفقد فيها هذه الأنشطة كلّها فاعليّتها، وتصبح النفس تائقة إلى شيء آخر غامض مفقود. وكما أنّ الطفل الغارق في لعبه والغافل عمّا حوله يكتشف فجأة أنّ أمّه غير موجودة، فتغدو عندها كلّ الألعاب بلا قيمة وينفتح في داخله فراغ لا تملأه سوى الأمّ، كذلك تشعر نفس السجين في بعض اللحظات أنّها محبوسة فتصبح مكمودة ومقهورة ولا شيء يرضيها. في مثل هذه اللحظات يتحوّل السجن إلى شريط معدني بارد غير مرئي يلتفّ حول الحنجرة،

ويشدّ عليها شيئًا فشيئًا حتى تشعر أنّ عليك أن تحرّر نفسك ولا تدرك السبيل، هل تصرخ أم تركض خارجًا من المهجع أم تستلقي في محاولة لإراحة أعصابك، هل تغمض عينيك أم تحبس أنفاسك أم تشدّ بيديك على رأسك.. أم ماذا؟ حالة غريبة ليس في برنامج ردود فعل النفس البشريّة ما يقابلها. شيء ما وراء البكاء والضحك والحزن والفرح، شيء عصيّ على الإحاطة بالتعبير، غريب ومبهم كالجنون. إنّه أن تكون في عين السجن، أو في قلب معناه. أن تدرك معنى السجن أكثر من كونه بابًا موصدًا وعناصر شرطة وتعطّل عن الحياة وبعد عن الأهل وفقد لحرارة الحياة وحرمان من المرأة ومن الاعتراف... أن تدرك معنى أن تجتمع كلّ هذه الأشياء وتتكثّف في لطخة لزجة ثقيلة كالرصاص، تجثم على روحك وتدفعك إلى أن تصرخ ملء رئتيك: كفى!! أن تسقط فجأة المعاني من الكلمات فتصبح جوفاء فارغة مثل روحك، أن تنهار ثقتك بكلّ شيء، أن يصبح ذكر الصداقة والحبّ والأمل والجمال والوفاء فعلاً يثير الغثيان. أن ترتطم روحك بجدران صدرك مثل حيوان حبيس هائج!

تتردّد هذه اللحظات على السجين من حين إلى حين وترهقه ولا يملك هروبًا منها. ومن محاسن النفس البشريّة أنّها تتحرّر بطريقة ما من هذا الشعور. من نقطة ما موجودة في النفس البشريّة، كما توجد مخارج الطوارئ في الأبنية، تتسرّب هذه اللحظات الرهيبة فينجو السجين من الجنون أو الهلاك.

بعد أن تنقضي هذه اللحظات الرهيبة تبدأ النفس بترميم نفسها، ويعود السجين كما كان متأقلمًا مع حبسه، يخطّط لأيّامه القادمة في السجن الذي تصبح حدوده غير مرئيّة أو محسوسة، حيث تُدفع إلى مكان ناء من اللاوعي لتمارس فعلها وهي غائبة.

في السجون الشبيهة بسجن عدرا يستفزّ الروتين اليومي للسجن المديد في النفس ميلها إلى التدمير، ورغبتها في أن تنحرف الأمور عن مساراتها الرتيبة المملّة لتتّخذ منحى آخر مثيرًا حتى لو كان مؤذيًا. وأنت تسير مثلاً في كوريدور المهجع ما بين التخوت حاملاً طنجرة المرقة من المطعم إلى المطبخ، هذا الفعل اليومي المتكرّر إلى حدّ قاتل، تجد في نفسك ما يدفعك إلى التساهل مع العثرات التي يمكن أن تسقطها من يدك، رغم كلّ ما يمكن أن يجرّه عليك هذا السقوط من تعب. وحين تعود يوميًّا من جولة التنفّس المسائي تجد كلّ شيء كما تركته، القلم كما وضعته في الكتاب والفناجين المستخدمة على حالها، وكذا الإبريق والملابس وشغل الخرز والأغطية والمنشفة.. فتشعر بركودة آسنة وبانعدام الحياة، وتتمنّى لو أنّك تعود يومًا من ساحة التنفّس لتجد أشياءك وقد تحرّكت عن الحال الذي تركتها فيه، لو أنّ صديقًا مرّ عليها أو قطّة عبثت بها وكسرت كأسًا أو لوّثت غطاء، حتى لو عاد ذلك عليك بالتعب والخسارة.

وعن طريق الأحلام أو النكات أو السخرية تتسلّل أوجاع النفس المسجونة واستغاثاتها التي تخرج متنكّرة بصور تكاد لا تخفي حقيقتها. يندر أن يمرّ يوم من دون أن يقصّ أحد السجناء حلمًا أتاه في الليلة السابقة في فعل استغاثة متنكّر من نفس أرهقها السجن، وتبحث في عالم الأحلام الغريب والملغّز عن رسائل توحي بانفراج قريب. تفشل كلّ الوقائع التالية في تحقيق الأمنية المضمرة من قصّ كلّ هذه الأحلام المتنوّعة والموحّدة بالغرض. وتبقى الأبواب موصدة كأنّها لن تُفتح يومًا، ولكن لا يكلّ السجين من تكرار هذا الفعل، حيث تصبح المنامات، بعد الفشل المتكرّر لنبوآتها، أكثر وضوحًا في إيحاءاتها ويتدخّل فيها البعد الديني الذي يشكّل الركيزة الأقوى. وللمزيد من

الإيحاء بالفرج تظهر المنامات التي يظهر فيها القدّيسون ذوو اللحى الطويلة البيضاء والذين يرتدون أبيضًا بأبيض. ولا يخطئ القدّيس أبناء جماعته، فأمّ المسيح تأتي في منامات المؤمنين بابنها، ومشايخ المزارات الكثر يزورون منامات أتباعهم، وكذا الحال مع البقيّة. كلّهم يأتون ببياضهم المهيب وحركاتهم التي تشبه ما يتصوّره المرء من حركات العالم الآخر وتعابيرهم التي تقول ولا تقول، ليقولوا لصاحب المنام كلامًا يعني أنّ الفرج قريب. ولكن بعد أن مضى زمن غير قصير من دون أن تلتفت الوقائع إلى أقوال قدّيسي المنامات أولئك، وبعد أن أوشكت هذه المنامات أن تستهلك ذاتها وتفقد تأثيرها، كان التتويج بمنام أبي محمّد دقّو، أحد أهمّ السجناء الناصريين، وقد كان رجلاً طيّب المعشر وكثير الودّ. فقد روى أبو محمّد ذات يوم أنّ رجلاً كبيرًا ذا لحية بيضاء (اللحية دائمًا بيضاء) طويلة ويرتدي جلبابًا أبيض كالضوء (الجلباب يكون أبيض في الغالب أو أخضر) جاءه في المنام وقال له ما معناه إنّ فرجكم قريب جدًّا، وإنّ هذا الرجل التفت إليه قبل أن يختفي وعرّف عن نفسه بأنّه الله بذاته. غير أنّ هذا الفرج القريب جدًّا تأخّر جدًّا، ولمّا كان لا مجال للشكّ في قدرة قدّيسي المنامات على التنبّؤ ومعرفة المستقبل، فإنّ المشكلة كانت بلا شكّ في تحليل الكلام والرموز وقراءة سياقها في المنام، أي المشكلة كانت في تفسير المنامات. وبالفعل أبدى أحد السجناء الناصريين من رفاق أبي محمّد دقّو خشيته من موضوع الدلالات الزمنيّة لمنام رفيقه، ذلك أنّ اليوم عند الله يساوي ألفًا ممّا نعدّ نحن البشر!

وكانت أخبار الزيارات من المساند التي تتّكئ عليها النفس المحبطة في السجن لتستعيد توازنها. الخبر يكتسب بين السجناء قوّة تأثير حين يوصف بأنّه «من برّا»، كما لو أنّ لدى الأهالي مصادر

معلومات موثوقة. من النادر أن تخلو زيارة من خبر عن حلحلة ما لوضع السجناء السياسيين. في هذه الزيارة تسمع أنّ قرارًا بالعفو صار على طاولة الرئيس، وفي زيارة أخرى تسمع أنّ الرئيس طلب من أجهزة الأمن إعداد قرار عفو في مهلة لا تتجاوز الشهر، وهكذا.. وتكون المصادر مبهمة جرّاء تواتر النقل فتختلط الأمور، حتى إنّ بعض الأخبار كانت تصدر من السجن في زيارة ما لتعود إليه على أنّها أخبار «من برّا» في الزيارة التالية. وكان السجناء يعطون أذنًا أكثر اهتمامًا للأخبار الواردة في زيارة سجين من أبناء الطائفة العلويّة، ظنًّا منهم أنّ لأهالي مثل هؤلاء السجناء مصادر معلومات عميقة! لا يمكن للسجين أن يستغني عن صناعة الأمل هذه. حتى يبدو لي أنّ الأمر ليس في يد السجين. ففي النفس ما يتطلّب هذه الصناعة. قد يبدو لمنطق السجين أنّ هذه الأخبار بلا قيمة، ولا سيّما بعد أن تتوارد لفترة طويلة من دون أن يثبت صدق أيّ منها، ومع ذلك في مكان ما من النفس هناك ما يقول: ربّما كان الخبر صادقًا هذه المرّة! مهما حاولت أن تغلّب المنطق، تجد أنّ في النفس ما يغالب المنطق لصالح الهوى والرغبة.

سجناء

تمرّ الأيّام والأسابيع والشهور والسنون.. والحال هو الحال، الجدران الوسخة الصمّاء مشاهد ثابتة، والفصول متشابهة إلّا بدرجات الحرارة. يبدو السجناء المزمنون في عيون السجناء العابرين عنصرًا ثابتًا في حياة السجن مثل الشرطة وبلاط الممرّ وجدران المهاجع والحديد الكثيف على نوافذها الضيّقة العالية، ويبدو السجناء العابرون في عيون السجناء المزمنين عناصر تغيير تخفّف من ثقل الروتين،

وعناصر طرافة يتحدّث عنها السجناء المزمنون في جلساتهم، تمامًا كما يتذكّر الأحياء أمواتهم.

أبو الذهب

أبو الذهب هو أحد هؤلاء السجناء العابرين. رجل خمسينيّ متوسّط الطول والبدانة وقليل النظافة، لعلّه لم يتجاوز في تعليمه الصفّ السادس الابتدائي، كان يعمل بائعًا على إحدى الطبليّات في مدينة حلب، وبات من كبار الأثرياء بفضل تجارته بالمخدّرات والذهب (ومن هنا جاء لقبه) بحماية أحد رؤساء فروع الأمن في حلب. ويبدو أنّه اعتُقل في سياق صراع بين أجهزة الأمن. غير أنّ كلّ وسائل الجهاز الذي اعتقله، الخشنة منها والناعمة، فشلت في سحب اعترافات من هذا الرجل. لم يفشِ أسراره مع الفرع الذي حماه، ولم يذكر أسماء ضبّاط شاركوه في أعماله، رغم كلّ التعذيب الذي تعرّض له والذي «لا يتحمّله الحمار» كما قال أحد عناصر الأمن المشاركين في التعذيب، ولكن لو قُيّض لأجهزة الأمن اعتقال الحمير وتعذيبها لاكتشف هذا العنصر أنّ الإنسان، لحكمة تدقّ على الأفهام، يتحمّل من القتل أضعاف ما يتحمّله الحمار. كان مثل هذا الصمود سيشكّل خطرًا على حياة أبي الذهب لو كان سجينًا سياسيًّا، لكن للتعذيب حدودًا مع سجين مثله. خرج أبو الذهب من التحقيق منتصرًا، وقد زاد رصيده عند «مشغّليه». وبعد نقاهته من التحقيق دخل جناح السجن عندنا مستهترًا بالجميع. وربّما كان ما بدا استهتارًا منه هو طريقته في التعاطي مع الأمور، ولعلّ هذه الطريقة محصّلة لحقيقتين، الأولى هي انعدام ثقافة الشخص والثانية هي حيازته على فائض من الثروة والدعم الأمني.

كانت أخبار أبي الذهب قد سبقته إلى جناحنا. كان عناصر الشرطة يتحدّثون عن «مليونير» موقوف في فرع التحقيق يملك من الأموال والذهب والعقارات الكثير، ويملك ما يشبه ضيعة صغيرة في سويسرا وأشياء من هذا المستوى... وبعد قدومه إلى الجناح استطاع هذا الرجل بسرعة عجيبة أن يحطّم صورة المليونير المتوقّعة، كما حطّم مصطفى (الدكتور في الفلسفة من الاتّحاد السوفييتي) صورة حامل شهادة الدكتوراه، فهذا الدكتور في الفلسفة، والذي تبيّن أنّ ثقافته الفلسفيّة لا تؤهّله لتعليم طلّاب الثالث الثانوي الأدبي، لم يجد مثلاً في قضيّة الاعتقال السياسي في سورية سوى قضيّة نساء يبحثن عن علاقات جنسيّة غير شرعيّة للتعويض عن غياب أزواجهنّ المعتقلين.

في الوقت الذي كنّا نعاني من فقر حقيقي في السجن يصل إلى حدّ الجوع، كان أبو الذهب «يتبغدد» بأمواله، مثلاً يوصي في الفاتورة على الفراريج المشويّة، ويأكل الفرّوج بيديه بكلّ بدائيّة، وهو يمشي في كوريدور الجناح بشحّاط بلاستيك تبدو منه قدمان متّسختان ومتشقّقتان وجلّابيّة كانت بيضاء قبل أن تسيطر الأوساخ المزمنة على لونها، ودائمًا بلحية غير حليقة يغلب عليها الشيب. وكان بعد أن ينهي وجبته ويهدّئ جوعه يبدأ بالتعبير عن آرائه السياسيّة التي يغلب عليها العداء للشيوعيّة، بطريقة قليلة الترابط تشبه التداعي الحرّ وبصوت مرتفع يشبه صوت صياح البائعين على الطبليّات: أمّة عربيّة واحدة! يسقط الحزب الشيوعي! يسقط ماركس ولينين! يحيا هتلر! يعيش الدولار!.. وبالطريقة نفسها احتفل أبو الذهب أيّما احتفال بسقوط جدار برلين، احتفل بشكل استفزازي دفع أحد الشيوعيين المتحمّسين إلى الردّ عليه بالتحقير ثم بالضرب. وربّما كانت تلك هي الحادثة

الوحيدة التي تعاطفت فيها المفرزة مع سجين شيوعي ولم تعاقبه أو تحيله إلى الفرع.

كلّ فعل يتعدّى العرف المتواضع عليه يشكّل تهديدًا للاستقرار. والسجن مملكة للأعراف المحترمة من دون تصريح، والمصرّح عنها من دون إعلان. أبو الدهب لا يعترف بحدود ولا يكترث لعرف. كان يثير استغرابه مثلاً حركة بعض السجناء السياسيين وهم يقيسون الكوريدور الطويل ذهابًا وإيابًا عشرات المرّات يتناقشون بأمر ما، يتوقّفون حينًا ويسيرون حينًا، يرفعون أصواتهم ويشدّدون على الكلمات ويحرّكون أيديهم بعصبيّة أحيانًا، كما لو أنّ مصيرًا مهمًّا يتوقّف على هذا النقاش. لا غرابة البتّة في مثل هذا الأمر بين سجناء سياسيين، ربّما كانت الغرابة في غياب مثل هذه السلوكات، لكن لأبي الدهب معايير مختلفة. وفي إحدى المرّات عرّض نفسه لبهدلة كلاميّة كان يمكن أن تتطوّر لتترك آثارًا على الجسم، لأنّه مشى إلى جوار اثنين من السجناء وهم يقطعون الكوريدور ذهابًا وإيابًا غارقين في نقاش ساخن، وراح يحدّق فيهما وكأنّه يستكشف نوعًا جديدًا من المخلوقات، بينما هو يرفع بيده طرف جلّابيّته كي لا تعيقه في مواكبة سرعتهما في حركة منه تجمع بين الخبث والهبل.

فشلت محاولة الإسلاميين في استقطاب (هداية) هذا الرجل المستهتر، الذي كان يملأ الجلسات مع الإسلاميين الهادين بأحاديثه عن حفلاته الجنسيّة التي يشتريها بأمواله في كلّ مكان، بدلاً من الإصغاء إلى هدايتهم، وكانوا يحكّمون العقل في هذا الأمر فيوسعون صدورهم ويدارون غيظهم طمعًا في ثواب هداية ضالّ ثري! فكما علّق أحد المحرّفين: المؤمن الثري خير من المؤمن الفقير. ستّة أشهر قضاها أبو الدهب في السجن لم تتمكّن منظومة السجن السياسي من

امتصاصه إليها، وبقي غريبًا عن أعراف هذه المنظومة التي بقيت أيضًا غريبة عنه، فظلّ مستقلًّا عن الجميع ومستهترًا بالجميع لا صلة له إلّا مع بعض السجناء الطارئين من ذوي القضايا الفرديّة، لكنّه كان من السجناء العابرين الذين خلخلوا رتابة الزمن، وخفّفوا من كثافة السجن، وفتحوا عيوننا، نحن المبعدين المزمنين عن الحياة الفعليّة، على ما تصير إليه الأمور ما وراء جدران السجن.

أبو حسن حبيب

في بداية تعرّفي على حبيب بدا لي صورة جليّة عن المناضل الرخو. وكان لابتعاد رفاقي ورفاقه (فهو معتقل على اسم حزب العمل الشيوعي أيضًا) عنه تأثير إضافيّ منفّر. على أنّي كنت أجد لديه ما يشدّني وهو مواقفه وتصريحاته النافرة وغير النمطيّة. أي أنّ ما كان يشدّني إليه، ولا أستجيب له، هو ما كان يبعد رفاقنا عنه ويجعلهم يستعلون عليه ويضعونه في خانة غير مرغوبة. مثلاً في إحدى المرّات عبّر حبيب أمام أحد الرفاق، ببراءة لا ترحم، عن سعادته لأنّ حزب العمل الشيوعي لم يتمكّن من الوصول إلى السلطة لأنّه كان سيقتل، برأيه، أضعاف ما قتل حافظ الأسد من الشعب السوري في حماه. فانصعق الرفيق أمام هذا القول الغريب في جرأته وانشلّ لسانه عن الردّ، فاستعاض عن الردّ الكلامي ببصقة مباشرة في الوجه أتبعها بحركة سريعة كانت نتيجتها أن ارتطم شحّاطه بوجه حبيب الذي فوجئ بقوّة الردّ وسرعته، وفوجئ أكثر برغبة الرفيق في مواصلة هجومه مع بدء تجمهر آخرين من رفاق وغير رفاق، فما كان من حبيب إلّا أن انسحب قائلاً: لو استلم حزب العمل السلطة لكنت أنت أشنع من علي دوبا بميّة مرّة. وعلي دوبا لمن لا يعرف هو رئيس جهاز المخابرات

العسكريّة في زمن حافظ الأسد.

هذا هو حبيب الذي أتاحت لي ظروف ما بعد الإفراج الكبير الذي استثناه كما استثناني أن أقترب منه أكثر وأن أعرفه أكثر. فهو قارئ جيّد، لكنّه لا يقرأ إلّا ما يناسب مزاجه. وإذا قرأ لا يعلق في ذهنه إلّا ما يوافقه، وبالتالي فإنّ نتيجة قراءاته هي تعزيز قناعاته المتشكّلة مسبقًا ليس أكثر. رجل ضعيف ويحبّ الضعفاء، مغرم بالبساطة والبدائيّة في حياته اليوميّة، لكنّه على الضدّ من هذا الغرام مولع بالاستبطان وإقحام المعاني في السلوكات بطريقة انتقائيّة، تحيل سلوكيّات خصومه إلى أفعال شيطانيّة وتبرّئ سلوكيّات غيرهم في آليّة نفسيّة، تعوّض ربّما عن عجزه عن مواجهة خصومه والاقتصاص منهم. هو ضدّ السلطات جميعًا، من سلطة الأب إلى سلطة الدولة مرورًا بسلطة المعلّمين في المدارس وأرباب العمل في المعامل والقيادات في الأحزاب.. إلخ، حتى إنّه يعارض سلطة الليل والنهار، فتراه ينام ويستيقظ من دون ناظم. رجل فوضوي (anarchist) بفطرته. وهو لا يشذّ عن هذا الخطّ إلّا في علاقته مع أبي مالك! فهو، للغرابة، لا ينازع سلطة هذا الأخير عليه. ربّما كان مردّ ذلك إلى الحبّ الذي يكنّه له، فالحبّ يكسر القواعد، أو إلى حقيقة أنّ أبا مالك هو صورة مكبّرة عنه!

* * *

محنة الفسفس
سجن تدمر

في اليوم الثاني من سنة ١٩٩٦ كان نقلنا من سجن عدرا إلى سجن تدمر، أي بعد قضائنا ما يقارب عشر سنوات في سجن عدرا. منذ يومين فقط كنّا قد احتفلنا بالسنة الجديدة، بما لدينا من وسائل احتفال بسيطة، ربّما كان أبسطها وأكثرها تأثيرًا، إقرار الجميع وتوافقهم على السهر للاحتفاء كيفما اتّفق بالعام الجديد. من سجن الشيخ حسن إلى سجن عدرا، من سجن عدرا إلى سجن تدمر، من سجن تدمر إلى سجن عدرا. من سجن إلى سجن، تبادل السجناء هي لغة التخاطب بين السجون، تتبادل السجون السجناء كما تتبادل الأفواه الكلام. السجون تستهلك السجين كما الألسنة تستهلك الكلمات. تتبدّل الكلمة من فم إلى فم. ويتبدّل السجين من سجن إلى سجن. كنت رقمًا في فرع التحقيق ثم اسمًا مفردًا في سجن عدرا، ثم كائنًا بلا اسم ولا رقم في سجن تدمر.

في الرابعة والنصف من صباح يوم الأربعاء (يوم الأربعاء خزّان الأحداث المؤلمة)، فُتحت أبواب المهاجع علينا في الجناح السياسي في سجن عدرا ودخل عناصر المفرزة السياسيّة. كان بعضنا ما يزال مستيقظًا لم ينم بعد.

ـ يالله يا شباب ضبّوا غراضكم الشخصيّة وخلّوا الباقي في مستودع الأمانات.

بعد عشر سنوات في سجن عدرا، يمكن أن يكون لدى السجين من الأمتعة الشيء الكثير.. راديو وأغطية وملابس وكتب وأواني ومعدّات طبخ وأشغال يدويّة.. إلخ.

التوقيت مخيف. كلّ حالات نقل السجناء الإسلاميين إلى تدمر كانت تتمّ بهذه الطريقة وهذا التوقيت. الفجر توقيت مخيف. والفجر وليال عشر! كان لنا سابق خبرة بنقل الإسلاميين. كانوا يأخذونهم من المهجع فجرًا وهم يحملون أغراضهم وفي عيونهم رجاء يائس وخوف. وربّما تعطّلت قدرة البعض على الحركة أو الكلام لمجرّد إيقاظه في هذا التوقيت المشؤوم. إلى تدمر تعني إلى الجحيم، تعني إلى حيث لا رجاء ولا رحمة. وقد تعني إلى حيث لا عودة. مع ذلك كان بعضهم يخرج من المهجع مبتسمًا ومودّعًا قادرًا على كبت ما يضمر من خوف ويأس. وكان الشرطي ينهرهم قائلاً: لسّا قادرين تبتسموا، ابتسموا لمّا تصيروا هناك. شرطة قساة بحكم مهنتهم ربّما، ولكنّنا، للحقّ، شهدنا في هذه السنوات الطويلة من سجن عدرا عناصر شرطة متفهّمين وإنسانيين إلى حدّ مؤثّر.

اليوم جاء دورنا. أيمكن أن يكون هذا؟ نحن معارضة سياسيّة غير مسلّحة، أيعقل أن تعتمد السلطة وهي في هذا الوضع المرتاح مثل هذه السياسة ضدّنا؟ هل يعقل أنّهم يريدون بالفعل نقلنا إلى تدمر!؟ عناصر

المفرزة لا يجيبون بشيء. كانت لنا عِشرةٌ طويلة مع هؤلاء العناصر. كثيرًا ما شربوا القهوة على أسرّتنا، وكثيرًا ما شكوا همومهم اليوميّة لنا. صارت تربطنا ببعضهم علاقات طيّبة، عِشرة طويلة. يريدون لنا الخير، ومنهم من كان أحيانًا يخالف بعض قوانين السجن وتعليمات الشعبة، وما يحمل هذا من مخاطر عليهم، كي يؤمّنوا لنا بعض الحاجات. منهم من غامر مرّة بنقل ترجمتي لإحدى الروايات إلى أهلي في الخارج مغامرًا، ليس فقط بتحمّل عقوبة بل وبتسريحه من عمله. لو كان في هذه الحركة خير لتسابقوا إلى نقله لنا. ولكنّهم الآن يرفضون أن يفصحوا عن شيء، رغم إلحاحنا.

ـ قولولنا يا شباب، إلى تدمر؟ كنّا نسأل.

ـ والله ما منعرف، انشالله لأ. صدقًا اتّصلوا من الفرع وقالولنا جهّزوا الكلّ بأغراضهم الشخصيّة، وغير هيك ما منعرف!

لا يودّون أن ينقلوا لنا هذا الخبر. تركوا الخبر يتسلّل إلينا بحركته الذاتيّة. تركونا نقرأ الخبر شيئًا فشيئًا في ثنايا التعليمات والأوامر. أغلبهم بدا عليه التأثّر. (رح نشتاقلكم كتير)، (انشالله إفراج)، (ما في داعي تكتّرو من الغراض معكم)، (غراضكم الباقية هون بأمانتنا)، (انشالله خير).. إلخ.

كان الاحتكاك الطويل معنا قد بدّل من نظرتهم تجاه المعتقل السياسي، وخفّف من تأثير الأفكار السياسيّة والأمنيّة المعادية لنا، والتي طالما غذّتهم بها الأجهزة الأمنيّة والحزبيّة.

فوضى شاملة عمّت الجناح. حركة السجناء وهم يحزمون في وقت وجيز أغراضهم التي جمعوها في سنوات، يتبادلون التحليلات السريعة، والتوقّعات، يستشيرون بعضهم بعضًا في ما يجب أخذه من

الأغراض وما يجب تركه. وهذا أمر يرتبط طبعًا بالتحليلات، فهو يتوقّف على الجهة التي سننقل إليها. إذا كانت الوجهة إلى صيدنايا شيء (هناك من توقّع أنّه سيتمّ جمع كلّ السجناء في سجن واحد وهذا السجن غالبًا هو صيدنايا نظرًا إلى أنّه يضمّ أكبر عدد من السجناء، تمهيدًا للإفراج عنهم كما جرى في بداية ١٩٨٠ حين جمعوا السجناء الشيوعيين في سجن المزّة ومنه تمّ الإفراج عنهم)، وإذا كانت إلى الفرع شيء آخر (التحليل السابق نفسه ولكن جهة التجميع هي الفرع، فقد يكون الهدف هو تمرير الناس في الفرع قبل الإفراج عنهم كنوع من التذكير بمرارة الاعتقال والتحقيق، وقد يكون من باب السرعة في الإجراءات)، أمّا إذا كانت الوجهة إلى تدمر فشيء مختلف تمامًا. كثرت التحليلات وكثرت النصائح. وتبيّن أنّ أكثرنا صوابًا هو من احتاط للاحتمال الأسوأ.

بنظرة راجعة إلى تلك الساعات القليلة الرهيبة، يبدو أنّ كلّ المؤشّرات كانت تدلّ على أنّ وجهة النقل هي تدمر. ورغم أنّ هناك من بيننا من تجرّأ على نفسه وأكّد لغيره أنّ وجهة نقلنا هي إلى سجن تدمر وتصرّف على هذا الأساس، فإنّ الغالبيّة، وأنا منهم، لم يستطيعوا الاقتناع بذلك ولهم أسباب وجيهة. من جهتي، وبعيدًا عن طبيعتي التفاؤليّة، والتي ربّما تنمّ عن آليّة غير واعية لحماية ضعفي وخوفي من مواجهة الاحتمالات السيّئة، فقد رأيت من غير المنطقي أبدًا نقلنا إلى سجن تدمر، ذلك أنّهم جلبوا منذ أيّام قليلة بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لـ «الحركة التصحيحيّة» سجناء إسلاميين من تدمر، بينهم محكومون بالمؤبّد من قبل المحاكم الميدانيّة، وأفرجوا عنهم. وإذا كانت السلطة في ذروة الأزمة السياسيّة الأمنيّة في سورية جرّاء الصراع مع الأخوان المسلمين، لم تتّبع سياسة نقل الشيوعيين

إلى تدمر إلّا في حالات ضيّقة، نظرًا إلى أنّ الشيوعيين لم يستخدموا السلاح في معارضتهم السلطة، فهل يعقل أن تعتمد اليوم سياسة رميهم في سجن تدمر في الوقت الذي انتهت الأزمة، وأخذت السلطات الأمنيّة تفرج عمّن حمل السلاح وحُكم بالمؤبّد من سجن تدمر؟ ثم بأيّ منطق يمكن نقلنا إلى تدمر وقد قابلتنا منذ حوالى الشهر لجنة أمنيّة يرأسها لواء، قال للبعض إنّهم لن يناموا الليلة في السجن وإنّ الباصات تنتظر، وأكّد لكثيرين أنّهم سوف ينامون الليلة في بيوتهم. نام الجميع ليالي كثيرة في السجن بعد تلك المقابلة. يمكن فهم ذلك، ولكن أن تنقلب المعايير إلى هذا الحدّ ويجري نقلنا بقضّنا وقضيضنا إلى سجن تدمر، فهذا ما يعافه المنطق والنفس معًا. الجوّ العامّ جوّ انفراج وليس تشديدًا، ولا يقبل العقل أن تكون وجهتنا تدمر. ولكن متى كان العقل ميزان الاستبداد؟

حتى اللحظة الأخيرة أنكرت نفسي على عقلي حقّ الاقتناع بما تشير إليه كلّ الدلائل من أنّنا مرحّلون إلى تدمر. وحين جاء الضابط من الفرع وقرأ أسماء المرحلّين مستبعدًا فقط أسماء من لم تكتمل محاكمته بعد، قرأت في ذلك إشارة ضدّ الترحيل إلى تدمر. وقد كان هذا الضابط يقرأ الأسماء بسرعة وبطريقة يبدو فيها كأنّه يتحاشى أن تلتقي شفتاه بما يشي بالقرف أو التشفّي أو أيّ شيء غير مريح. حين كرّر الضابط الطلب بعدم الإكثار من الأغراض وأنّه لا داع لها، استبعدت تدمر أكثر. صفّونا وقيّدوا أيدينا بجنزير طويل واحد تمهيدًا لنقلنا من الجناح إلى الباص، تداعت نفسي وكادت تسقط في هوّة القبول باحتمال تدمر، لكنّها سرعان ما تماسكت حين أمر الضابط بفكّ الجنزير ونقلنا إلى الباص «أحرارًا». لو كانت تدمر هي الوجهة لما قبل بفكّ الجنزير، وإذا كان العناصر لا يعرفون إلى أين سنُنقل، فالضابط

يعرف من دون أدنى شكّ. موجة من الارتياح والتفاؤل والهمهمة عبرت الرتل الطويل (ثلاثون شخصًا) وسرت في النفوس، كان يمكن ملاحظتها في العيون وعلى الوجوه وحتى على الأجساد، لحظة سُمع أمر الضابط بفكّ الجنزير. قشّة تمسّك بها الغارقون في لجّة احتمال تدمر، قشّة بدت حينها خشبة خلاص، قل قارب نجاة كبير وقادر ومريح.

نقلونا عبر مبنى سجن عدرا نحو الباص تحفّنا عناصر الأمن السياسي، وتشيّعنا نظرات السجناء القضائيين (نظرًا إلى أنّ المعتقلين السياسيين لم يكونوا يقدّمون إلى المحاكم بل يجري توقيفهم عرفيًّا إلى أجل غير مسمّى، على خلاف السجناء غير السياسيين الذين يقدّمون إلى المحاكم، فقد درجت العادة على تسمية السجناء غير السياسيين بالسجناء القضائيين، «الجرم» السياسي فوق مستوى القضاء!) الذين أضافوا إلى شكرهم الله على أنّهم غير سياسيين شكرًا آخر اليوم، شكرًا مغمّسًا بشيء من الشفقة ربّما على هؤلاء الملعونين في الأرض. معهم حقّ. معنا سجين سياسي من حلب كان اعتقل في آذار ١٩٨٣، وبعد اعتقاله بفترة وجيزة ارتكب صهره جريمة قتل جماعيّة ومتعمّدة بسبب خلاف على أرض، حيث دعا أربعة ـ الأخوة الشباب الذين يختلف معهم على الأرض إلى غداء من أجل المصالحة، ثم باغتهم بإطلاق النار عليهم من رشّاش فقتلهم جميعًا. حُكم عليه بالإعدام ثم خفّف إلى المؤبّد ثم إلى ١٥ سنة وخرج بعد ٧ سنوات من السجن. في حين حكمت محكمة أمن الدولة العليا في دمشق على قريبه السياسي هذا ١٥ سنة مع أشغال شاقّة موقّتة وتجريد من الحقوق المدنيّة، ثم لم يطلق سراحه إلّا بعد ٤ أشهر من انقضاء مدّة حكمه كاملة، والسنة في أحكام محكمة أمن الدولة العليا تساوي ١٢ شهرًا وليس ٩ أشهر، كما

هو الحال في محاكم غير السياسيين، أقصد القضائيين.

صعدنا الباص، أحد باصات النقل الداخلي القديمة خضراء اللون. طالما كان هذا الباص وسيلتي في الوصول إلى جامعة دمشق على أوتستراد المزّة أثناء دراستي فيها قبل اعتقالي. كان حينها باصًا مدنيًّا أليفًا دافئًا في ازدحامه وضجيجه. كنت حين أصعد إليه في الصباح الباكر متوجّهًا إلى الجامعة أتصفّح الوجوه المزدحمة فيه، ربّما أعثر على وجه الطالبة السمراء التي كانت تدرس في الكلِّيّة نفسها معي وتصعد من الموقف السابق للموقف الذي أصعد منه. كان وجهها، إذا ما وجدته بين الوجوه، يحلّ على نفسي بردًا وسلامًا رغم أنّي طوال فصل دراسي كامل لم أجرؤ أن أقول لها ولو كلمة: صباح الخير. هذا الباص اليوم هو وسيلة نقلي إلى حيث لا أدري، بعد أن جرى قطفي من عنقود أسرتي منذ زمن بعيد، وصرت من ثم خاضعًا لحركة لا يد لي فيها. هذا الباص بارد اليوم كهذا الطقس الكانوني، وعكِرٌ مثل هذا الضباب البليد الذي يغطّي كلّ شيء هذا الصباح. ضباب رمادي متفاوت الكثافة يغطّي بقعًا ويعفّ عن أخرى، ربّما كنت وجدت في هذا الضباب مشهدًا ساحرًا لو كنت في غير هذه الحال، ولكنّي، والحال هذه، وجدته ثقيلاً على النفس. صحيح أنّني كنت أستبعد بعقلي إمكانيّة النقل إلى سجن تدمر، غير أنّ نفسي فيما يبدو كانت تحت السطح تستشعر الخطر.

امتلأ الممرّ بين مقاعد الباص بأغراض السجناء، هناك من السجناء من أخذ معه كلّ ما لديه من ملابس وكتب وعدّة مطبخ وراديو وأعمال خرز وخشب.. إلخ. من جهتي وتماشيًا مع تفاؤلي الساذج وإخلاصًا له، فقد تسلّحت فقط بعدّة منفردة (بيجاما ومنشفة وبدل داخلي وعدّة حلاقة وصابونة وفرشاة أسنان..). كان حملي خفيفًا،

ولكن ما كان ينتظرني في نهاية الرحلة كان أثقل ممّا تصوّرت وممّا رسم لي طبعي التفاؤلي وتحليلاتي «المنطقيّة». أخذنا أماكننا في الباص محرّرين من القيود تمامًا، إلى أن صعد الضابط من الباب الأمامي وكشّر اشمئزازًا من الرائحة أو من سوء المنظر أو من كليهما، وأمر بربط أيدي الجالسين من جهة الممرّ بجنزير واحد لكلّ جانب، واختفى. نُفِّذ الأمر. وتراجع مؤشّر المعنويات. كنت أجلس من جهة الشبّاك فلم يطالني الجنزير، وكان إلى جواري آرام، وهو شابّ أرمني بتهمة الحزب الشيوعي السوري ـ المكتب السياسي. تجسّدت واقعيّة آرام في توقّع كلّ شيء سيّئ من النظام. وللأمانة، فإنّ آرام رأى من اللحظة الأولى أنّ وجهتنا هي تدمر، ولم يكن، لشدّة يقينه، مستعدًّا لمناقشة أحد بأيّ احتمال آخر. وأنا، من جهتي، لم أعبأ بتشاؤميّته لشدّة يقيني. وبقيت متفائلاً رغم أنف كلّ شيء، إلى أن توقّف الباص في مكان ما على الطريق، وسمعت السائق يسأل أحدًا عن الطريق المؤدّية إلى تدمر.

استدعى الدماغ كلّ احتياطييه، استنفر، وراح يعرض على شاشة الوعي ما سبق أن خزّنه من معلومات عن سجن تدمر جمعها من أحاديث السجناء التدمريين الذين مرّوا بنا قبل الإفراج عنهم. أحاديث كنت أهتمّ بها من باب الاطّلاع والتوثيق الشخصي لا أكثر، وها هي تصبح سلاحًا ميدانيًّا في يدي، الشيء الذي لم أتوقّعه يومًا بصورة جدّيّة. بالفعل كلّ ما تخبّئه سيطلبه منك الزمن، كما كانت تكرّر جدّتي فاطمة. وعلى شاشة الوعي ارتسمت دائرة حمراء حول كلمة «التشريفة» أو «الاستقبال». يتشرّف السجن بقدومك إليه ويعبّر عن ذلك باستقبال حافل بالدواليب والكرابيج. تستحضر الذاكرة كلامًا عن سجناء عجزوا عن المشي لأكثر من ٦ أشهر بعد دولاب التشريفة، كلامًا عن سجناء

أبدوا شيئًا من المقاومة، فكان أن لم تكتف الكرابيج بالتهام أجسادهم بل وأرواحهم أيضًا. أن تفارق الحياة وأنت في ذروة الألم. أن يكون آخر عهدك بها أشدّ اللحظات بؤسًا وعزلة. الدائرة الحمراء تحيط بكلمة التشريفة الثابتة على شاشة الوعي. ضعت للحظة عمّا يحيط بي، وانتبهت على آرام يلكزني ليعطيني حفنة بذر أتسلّى بها، فقد كان من ضمن الأغراض التي أحضرها معه من عدرا كيس من البذر الأسود وزّعه على الجميع. وحين انتبهت إلى الباص، رأيت كيف كان حطام الدنيا يتقهقر إلى مكانته السفلى في عيون زهدت بما لها أمام هول ما ينتظرها. صار السجناء يوزّعون على عناصر الشرطة مقتنيات كم كانت ثمينة في عيونهم من قبل. الشرطة هم الناجون الوحيدون، أن تعطي أحدهم مسبحة فنّيّة متعوب عليها خير من أن تصطحبها معك إلى تدمر وبئس المصير. سجناء فكّوا حصار الملكيّة عمّا يملكون وراحوا يوزّعون بل يغرون عناصر الشرطة ويقنعونهم بجدوى القبول بهذا الشيء أو ذاك، هذه راديو جيّدة تعمل على الكهرباء وعلى البطّاريّات العاديّة، وهذه ماكينة حلاقة كهربائيّة ممتازة أرسلها لي أخي من الإمارات.. إلخ. دنيا تغدو تافهة في عيون أناس ينتظرهم جحيم طالما سمعوا به. جحيم تدمر الذي يشكّل شيئًا أشبه بالدمل الممضّ في ذهن كلّ سوري.

جدوى الاعتقال تكمن في نقطتين: الأولى هي تجميد نشاط المعتقل والتخلّص من فاعليّته التي يمارسها وهو طليق، والثانية هي ردع الآخرين من الانخراط في نشاط مشابه خوفًا من السجن. أي أنّ السجن هو في جانب مهمّ منه رسالة عبرة إلى غير المسجونين لردعهم عن محاكاة نشاط من أوصلهم نشاطهم إلى السجن. وفي أحيان كثيرة تغلب مهمّة الردع، وتصبح سياسة السلطات الأمنيّة تجاه المعتقلين

لديها هي العمل على تحويلهم إلى مثال يُتّعظ منه أو عبرة تُعتبر، حيث يتمّ الاحتفاظ بهم رغم تأكّد هذه السلطات من أنّهم لن يقوموا بأيّ نشاط في حال الإفراج عنهم ولن يشكّلوا أيّ خطر على أمنها. وطالما أنّ الأمر هكذا، يخال للمرء أنّ من مصلحة هذه السلطات نشر أخبار الاعتقالات ومصائر المعتقلين تعميمًا للعِبَر، كما تفعل السلطات حين تقدم على إعدام المجرمين في الساحات العامّة وتترك جثثهم معلّقة على المشانق كي يعتبر الناس. ولكن في مثل حالاتنا تتكتّم السلطات في الواقع وتنفي الاتّهامات عنها سواء بالاعتقال أو بممارسة التعذيب.. إلخ. يمكن فهم هذا السلوك من باب إعطاء صورة تتّفق مع بعض المعايير العالميّة عن حقوق الإنسان والحرِّيّات العامّة وما إليها، ولكنّ الغريب أنّ هذا التكتّم والتجميل لا بل وقمع كلّ من يتكلّم عن وجود مثل هذه الممارسات في الداخل، يؤدّي إلى فاعليّة ترهيب وردع أقوى من فاعليّة النشر والإعلان عن مصائر من ينخرط في أنشطة معارضة أو مستقلّة. فأنت لن تجد أحدًا في سوريا لا يعرف عن سجن تدمر مثلاً، أو عن مصير من يقع في الاعتقال من تعذيب وعزلة وضياع مستقبل.. إلخ. الأكثر من ذلك أنّ هذه المعرفة «السرِّيّة» التي تتفشّى كالأوبئة تكون أكثر قدرة على الردع من المعرفة الصريحة المعلنة، لأنّها تكون مشحونة بكلّ الاستيهامات الممكنة والمتنوّعة تنوّع الخيالات الفرديّة.

بعد أن خرجت من السجن لاحظت أنّه يكفي أن تذكر عبورك، خلال رحلة اعتقالك الطويلة، في سجن تدمر، حتى ترى انعكاس الكلمة في عيون مستمعيك من دون استثناء. الكلّ سمعوا به، الكلّ يتخيّلونه، الكلّ يخافونه، الكلّ يتعاطفون مع من قاده مصيره إلى العبور فيه، هذا ما يمكنهم فقط. منهم من يسارع إلى تغيير الحديث، ومنهم من يبدي نوعًا من البرود تجاهك كي لا تسجّل عليه تهمة التعاطف من

أحد الحاضرين، ومنهم، وهم الأكثريّة، تسيل في داخلهم غريزة الفضول ويمطرونك بالأسئلة عن هذا الداء الذي يستوطن بلدهم. يستفسرون عن مفردات سمعوها ولا يعرفون معناها، يدقّقون في وجهك وفي عينيك ليلاحظوا آثار سجن تدمر عليك. يتأمّلونك ويبدأون في مخيّلتهم إكمال اللوحة. أنت عنصر بتّ معلومًا لديهم، وهم الآن يركّبون بقيّة عناصر السجن المتخيّلة من حولك لتكتمل لوحة ربّما تاقوا إلى رؤيتها، لا المشاركة فيها طبعًا، لوحة السجين في تدمر. تمامًا كما تقف أمام الآثار وتحاول بدءًا من العناصر المتبقّية أن تستكمل لوحة الحياة الغابرة.

ها نحن في طريقنا إلى تدمر، إلى سجن تدمر. كان قد مضى على سجني ١٢ سنة ونصف السنة، وأنا بعد هذا في طريقي كي يضع شيخ السجون السوريّة ختمه على صفحة حرِّيّتي الناصعة. كان ياسين (شيوعي سوري/ مكتب سياسي) هو الأقدم بيننا، فياسين بعد أن قضى آخر يوم من الـ ١٥ سنة التي حكمته بها محكمة أمن الدولة العليا في دمشق، قابلته لجنة أمنيّة ونحن لا نزال في سجن عدرا، وحين لم ترق لهم ردوده ألحقوه بقافلة تدمر. كان واضحًا أنّ قرار الترحيل متّخذ سلفًا. وكانت تقاطعات سيرتينا (ياسين وأنا) لافتة للانتباه. اعتُقل ياسين قبلي بحوالى السنتين ونصف السنة. كان يدرس الطبّ قبل اعتقاله، وكنت أدرس الطبّ قبل اعتقالي. كان في السنة الثالثة عند اعتقاله وكنت في الثالثة عند اعتقالي. حكمت عليه المحكمة بالسجن ١٥ سنة، وحكمت عليّ بالسجن ١٥ سنة. لم تفرج السلطات عنه بعد إنهاء مدّة حكمة وأضافت له سنة أخرى، وأنا لم تفرج عنّي السلطات بعد أن أنهيت الـ ١٥ سنة وأضافت لي سنة أخرى!

تعطّل الباص على الطريق. كنّا قد تعبنا من السفر، من المسافة

الطويلة ومن الباص العتيق، ورغم معرفتنا ورعبنا من هول ما ينتظرنا، صرنا نريد الوصول، نريد أن نصل، نريد أن تريحنا الوقيعة من عبء الحذر. أنهكنا الطريق. يبس لحمنا وصارت دماؤنا لزجة. تعطّل الباص. كانت مرسيدس الضابط (قائد المهمّة!) قد تجاوزتنا كثيرًا، وحين تأخّر الباص عادت تتفقّده. نزل الضابط وصعد يستطلع الأمر وعلى وجهه شيء حائر بين الملل والقرف. طلب سائق الباص كأسًا ليضعه في مكان ما في المحرّك كي يسير الباص. تبرّع كثيرون بكؤوس، والكأس الذي فاز، نال شرف المساعدة في إيصالنا إلى مصيرنا المعتم. هدر الباص مجدّدًا وانطلق وهو يهدهدنا بقوّة ارتجاجه ويجود علينا، بعد أن ظلّ غطاء المحرّك مفتوحًا، بضجيجه وروائحه التي تكوي العين.

تحت إلحاح عدد من السجناء وافق عناصر الشرطة أن يستأذنوا الضابط بأن يوقفوا الباص كي يقضي السجناء حاجتهم للتبوّل. وقف الباص على جانب الطريق. أرض صحراويّة ممتدّة بلا حدود. برد يجمّد الدم. نزل أوّلاً السجناء المجنزرون. وتبعهم «المتحرّرون» من الجنزير، هؤلاء تركهم عناصر الشرطة ينتشرون في الأرض كيفما شاؤوا، يعلم عناصر الشرطة أنّه لن يقدم أحد على أيّة محاولة هرب، لأنّها ببساطة مستحيلة. أمّا المجنزرون فقد انتشروا، بقدر ما يسمح لهم الجنزير، في الأرض ليقضوا حاجتهم. هناك من لا يستطيع قضاء حاجته إلّا في عزلة عن الآخرين، ولكنّ الجنزير لا يسمح بالعزلة مهما تكن بسيطة. لذلك لم يستطع تيسير مثلاً أن يتبوّل رغم امتلاء مثانته. حاول كثيرًا من دون جدوى. وعاد إلى الباص مضيفًا الخيبة إلى حصر البول. كانت تجربة فيها شيء من الطرافة. هو شيء تحكيه لأولادك، كما كان يقول حسين زعيم السوداويين بيننا هازئًا. ولكن هل من مجال

لسوداويّة أكبر؟ نعم، لا تنتهي درجات الدرك الأسفل. حتى للموت مراتب. كم تندّرنا بحكاية المحكوم بالإعدام شنقًا الذي كان يستجير بالله من الإعدام بالخازوق. هناك دائمًا ما هو أسوأ. وهناك دائمًا ما يمكن أن تحرص على عدم فقدانه. هل صحيح أنّه ليس لدى البروليتاريا ما تفقده سوى أغلالها؟ لم يثبت التاريخ صحّة هذا القول. الأغلال أيضًا درجات وهناك من يخشى أن يخسر أغلاله لصالح أغلال من نوع أقسى. وهناك من يخشى أن يخسر أغلاله ويبقى بلا أغلال وبلا عمل. وإلى ذلك، هناك جماعات بشريّة تستسلم للموت جوعًا. جماعات كهذه ذكرتها مثلاً تقارير منظّمة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة (هيومن رايتس ووتش) عن دارفور في السودان، جماعات قبليّة ماتت استسلامًا للجوع. ليس كلّ من يجوع يخرج شاهرًا سيفه. الجماعات كما الأفراد، قد لا تجد دافعًا للتمسّك بالحياة. دائمًا هناك ما هو أسوأ.

وصلنا تدمر حوالى الثانية بعد الظهر منهكين ومحبطين وخائفين وخائرين من البرد والخيبة. توقّف الباص على حاجز الكتيبة المكلّفة حماية السجن. من شبّاك الباص رأيت أطفالاً يلعبون إلى جوار منازلهم. تأمّلتهم جيّدًا كي أحتفظ في ذاكرتي بآخر صورة عن الحياة الطبيعيّة خارج السجن قبل أن يبتلعنا إلى جوفه هذا الكائن الحجري النهم ذو الرهبة. سيكبر هؤلاء الأطفال ونحن في السجن، وذاك الولد الذي يركض بثياب بالية لاهيًا غير مكترث بنا ولا بالبرد، قد يخدم عسكريّته في سلك الشرطة العسكريّة في سجن تدمر ويدركنا ونحن في السجن! كم سارت الحياة ونحن في السجن! كم ستسير ونحن في السجن؟ في سجن عدرا كنت أراقب الطائرات المدنيّة وهي تقوم برحلاتها الجوّيّة، أفترض أنّ فيها طالبًا يذهب لإكمال دراسته في

الخارج، وأفترض أنّني سأكون في المكان نفسه أراقب الطائرة التي سيعود عليها بعد أن ينهي دراسته. كأنّني مجرّد حارس للزمن. كما لو أنّ وظيفتنا هي أن نكون سجناء. هكذا يكون الحال حين يطول السجن وينفصل عن موجباته. حين تنفصل الجريمة عن العقاب، حين تصبح الجريمة فضيلة والعقاب لعنة.

قبل أن يفكّوا الجنازير لننزل من الباص، صعد الضابط إلى الباص ونقَّل نظره في وجوهنا، وعلى وجهه ما زال ذلك التعبير الذي ينمّ عن القرف ويثير في النفس شيئًا مشابهًا. وجه بلون أسمر متّسخ وشعر أجعد وعينان جاحظتان وأنف ضخم بفتحتين واسعتين وشفتين غليظتين وفكّ سفلي مرتخ دائمًا يجعل من الصعب على الشفتين أن تلتقيا. وخلف هذا الوجه تقبع تركيبة نفسيّة أشدّ قبحًا. والرجل يشغل وظيفة لا تقلّ قباحة، وينظر فوق ذلك إلى وجوهنا المنهكة والمترقّبة والخائفة بقرف! على أنّ عناصر الأمن الذين كانوا معنا في الباص لم يكونوا أبدًا على صورة ضابطهم. أمّا سائق الباص فكان جالسًا وراء مقوده ينتظر تفريغ الشحنة، ويبدو سيّان لديه إن كان ينقل بشرًا أم غنمًا أم أكياس أرز!

استلام وتسليم

رهبة المكان لا توصف. رهبة كنّا قد صنعناها في مخيّلتنا قبل أن يقدّمها لنا الواقع ملموسة وجارحة. لم تكن مخيّلتنا قد تطرّفت فيما رسمت. عناصر البلديّة بثيابهم الرثّة وأرجلهم العارية في الشحّاطات وسط هذا البرد الشرّير يلبّون طلبات آلهتهم (عناصر الشرطة العسكريّة). عناصر الشرطة العسكريّة في كلّ مكان، يصلّحون خراقة حركاتنا التائهة بالنهر واللكز والشتائم الرفيعة. مساعد الانضباط

يستعرضنا ببرودة صاحب الأمر وسخرية المنتصر المحسود المعتاد على رؤية مآسي الناس من مكانه الآمن. دخلنا وما يزال فينا شيء من روح سجن عدرا. بقايا روح لم تأخذ وقتها الكافي بعد للتبخّر. لدينا شيء من الشعور بالكيان وبالقيمة. هذا الشعور الذي كان جاهزًا لأن يتلاشى كقشرة يابسة أو كورقة صفراء على غصن في مدخل الخريف، وكأنّه كان ينتظر أن يتحطّم ويتلاشى. بعد أن جرى الاستلام والتسليم وصرنا «على ذمّة» سجن تدمر، هيّأ شعورنا بالكيان والقيمة وما يستجرّه من فكرة الحقّ والمطالبة والتوازن في العلاقات.. إلخ، هيّأ نفسه للسقوط، تمامًا كما يهيّئ الورق الأصفر نفسه للريح في الخريف كي تشمله بقسوتها الرحيمة. الورقة الصفراء الآيلة إلى اليباس لا مكان لها على الغصن، مكانها الأرض. والشعور بالكيان والقيمة لا مكان له في تدمر وعليه أن يتلاشى.

العادة أن يتناسب قمع المعارضين السياسيين مع النشاط السياسي للجهة السياسيّة التي ينتمون إليها. حين يشتدّ النشاط السياسي لهذه الجهة يشتدّ القمع على منتسبيها. قوّة العمل المعارض تخلق عندئذ نوعًا من التوازن مع شدّة القمع، تخلق نوعًا من الدعم النفسي والمعنوي للمعتقلين. وحين يتمّ القضاء على هذه الجهة من المنطقي أن تبدأ قبضة القمع تسترخي تجاههم. أمّا أن يشتدّ القمع على معتقلي أحزاب سياسيّة باتت مشلولة وشبه ميتة جرّاء القمع الدائم، وبعد سنوات طويلة من اعتقالهم، فهذا أمر خارج عن العادة. وهو أمر له أثر نفسي شديد القسوة على المعتقل. في الواقع إنّ مثل هذا السلوك يشبه إلى حدّ بعيد التمثيل بالجثّة بعد قتلها. أمر لا أخلاقي، لو تركنا جانبًا كلّ الكلام السياسي. حتى في الحرب هناك أخلاقيّات، وفي القمع لا بدّ أن يكون هناك أخلاقيّات. القمع هو نوع من الحرب،

حرب منخفضة الشدّة. وانتهاك هذه الأخلاقيّات يدخل في خانة الإجرام. كلّ سياسة تستقلّ عن الأخلاق هي سياسة مجرمة، أكانت سياسة اقتصاديّة أو إداريّة أو أمنيّة أو.. إلخ. ولا شيء يبرّر مثل هذه السياسات، لا توجد مصالح عليا تبرّرها، لأنّه لا مصلحة تعلو على حياة الإنسان طالما كان يمكن صونها. حتى سياسة بناء الأوابد كالإهرامات مثلاً حين تكون على حساب حياة الناس وحين تُبنى بشقائهم وحرمانهم، تكون برأيي غير مبرّرة وغير أخلاقيّة.

عبّر مساعد الانضباط في سجن تدمر عن دهشته لإحضار معتقلين شيوعيين إلى سجن تدمر في الوقت الذي يجري الإفراج عن معتقلي الإخوان المسلمين منه، أو على الأقلّ ترحيلهم إلى سجون أقلّ وطأة. وكان هذا المساعد «الخبير» يسأل بشكل متكرّر أثناء عمليّة تسجيلنا على سجلّات السجن واستلام الأمانات:

ـ أنتو شو عاملين ولا! إضراب ولا اعتصام ولا اعتداء على عناصر الشرطة؟

وحين يردّ أحدنا بأنّنا لم نفعل شيئًا. كان يقول بعدم قناعة صريحة:

ـ إي مجنون يحكي وعاقل يسمع!

العقيد مدير السجن نفسه كرّر على مسامعنا أكثر من مرّة، بعد أن دفعه ضغط أهالينا في الخارج إلى زيارتنا والسؤال عن أحوالنا وحاجاتنا داخل السجن:

ـ اللي بيبعتوه لهون يعني أنّه تجاوز كلّ الخطوط الحمر. ما بعتوكم لهون للاستجمام، بعتوكم منشان تتأدّبوا!

لا شكّ أنّ مدير السجن قد تلقّى تقريرًا من الجهة التي أرسلتنا

يتضمّن سبب هذا الترحيل، والراجح أنّ التقرير يفسّر هذه الخطوة بضرورة تأديبنا (تأديب!).

عن الثلاثة السود

في الثلث الأخير من شهر تشرين الثاني ١٩٩٥، فوجئنا بدخول ثلاثة رجال إلى جناحنا في سجن عدرا يرافقهم المساعد رئيس مفرزة الجناح. ثلاثة رجال بأطقم رسميّة سوداء (ربّما بمحض الصدفة)، أحدهم يحمل عصا في يده ويعرج قليلاً في مشيته. يبدو في العقد السادس أو السابع من العمر. من حركتهم وتطلّعاتهم واستهتارهم بكلّ ما حولهم وبكلّ من حولهم تفوح رائحة السلطة المطمئنة. دخلوا بعض المهاجع وأبو العصا يضرب بعصاه على كلّ ما يراه، على حديد الأسرّة وعلى بيدونات الماء وعلى كرتونات الكتب والمقتنيات وعلى جهاز التلفزيون.. أبدوا استكثارهم لكلّ ما وقعت عليه عيونهم عندنا: شووو تلفزيون!... شووو كتب!... شو ناقصهم!؟ ثم أكملوا سيرهم في كوريدور الجناح حتى وقفوا على باب باحة التنفّس التي كنّا ننزل إليها على درج، فجناحنا في الطابق الثاني والباحة على مستوى أرضيّة الطابق الأوّل. تأمّلوا الباحة قليلاً. قفل هؤلاء الرجال السود راجعين بعد أن أكملوا جولتهم وهم يتبادلون الاستنتاجات كمن وقع على سرّ ما، بينما كان أبو العصا يضرب بعصاه على ساقه بلطف. هؤلاء الرجال الثلاثة السود هم ضبّاط الأمن الثلاثة أعضاء اللجنة الأمنيّة الموكل إليهم مهمّة البتّ في أمرنا.

بعد هذه الجولة الاستطلاعيّة، قابلت هذه اللجنة الأمنيّة السجناء وعاينتهم فردًا فردًا ثم اقترحت على الجهات الأعلى، بعد الدراسة، ترحيلنا إلى تدمر بدل الإفراج عنّا، ولا شكّ أنّها برّرت طلبها بأنّنا

نحتاج إلى تليين وتطويع، فظروف سجن عدرا «رخوة»، ونحن سجناء مرفّهون، وهذا ما يفسّر يبوسة رؤوسنا وعدم قبولنا العفو «الأبوي» الذي مُنح لنا في اليوبيل الفضي للحركة التصحيحيّة ١٩٩٥. بالفعل كان هذا جواب الأمن للأهالي الذين كانوا يراجعون فرع الأمن مستفسرين عن عدم الإفراج عن أبنائهم: ابنكم ميبّس راسه ومو راضي (مو راضي!) يطلع!

للإفراج ثمن، كأنّ كلّ السنوات التي قضاها السجين لا معنى لها ولا قيمة! الثمن الوحيد المقبول هو أن تراك اللجنة الأمنيّة ذليلاً تستعطف وتترجّى (سنرى في تدمر أنّ الرقيب أوّل يضربك ولا يكفّ عن ضربك حتى «تترجّاه وتتدخّل عليه»، وحين تكون غرًّا ولا علم لك بهذه العقدة، التي يبدو أنّها عامّة عند جميع أهل السلطة، يطلبها الرقيب أوّل ببساطة: قول دخيلك ولا!)، وهذا بذاته لا شيء أيضًا ما لم يترافق بتوقيع على وثيقة تدلّ على ذلك، وهي استعدادك للتعاون مع الأجهزة الأمنيّة، وإلّا فأنت يابس الرأس و«مو راضي تطلع». ماذا تعني يبوسة الرأس عند الأمن، تعني أنّه ما يزال لدى السجين شيئًا من الكرامة الشخصيّة، الكرامة الشخصيّة ليس أكثر، الكرامة السياسيّة خارج الدائرة. حتى لو أبدى السجين السياسي قناعات سياسيّة موالية ولو تغيّرت نظرته السياسيّة إلى الواقع، وبات محافظًا ومدافعًا من الناحية السياسيّة عن استمرار الوضع القائم، ولو بات ملكيًّا أكثر من الملك، فإنّ ذلك لا يعني شيئًا للمسؤولين الأمنيين، فهم يفهمون شيئًا واحدًا هو أنّ السوري الصالح هو السوري المخبر، وأنّ الترجمة المفهومة للموالاة السياسيّة هي أن تكون مخبرًا، أو الأدقّ أن لا ترفض فكرة أن تكون مخبرًا حتى لو لم تكن «مخلصًا» في ممارسة «الإخبار».

وعليه، لئن كان باب الدخول إلى السجن واسعًا ومفتوحًا أمام كلّ من طالته الشبهة أو حتى طالت أحدًا من أقربائه أو أصدقائه، بابًا واسعًا ومشرّعًا وجاهزًا للابتلاع، فإنّ باب الخروج من السجن منخفض وضيّق لا يمرّر سوى من ترى اللجنة الأمنيّة أنّه صار ناضجًا، ومؤشّر النضج هو قبول التوقيع على وثيقة التعاون مع الأجهزة الأمنيّة. أبواب الدخول إلى السجن السياسي لا محدودة ومتجدّدة، ولكن هناك بابًا واحدًا يخرج من السجن هو باب التعاون مع الأجهزة الأمنيّة، وحتى هذا الباب لا يُفتح إلّا لمن شمله «عفو» أو توافرت له «واسطة» ما. حتى العفو هو منحك فرصة أن تقايض خروجك من السجن بأن توقّع على بند التعاون. هكذا كان الحال في فرع الأمن السياسي، وإن كان قد نقل لنا سجناء فرع الأمن العسكري أنّ ضبّاط الأمن لم يتوقّفوا كثيرًا عند التوقيع على هذا البند، وحين نُقل هذا الكلام إلى رئيس فرع الأمن السياسي الذي كان قد أكّد أنّ هذه الصيغة ملزمة من «فوق»، قال إنّني لست بقوّة رئيس شعبة الأمن العسكري حينها كي أتحمّل مسؤوليّة تجاهل هذا البند.

يعلم ضبّاط الأمن ولا شكّ أنّ للمخبر نفسيّة خاصّة لا يمكن صناعتها لدى السجين السياسي بقرار منهم، أو بتوقيع ورقة. لا يمكن أن ترغم الناس على أن يكونوا مخبرين. ويعلم ضبّاط الأمن أنّ توقيع هذا البند لا يعني أنّ من وقع عليه صار مخبرًا، كما أنّه لا قيمة قانونيّة له (هذا إن كان ثمّة مكان للحديث عن قانون)، ومع ذلك يصرّون عليه كنوع من كسر النفس. وحتى بعد الإجراء «التأديبي» في ترحيلنا إلى تدمر، كان التوقيع على هذا البند ممرًّا إجباريًّا للخروج من السجن. وقد كانوا على وشك أن يعيدوا أبا مالك إلى تدمر لأنّه رفض أن يوقّع البند. وأبو مالك سجين في أواخر الستّينيّات من عمره، حكمت عليه

محكمة أمن الدولة بالسجن لمدّة ١٥ سنة. بعد أن كان أُحيل إلى لجنة طبّيّة بسبب حالته العقليّة المضطربة، غير أنّ اللجنة الطبّيّة «الأمنيّة» اعتبرته متمارضًا ورفضت الإفراج عنه. كان قد بقي على انتهاء فترة حكمه سنتان حين رحّلوه معنا إلى تدمر. قضى السنتين وفوقها عدّة أشهر، ومع ذلك كان عليه أن يوقّع هذا البند كي يشمله العفو (عفو بعد انقضاء عدّة أشهر على انقضاء مدّة الحكم ثم لا يشمل من لا يوقّع!). رفض التوقيع، فأبقوه في الفرع عدّة أيّام قبل أن «يتحمّل» رئيس الفرع مسؤوليّة الإفراج عنه، وهو في حالة صحّيّة متدهورة للغاية عقليًّا وجسديًّا، من دون توقيع.

ولا بدّ من القول هنا إنّ نسبة من صُنّفوا من قبل تلك اللجنة الأمنيّة نفسها التي قابلتنا في سجن عدرا بأنّهم يابسو الرأس كانت قليلة. والجهات العليا التي وافقت على الاقتراح رأت أنّ وجود هذه النسبة هو جريمة تستوجب تأديب الجميع. الجميع من دون استثناء بمن فيهم من قال إنّه على استعداد لتسليم أبيه إلى الأمن إذا سُمع منه كلمة ضدّ النظام، وبمن فيهم من قضى حكمه بالتمام والكمال، وهو أصلاً حكم جائر، ولكن كان من حظّه العاثر أن جاء قرار الانتقام هذا قبل يوم واحد من انتهاء مدّة حكمه. قبل يوم أو يومين فقط كان قد تمّ الإفراج عن سجين آخر (محظوظ!) بعد أن أنهى الحكم نفسه.

أنا مثلاً صُنّفت من يابسي الرأس، ويبوسة رأسي تمثّلت في أنّني قبلت بأن لا أعمل في السياسة بعد خروجي وبأن أنسحب من الحزب، ولكن لم أقبل بأن أتردّد كلّ ١٠ أيّام على فرع الأمن في محافظتي وأخبر عن كلّ من يحاول الاتّصال بي من الحزب أو من يتكلّم ضدّ النظام في أيّ جلسة أحضرها. المثال الشهير الذي يحاول ضبّاط المخابرات من خلاله تقريب فكرة التعاون معهم إلى ذهن السجين هو:

ألا تخبر فرع الأمن إذا رأيت أحدًا يزرع متفجّرة في مكان ما؟ يوحي هذا السؤال بأنّ همّ الأجهزة الأمنيّة من خلال طلب التعامل هو حماية الناس من المتفجّرات وغيرها، ولكن حين تجيب بأنّك قبل أن تفكّر بالإخبار تحاول منع زرع المتفجّرة بيديك، ثم يمكن أن تخبر بالتأكيد مخفر الشرطة القريب، فإنّ ثورة الغضب التي تثيرها هذه الإجابة لدى ضبّاط الأمن تدلّ على أنّ السؤال لا يهدف إلى الحرص على حياة أبناء بلدك، وإنّ الهمّ الذي يحرّك هؤلاء الضبّاط هو فقط الإخلاص أو الإذعان لهم (طالما هم الأقوى) وليس أيّ شيء آخر، حتى مخافر السلطة هي بنظرهم «دولة أخرى». لماذا لا تخبرنا نحن؟ في حالتي ابتكر ضبّاط الأمن في الواقع سيناريو آخر هو الإبلاغ عن إنزال إسرائيلي في ضيعتنا، هكذا يضعونك في خانة إسرائيل ببساطة أو يعربون على الأقلّ عن خشيتهم من ذلك! وحين قلت لهم إنّني في مثل هذه الحال أبادر للدفاع قبل عناصرهم، قال لي أحدهم: «منعرف، بس ليش ما بتبلغنا؟» التبليغ أهمّ من الدفاع! بالفعل يحتار المرء في أمر ضبّاط المخابرات، هل يبتكرون هذه الصيغ لانتزاع كلمة نعم من السجين «اليابس الرأس» كي يسهّلوا أمر الإفراج عنه، لأنّهم لا يستطيعون تنفيذ الإفراج عنه من دون هذه النعم المطلوبة من «فوق» كما يقولون، أم أنّهم يرمون هذه الأمثلة كنوع من المصيدة، يقنعون السجين بأنّهم حريصون عليه ثم ينغّصون حياته بالاستدعاءات بعد الإفراج عنه. لا يخلو الأمر من وجود ضبّاط مخابرات عقلانيين وحسنيّ النيّة، ولكنّ الغالب والقاعدة هو أنّ سوء النيّة وإضمار الأذيّة هو من صلب عمل ضابط المخابرات الأمر الذي يجعله يتعامل مع ضحاياه كعدوّ. كلّ فرد هو مشروع عدوّ للنظام الذي يعمل هو على حمايته. النكتة والإشارة وزلّات اللسان وتعابير الوجه والحلم.. كلّها دلالات توصل إلى

السريرة الدفينة التي كادهم الله في جعلها دفينة ولا سبيل مباشرًا إليها. وكلّها من الأبواب المفضية إلى السجن.

ترحيلنا إلى سجن تدمر كان لغزًا بالنسبة لمساعد الانضباط ولمدير السجن أيضًا، وإجابتنا على استفسارات مساعد الانضباط غير مقنعة له ولا تحلّ اللغز. إجاباتنا بأنّنا لم نفعل شيئًا تجعل من قرار ترحيلنا إلى تدمر قرارًا تعسّفيًا أرعن، وهذا لا يجوز ولا يقبله ليس فقط عقل مساعد الانضباط بل عقل الإنسان العادي في بلادنا. حتى جزء من أهالينا لم يقتنع أنّ السلطات الأمنيّة يمكن أن ترمينا هكذا إلى سجن تدمر من دون سبب موجب. في الوعي العامّ عندنا لا مكان لمساءلة الحاكم. والصلة اللغويّة بين الحاكم والحكمة في اللغة العربيّة ليست من فراغ. من يحكم فهو حكيم، ولقراراته حكمة ما. لا تتمّ مساءلة قرارات الحاكم لنقدها أو تصويبها بل لفهم الحكمة من ورائها، وراء كلّ قرار يتّخذه الحاكم حكمه يعرفها الحاكم وقد لا يعرفها المحكومون، لذلك لا أرضيّة للاحتجاج، كلّ احتجاج هو فوضى ناجمة عن الجهل بمقاصد الحكم. لم يتحرّر الوعي العامّ **عندنا من قدسيّة الحكم باعتباره تمثيلاً للحكم الإلٰهي. ولا يهتمّ الوعي العام عندنا بكيفيّة وصول الحاكم إلى الحكم ولا بشرعيّته، إذ يعتبر نجاحه في الوصول إلى الحكم مصدر شرعيّة لحكمه، «وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله». لا تزال السياسة دائرة ماورائيّة، ولا يزال التعامل مع قرارات الحكّام وسياساتهم كما يتمّ التعامل مع ظواهر الطبيعة. أنت لا تنتقد الطبيعة، بل تنصاع لها وتحاول فهمها.**

* * *

تمّ فرزنا بحسب التهمة السياسيّة، الإسلاميّون وبعث العراق في جهة والشيوعيّون في جهة أخرى. وبعد تسجيل الأسماء، جاءنا الأمر:

كلّ واحد يطالع بشكير أو قميص داخلي ويطمش حالو. ثم: احمل أغراضك وامش. البشكير غير طويل بما يكفي لربطه خلف الرأس، وهذا ما يجبرك على إبقاء إحدى يديك ممسكة به خلف رأسك. كان حِمل الحارث ثقيلاً، فقد احتاط كعادته لمثل هذا الاحتمال وجاء بكلّ ما يمكن أن يلزم وكان ما تعب في حمله طوال طريقنا زادًا للجميع. قادونا على شكل رتل عبر ممرّات وباحات، مناطق إسفلتيّة، مناطق ترابيّة، مناطق إسمنتيّة. وصلنا إلى المهجع المقرّر لنا، وقعت عيوننا على أرضه من تحت الطمّاشات، وكانت شديدة الرطوبة. وقبل أن يغادر الرقيب أوّل وضع يده على كتف عزيز، وهو شابّ حلبي ضخم البنية، وقال له أنت رئيس المهجع، حين نادي رئيس المهجع تجيب أنت، مفهوم! غادر الرقيب أوّل مع عناصر الشرطة والبلديّة ثم أغلقوا الباب وتركونا. لم نتجرّأ أن نرفع الأغطية عن عيوننا، من جهتي لم أطمئن إلى عدم بقاء عناصر بيننا، ولم أرفع الغطاء عن عينيَّ حتى اطمأننت إلى أنّ غيري قد رفع الغطاء عن عينيه. أخيرًا نزعنا الأغطية عن عيوننا وتلفّتنا نستطلع المكان ونحن تغمرنا الفرحة لأنّهم لم يستقبلونا بتشريفة. وأوّل ما اكتشفناه بعد إزالة الأغطية عن عيوننا هو أنّ عددنا ١١ سجينًا فقط، فقد تمّ نقل الـ ١١ الباقين إلى مهجع آخر. ولأنّهم سمحوا لنا بإدخال كلّ شيء معنا، حتى السكاكين وصحون البلّور والراديو. كلّ شيء، هم لم يفتّشوا أغراضنا أصلاً، فقد استنتجنا أنّ لنا معاملة مختلفة عمّا كنّا نسمعه من معاملة سجناء الأخوان المسلمين. لا بأس إذن، إذا كانت فحوى هذه العقوبة هي رمينا في مكان بعيد صحراوي وحرماننا من امتيازات سجن عدرا وتكليف أهالينا مشقّة أكبر في زيارتنا، سواء من حيث بعد المسافة أو من حيث إجراءات تأمين الزيارة، فالأمر هيّن!

حلّ أوّل ليل علينا في تدمر. كان البرد عدوّنا الأوّل، وقد وزّعنا فيما بيننا الأغطية والعوازل التي كانوا قد سلّموها لنا. لكلّ سجين عازل وبطّانيّتان ولحاف. حين تسمع ذلك تخال أنّ الأمر مقبول، ولكن حين ترى يختلف الأمر. العازل هو قطعة مستطيلة من شادر بطول حوالى ١٨٠ سم وعرض حوالى ٦٠ سم خيطت عليها قطعة مطابقة من بطّانيّة مهترئة. والبطّانيّة هي هيكل خيطي لبطّانيّة. أمّا اللحاف فهو كيس مربّع من قماش رقيق سكّري اللون يضمّ بضع كتل من القطن. بهذه الأسلحة عليك أن تواجه برد الصحراء الشرس، في مهجع واسع رطب ونوافذ لا يسترها إلّا قضبان الحديد، وإضافة إلى كلّ هذا هناك نافذة واسعة في السطح تفتح عليك جبهة برد إضافيّة.

النافذة الواسعة المفتوحة في السقف تُدعى «شرّاقة». قد يكون الاسم مشتقًّا من فعل «شرق» بما أنّها «تشرق» الهواء من داخل المهجع إلى خارجه. وهي في الحقيقة إذا كانت تشرق الهواء، فإنّها تحلّ محلّه جحيم الحرس الذين يمرّرون كلّ ابتكاراتهم التعذيبيّة وكلّ ما تطرحه شذوذاتهم من ثمار مرّة ومقزّزة عبر هذه «الشرّاقة». وفيما يدلّ على انكماش اللغة بفعل قسوة ظروف سجن تدمر، فإنّ مفردة الشرّاقة تستخدم هناك للدلالة على أشياء عديدة مختلفة تجعل من الصعب ردّ هذه الكلمة إلى أصل ما، وتحيل كلّ فقه اللغة إلى حالة من العبث. الطاقة الموجودة في الباب الحديدي للمهجع تسمّى شرّاقة، وهذا الاستخدام قد يتماشى مع اقتراح أن يكون أصل الكلمة فعل «شرق»، فالطاقة هي أيضًا فتحة يمكن أن «تشرق» الهواء من داخل المهجع، وإن كان هذا الاشتقاق أضعف هنا منه في حالة فتحة «شرّاقة» السقف، ولا سيّما أنّ هذه الطاقة تبقى مغلقة دائمًا، ما عدا حالات قليلة تستخدم فيها الطاقة للإدخال أكثر ممّا تستخدم للإخراج. فمنها يدخّلون

ماكينة الحلاقة إذا حان موعد الحلاقة، ومنها يدخِّلون الجريدة إذا ما سمحوا بها، ومنها يدخِّلون أوامرهم الشفهيّة أحيانًا، وفي حالات الرخاء يمكن أن يدخّلوا منها قلمًا وورقة كي نسجّل ما نحتاجه في الفاتورة. ويمكن من خلالها أن نعيد أيضًا ما أعطوه لنا، بالطبع ما عدا الأوامر التي لا تعرف إلّا اتّجاهًا واحدًا.

ولكن ذات يوم، وكنّا لا نزال أغرارًا في سجننا الجديد، نقر عنصر بلديّة على الباب وصاح:

ـ طالع الشرّاقة ولا!

حار رئيس المهجع وراح يتلفّت إلينا كي نسعفه في فهم ما يقصد عنصر البلديّة. تبلكمنا جميعًا. كنّا نعتقد أنّنا بمعرفتنا أنّ فتحة السقف تسمّى شرّاقة، وطاقة الباب تسمّى شرّاقة إنّما قد ختمنا باب «الشرّاقة» في قاموس سجن تدمر.. ولكن هيهات منّا ذلك! فها هي معرفتنا تقف عاجزة أمام هذا الطلب الجديد. وما كان من رئيس المهجع إلّا أن تجرّأ وسأل عنصر البلديّة (والكلام كلّه يدور من وراء حجاب بالطبع، والحجاب هو جدار المهجع وبابه الحديدي) بلهجته الحلبيّة:

ـ إشّو هي الشرّاقة سيدي؟

في سجن الشيخ حسن أو سجن عدرا لم نكن نخاطب أحدًا من مساعدي أو ضبّاط الفرع، بما فيهم رئيس الفرع، بكلمة «سيدي»، فهي تنطوي على إذلال لا نرضاه لأنفسنا. كنّا نقول سيادة العقيد أو سيادة النقيب.. إلخ، وها نحن الآن في الأسابيع الأولى من ترحيلنا إلى سجن تدمر نخاطب عنصر البلديّة (وهو الدرجة الدنيا والأحطّ في هرميّة نظام السجن) بكلمة «سيدي» لعلّه يرضى ولا يرضى. ردّ عنصر البلديّة غاضبًا:

ـ ولك الشرّاقة يا ابن الشرموطة!

ـ يعني الجاط سيدي؟

ـ والله لنيكا لأختك يا كلب يا ابن الكلب، قلتلك الشرّاقة ولا!

زاد ارتباك رئيس المهجع، فتل حول نفسه، تطلّع في كلّ الأشياء التي حوله، لا شيء يوحي بأنّه شرّاقة، جاءته اقتراحات مهموسة بأن يكرّر السؤال على عنصر البلديّة فقد نفهم شيئًا، لكنّ العنصر لم يعطه فرصة سؤال ثان وابتعد من أمام المهجع وهو يشتم ويتوعّد.

وحين جاءت مفرزة توزيع طعام الغداء، خرج أفراد السخرة لاستلام الطعام وفوجئوا بوجود عدد من البرتقالات مرميّة على الأرض. أدخلوا البرغل والمرقة وتردّدوا في إدخال البرتقال، فصاح الرقيب برزانة ممطوطة:

ـ دخّل الدوسيييير!

خرج أفراد السخرة وارتبكوا في إدخال الدوسير. البرتقالة كرويّة ويمكن تتدحرج ما لم تقبض عليها جيّدًا، حقيقة كانت ثقيلة على نفوس أفراد السخرة ذلك اليوم. يمكن لكلّ يد أن تقبض على برتقالة، وأيّة محاولة للقبض على برتقالات إضافيّة تكون محفوفة بمخاطر التدحرج. تدبّرت السخرة أمر إدخال الدوسير، وصاح الرقيب:

ـ رئيس مهجع تعا لهون ولا!

ـ أمرك سيدي!

ـ ليش ما طالعت الشرّاقة للبلديّة ولا؟

ـ سيدي ما عرفت شو الشرّاقة.

ـ ولك يا حيوان ما عم تستلمو ربطات خبز. خيّط كياس الخبز مع بعضن منشان يحطلّك البلديّة الدوسير عليهن يا حمار. شو كيميا

يعني!؟ انقلع لجوّا وشدّ الباب لشوف!

ها هو اسم «الشرّاقة» يمتصّ إليه شيئًا جديدًا. تتوسّع دائرة معارفنا بالشرّاقة ولا تكتمل. يبدو أنّ مفردة الشرّاقة في هذا السجن تنافس مفردة «حتى» في اللغة العربيّة. يموت المرء وفي نفسه شيء من «الشرّاقة»!

في مرّة أخرى فُتح فجأة باب المهجع خارج المواعيد المعتادة، وجاء الصوت:

ـ سخرة، طلاع دخّل الشرّاقة ولا!

يا سلام! هنا إدخال شرّاقة وليس إخراج! خرج أحد أفراد السخرة وعاد وفي يده علبة معدنيّة أسطوانيّة فيها زيت نباتي. كانت المرّة الأولى والأخيرة التي يوزّعون فيها زيتًا بهذا الشكل علينا. إذن العلبة المعدنيّة الأسطوانيّة هي أيضًا «شرّاقة». هل كلّ ما يُملأ أو يحتوي هو شرّاقة؟ ولكن شرّاقة السقف تفرغ ولا تحتوي، وكذلك طاقة الباب. تحار في العثور على أصل.

لم تنتهِ حكاية الشرّاقة بعد، بقي لها فصل آخر في يوم السردين العظيم. ذلك اليوم الذي لا يُنسى من أيّام سجن تدمر. ولكن قبل الذهاب إليه لا بدّ، لا بدّ تمامًا، من الذهاب إلى صبيحة وصولنا إلى تدمر. تلك الصبيحة التي تقطّر سمًّا.

* * *

بعد أن غمرتنا فرحة المعاملة المميّزة، لا تشريفة ولا مصادرات ولا حلاقة شعر على الصفر، حتى إنّ الحرس على السطح لم يزعجنا بشيء. وبعد أن توازعنا الأماكن والأغطية، بتنا نحلّل أبعاد هذا الإجراء بحقّنا على ضوء هذه المعاملة التفضيليّة. وجهدنا أنفسنا ونحن

«نسلّ جبين الفجر من خشب النعش» كما يقول الشاعر. نستنطق كلّ الدلالات لصالح كونه إجراء محدودًا من الناحية الزمنيّة وبدون قسوة في المعاملة، على خلاف أبناء التهم الإسلاميّة. وكنت بطبيعتي التفاؤليّة مقتنعًا بمحدوديّة الإجراء، ولكنّي كنت أخشى في نفسي أن يبدأ هذا الإجراء محدودًا ثم يستمرّ، ذلك أنّ «الشهيّة تأتي مع الأكل» بحسب المثل الروسي.

صباح اليوم التالي، وصلت إلى أسماعنا أصوات بعيدة متواترة لا خبرة لنا بها. أصوات اقترح البعض أنّها أصوات تقطيع خشب، وشبّهها البعض بصوت دقّ الخشب. هي بالفعل كانت أشبه بالصوت الصادر عن نجّار بيتون ينصب قالب الخشب ويثبّت الألواح على بعضها بعضًا بالمسامير أو يفكّك قالب الخشب بالدقّ على الخشب لتخليصه من المسامير. فيما بعد سنخبر جيّدًا هذه الأصوات التي لا علاقة لها بالخشب البتّة.

بعد أقلّ من ساعة سمعنا صوت حركة كثيفة أمام المهجع، ثم فُتح الباب وجاء صوت مساعد الانضباط:

ـ الكلّ لبرّا! وطالع كلّشي معك غراض، ع السريع!

كانت الباحة الصغيرة أمام مهجعنا تغصّ بعناصر الشرطة العسكريّة وعناصر البلديّة ومعهم العدّة كاملة. كان هذا في صباح الخميس ٣/ ١/ ١٩٩٦. كان يومًا شديد البرودة. ويا له من يوم! بعد أن خرجت من السجن أصابني نوع من الفضول الجارف لمعرفة ماذا كانت تعمل أمّي في ذلك الوقت، وماذا كان يعمل كلّ فرد من أهلي ومن أصدقائي في ذلك اليوم. حتى الأصدقاء الذين تعرّفت عليهم بعد خروجي من السجن كان يلحّ عليّ الفضول لمعرفة ماذا كانوا يفعلون صباح وضحى يوم ٣/ ١/ ١٩٩٦. أريد أن أُعيد بصورة راجعة رسم لوحة ذلك اليوم

الفظيع. كان ذلك اليوم توأمًا لليوم الذي سبقه.

خرجنا مذعورين من المهجع وفي يد كلّ منّا أغراضه. نركض ورؤوسنا في الأرض. وقفنا على شكل نسق ووجوهنا إلى الحائط الذي يسوّر باحة المهجع. ١١ سجينًا حلّت عليهم لعنة الدوائر العليا في أجهزة الأمن، وها هي الدوائر التنفيذيّة السفلى تترجم تلك اللعنة بكلّ ما منحتها الطبيعة من قسوة وبذاءة وانعدام إنسانيّة. ١١ سجينًا يرتجفون بردًا وهلعًا وترقّبًا، وجوههم إلى الحائط، ومن خلفهم جيش من البلديّة والشرطة العسكريّة مجهّز بكلّ معدّات التعذيب اللازمة، وعلى رأسها الحديدة التي سنعرف لاحقًا بأقدامنا قبل مداركنا العقليّة ماذا تعني. ١١ سجينًا أصغرهم بعمر ٣٢ سنة وأكبرهم بعمر ٦١ سنة، لا يعرفون ماذا ينتظرهم.

وجوهنا إلى الحائط وعيوننا في الأرض، ندرك بآذاننا فقط ما يحيط بنا. كان الجيش من خلفنا صامتًا، لا نسمع إلّا صوت حركاتهم. كنّا خائفين ويابسين ولا نستدعي أيّة ملاحظة. جاءنا الأمر بصوت مساعد الانضباط الواثق الحازم:

ـ اشلح كلّ تيابك خلّيك بالكيلوت بس! ع السريع!

في قلب هذا الرعب وهذه المخاطر المحدقة بك تنفصل من وعيك مساحة صغيرة وتستقلّ لتتأمّل ما يجري وتسأل (لماذا هذا؟ عقابًا على أيّ جرم؟ هل ضبطنا نخطّط لانقلاب ما، أم نتجسّس لصالح جهة خارجيّة؟ ما الموازنة بين ما قمنا به وما يمارسونه علينا من تعذيب؟ ماذا يربطك بهؤلاء المستعدّين لقتلك بكلّ عدائيّة باردة؟ هل يفكّر هؤلاء وكيف ينظرون إلى أنفسهم؟..).

ثوان قليلة كانت ملابس كلّ منّا مكومة إلى جانبه. صارت

أجسامنا عزلاء أمام البرد كما هي أمام هذا الجيش المتفرّغ لنا. في البداية أطبقت فكّي بقوّة كي لا تصطكّ أسناني، وفيما بعد فقدت السيطرة على حركة فكّي السفلي، وراحت عضلات صدري ترتجف (هل هذه هي العضلات التي تسمّى فرائص؟ وهل هذا هو ارتعاد الفرائص؟ لا أدري وما همّ أن أدري؟) وتوشك عضلات التنفّس أن تنكمش فلا تستجيب للتمدّد.

صمت رهيب. ثم وخلال هذا الصمت الرهيب بدأت من خلفنا حركة قويّة تنمّ عن عمليّة قسر ما تمارس ضدّ شخص ترافقها تنهّدات قويّة ومبتورة من الضحيّة. ثوان قليلة وسمعنا، ولكن عن قرب هذه المرّة، الصوت المتواتر نفسه الذي كنّا سمعناه صباحًا وحسبناه دقًّا على الخشب. ثم صوت ممطوط وخجول في البداية: يا أمّي...، صوت راح يتواتر مع تواتر الضربات ويصير أكثر قوّة وأكثر استغاثة واستعطافًا. لم أستطع أن أحدّد الشخص، رغم أنّنا نحن الـ ١١ قضينا من قبل سنوات معًا. لم أستطع معرفة من كان منّا أوّل من طالته التشريفة التي خلنا أمس أنّنا نجونا منها. كما لم أعرف أن أحدّد صوت الضربات على أيّة منطقة من الجسم تقع الكرابيج. رجّحت أنّه يتعرّض للجلد على الظهر. فقد بدا لي صوت الكرباج عريضًا وكأنّه يقع على سطح واسع. توقّف الضرب ثم توقّف الصوت، ثوان قليلة وتمّ سحب عزيز، الذي عيّنوه أمس رئيسًا للمهجع، وقد كان بجانبي. فتّشوا ثيابه وأغراضه. ثم: البس تيابك لشوف! جاء صوت المساعد. ثم السيناريو السابق نفسه. جاء دوري. يد قويّة تحطّ على كتفي وتديرني إلى الخلف. لبست ثيابي بسرعة كما أمر المساعد، لا أغراض معي تستدعي التفتيش، ثوان وكنت في الدولاب. استرقت النظر إلى وجه جلّادي (أظنّ أنّها رغبة جامعة أن ترى الضحيّة

جلّادها)، فجاءني صوت راعد:

- غمّض عيونك يا شرموط! إيدك على بيضك.

أفي خضمّ هذا الألم الذي لا يعرف حدودًا، يمكن للمرء أن يفكّر في اتّخاذ إجراءات احترازيّة؟ مع ذلك بدا لي هذا التحذير مريحًا فهو ينمّ عن حرص ما. توالت الضربات بتواتر فظيع لا يسمح بالتقاط النفس. كنت أخجل من رفع صوتي بالاستغاثة، ولكن شدّة الألم سلخت مرّة واحدة كلّ الطبقات العلويّة من الوعي، وعادت بي إلى قاع مشترك مع كلّ الكائنات الحيّة. ليس قاع التمسّك بالحياة، أو ما يسمّونه شعبيًّا «حلاوة الروح»، بل تجنّب الألم، وربّما كان هذا أقوى وأعمق من التمسّك بالحياة، فقد يختار المرء التخلّص من الحياة سبيلاً للخلاص من الألم.

- إيدك على بيضك واقطع الصوت!

في لحظة قصوى من اشتداد الألم ابتدأت أتعرّق وشعرت أنّ قلبي يضمر ويغور في هوّة سحيقة، وفقدت القدرة على الصراخ! ولا أدري كيف خرجت من فمي تنهيدة على شكل: يا ألله! عندئذ وعلى حافّة فقد الوعي توقّف الضرب. قذفوني من الدولاب أمام باب المهجع. لم أتمكّن من السير على قدمي. كان الألم لا يُطاق. كأنّ دمي كلّه يحتقن في قدميّ ويحاول تمزيق شراييني والتحرّر منها. الكرباج يختلف عن الخيزرانة. الكرباج أكثر لؤمًا. في التحقيق كانت الخيزرانة هي أداة التعذيب. الخيزرانة تلسع بشكل مؤلم وحارق للغاية، ولكن ما إن يتوقّف الضرب حتى يتوقّف الألم. الخيزران يفجّر الدم في القدم فترتاح. أمّا حين يكون الكرباج هو الوسيلة فإنّ ألم ما بعد الدولاب يوازي ألم الدولاب. يتوقّف الضرب ويبقى الألم شديدًا لا يحتمل وتشعر أنّه يتزايد ولا يخفّ. من حسن حظّي أنّني كنت الثالث في

الترتيب، ثالث من استقبلته التشريفة. فإلى أن انتهوا من استقبال الـ ١١ كانت قدماي قد ارتاحتا قليلاً، وصار يمكنني تحمّل السير، الذي فرضوه علينا، بألم أقلّ.

انتهت التشريفة. وعلى الفور جاءنا الأمر:

ـ احمل غراضك ولبرا الكلّ!

لم يعد بمقدور أحد أن يلبس الحذاء الذي كان يلبسه. التشريفة حدّ فاصل. ما قبلها ليس كما بعدها. وها نحن نسير رتلاً منهكًا وكسيرًا. محنيي الظهر متألّمين مهانين فاقدي الرجاء. وراح ذهني يرتطم بأسئلة متوالدة. ما الهدف!؟ لماذا كلّ هذا الفحش؟ هل صحت فجأة في أذهانهم فكرة خطورتنا؟ أيّ خطر نشكل؟ ربّما لو كنّا نشكّل خطرًا حقيقيًّا لما تعاملوا معنا بهذا الشكل، كانوا فاوضونا على حدّ ما يحفظ الكرامة الشخصيّة على الأقلّ. القوّة لا تركع إلّا للقوّة. هم الآن يريدون سحقنا. وكأنّهم يقولون ضعفاء ومعزولون وتريدون أن ترفعوا رأسكم أيضًا؟ السلطات الأمنيّة في كلّ العالم تعطي قيمة للقوّة فقط. تعمل جاهدة لعدم امتلاك أحد غيرها القوّة، ولكن حين يمتلكها تحترمه وتهابه. لم يفارق ذهني تشبيه ما تقوم به السلطة الأمنيّة معنا بالتمثيل بالجثّة بعد قتلها.

قطعنا طريقًا مرصوفة بالجمر حتى وصلنا مكتب الإدارة. يحدونا بضعة عناصر من الشرطة وهم يجودون علينا بعبارات «التقدير». كان أكثرهم حماسة شرطي تصوّرته من صوته وكلامه نحيلاً وزائد الطول. راح هذا يردّد عبارة واحدة وراء كلّ تعليق له أو تعثّر لأيّ منّا، فيقول: «يلعن كسها»! يقولها بتلذّذ ويلفظ حرف الكاف مضمومًا. سياط إضافيّة. رسائل صريحة إليك تقول إنّك وسط أناس لا حدود لانعدام أخلاقهم، وسط أناس لا يمكنك أن تتخيّل إلى أيّ حدّ يكرهونك، أو

ما هو التصوّر الذي يرسمونه في أذهانهم عنك!! في مكتب الإدارة تمّت إجراءات تسجيل الأغراض وإعطاء كلّ شخص وصلاً بأغراضه. ثم عدنا إلى المهجع. الوقت كان عصرًا. كانت البلديّة قد وضعت داخل المهجع جاطًا مليئًا باللبن وآخر مليئًا بلحمة حمراء مسلوقة مع العظم. لم يكن لأيّ منّا قابليّة أن يأكل شيئًا. لسوف نتذكّر بحسرة وطويلاً كمّيّة الطعام هذه فيما بعد. وقد كان من حكمة الحارث أنّه صنع كيسًا قماشيًّا لتصفية الكمّيّة الكبيرة من اللبن، وهكذا ساعدتنا اللبنة الناتجة لأيّام غير قليلة حين هبط وارد الطعام هبوطًا وصل إلى حدّ الجوع.

ولكي تكتمل «تدمرتنا» جاؤونا بماكينة حلاقة يدويّة لقصّ الشعر والذقن والشوارب. كان فراس هو أوّل من خلع علائمه «الشَعريّة» وخرج من تحت الماكينة بهيئة جديدة تمامًا، بدا لي شبيهًا بلاعب كرة القدم الأرجنتيني الشهير مارادونا. تلاه حسين فأسامة فأديب... الجميع يخرجون بملامح جديدة. ملامح تدمريّة. لا أدري ما الانطباع (المسكوت عنه) الذي تركته لدى غيري حين غدوت بلا شعر ولا شوارب، ولا شكّ أنّ رأسي الطويل المسطّح وجبيني المجعّد قد تركا انطباعًا مرعبًا، ولا سيّما أنّ هؤلاء التدمريين الجدد قد ألفوا وجهي بشاربين يشكّلان محطّة ترتاح عليها العينان حين تستقبلان وجهي المتطاول. ولكنّ الشكل الأكثر تدمريّة بالنسبة لي كان حسين، ببشرته الغامقة وجبينه المتقدّم العميق التجاعيد وبشفاهه الغليظة وتقطيبته الدائمة. إلى هذا، فإنّ حسين كان كبير المتشائمين، تقطيبته ليست من فراغ، إنّما هي انعكاس لتقطيبة داخليّة أشدّ. فقد كان يبشّرنا، حين يتكلّم، وهو نادرًا ما يتكلّم، أنّهم جاؤوا بنا إلى تدمر من أجل إعدامنا. فهو لم ير ما يبرّر هذه الخطوة سوى قرارهم بإعدامنا كتذكير

مستمرّ لكلّ يساري تسوّل له نفسه فكرة معارضة النظام. يتكلّم وهو ملتمّ على نفسه ويبحلق في الأرض بعينين مفتوحتين على أقصى مدى لهما.

قليل من الوقت ودخلنا بالكامل في الطور التدمري من سجننا. رؤوس حليقة على الصفر، وجوه بلا شوارب، نفوس وظهور محنيّة. خلعنا آخر الإشارات الخارجيّة المرتبطة بسجن عدرا الذي صار فردوسًا مفقودًا. لم تعد آمالنا تطال الحرِّيّة، صارت العودة إلى عدرا أملاً مستقلًّا بحاله. إذا كان قد كتب علينا السجن فليكن في سجن كسجن عدرا. في سجن عدرا كنّا إذا انتهى أحدنا من الطعام قال: انشالله برّا! اليوم صرنا نقول: انشالله بعدرا!

في الليل بدأت الغريزة تشقّ طريقها في ركام النفوس. الجوع. إذا نسيت جسدك فهو لا ينسى نفسه. بدأنا نأكل، أي بدأنا نتطبّع. وفي المساء بدأ شعور السخرية الذاتيّة، هذا الطائر الرحيم، يرفرف فوق هاوية خيبتنا السحيقة. يتحوّل الألم والضعف والمصيبة.. إلى مادّة للتندّر والضحك. يقلّد بعضنا أصوات بعضنا الآخر في دولاب التشريفة. نضحك على ردودنا وحركاتنا الساذجة والخرقاء أحيانًا. نضحك من أشكالنا الجديدة بعد أن مرّت على رؤوسنا ووجوهنا تصاريف الماكينة.

بدأنا نلبس الثوب التدمري شيئًا فشيئًا. نتعرّف على قوانين السجن بالشتائم والضرب. فكرة التقادم في سجن تدمر لا وجود لها. فكرة نقل الخبرات المتواصل بين أفواج السجناء المتلاحقة لا يتمتّع بها إلّا سجناء التهم الإسلاميّة نظرًا لكثرة عددهم، أمّا نحن فندخل على نظام مكرّس من سنين طويلة وعلينا أن نتصرّف وفق قوانين لا نعرفها، وجوهر القانون هنا هو تحويل السجين إلى مادّة وموضع للإذلال

والتحطيم النفسي والجسدي. لا يسلم العارف بالقانون فما بالك بالغافل عنه؟ ندخل إلى مهاجع فارغة، لا أحد فيها كي يضيء لنا أعراف السجن. وإذا كانت القوانين وضعت لحماية الحقوق، ولدفع أذى الناس بعضها عن بعض، فإنّ قوانين تدمر من نوع آخر. قوانين لممارسة وتكريس سلب حقوق وليس حفظ حقوق. قوانين لإخضاع السجين وإذلاله روحًا وجسدًا وعقلاً. . لا حقّ لك في هذه المملكة المظلمة. لا حقّ من أيّ نوع. كثيرًا ما بحثت في نفسي، وأنا أشهد بالثواني هذه القسوة المخجلة من علاقة الإنسان بالإنسان، عن فئة يمكن أن تكون أكثر بؤسًا من سجناء تدمر ولم أفلح. العبيد؟ ولكن صاحب العبيد حريص على حياة وسلامة عبيده باعتبارهم قوّة منتجة لديه. المشرّدون؟ ولكن هؤلاء يتمتّعون بحرّيّة وإن تكن ناقصة، هؤلاء يمكنهم أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء، يمدّون أبصارهم في مداها ويشكون ويرتجون. أمّا نحن فلا ترتاح نفوسنا على جانب. حبس وجوع وبرد وقلق وخوف وإهانات وتعذيب. الملل رفاهيّة وترف في سجن تدمر.

في اليوم الثاني بعد التشريفة، فوجئنا بفتح باب المهجع. كان كلّ منّا يجلس على يطئه (فراشه). صاح العنصر:

ـ جهّز تفقّد ولا!

لم ندرِ ماذا يعني هذا الكلام. في سجن عدرا كان العنصر يقرأ الأسماء وكلّ منّا يقول: حاضر من مكانه أينما كان. هنا الأمر مختلف ولكن كيف؟ أنقذنا صوت شرطي:

ـ الكلّ يتجمّعوا هون خمسة خمسة لشوف!

هرعنا إلى حيث أشار الصوت، بأحذية ومن دون أحذية.

مجموعنا هو خمستان زائد واحد. هذا الواحد هو رئيس المهجع الذي طُلب منه أن يقف وحده في نسق مستقلّ. ارتبكنا في حركتنا، تكتّلنا على بعضنا بعضًا. . تدافشنا. الكلّ يسعى إلى الوقوف أبعد ما يمكن عن عناصر الشرطة. ثم استقرّ حالنا. لا شكّ أنّ المنظر كان فوضويًا إلى الحدّ الأقصى. لا انتظام في كلّ المهجع غير اصطفافنا. نسقان، كلّ منهما خمسة سجناء وفي الخلف وعلى الطرف من الخارج يقف رئيس المهجع، وكلّ منّا يحدّق في قدميه. أحصانا الرقيب (التفقّد هنا بالعدّ وليس بالأسماء) ثم قال:

ـ وزعّ لكلّ واحد حبّة أسبيرين!

لوهلة تعاملت مع الموضوع بجدّيّة وتساءلت عن المغزى، قلت ربّما يوزّعون الأسبيرين كمميّع للدم بعد دولاب التشريفة، إذن لا يفوتهم شيء. توقّف مسار تفكيري «التفاؤلي» مع سماع: غمّض عيونك وارفع راسك لفوق! ثم صوت صفعة مدوّية، ثم: ما ظبطت، اثبت مكانك ولا عرص! غمّض عيونك وارفع راسك. وصوت صفعة ثانية مدوّية. كان هذا جاري يتناول جرعته من الأسبيرين (حبّتان!). جاء دوري. تناولت جرعتي (حبّة واحدة حمدًا لله) ووقفت جانبًا، في حين كان العناصر يجدّون في توزيع الأسبيرين على البقيّة. كم حسدت يومها فراس الذي ضاع عنهم في زحمة التوزيع وخسر نصيبه من المميع، فقد كانت «الأسبيرينة» من القوّة بحيث يعتبر النجاة منها مكسبًا حقيقيًا. وقبل أن يأمر الرقيب بشدّ الباب توقّف وقال:

ـ رئيس مهجع ولا! هالمنظر ما عاد بدّي شوفو، مفهوم! يالله شدّ الباب!

وقبل أن نشدّ الباب استطاع أحد عناصر الشرطة أن يمرّر تعليقه:

ـ انشالله بدّي حطّ صرماية كلّ واحد منكم بتمّو يا منايك!

لسجن تدمر لغة خاصّة به. لغة منكمشة، المفردة الواحدة تدلّ على أشياء عديدة. الشرّاقة مثلاً اسم يدلّ على أشياء مختلفة. وكلمة «الفوارغ» تدلّ على كلّ ما يمكن ملؤه من جاطات وعلب وما شابه. وكلمة «الحديدة» تدلّ على كلّ ما هو غير بلاستيكي، المسمار حديدة وغطاء علبة النيفيا حديدة والخاتم حديدة. أمّا «حضرة الرقيب أوّل» فهو تعبير مخاطبة جامع. هذا التعبير يختصر كلّ تعابير المخاطبة. على السجين أن يخاطب الجميع بهذا التعبير بدءًا من المجنّد وصولاً إلى مدير السجن. لا يغيّر في الأمر شيئًا أنّه حين يحضر مدير السجن بالفعل فإنّ اللغة المتعارف عليها تتضعضع، حالها في ذلك كحال القوانين. ومَن خَبِر هذه الحقيقة أكثر من غيره هو ياسين الذي كان من سوء حظّه يقوم بواجب السخرة حين فُتح الباب ودخل شخصان، عرفنا ذلك من عدّ الأقدام، أربعة أقدام تساوي شخصين. أحدهما هو مساعد الانضباط، عرفناه من الصوت، والآخر لم نعرفه. لكن يبدو أنّ مساعد الانضباط هو المرافق في هذه الحالة، أي هو الأقلّ شأنًا. ومن يكون مساعد الانضباط في سجن تدمر مرافقًا له لا بدّ أن يكون ذا شأن كبير. كلّنا في أماكننا «الطبيعيّة»، على يطآتنا، سوى ياسين الذي كان ذلك اليوم «سخرة» ويجلي صحون الغداء بكلّ التزام.

ـ تعا لهون ولاك!

صاح به مساعد الانضباط، وحين اقترب ياسين منهما وهو يبعد يديه المبلّلتين بالماء والصابون عن وسطه، ويجهد نفسه للحفاظ على رأسه مطأطأً بالقدر الممكن، بادره الشخص الآخر بالسؤال:

ـ شو عم بتساوي عندك؟ كان الصوت جديدًا علينا ونبرته ممتلئة وواثقة.

لا شكّ أنّ ياسين كان مطمئنًّا بقدر ما تسمح شروط سجن تدمر بالاطمئنان، لأنّه ضُبط وهو يقوم بعمل «مشروع»، لا بل عمل مشكور وهو الحرص على النظافة. إنّه يجلي الصحون في مكان مكشوف على الشرّاقة أوّلاً، وبالماء البارد الذي يجري في قساطل السجن ثانيًا، وبالصابون الذي توزّعه إدارة السجن ثالثًا.. والأهمّ من كلّ ذلك أنّه يجلي وحيدًا ولا يمكن الشكّ بأيّ سلوك مريب. هل هناك «مشروعيّة» أكثر؟ فأجاب، وهو ما يزال مبعدًا يديه عن وسطه:

ـ عم بجلي الصحون حضرة الرقيب أوّل.

ومن دون توقّع منه تلقّى «حبّة أسبيرين» من كفّ المساعد وهو يصحّح له:

ـ سيادة العميد ولا!

إضافة إلى كونها منكمشة، فإنّ لغة سجن تدمر مبطّنة أو منزاحة عن الدلالات المتواضع عليها. إذا كانت حبّة الأسبيرين تدلّ على الصفعة. فالشرف يدلّ على الحذاء. ضع شرفك في فمك، تعني ضع حذاءك في فمك. وكلمة «الجمل» تدلّ على الكرباج. فالقول: غنّجه بكمّ جمل! يعني زد له عددًا من الكرابيج. وتختلف هذه المصطلحات بحسب ثقافة الرقيب وشخصيّته.

بعد جرعة الأسبيرين جلسنا نفكّر بكلام الرقيب، ما هو المنظر الذي لا يريد رؤيته بعد الآن. هل منظر تزاحمنا وارتباكنا وتدافشنا أثناء التفقّد، أم منظر المهجع الفوضوي ككلّ، أم منظر بعضنا وهو حافٍ؟ أم منظر بعضنا وهو محتذٍ؟ هل نحضر التفقّد بأحذية أم من دون أحذية؟.. لكن تعليق العنصر الذي توعّد بأن يضع أحذيتنا في أفواهنا ساعد في فهم قصد الرقيب. إذن يجب أن نرتّب أحذيتنا في زاوية من

المهجع ونحضر التفقّد حفاة. هكذا اقتنع رئيس المهجع. وما يقتنع به رئيس المهجع يمشي.

فكرة تعيين رئيس للمهجع وتحميله مسؤوليّة كلّ ما يجري داخل المهجع فكرة ناجحة تمامًا من الناحية الأمنيّة والإداريّة. أوّلاً يتعاملون مع كتلة بشريّة من السجناء قد يصل عددها إلى ٤٠٠ شخصًا من خلال شخص واحد. ثانيًا يصبح هناك عبء أخلاقي على كلّ أفراد المهجع تجاه رئيس المهجع. يعلم السجناء أنّ أيّة مخالفة يراها الرقيب يمكن أن تعرّض رئيس المهجع للضرب وهو واحد منهم، لذلك يتولّد لدى أهل المهجع استعداد للالتزام بما يراه رئيس المهجع مقبولاً بعد كلّ المناقشات والمداولات التي تجري داخل المهجع. ومن ناحية أخرى فإنّ «تمرّد» فرد أو مجموعة من أهل المهجع على رئيس المهجع، أي عدم قبولهم بما يقبل، يفتح الباب أمام أحد خيارين: إمّا أن يبلّغ رئيس المهجع الشرطة بذلك، وفي هذه الحال تحلّ العقوبة «بالمتمرّدين»، فرئيس المهجع، من خلال تحمّله لمسؤوليّة المهجع أمام الشرطة، إنّما هو ممثّل الشرطة داخل المهجع بقدر ما هو ممثّل المهجع أمام الشرطة. أو أن يسكت عنهم وفي هذه الحالة يعرّض نفسه للمعاقبة، وهذا يحمّل «المتمرّدين» مسؤوليّة أخلاقيّة أمام أنفسهم وهي مرشّحة إلى أن تتحوّل إلى مسؤوليّة أمام الشرطة إذا ما تمادوا.

إنّ موقع رئيس المهجع هو نقطة تماسّ الشرطة والسجناء. وتتأتّى سلطة رئيس المهجع على المهجع من منبعين الأوّل هو كونه المصدر المسموع من قبل الشرطة، أي هي سلطة مستمدّة من الشرطة وهي سلطة مضمرة عادة ولكنّها قابلة للظهور عند الضرورة. والثاني هو قبول أهل المهجع بعدم تحميله الأوزار ودفعه للجوء إلى الشرطة. والغالب أنّ السجناء يريدون تغليب كون رئيس المهجع ممثّلاً لهم أمام الشرطة

وليس العكس، ولذلك فإنّهم يميلون، بعد نصحه ومناقشته، للالتزام بما يراه. وإذا وُجد من لا يميل للتسليم برأي رئيس المهجع فإنّه يواجه لوم «الرأي العامّ» داخل المهجع، ليس لأنّه يعارض بل لأنه يتاجر بمال غيره، بمعنى أنّه يعرّض رئيس المهجع للعقوبة، أو يدفعه للاعتماد على الشرطة، أي إمّا أن يتعرّض رئيس المهجع للضرب أو أن يتعرّض للّوم. مثلاً إذا تعامل أحد أفراد المهجع باستهتار مع الجريدة (يوزّع السجن إحدى الجرائد الرسميّة الثلاث، وغالبًا البعث، حوالى ٤ أيّام في الأسبوع ويستردّونها في اليوم التالي لتوزيعها، ويجب أن يستلموها كاملة ونظيفة وسليمة تحت طائلة العقوبة) ونتج عن ذلك تمزّقها أو تلوّثها فإنّ الرقيب سيعاقب رئيس المهجع، ولكن يمكن لهذا أن يحوّل العقوبة عنه إلى الشخص المستهتر إذا ما أخبر عنه. وفي الحالتين فإنّ رئيس المهجع خاسر. مهما يكن من أمر، فإنّ فكرة تعيين رئيس للمهجع تثبت أنّها آليّة فعّالة في ضبط شؤون المهجع.

ربّما كانت رئاسة المهجع في سجن تدمر هي الرئاسة الوحيدة التي لا يُطمح إليها. رئيس المهجع في قلق دائم. يجب أن يبقى قريبًا من الباب، يجيب على أيّة نقرة ويسمع ويفهم كلّ ما يقال من وراء الباب. فقد يعرّض نفسه للضرب إذا تعذّر عليه فهم كلام الرقيب وطلب منه تكرار ما قاله. وقد يعرّض نفسه للضرب إذا تأخّر في الردّ على نقرة خفيفة على الباب. على أنّه يمكن أن يتعرّض للعقوبة أيضًا إذا رآه الحارس قريبًا من الباب فيتّهمه بالتنصّت. وقد يتعرّض رئيس المهجع للضرب إذا سمع الحرس صوتًا ما داخل المهجع. ولكن رئاسة المهجع ككلّ الرئاسات تخلق حولها حاشية ومستشارين وموالين كما تخلق معارضة. رئاسة المهجع هي مركز سلطة، ولكنّها سلطة

بائسة. ممارستها تحيل رئيس المهجع إلى شخص يشبه الحاكم في ظلّ الاحتلال، أمّا عدم استخدام هذه السلطة مع تحمّل تبعات الموقع، فإنّه يرفع رئيس المهجع إلى مرتبة عالية في عيون أهل المهجع ولكن على حساب سلامته واطمئنانه.

مرّت أيّام ونحن نحضِّر التفقّد حفاة. الأرض عارية والطقس بارد ونضطرّ للوقوف أحيانًا نصف ساعة إلى أن يصل رقيب التفقّد. لا شكّ أنّ الرقيب كما العناصر لاحظوا عري أقدامنا ولكنّهم لم يعلّقوا، لم يتبرّع أحد بالقول يمكنكم لبس أحذيتكم أثناء التفقّد. يخاف أحدهم أن ينبّهك فيعطي انطباعًا للآخرين بأنّه متعاطف معك. لا تستطيع بهذه البساطة أن تعرف أنّه يمكنك حضور التفقّد بالحذاء. عليك أن تغامر. تعاقَب أو تنجو وتكتسب معرفة في الحالين. هكذا هو الحال حين يغيب التواصل ونقل الخبرات. لا يجوز خلط الشيوعيين مع الإسلاميين، ولا يوجد شيوعيّون قدامى في سجن تدمر، لذلك كان علينا أن نبدأ دورة «الحضارة» من ما قبل اختراع الدولاب. كيف نحضّر التفقّد، كيف نحضّر للتفتيش، كيف نرشّ الماء في الباحات، كيف نستلم الطعام، كيف نتفادى المطر النازل من الشرّاقة، كيف نتخلّص من الأكل الزائد حين يزيد، كيف نحلّ مشكلة التبوّل في ظلّ منع التبوّل ليلاً، كيف يمارس «الليلي» مهامّه، كيف نعلّق أغراضنا على حيطان المهجع، كيف نصنع الخيطان والحبال؟ «حضارة» كاملة. ولكن سأستبق السرد كي أقول إنّ الثورة الحقيقيّة في هذه الحضارة، والتي توازي ثورة المحرّك البخاري في الحضارة الصناعيّة، كانت صناعة الخيطان التي منها يشتقّ كلّ شيء.

ـ خلّونا نحضّر التفقّد اليوم بأحذيتنا على سبيل التجربة، اقترح أحد الشباب.

تخوّف رئيس المهجع. فالسيناريو الممكن هو أن يدخل رقيب التفقّد فيرانا محتذين فيقول:

ـ رئيس مهجع ولا! مين قلّك تلبس برجلك يا عرصة!؟

وحين لا يكون لدى رئيس المهجع ما يجيب به، تنهال عليه «حبّات الأسبيرين» من كلّ صوب.

طبعًا قد تشمل حفلة الأسبيرين الجميع، بيد أنّه من شبه المؤكّد أنّ نصيب رئيس المهجع سيكون الأوفر. ولكن قد لا يعلّق الرقيب على ذلك. وقد يعلّق من دون أن يتبع تعليقه أيّة عقوبة، على أنّ هذا الاحتمال ضئيل للغاية، ليس لأنّ الرقيب عدواني وشرّير بطبعه بل لأنّ عدم إلحاق العقوبة بالتعليق يمكن أن تضع الرقيب في دائرة شبهة التعاطف مع السجناء، الذين لا يجب التعاطف معهم، فدورهم في هذه المسرحيّة التراجيديّة أن يكونوا الآخر المذموم والضعيف والمستباح. وكما تتوقّع التصفيق بعد ذكر أسماء معيّنة في المهرجانات الخطابيّة، تتوقّع الصفع وغيره من «الأدوية» بعد تعليق الرقيب.

ولكن هناك ما يستحقّ المغامرة. ما يزال مشوار الشتاء طويلاً، والفوز بتفقّد مع أحذية يستحقّ العناء. اتّفقنا على خوض المغامرة. حضّرنا التفقّد ونحن بكامل.. أحذيتنا. دخل رقيب التفقّد، تأمّل جمعنا للحظات، ثم قال:

ـ رئيس مهجع! كم واحد عندك ولا!؟

ـ إدَعْش في الصفّ حضرة الرقيب أوّل. قال رئيس المهجع بصوت واضح ومرتفع، وخبط رجله في الأرض تحيّة للرقيب، بحسب التعليمات.

انصرف الرقيب ومعه العناصر من دون أيّ تعليق، ظلّت الخشية

مجاورة لقلوبنا إلى أن سمعنا الصوت:

ـ شدّ الباب يا عرصة!

شددنا الباب، أُقفل الباب، غادرت الدوريّة. وانتشينا بسهولة هذا الفوز. كم تحسّبنا له وكم كان سهلاً! أمّا حسين فقد كان من رأيه أنّهم لم يلاحظوا أنّنا نلبس أحذية، وبالتالي فإنّ احتمال العقوبة ما يزال واردًا في التفقّد التالي.

وبمناسبة شدّ الباب، أوّل ما تدخل إلى أيّ مهجع في سجن تدمر يلفت نظرك وجود حبل مربوط في الباب حيث لا يوجد في الباب مسكة حديديّة. وسرعان ما تعرف دور هذا الحبل. ذلك أنّه كلّما فتح الباب أو أغلق ينبغي شدّ الباب من قبل رئيس المهجع، أو من قبل كلّ من في المهجع إذا كان الباب صعب الإطباق ويحتاج إلى شدّ قوي. شدّ الباب! من الكلمات الأكثر شهرة في سجن تدمر.

قبل أن نكمل شهرنا الأوّل في سجن تدمر، وبعد إجراء التفقّد، خرجت الدوريّة من المهجع مع الأمر المألوف: شدّ الباب! كان إغلاق باب مهجعنا (وكان اسم هذا المهجع غريبًا بعض الشيء وهو: جديد صدر، جديد لأنّ إنشاءه تمّ في عهد قريب قياسًا على المهاجع الأخرى، وصدر لأنّه يقع في صدر الباحة، ومهما يكن الاسم غريبًا فإنّه يبقى أرحم من الأرقام التي لاحقتنا لعنتها فيما بعد) صعبًا وكان يستدعي الأمر أكثر من شخص لشدّ الباب. في ذلك اليوم كان عمر الحبل الأحمر المجدول المربوط في باب جديد صدر قد انتهى من دون أن ندري، فما إن أمسك به رئيس المهجع وشدّه تنفيذًا للأمر المألوف حتى لفظ الحبل النفس الأخير وانقطع تاركًا الباب على حاله ومستسلمًا في يد رئيس المهجع. وقف رئيس المهجع مذهولاً وهو يمسك الحبل. اشتدّ صراخ العنصر من الخارج:

ـ قلتلك شدّ الباب يا منيوك!

ولكن كيف تشدّ بابًا حديديًّا أملس بدون قبضة، وقد صار الآن بدون حبل؟

ـ انقطع الحبل حضرة الرقيب أوّل، قال رئيس المهجع بارتباك.

ـ اطلع لبرّا لعلّمك كيف بيشدّو الباب! قالها العنصر وهو يدفع الباب إلى الداخل.

خرج عزيز وبيده الحبل ومدّه باتّجاه العنصر ليثبت له أنّ الحبل مقطوع.

ـ عم تعطيني ياه يا أخو الشرموطة!؟ ونزلت لعنة من الصفع والركل من غامض علم الله على رأس عزيز. أحد العناصر أغلق الباب واستند بظهره عليه كي لا ينفتح، ومن خلال شقّ صغير بين الباب والحائط رأيت أحد العناصر وقد خلع شحّاطه وراح يضرب به على وجه عزيز. قطيع محتقن يحتاج فقط إلى من يطلق له العنان كي يدوس ما تطاله حوافره. من أين لمثل هذا الشابّ هذا الدافع القويّ لإيذاء شخص لا يعرفه. لقد كان يتلذّذ بالضرب كأنّ له ثأرًا قديمًا مع عزيز!

ـ انقلع لجوّا ولا، وشدّ الباب لشوف!

دخل عزيز وهو يكابر والحبل «المشكلة» ما يزال في يده، حاولنا أن نشدّ الباب من إطاره الداخلي النافر قليلاً، ولكن هذا غير ممكن. هم يعرفون ذلك. دفعوا الباب بقوّة من الخارج وأقفلوه وهم يمطروننا بالشتائم والتهديدات. الرسالة الواضحة أنّ عليكم أن تتدبّروا أمركم. ما من مستند تتّكئون عليه. ولكن كيف نؤمّن الحبل؟ كيف نحصل خلال شهر من العزلة على الخبرة التي راكمها سجناء تدمر عبر عقود من المعاناة؟

كان عزيز صامتًا. هذا شكل تعبيره عن الشعور بالإهانة والألم. والحقّ أنّه كان نبيلاً في هذه المواقف. يحاول أن يظهر الأمر الذي تعرّض له أقلّ ممّا هو في الواقع. الألم يزول ولكنّ الخشية الكبيرة هي ممّا لا يزول، الخشية من التشويه أو العاهة أو العطب الدائم. أن تُضرب عين أو تتكدّم رئة أو تتأذّى كلية أو يتطوّر ديسك جرّاء رضّ على أسفل الظهر.. إلخ. ولكن ماذا عن الضرر النفسي!؟ «قاتل الروح لا تدري به البشر». لا نملك شيئًا حيال هذه الوقائع إلّا أن نصمت بدورنا.

انشغل المهجع في حلّ مشكلة الحبل. في مخزون ذاكرتنا ممّن مرّ بنا من سجناء تدمر أنّهم كانوا يصنعون الخيطان والحبال من أكياس الخبز. ولكن كيف؟ كان هذا قبل أن نكتشف السرّ وننطلق في ثورة «نايلونيّة» كاملة.

شققنا ما لدينا من أكياس النايلون فحصلنا على مستطيلات من النايلون الرقيق الشفّاف، ربطناها معًا ثم جدلناها بأن أمسك شخص من كلّ طرف وقاما بفتل الخيط باتّجاهين متعاكسين. فحصلنا على حبل طويل قليل السماكة، طويناه على بعضه وجدلناه بالطريقة السابقة نفسها، ثم صنعنا شبيهين له. صار لدينا ثلاثة حبال ضعيفة جدلناها مع بعضها على شكل ضفيرة، فحصلنا على حبل ضعيف ولكنّه يفي بالغرض إذا عاملناه بحذر.

ربطنا الحبل الجديد بالباب بعد أن شيّعنا الحبل القديم. نعم شيّعناه. فحين طلب الرقيب إخراج الحبل القديم قفزت إلى ذهن عزيز فورًا اللحظة التي مدّ فيها الحبل القديم المقطوع إلى العنصر وما تلاها. فسارع إلى وضع الحبل الأحمر القديم ـ وهو بالمناسبة حبل خارجي ممّا يعرض للبيع في المحلّات، وليس من صنع السجناء ما

يدلّ على أنّ مهجع جديد صدر كان يضمّ سجناء عاديين غير سياسيين كي يتاح لهم مثل هذا الأمر ـ في جاط نظيف وخرج حاملاً الجاط (التابوت) ليقدّم الحبل (المرحوم) إلى عناصر الشرطة. استلم هؤلاء الحبل وعاد رئيس المهجع بسلام، وهذا أهمّ ما في الأمر.

لا حدود لما يمكن أن يخسره المرء، كما لا حدود لما يمكن أن يكسبه. الموت وحده هو ما يضع حدًّا لكلّ شيء. وعلى سكّة الحدود المفتوحة كانت تسير خشيتي من دون إرادة منّي. ماذا لو أكمل العقل الذي صمّم مثل هذا السجن مشواره اللاّإنساني، وقرّر ردّنا إلى البهيميّة في شكلنا كما في أسلوب التعامل معنا!؟ إنّني ولشدّة صدمتي بما صرنا إليه في سجن تدمر ولا سيّما في المرحلة الأولى، لم أستطع أن أحمي نفسي من الخشية المتولّدة في داخلي من أن يخطر في بال مصمّمي العذابات ومبتكري سبل مكافحة البشر أن يحرموا الإنسان من شعوره بآدميّته الفيزيائيّة حتى، بأن يخصّصوا لكلّ شخص وتدًا ويربطوه إليه بجنزير لا يسمح طوله للشخص بأن ينتصب كما تسمح به مقاييس آدميّته الفيزيائيّة. عندها سيجد «الإنسان» نفسه ملزمًا على أن يجلس أو «يقعي» كي يبقى جنزيره مرتاحًا. وعندها سيعسر فكّ جنزير كلّ سجين كي يقضي حاجاته الحيوانيّة، فيسمح له أن يلبّي نداء طبيعته في مكانه. وعندها قد تتحرّك «إنسانيّة» هؤلاء المربوطين فيطالبون بإطالة الجنزير أكثر، وبتحسين نوعيّة حلقة الربط كي لا تحزّ الرقبة، وبالسماح لهم بكنس مخلّفاتهم مرّة في اليوم. لا شطط في هذا الخيال، بل لعلّه خيال معتدل أمام الخيال «الجامح» نحو التصفية والتخلّص من الشخص فيزيائيًّا وليس مجرّد حرمانه من شعوره بآدميّته. على أنّ ثمّة ما يبرّر السؤال: أيّهما أكثر تطرّفًا التصفية أم الردّ إلى البهيميّة؟

إذن نحن نعيش في نعيم! ولدينا الكثير ممّا يمكن أن نخسره،

ودائمًا لا حدود لما يمكن أن تخسره. أنت تخشى من هول ما إنت فيه وتخشى على هذا الهول من هول أفظع. لا مانع، ولا ضمان! فالقوّة التي يمكن أن تفرض مثل هذه الإجراءات المريضة والمشينة موجودة، في حين أنّ القوّة التي تمنع أو تحدّ مكبوتة ومغلوبة وغائبة.

في سجن تدمر صرت أشعر بالسجن كعاهة. مثل هذا الشعور كان يعرض نفسه من بعيد في سجن عدرا، ولكنّه لم يكن قويًا ومبلورًا كما كان في سجن تدمر. هل يفسّر ذلك طول فترة السجن أم قسوة ظروف السجن، لا أدري! غير أني بتّ أشعر أنّني معاق بسجني، وأنّني أحسد، من موقع نقص، كلّ من هو خارج السجن. أقصد أنّ شعورًا بالنقص عندي يتولّد إزاء كلّ من هو غير سجين. أحسد الأحرار ليس كما يحسد المقيّد الطليق، فلم يكن شعوري بأنّ استعادتي لحرّيّتي أو الأصحّ الإفراج عنّي (لأنّ استعادة الحرّيّة يغدو محطّ شكّ بعد سجن المسافات الطويلة) يمكن أن يحلّ مشكلة الشعور بالنقص هذا. بات السجن أشبه بعاهة دائمة. السجن المزمن يوهن النفس ويعتصر منها نوازع غير حميدة. يحتاج المرء إلى مخزون هائل من الصبر والكبرياء كي يحمي نفسه من الفساد، ويحتاج إلى تغذيتها الدائمة بالإنجاز كي يحافظ على نضارتها.

اكتشاف السرّ

من الخبرات التي ولّدها ورسّخها سجن تدمر عبر السنين أن يأخذ السجناء المنقولين من مهجع ما في حسبانهم إمكانيّة نقل سجناء آخرين إلى هذا المهجع، فيتركون فيه بعض المستلزمات الأساسيّة لمن يأتي بعدهم لتعينهم، وسيجدون هم بدورهم هذه المستلزمات الأساسيّة متروكة في المهجع الذي يذهبون إليه. أسلوب تضامن فعّال. ويكون

هذا الأسلوب فعّالاً أكثر ومقدّرًا أكثر حين يكون الوافدون إلى المهجع من السجناء الجدد على سجن تدمر، كما كان حالنا.

من هذه الأشياء. حبل الغسيل، الشباك المعلّقة على الجدران لوضع الأغراض، خيطان ناعمة لخياطة الملابس، قطعة نربيج للتواليت.. إلخ. لو لم نسمع من سجناء تدمر أنّهم كانوا يصنعون الحبال من أكياس الخبز لما خطر لنا أنّ هذه الشباك وهذه الحبال مصنوعة من أكياس الخبز. الآن لدينا المنتج النهائي، الحبل، ولدينا المادّة الأوّليّة، أكياس الخبز، ولكن ما هي التحوّلات التي تنقل المادّة الأوّليّة إلى منتج نهائي؟ كيف تصنع الخيطان والحبال من أكياس الخبز؟ سؤال أساسي لا بدّ أن يجيب عليه كلّ السجناء الذين لهم مياه يشربونها في سجن تدمر.

تلملم الذاكرة من مخزونها ما يعين في حلّ مشكلة معيّنة تواجه الإنسان. معلومات متناثرة يمكن أن يتمّ جمعها معًا أو مقاطعتها فيما بينها أو تطويرها واستخدامها بشكل يفيد في حلّ المشكلة. ذكر أحدنا أنّه سمع أحد سجناء تدمر يقول إنّهم كانوا يقصّون أكياس الخبز بالإبرة على شكل شرائط. فعلنا ذلك وجدلنا الشرائط ولم نحصل على حبل شبيه بالحبل المعلّق لنشر الغسيل أو بخيطان الشباك أو بالحبال التي تحمل الشرّاقة. كلّ ما كنّا نصنعه من خيوط كانت قابلة للمطّ وغير متينة. ولكنّ الشرائط هي خطوة في اتّجاه الحلّ. نجرّب ثم نملّ. وربّما كان حسين، وهو المتشائم الذي لا يشقّ له غبار، أكثرنا مثابرة على هذا الأمر. وبالفعل، في أحد الأيّام أعطاني خيطًا، وقد كان فراشي مجاورًا لفراشه، خيط متين ولا يمطّ. ظننته من الخيطان التي خلّفها السجناء السابقون. ولكنّه قال إنّه هو الذي صنعه وكرّر أمامي الخطوات. كان السرّ يكمن في مطّ شرائط النايلون برفق إلى أن يتوقّف

النايلون عن المطّ تمامًا، بعدئذ يتمّ لفّه من كلّ طرف بجهتين متعاكستين ثم يثنى على بعضه ويُلفّ، فتحصل على خيط نايلون متين. يمكنك التحكّم بسماكة الخيط من خلال دقّة أو عرض شريط النايلون، ومن خلال تكرار أو عدم تكرار ثني الخيط على نفسه.

خلال فترة وجيزة تعمّمت الخبرة وزاد الطلب على أكياس الخبز، وصرنا ننتج من الخيطان ما يفيض عن حاجتنا. وإذا كنّا قد اكتشفنا سرّ صناعة الخيطان، وحَلَلْنا بالتالي مشكلة حبال الغسيل أو حبال شدّ الأبواب أو خيوط الخياطة، فإنّنا وقفنا حائرين وعاجزين أمام آليّة صنع الشباك. كيف يعقدون الخيطان على بعضها بهذه البساطة ومع ذلك بهذا الثبات؟ كيف ينجزون عقدة بين طرف خيط ونقطة محدّدة من جسم خيط آخر؟ حاولنا كثيرًا وجرّبنا كثيرًا ولكنّ العقدة التي نصنعها كانت تنزلق ولا تثبت أو كانت معقّدة ويصعب تكرارها. لكن اكتشاف سرّ عقدة الشبك لم تكن ملحّة مثل اكتشاف سرّ صناعة الخيط. كانت أمرًا أقلّ أهمّيّة. وقد مضى أكثر من سنة ولم نكتشف سرّ العقدة حتى إنّنا مللنا البحث عن هذا السرّ. وذات يوم وقعتُ على السرّ بينما كنت أنتظر مع سخرة رشّ الماء أن يفتح باب المهجع لكي نرشّ الباحة بالماء. كنت واقفًا أتأمّل عقدة مرخيّة في كيس من الشبك كان متروكًا في المهجع، وكنّا نضع فيه الصابون العسكري الذي يوزّعونه بشكل دوري علينا. كانت العقدة مرخيّة كما لو أنّها تعرض سرّها عليّ، لم أجد صعوبة أبدًا في تخيّل حركتها. شيء يجمع بين المعرفة الغنوصيّة والمعرفة التجريبيّة. فرحت، وسيطر فرحي على قلقي من الخروج لرشّ الماء في الباحة قبل التنفّس وما يعني من احتمالات التبلّي والضرب. وبعد أن انتهينا من التنفّس شرحت الاكتشاف للمهتمّين. كانت عقدة سهلة جدًّا، ولكنّها محكمة بفضل لفّة ذكيّة للخيط لا تخطر بسهولة على

البال. ولكن ما إن تعرفها حتى تستغرب كيف فاتتك معرفتها. وفي غضون أيّام بدأ إنتاج الشباك وبعدها بقليل بدأ أيضًا التطوير والتفنّن.

بعد سنة صرنا نمتلك الكثير من مفاتيح التعامل داخل سجن تدمر. يخفّف ذلك عنك بعض العناء. معرفة ما ينتظر منك الرقيب والتصرّف وفق ذلك يفرّغ شحنة العداء لديه. اللغة التي اعتاد أن يسمعها في المهاجع الأخرى المخضرمة هي المقياس الذي يقيس عليه لغتك. حين يضربك ينتظر منك أن تستغيث «دخيلك يا سيدي!» ويستشرس حين لا يسمعها. يعتبر أنّك تتحدّاه. حين يطلب منك شيئًا ينتظر أن يسمع «بأمرك حضرة الرقيب أوّل» وحين لا يسمعها يضمر لك الأذى. في البداية كنّا نقول تعبيرًا عن الاستجابة لطلب ما: «ماشي!»، كانت هذه الكلمة «المدنيّة» تثيرهم، يجب أن تعبّر اللغة في سجن تدمر دائمًا عن موقعك الدوني وعن انسحاقك في السجن، يجب أن يقطّر منها التسييد والإجلال والانصياع وتحقير الذات بالقدر الممكن. كان إلى جوارنا مهجع من الإسلاميين المخضرمين، لا شكّ أنّ القبضة كانت أثقل عليهم، وإن كنّا في فترة من وجودنا في سجن تدمر، قد عوملنا بالقسوة نفسها وربّما أشدّ قليلاً، والشدّة هنا تأتي من قلّة عددنا، العدد الكبير أكثر قدرة على التحمّل. كان رئيس مهجع الإسلاميين يكرّر بصوت عال وبحماس، مفتعل بلا شكّ، الأوامر التي تصدر عن الرقيب خلال التنفّس. إذا قال الرقيب «منبطحًا!»، يصيح رئيس المهجع بأعلى صوته «منبطحًا الكلّ!». لو وضعت نفسك في موقع الرقيب وهو يعطي أوامره كأنّه يقود جيشًا لوجدت أنّ سلوك رئيس المهجع مريح، فها هي أوامرك يتردّد صداها في جنبات الباحة وبصوت آخر خادم لصوتك، ولارتفع ربّما لديك شعورك بأنّك «زعيم وقائد» وطغى على شعورك بأنّك جلّاد، ومن شأن هذا أن يريح

السجناء. على أنّه قيل لنا إنّ رئيس المهجع يكرّر أمر الرقيب وبصوت عال ليس مرضاة للرقيب ودغدغة لعقده، بل لأنّ هناك بين أفراد المهجع أشخاصًا ضعيفي السمع، فيعمد رئيس المهجع لتكرار الأمر بصوت عال كي يسمع هؤلاء، فلا يعرّضون أنفسهم للعقوبة.

رشّ الماء

في عزّ الشتاء كان قرار نقلنا إلى مقبرة الأحياء، سجن تدمر. بعد شهر تمامًا من وصولنا تناهت إلى أسماعنا الأصوات نفسها التي اعتقدنا، صبيحة وصولنا إلى تدمر، أنّها دقّ خشب واكتشفنا بلحمنا ودمنا وأعصابنا وبطون أقدامنا أنّها دقّ كرابيج، أنّها حفلة تعذيب. ومن المصادفات أنّ هذه الأصوات تناهت إلى سمعنا بعد مرور شهر كامل على «تشريفتنا»، وفي التوقيت الصباحي ذاته. كانوا قد وزّعوا علينا طعام الفطور وكان خبزًا وزيتونًا أسود، أذكر ذلك تمامًا. وتمامًا كما تجمد الطيور في أرضها حين تشعر بوجود باشق في السماء، جمدنا. جفّ ريقنا. لم يعد بمقدور أيّ منّا أن يمضغ اللقمة التي في فمه. إذن هناك حفلة شهريّة يكرّرون فيها حفلة التشريفة ويذكّروننا بأنّنا تجاوزنا كلّ الخطوط الحمر، فهم لم يأتوا بنا إلى هنا كي يرفّهوننا أو كي «يرطّلو لنا بيضاتنا» كما قال مدير السجن. لا قيمة للتحليلات. دائمًا كانت تحليلاتنا مجرّد تشتيت للفكرة المؤلمة العميقة للتخفيف من ألمها. نحلّل ونحن نفتقد للمعطيات. نريد أن نحلّ معادلة بعدّة مجاهيل، أن نعرف المجهول بالمجهول. ولكن ليس لنا إلّا أن نحلّل. وكما في فترة التحقيق، فإنّ المنطقة التي تتحسّس الخطر باتت هي باطن القدم.

اقترب الصوت، زاد منسوب خوفنا. مشكلة فعليّة إذا كان قد تقرّر

لنا حفلة شهريّة على شاكلة التشريفة. الخوف ينمو في دمنا كالفطر. نخشى النظر في عيون بعضنا بعضًا. الخوف يطلّ من العيون، لا يحبّ أحدنا أن يرى الخوف في عينيّ أخيه ولا أن يظهر خوفه له. الشعور الوحيد الذي لا يمكن أن تعتاده هو الخوف. ما الذي يخبّئه لنا هذا اليوم؟ هذا هو السؤال اليومي. «الله يرزقنا خير هاليوم»، «الله يجيرنا اليوم»، «أنا شايف منام مو منيح اليوم»، «من زمان ما عملوا تفتيش!».. إلخ. كلّ صباح بعد أن نستيقظ وتبدأ حركة النهار في السجن يبدأ الشعور بالخوف ممّا يخبّئه لنا النهار. نلبس أحذيتنا ونستعدّ كلّ على فراشه مترقّبين المجهول، مترقّبين ما لا سيطرة لنا عليه، قشّة في مهبّ الريح، خشبة تتقاذفها أنواء البحر. في الحكم الذي صدر بحقّنا عن محكمة أمن الدولة العليا في دمشق قالوا: «كذا سنة مع الأشغال الشاقّة الموقّتة»، هل هذا السجن هو معادل للأشغال الشاقّة الموقّتة؟ ولكنّه في الواقع أشقّ من أيّة أشغال شاقّة. في الأشغال الشاقّة كما نشاهدها في الأفلام عليك عدد من ساعات العمل في النهار تؤدّيها وترتاح، أمّا هنا فلا وقت يمكن أن تعتبره لنفسك، لا وقت يمكن أن تشعر فيه أنّك مطمئن.

اختفى صوت «دقّ الخشب» منذ فترة ولم يقترب أحد من مهجعنا. يبدو أنّنا غير مقصودين بما يجري. استرخت نفوسنا قليلاً. اقترب موعد الغداء، تضاءل احتمال الأذى. كان نهارًا عصيبًا من دون أن نخرج من المهجع ومن دون أن يتعرّض أحد منّا للضرب. ترقّب ما يمكن أن يجري والخوف ممّا يمكن أن يحدث هو تعذيب بحدّ ذاته حتى لو لم يحدث شيء. غياب تامّ للطمأنينة.

في اليوم التالي، نقر الرقيب بالمفتاح على الباب وقال: رئيس مهجع جهّز أربع بيدونات ميّ! كان أوّل عهدنا بتجهيز بيدونات الميّ.

ملأنا أربعة بيدونات ماء. ثم عاد الرقيب وفتح الباب قائلاً: أربعة يطالعو البيدونات. تبرّع أربعة منّا ـ كنت منهم ـ حمل كلّ واحد بيدونًا وخرجنا إلى الباحة. ثم حسب الأوامر:

ـ توزّعوا بالباحة ووشّك على الحيط!

ـ ارفع البيدون!

ـ وراء در!

ـ رششش!

يد تمسك قبضة البيدون والأخرى ترفع البيدون من الأسفل كي يكبّ الماء ونحن نسير في الباحة. ولكن:

ـ ما هيك يا حيوان! إيدك على تمّ البيدون يا عرصة!

ـ البيدون لازم يكفيك لآخر الباحة يا حمار!

كيف يمكن أن تكون يدك على فم البيدون، وبأيّة يد ستحمل البيدون إذن!؟ يحتاج المرء إلى أن تكون له يد ثالثة. فرغت البيدونات بوقت قصير لم ترشّ كلّ الباحة بالماء. يبدو أنّهم راعوا حداثة عهدنا بالرشّ، فجاء الأمر:

ـ ارفع البيدون لفوق وخلّي تمو لتحت! (قد يكون الهدف من هذه الحركة التأكيد على انتهاء ماء البيدون)، ناقص أن يقولوا: نكّب بيدونك!

ثم:

ـ دخّل البيدونات، واطلع تنفّس الكلّ!

ولكن ما مغزى هذه الفكرة، ما معنى رشّ الماء. شتاء وبرد ما الداعي للماء. لم نتوصّل إلى تفسير. لا داعي للتفسير. ولكنّا تدرّبنا

على حمل البيدون ورش الماء مع وضع اليد على فوهة البيدون. بالفعل لا يحتاج المرء إلى ثلاث أيدي، لأنّ اليد التي يفترض أن تمسك قبضة البيدون لا لزوم لها. ترفع البيدون بيدك اليسرى من قبضته إلى مستوى عال نسبيًا ثم تحمل البيدون بيدك اليمنى من زاويته السفلى الأماميّة، ثم وبحركة واحدة تنقل يدك عن قبضة البيدون إلى فوهته وتميل البيدون إلى الأمام فيتدفّق الماء، وهكذا تمسك البيدون بيدين فقط، واحدة على فم البيدون، والأخرى تحمل البيدون من زاويته السفلى الأماميّة. وبذلك يمكنك التحكّم بالرشّ من حيث دفق الماء، ويمكنك توزيع الماء بتمريره عبر أصابعك وتحريك البيدون يمينًا ويسارًا.

في المهجع المخضرم المجاور لنا كنت تسمع صوت انسكاب الماء مختلطًا مع صوت خبط الأرجل على أرض الباحة أثناء جري حملة البيدونات وهم يرشّون الماء يمينًا وشمالاً، ما إن تسمع الأمر:

ـ رششش!

صوت يعطي لهذا الأمر قيمة وهيبة، ولا يفاجئك بعد ذلك أن تكون نبرة الرقيب، وهو يعطي هذا الأمر، حازمة وقويّة كأنّه وسط معركة حامية يصيح: نار!

كلّ تنفّس يسبقه رشّ ماء. صيفًا شتاءً. حتى إنّنا جعلنا مهمّة رشّ الماء دوّارة مثل السخرة. ربّما بدأت هذه الفكرة ذات صيف لمعالجة الغبار المتطاير بسبب حركة أرجل السجناء أثناء سيرهم في التنفّس، ثم استقلّت عن السبب واكتسبت صفة الديمومة، ربّما! يصعب التأكيد على شيء. لتقاليد السجن قوّتها. حتى الرقيب لا يجرؤ على تغيير ما وجد عليه أسلافه. وربّما لا يجرؤ على الاستفسار.

التنفّس مطلب في كلّ السجون، يخرج فيه السجين من ضغط جدران المهجع، يمدّ بصره، يمارس الرياضة، يتنفّس هواء حرًّا.. إلخ، أمّا في سجن تدمر فالتنفّس عقوبة. أيّ احتكاك مع عناصر الشرطة هو باب للعقوبات المباشرة أو المؤجّلة (العقوبة المؤجّلة هي ما يدعى التعليم، وهذا المَعْلَم البارز في سجن تدمر لا بدّ من تناوله في باب خاصّ). تمشي في التنفّس وأنت مطأطئ الرأس لا ترى كثيرًا أبعد من قدميك. كبيرة الكبائر أن ترفع رأسك وترى كما تسمح لك قامتك. تقضي سنوات في المهجع ولا يمكنك أن تعرف شكله من الخارج. لا يمكنك أن تفتح فمك بكلمة إلى زميل لك. تمشي في التنفّس وأنت تحت أنظار الحرس الذين على السطح، الذين يقضون ساعتي الحراسة يتسلّون بك إلى أن تأتي دفعة الحراسة الجديدة وتبدأ معك «تسلية» جديدة. حقًّا كان هناك من الحرس من لا نشعر بوجوده، ولا تصدر عنهم أيّة كلمة. ومع ذلك فإنّ وجود الحرس على السطح طاغ. شعور بأنّك مراقب. ومنهم من يحيل التنفّس إلى درس رياضة ثقيل، والرياضة بالنسبة للشرطة العسكريّة لا تتجاوز التمرينين السويديين السادس (الضغط) والتاسع (الرقصة الروسيّة). ومن لا يخدمه جسمه لتحمّل تكرار هذه التمارين يعرّض نفسه للعقوبة المباشرة أو ربّما المؤجّلة (التعليم). ومن الحرّاس من يتفنّن. أحدهم يطلب مثلاً أن نقرفص جميعًا في نسق ثم على كلّ واحد أن يلتقط الحصى التي في مضماره ويجمعها، ويمكن تخيّل جمال هذه «التسلية» حين تكون الباحة مفروشة بالحصى، وحين يكون أمر الحارس: ما بدّي شوف بحصة واحدة بالباحة! حارس آخر يطلب الوقوف على شكل نسق والوجه إلى الحائط، ثم يجعلنا نجلس من دون أن نتحرّك أو نهمس حتى تنتهي فترة حراسته مردّدًا: «اللي بيفتح تمّو بنيك أمّو». مهما تكن

وضعيّة الجلوس مريحة، فإنّ الاستمرار عليها لفترة طويلة أمر شاقّ ولا سيّما لمن يعاني من آلام في المفاصل والظهر. وآخر تخطر له أفكار غريبة، فيطلب من الجميع أن يغمضوا عيونهم وينطلقوا بأقصى سرعة من طرف الباحة إلى طرفها وفي الاتّجاهين. الفكرة شرّيرة، ولكنّ التحايل عليها سهل. الحارس على السطح ونحن مطأطأو الرؤوس، فهو لا يدري هل أنت مغمض العينين أم لا. الجميع أدرك ذلك وانطلقنا بسرعة بالاتّجاهين من دون أن يصطدم أحد بالآخر كما كان يريد، كنّا نتفادى الاصطدام لأنّنا لم نغمض عيوننا. ولكنّ الغريب أنّ صفوان، أكثرنا مكرًا، كان، لدهشة الجميع، مخلصًا لأمر الحارس وانطلق مغمض العينين بأقصى سرعة حتى اصطدم بحائط الباحة وفجّ رأسه. قسوة ظروف سجن تدمر تبدّل في الشخصيّة، هناك من يمكن أن تُشلّ ميزاته الذهنيّة بفعل الخوف والقلق. وبالمقابل هناك من جاء إلى سجن تدمر وقد عانى من قبل طويلاً من مرض في المعدة، ثم لم يشكُ منها أبدًا في سجن تدمر.

ومن عناصر الحرس من تطيب له العقوبات المعنويّة، كأن يطلب منّا أن نقلّد الحيوانات بأصواتها أو بمشيتها من دون أن ينسى حين يجعلنا نسير كالكلاب مثلاً أن يطلب منّا أن نهزّ ذيولنا. مكرّرًا: هزّ دنبك ولا! وحين حاول أحدنا أن يجد حلًّا لمعضلة غياب الذيل بأن هزّ مؤخّرته، غضب الحارس ورماه بعقوبة مؤجّلة، قائلاً: هيك بيهزّوا دنبن، علّم حالك يا منيك! ومنهم من فعلت فيه التربية «العقائديّة» فعلها، فتراه أكثر جدّيّة ويركّز على الطلب منّا أن نعلن بصوت عال أنّنا خونة. فهو يسأل: شو أنتو ولا؟ وعلينا أن نجيب: خونة! جمع خائن على خونة تشبع النفس أكثر من جمعها على «خائنون»، كلمة خونة لها وقع فخم يرضي نفوس المنتصرين على «الخونة». وكان هذا العنصر

يتلذّذ بقوله: أنتو خونة للقائد وللوطن ولكلّ شي!

في أحد التنفّسات استلمنا «أبو رائد» من على السطح، وهو عنصر له بصمة تدمريّة صريحة. عرفنا كلّ شيء عن هويّة هذا العنصر من خلال حديثه بصوت عال مع زملائه من الحرّاس، يدعوهم إلى ضيعته ويدّلهم على بيته ويقول لهم عمّن يسألون كي يستدلّوا. كان يلقّب نفسه «أبو رائد» ونحن اعتمدنا له هذه التسمية. كنّا نعرف أنّه في مناوبة الحراسة من شحطة رجله بالبوط العسكري وهو يمشي على السطح. شحطة رجله توحي بأنّه بدين ومتراخ. وإذا ضنّ علينا بمشيته على السطح فإنّه يدلّنا على ذاته من خلال أغانيه ومواويله التي لا تتوقّف، إلّا إذا تحادث مع الحارس المجاور له على السطح الثاني أو إذا غضب الله علينا وحبّب له في تلك المناوبة أن يناوشنا قليلاً من الشرّاقة. كان يخرج الكلام من فمه على شكل انفجارات متتالية. أبو رائد لا يعرف السكوت إلّا إذا غلبه النوم. كنّا نعرف من الليل السابق من هو العنصر الذي سيكون على السطح وقت التنفّس، إذا خرجنا للتنفّس. عمليّة حساب بسيطة، فهم يبدّلون الحرس على الستّ ساعات وأحيانًا على الثمانية بحسب توافر العناصر. في بعض الحالات كانوا يبدّلون على الأربعة.

كان أبو رائد أحيانًا يفضّل الغناء على أيّ شيء آخر، فيتركنا نمشي في الباحة، ويختار له زاوية على السطح ويقضي مناوبته بالغناء:

الشبّ مدلّل، والشبّ مدلّل

عشق الأرامل من الله محلّل

اللي عندو بنيّة يكبسها مخلّل

يقدّمها مازا لليشربونا

وحين يملّ من الغناء أو تنضب ذخيرته، كان يردّد اللوازم التي تعلّمها أثناء التدريبات:

حطّوا الوردة بالكاسة

أبو باسل ألماسي

ديروا المي ع الطاحون

حزب البعث ما بيخون

في ذلك التنفّس، لم يكن أبو رائد في مزاجه الغنائي. كان أكثر ميلاً للحركة. كانت باحة التنفّس ضيّقة وكنّا ١٨ شخصًا فيها. جاء الصوت من فوق:

ـ ولا عرصات، تمرين سادس خود وضع! أح لفوق اتنين لتحت مفهوم يا منايك؟ أح... اتنين... أح... اتنين...

يبدو أنّ عقدته في الحياة هي التمرين السادس. تكرار طويل يوتّر الأعصاب فضلاً عن كونه متعبًا للغاية. ضعنا! أيّ الإيعازين لفوق وأيّهما لتحت، وضاع أبو رائد أيضًا. صارت الأح لتحت والاتنين لفوق.

ـ أح.. أنا قلت أح يا خنزير يا أبو البيجاما الصفرا. أح يعني لتحت يا حمار! علّم حالك!

كان أبو البيجاما الصفرا ما يزال يحفظ التعليمات ويلتزم بها على خلاف المجموع.

ـ حضرة الرقيب أوّل أنت قلت أح لفوق.

أدرك أبو رائد غلطه، ولكنّ التراجع صعب.

ـ أنا قلت هيك وغيّرت رأيي يا كلب يا ابن الكلب!

استمرّ التنفّس. منبطحًا واقفًا، عشرات المرّات، ببطء مرّات وبسرعة مرّات وهو ينتظر أن يشذّ أحد ما، كلّ منّا يسرع في التنفيذ كي لا يقع فريسة بين فكّيه. فجأة «غيّر رأيه» وصاح: مستلقيًا. تلك كانت بدعة تليق به! أن ترمي نفسك إلى الخلف من دون أن ترى ما خلفك مشكلة، وأن تنظر كي تتبيّن ما خلفك مشكلة، وأن تتردّد في التنفيذ مشكلة. ثم حين تستلقي سيكون وجهك إلى فوق أي في مواجهته، ولذلك يجب أن تكون العينان مغمضتين تمامًا تفاديًا للشرّ. حسمت أمري ورميت نفسي للخلف فكان أن اصطدم رأسي من الخلف برأس آخر، كان رأس آرام «رئيس المهجع». دخت وشعرت أنّني فقدت الرؤية للحظات. تناهى إلى سمعي صراخ أبو رائد ولكنّي لم أفهم شيئًا. وحين بدأت أستوعب عرفت أنّه إضافة إلى كيل الشتائم على من لا يحسنون الاستلقاء، قد قرّر معاقبتنا بأن ندور حول الباحة عشر مرّات «كواع وركب». تبقى مع ذلك أهون من التعليم! بعد قليل من تنفيذ عقوبة الكواع والركب، قرّر أبو رائد أن يصفح عن رئيس المهجع وبقيت وحدي أدور «كواع وركب» حول الباحة. أدور وأنا دائخ وأشعر كأنّ قلبي ينبض في رأسي. بدأت «كواعي وركبي» تحرق ثم بدأت تؤلم، ثم بدأ يشتدّ الألم في نقاط الارتكاز الأربع فلا تعرف على أيّها تميل! ويبدو أنّ أبو رائد رقّ لحالي قبل أن أكمل الدورات العشر، فقال: واقفًا! بنبرة فيها عنفوان العفو عند المقدرة. غير أنّي لم أسمع، وتابعت على أكواعي وركبي. كرّر طلبه فلم أسمع. كان النبض يضرب في رأسي كالطبل فلا أستطيع سماع حتى العفو عنّي. كلّ أهل المهجع يمشون على اثنين وأنا أمشي على أربع. وليته يسمح أبو رائد أن تطأ طرفاي الأماميّتان الأرض براحتيهما لا بكوعيهما، فمهما يكن الراحة تتحمّل أكثر من الكوع. ولكنّ الأمر أمر. اقترب مازن في مشيته منّي

ونبهني بهمس قوي: عم يقول واقفًا، واقفًا! سمعت فوقفت. ولكن أبو رائد لم تفته حركة التعاطف من مازن فعلّمه. أنا الآن واقف والجميع حولي يمشون. صاح أبو رائد: منبطحًا! وهو يقصدني، إلّا أنّ حكمت همَّ بالانبطاح ظانًّا أنّ الأمر موجّه للجميع. وهذا ما أغاظ أبو رائد وجعله يعلّم حكمت الذي وقع ضحيّة أنّ الـ «منبطحًا» أمر يوجّه للفرد ويوجّه للجماعة من دون تغيير. منبطحًا واقفًا عدّة مرّات، ثم لم يرتوِ غليله منّي، فعلّمني فوق كلّ هذا.

في البداية، كنت أظنّ أنّ عناصر الشرطة العسكريّة في سجن تدمر هم من المتطوّعين الذين يجري اختيارهم لأداء هذه الخدمة. لكن تبيّن أنّ هؤلاء العناصر هم مجنّدون سيعودون إلى حياتهم المدنيّة بعد انتهاء الخدمة. لا شكّ أنّ العناصر الذين يتمّ فرزهم إلى سجن تدمر يتمّ اختيارهم بعناية بحسب بيئتهم وانتماءاتهم العضويّة. تستغرب. كيف يتقبّل هؤلاء «المدنيّون» كلّ هذا العنف الممارس ضدّ أبناء بلدهم، وربّما أبناء مدنهم وحتى أحيائهم وقراهم؟ كيف يمكنهم تحمّل المشاركة في هذا التعذيب العبثي؟ كما حدث ذات يوم حين كان قائد الدوريّة التي توزّع الفطور رقيبًا قصيرًا بارد الوجه (كنّا حينها مرفّهين وقد وضعونا في الباحة الخامسة وهي باحة الجواسيس، الباحة التي يمكنك فيها النظر إلى وجه العناصر، استمرّت رفاهيّتنا هذه ٣ أشهر) كان اسمه منهل، ولكي نميّزه عن رقيب آخر بالاسم نفسه كنّا نلقّبه «الجاروشة» لأنّ صوته كان خشنًا. وزّعت الدوريّة الفطور وعادت. توقّف هذا الرقيب أمام إحدى الزنازين (زنازين سجن تدمر توجد في الباحة الخامسة، منها ما هو تحت الأرض ومنها ما هو فوق الأرض، هذه الزنزانة كانت فوق الأرض) وطلب من عناصره إخراج السجين الذي بداخلها. هذا السجين كان قد

استلم فطوره للتوّ. دائمًا حين يدخلون إلى الباحة الخامسة لتوزيع الطعام على أهل الزنازين كانوا يصيحون من الباب الرئيسي للباحة: باحة! وشّك على الحيط! وذلك كي لا يرى أهلُ المهاجع أهلَ الزنازين هؤلاء. أيّ أنّ الباحة الخامسة من سجن تدمر تضمّ، في الواقع، الدرك الأعلى والدرك الأسفل من النار. يمكن تخيّل هذا السجين العاثر الحظّ وقد استلم فطوره منذ قليل وهو يتناول ما قسمته له «الأقدار»، غافلاً تمامًا عمّا تخبّئه له الأقدار ذاتها بعد قليل. لا شكّ أنّه فوجئ بإعادة فتح الباب عليه بعد توزيع الطعام. ربّما راوده للحظة شعور بأمل ما قبل أن تسحقه آلهة الشرّ بقبضتها الثقيلة. راقبنا من خلال ثقب في الباب ما يجري، راقبنا بالتناوب هذا المشهد. كان مهجعنا في صدر الباحة وكان بابه يطلّ على كامل ممرّ الباحة العريض والذي يسير بين صفّين من الزنازين. خرج السجين من زنزانته محنيًا بزاوية قائمة. تدلّ هيئته على أنّه في العشرينيّات من عمره. يتقن تمامًا أصول الحنية والمشية التدمريّة. وقف على مسافة قليلة من التجمّع وخبط رجله بالأرض محيّيًا. سجين خبير! الرقيب مقتصد بالحركات وبالكلام وتعابير الوجه. يوفّر كلّ هذا ليزيد في رصيده من القسوة المرضيّة. سلحفاة عارية من قوقعتها بين ثلّة من القطط الشرسة. ينبطح السجين ويثني رجليه من الركبة إلى الأعلى. وضعيّة طفل يرسم أو يحلّ وظيفته أو يتسلّى... يباشر أضخم عنصر في المجموعة مهمّة الجلد. في هذه الوضعيّة تصبح نقطة تعامد الساق مع الأرض هي نقطة تفريغ الضربات المتلاحقة، فتخضع إلى قوّة ضغط كالقوّة التي يتعرّض لها الوتد حين دقّه في الأرض، فتسمع صوت ارتجاج في الباحة، وبالتالي تصبح نقطة مؤلمة ويستمرّ ألمها فترة أطول من ألم باطن القدم. استمرّ هذا العنصر (الذي كنّا نسمّيه

«الشَبِّيْح»، فقد كان يخاطب زملاءه بالشبّيحة) بالجلد إلى أن تعب، فتوقّف يمسح العرق عن جبينه، ما دفع عنصر آخر إلى استلام المهمّة عنه، وحين استعاد «الشبّيح» قوّته تابع الضرب بالتناوب مع العنصر الآخر. صوت ارتطام الكرباج بأخمص السجين يرجّ الباحة، ولكنّا لم نسمع صوتًا واحدًا من السجين. الأمر الذي أثار الرقيب. فاستلم الكرباج وراح يضربه بفنّ وحرفنة. يرفع الكرباج إلى أعلى مدى ممكن، ثم يفزّ قليلاً على رؤوس أصابع قدميه ويهوي به وما إن يصطدم الكرباج بباطن قدميّ السجين حتى ينتره إلى الأعلى كي يعطيه تأثيرًا لاسعًا. لم تنفع وصفة الرقيب مع ذلك. قابله عنصر آخر وراحا يضربان بالتناوب. تعبوا. ولم تصدر كلمة واحدة أو تنهيدة من السجين. فاضطرّ الرقيب أن يطلب منه: قول آخ ولا منيك. فقال السجين «آخ» مسيطر عليها تمامًا. كانت «آخ» أكثر إغاظة للرقيب من السكوت والتحمّل. أيّ قدر من الألم يستطيع أن يحتمل هذا الرجل؟ تمنّيت لو أستطيع التعرّف إليه. صرت أتمنّى أن أتأمّله من الثقب نفسه حين يخرج من زنزانته لاستلام الطعام في ثوان معدودة وهو محنيٌّ على شكل زاوية قائمة. ولم نعلم لماذا حدث ذلك، ما السرّ وراء اختيار هذا السجين وضربه، ما تهمته، ما سرّ هذه القوّة فيه...؟

كانت اللهجة الريفيّة العلويّة مسيطرة، تلك هي لهجة القمع في سجن تدمر. كيف سيتقبّل لاحقًا سجناء تدمر مجرّد سماع هذه اللهجة؟ كلّ متكلّم بهذه اللهجة سيبدو لضحايا سجن تدمر كما لو أنّه شريك في الجريمة المرتكبة بحقّه. هناك ميل لدى جميع عناصر السجن لتقليد تلك اللهجة، حتى إنّهم يقولون: اليوم الدوسير ليمون. لا يقولون برتقال بل يستخدمون مفردة ساحليّة، وهي مفردة تحمل مفارقة بالمناسبة! فمن المفارقات أنّ المنطقة الساحليّة التي تنتج الكمّ الأكبر

من الحمضيّات في سورية تطلق اسم الليمون على كلّ أصناف الحمضيّات. ولكي تفرّق بين البرتقال والليمون تسمّي الليمون بالليمون الحامض. الطبيعي أن تجد في المنطقة المنتجة للمحاصيل اللغة الدقيقة التي تعكس تنوّع المحاصيل، لكنّك هنا تجد العكس. الجميع يحاولون تقليد لهجة الريف العلوي. حتى نحن وتحت ضغط الخوف والتمسّك بحبال الهواء تفاديًا للعقوبات وسوء المعاملة كنّا نختار «علويًّا» من بيننا، وكثيرًا ما حملتُ عبء هذه المهمّة، كي يخاطب مدير السجن أو مساعد الانضباط ويشرح له وضعنا ومطالبنا، لعلّ اللهجة تكون عونًا لنا في ما نطلب. ربّما تولّد لدى صاحب الأمر تعاطفًا بيئيًّا أو مناطقيًّا أو طائفيًّا أو عائليًّا أو أيّ شيء!

التفتيش

لا يوجد سجن محكم كما هو سجن تدمر. التفتيش هنا لا يكون بحثًا عن ممنوعات، لأنّه لا سبيل إلى دخول الممنوعات. وسبيل دخول الممنوعات مغلق ليس بتقنيّات عالية وليس بدقّة التفتيش بل هو مغلق بفظاعة العقوبة التالية لاكتشاف تهريب أيّ شيء. سمعنا أنّ أحد عناصر الشرطة كان قد رمى ظرفًا من الحبوب المسكّنة «سيتامول» إلى أحد المهاجع تعاطفًا مع الحالة الصحّيّة لأحد السجناء، ثم وشى أحد أفراد المهجع بالحادثة فعوقب العنصر بأن تمّ جلده أمام المهجع نفسه حتى الموت. هكذا سمعنا، وأجواء الرعب في سجن تدمر تتيح تصديق مثل ذلك. لذلك لا يفكّر أحد بتهريب شيء. التفتيش هنا هو للبحث عن محاولات الهرب، للبحث عن مشاريع الأنفاق. يقال إنّ محاولة ما جرت في السابق. ولكنّ الاحتياطات المتّخذة ضدّ مثل هذا الاحتمال كبيرة بما يفوق الوصف. مثلاً أيّ حفر لا بدّ أن ينجم عنه

مخلّفات، والمشكلة الرئيسيّة هي كيف السبيل للتخلّص منها. الزبالة التي تخرج من المهجع تفتّش، وأيّ زبالة من تراب أو بحص يجب وضعها في كيس مستقلّ والإبلاغ عنها. إذا سقطت حجرة من الشرّاقة يجب الإبلاغ عن إخراجها. وجود حجرة أو حفنة بحص لم يبلَّغ عنها أمر يستدعي العقوبة. يمكن مثلاً التفكير برمي المخلّفات في جورة المرحاض، ولكنّ المرحاض لا يمكنه تصريف كمّيّات كبيرة من جهة، وفي حال سطم المرحاض، فإنّ المهجع يعاقب كلّه ويجري التفتيش. والأهمّ أنّ إدارة السجن تغيّر المهاجع بشكل دوري، إذ يصعب أن يستمرّ أهل مهجع في المهجع أكثر من سنة. وفوق كلّ ذلك هناك تفتيش شهري.

من أصعب اللحظات على السجين في سجن تدمر حين يصيح عنصر البلديّة: باحة جهّز تفتيش! تشعر أنّ نسغ الحياة تسرّب سريعًا وغار مع الجاذبيّة وتركك مثل ورقة صفراء. تجهيز التفتيش يعني أن يتمّ سحب كلّ الفرشات إلى منتصف المهجع بحيث تصبح كلّ زوايا الغرفة مكشوفة. دوريّة التفتيش تكون كبيرة عادة. تشعر أنّ يوم التفتيش يوم استنفاري يكون العناصر والرقباء فيه متوفّزين وسيّئي الطباع وعدوانيين. نصطفّ داخل المهجع. يفتحون الباب. نخرج واحدًا واحدًا وبأقصى سرعة كي لا نعطي ذريعة لأحد. في الخارج:

ـ جاثيًا الكلّ! إيديك فوق راسك!

في كلّ تفتيش لم يكن يفارقني الشعور بأنّنا أسرى حرب لم نخضها. عناصر الشرطة العسكريّة يملأون المكان. كلّ واحد منّا معرّض لكلّ أنواع الأذى الممكن وأسوأها الرفس بالبوط العسكري على الظهر وأنت في وضعيّة الجثو. يستمرّ التفتيش حوالى ١٥ ـ ٣٠ دقيقة تبدو لنا دهرًا. نريدهم أن يخرجوا كي ندخل إلى قوقعتنا ونشعر

بشيء من الأمن، كي نبتعد قليلاً عن متناول الأيدي والأرجل والأفواه أيضًا.

يعمل فريق التفتيش على استبقاء رئيس المهجع معهم كي يجيب على أيّ استفسار. يستفسرون عن كلّ شيء بدءًا من رائحة المهجع وصولاً إلى سبب التشقّقات في أرضيّة المهجع. يبدأ التفتيش باستخدام بوري من الحديد يمسكه أحد العناصر بشكل عمودي على الأرض، ويتركه يسقط بشكل حرّ ثم ينقله مكرّرًا الحركة ذاتها وهو يسير ببطء. يقرعون الأرض بالبوري ليتبيّنوا هل الأصوات «أصميّة» أم «طبليّة»، إذا استعرنا لغة الطبّ. صوت ارتطام البوري بالأرض يدلّ إذا كان هناك فراغ ما تحته، وبذلك يستدلّون على وجود نفق أم لا. هذا هو جوهر التفتيش التقني. ولكنّ الجوهر النفسي أهمّ وهو إحكام حصر السجين في دائرة قلق. نادرًا ما يمرّ التفتيش من دون عقوبة قاسية لأحد ما. كلمة عقوبة لا تناسب هنا لأنّه تعذيب من دون سبب. أحيانًا يتذرّعون بشيء ما تافه، مثلاً: ليش ما مغمّض عيونك ولا!؟ تعا لهون! ولكن أحيانًا يخرجون أحدًا ما بطريقة انتقائيّة غالبًا ما تعتمد على الحجم ويعذّبونه بالدولاب. حين كانوا يختارون أحدًا ويخرجونه من بيننا لم نكن نعرف من هو الضحيّة حتى نعود إلى المهجع. صوت التعبير عن الألم لا علاقة له بصوت التواصل اليومي للإنسان. صوت كأنّه يخرج من مكامن خفيّة في الإنسان. ومن كان من نصيبه العبور في هذا السجن لا بدّ أنّه لاحظ أنّ الألم الشديد يستجرّ من الإنسان صوته الطفولي الأوّل، صوت بكاء الرضيع المتواصل الذي لا يقطعه سوى الشهيق الاضطراري. التعبير عن الألم يبدأ بصراخ الترجّي والاستغاثة ثم يتطوّر إلى صراخ محض، يتطوّر بعد ذلك إلى شيء شبيه ببكاء الرضيع، التطوّر التالي بعد ذلك هو الصمت الذي يعبّر عن فقد

الوعي. وموقف الجلّاد من الصوت ينطوي على مفارقة، فالجلّاد يحبّذ أن يسمع صدى تعذيبه، يحبّذ استغاثة الضحيّة وصراخها من جهة ويزعجه من جهة أخرى تواتر الصوت واشتداده، فتراه يطالب الضحيّة، بعد أن يسمع صوتها، بقطع الصوت. وبالمقابل حين تكون الضحيّة من نوع خاصّ كالشابّ الذي سبق ذكره والذي أخرجوه من الزنزانة كي يجلدوه، نوع يمكن أن يموت تحت الضرب من دون أن يصرخ، فإنّ الجلّاد يشعر بالإهانة وحتى بالهزيمة ويطالب الضحيّة بأن تصرخ.

حين يخرجون من المهجع ويصيحون: شدّ الباب! معلنين انتهاء التفتيش تنقشع غيمة عن صدورنا، ثم نبدأ بإحصاء الخسائر. هذا تعرّض لكرباج على رأسه وهذا لرفسة وهذا أشعل العنصر القدّاحة على أذنه مقلّدًا طريقة الحلّاقين في إزالة شعر الأذن، وذاك جلس العنصر على ظهره طوال فترة التفتيش.. ولكنّ الأهمّ هو من وقع ضحيّة الجَلْد. مهما يكن، نحن فرحون لأنّنا تجاوزنا محنة صغيرة، فأمامنا إذن شهر من دون تفتيش، إذ يفصل عادة بين تفتيش وآخر حوالى الشهر.

التعليم

الصدفة وحدها هي ما جعل كلمة التعليم المشتقّة من العلم مطابقة لكلمة التعليم المشتقّة من العلامة. تعليم المرء تعني في كلّ مكان تلقينه العلم، أمّا في لغة سجن تدمر، فإنّ تعليم المرء تعني وضع علامة عليه لتمييزه عن غيره لمعاقبته. والتمييز في سجن تدمر هو دائمًا نذير شؤم. إذا كان التعليم للرقي والتعمير فإنّ التعليم التدمري هو للانحطاط والتدمير بكلّ أبعاده. الشخص المعلَّم هو شخص ينتظر عقوبة في أيّ وقت. التعليم باختصار هو عقوبة مؤجّلة. ثم لا يعرف

الشخص المعلّم ما هو حجم العقوبة، ولا يعرف هل يقتصر أمرها على الألم أم قد ينجم عنها عطب ما. ولك أن تتخيّل مقدار القلق الذي يعيشه الشخص المعلَّم إلى أن يحين موعد التنفيذ. ولا سيّما من يجري تعليمه قبيل النوم فسوف يقضي ليله مقطّعًا بين يقظة قلقة وكوابيس خانقة.

قد يكون التعليم مباشرًا أو بواسطة شخص، مثلاً يمكن للشرطي أن يقول للسجين مباشرة: أبو الكنزة الكحليّة علّم حالك! إذا أراد، أن يقول لرئيس المهجع: علّملي أبو الكنزة الكحليّة. وبالتالي يمكن للشخص أن يكون معلّمًا من دون علم منه. وهذا غالبًا ما يكون في الليل. يمكن أن يفيق السجين على خبر أنّه معلّم. ففي الليل ينام الجميع ويبقى أحد السجناء مستيقظًا واقفًا تحت الشرّاقة لمدّة ساعتين يبدّل بعدها مع سجين آخر وهكذا. السجين الذي يسهر على البقيّة يسمّى «الليلي». يبدأ الليلي الأوّل عمله في السابعة وهو موعد «الخلود» إلى النوم، يخلد الجميع إلى النوم سوى الليلي، وقبل أن يبدأ عمل الليلي يمكنه أن يتبادل بعض التعليقات مع الأشخاص الذين سيغادرونه إلى عالم آخر بعد قليل، عالم يشبه الموت الافتراضي، كي يصبح مؤتمنًا على جثث لا يمكنه إزاءها إلّا تصليح طمّاشاتها إذا انزاحت وتعليمها إذا خرجت عن حدود «الجثثيّة» ولاحظها الحارس وطلب تعليمها. إنّ لحظة دخول كلّ أهل المهجع في طور النوم الشكلي أو اليقظة غير المعترف بها، وبقاء الليلي الأوّل وحيدًا تحت النظر ومعترفًا بيقظته هي لحظة لها ثقل الفراق بكلّ معنى الكلمة. بعد هذه اللحظة أنت وحيد تمامًا، وكلّ من معك بمن فيهم أعزّ أصدقائك هم في عداد «الموتى»، الذين يجب أن لا يسمعوا ما تتعرّض له من أذى وأن لا يرتكسوا لأيّ شيء يحدث لك، حيث لا يغني عنك شيء.

الليليُّ ينوب مناب رئيس المهجع في فترة مناوبته. فيحقّ له مخاطبة العناصر ويحقّ للعناصر سؤاله. كثيرًا ما يقف الحارس على الشراقة ويتفنّن في استثمار خوف الليلي بكلّ صنوف البذاءات والإساءات. يمكن أن يتحرّك أحد النائمين أثناء وجود الحارس على الشرّاقة فيقع في المحظور، ويطلب الحارس من الليليّ أن يعلّم السجين الذي تحرّك لأنّ الحركة أثناء النوم ممنوعة. سجين تدمر مسؤول عن وعيه وعن لاوعيه. كان يخطر لي أنّه لو صادف وجود سجين في تدمر يعاني ممّا يسمّى «متلازمة تململ القدمين» لكان هذا السجين في عداد المعلّمين بصورة دائمة. فهذا المرض يجعل الشخص يشعر عند بدء النوم كما لو أنّ في ساقيه دبيب وقرص نمل ولا يرتاح إلّا بتحريكهما، فيرتاح قليلاً. ثم يبدأ الشعور بالدبيب مجدّدًا فيحرّكهما مجدّدًا وهكذا. ويمكن أن تكون الطمّاشة منزاحة عن عينيَّ أحد النائمين قليلاً فيضبطه الحارس متلبّسًا بجريمته ويعلّمه عن طريق الليليّ، ويمكن أن يعلّم الليليّ معه. واللافت أنّ الحارس يطلب من الليليّ أن يضع يده على الشخص الذي جرى تعليمه وذلك كي لا يسمح لليليّ أن يغيّر الشخص المعلّم حسبما يشاء، وكي لا يسمح للسجين الذي جرى تعليمه أن ينكر تعليمه معتبرًا أنّ الليليّ يتبلّاه، ولا شكّ أنّ هذا الإجراء ينمّ عن خبرة من قبل الحارس، ويوفّر على المهجع مشاكل ولا سيّما في ظلّ وجود خلافات شخصيّة وكيديّات بين أفراد المهجع. كما أنّ طلب وضع اليد وملامسة الشخص الذي يجري تعليمه يحمل إقرارًا ضمنيًّا بأنّ جميع من يفترض أنّهم نائمون إنّما هم متيقّظون، ويمكن للفرد منهم أن يشعر بوضع اليد عليه وإدراك أنّه هو المقصود بالتعليمة. في كلّ الحالات يكون الخبر السعيد بانتظار هذا السجين ما إن يفتح عينيه. لا يستطيع الليليّ أن يتجاهل الأمر، فقد

يأتي العنصر نفسه الذي أمر بالتعليم ويطلب الشخص المعلّم، وتكون المشكلة أكبر في حال تجاهل الليليّ الأمر ولم يخبر الشخص ورئيس المهجع «رسميًّا». في الحقيقة كلّ المهجع يشهد وقائع التعليمة من تحت الأغطية والطمّاشات. وحتى لو لم يأت العنصر نفسه، فلا شكّ أنّه يكون قد أخبر الرقيب أنّ في المهجع الفلاني سجينًا معلّمًا، يطلبه الرقيب، وإن لم يخرج تحدث مشكلة أكبر. وبالطبع، ما إن يلفظ الحارس هذه الكلمة حتى تحقّ العقوبة على صاحبها. قوّة هذه الكلمة تشبه قوّة كلمة الطلاق. الرجل يرمي امرأته بالطلاق، والشرطي يرمي السجين بالتعليم. وفي الحالتين تغيّر الكلمة حالاً لا يستوي إلّا بسحب الكلمة أو دفع «ديتها». وأحيانًا لا ينفع سحب الكلمة، فتصبح الكلمة كالطلقة إذا خرجت لا تعود.

في إحدى الليالي، استيقظ صفوان على حاجة ملحّة بالتبوّل، أصغى قليلاً كي يتبيّن حركة الحارس قبل أن يستشير الليليّ بإمكانيّة الدخول إلى التواليت ليتبوّل. لم يكن ثمّة حركة للحرس على السطح منذ بعض الوقت، فوافق الليليّ. وما إن نهض صفوان من فراشه ومشى صوب التواليت حتى سمع خطوات الحارس على السطح قرب الشرّاقة، فاستدار على الفور ورمى نفسه على فراشه على أمل أن لا يلحظه الحارس. ولكنّ الحارس لمح حركته، فسأل الليليّ:

ـ شبو هالحيوان هادا ولا!؟

ـ ولا شي حضرة الرقيب.

ـ ولا شي يا عرصة ما هيك! علّمه وعلّملي حالك معو وبكرا بورجيك!

في صباح اليوم التالي، طلبوا المعلَّمين كانت عقوبة الليلي عشرة

كرابيج وعقوبة صفوان مئة كرباج. كانت بالفعل عقوبة غير مسبوقة في مهجعنا. وكانت بلا شكّ أغلى بولة في حياة صفوان. وبحسب تعليق أبو مالك: مئة كرباج لصفوان ولم يتبوّل فكيف لو تبوّل إذن!؟ كان الرقيب الذي نفّذ العقوبة جديدًا، وقد تشاءمنا منه وسمّيناه «أبو الميّة» في إشارة إلى المئة كرباج. الرقيب السيّئ في سجن تدمر مصيبة لأنّه صاحب أمر. ولكن ستظهر لنا الأيّام لاحقًا أنّ هذا الرقيب ميّال إلى الشيوعيين، وأنّه حسبنا في البداية إسلاميين، وسيكون سندًا جيّدًا لنا فيما بعد، مستندًا هو بدوره على كلام مدير السجن في الزيارة التي قام بها إلى مهجعنا.

زيارة المعلّم

ذات يوم، بعد حوالى السنة من وجودنا في سجن تدمر، جاء الرقيب (أبو الميّة) نفسه راكضًا باتّجاه مهجعنا وهو يصيح: المعلّم! المعلّم! استنفر رئيس المهجع فورًا ونظر بقلق باتّجاه السجين الذي جرى تعليمه ليلة أمس كي يجهّز نفسه. الوقت مبكر على غير العادة وتبدو على نبرة الرقيب لهفة تخبّئ خلفها أمرًا جللاً. ظننّا أنّ عذابًا جهنّميًا ينتظر المعلّمين هذا اليوم. لأوّل مرّة يطلبون المعلّمين باكرًا هكذا وبهذا الشكل. وزاد في قلقنا واستغرابنا أنّ الرقيب فتح باب المهجع فورًا.

كان المعلَّم (بفتح اللام المشدّدة) قد وقف إلى جوار الباب ينتظر ما ينتظره، وحين فتح الرقيب الباب همّ السجين بالخروج ليلقى مصيره، لكنّ الرقيب دفعه إلى الداخل بعجلة وقال وهو يلهث:

ـ الكلّ يضبّوا لجوّا، المعلِّم (بكسر اللام المشدّدة) جاي يا حيوان!

بين المعلَّم بفتح اللام والمعلِّم بكسرها مسافة لا تطوى. شتّان بين هذا وذاك. وبين الفتح والكسر تهنا وجمدت دماؤنا. موعد زيارة المعلّم فاجأ حتى العناصر فيما يبدو. فقد اختار مدير السجن أن يزور المهجع مباشرة بعد أن أنهى رياضته الصباحيّة.

وبالفعل، بعد ثوان قليلة دخل المدير. جاءنا بالبوط الرياضي والبيجاما الرياضيّة (كما أخبرنا الرقيب نفسه فيما بعد). كانت لبكة الرقيب قد أربكتنا نحن أيضًا ولم نفلح في الاصطفاف بشكل يليق بالمعلّم. حتى إنّ بعضنا كان يتناول فطوره «الفاخر» حين داهمتنا الزيارة، فترك كلّ شيء على حاله وانضبّ إلى الداخل. حشرنا أنفسنا بشكل عشوائي في الزاوية الداخليّة للمهجع. وجوهنا إلى الحائط.

- شو عم تفطروا زيتون! اللي صايرلكم ما صاير لحدا ولسّا بتحكوا! قال المدير باستخفاف وبنبرة من يخبّئ شيئًا، وتابع:

- وين فراس؟ مين اللي عم يلعي برّا أنّكم عم تجوعوا وعم تنضربوا؟ أنتو ما شاطرين غير بالحكي، مين عم يضربكم آه، قولولي! أكلكم هو نفسه أكل الشرطة، ما عاجبكم!؟ شو يعني بدكم فراريج محمّرة!؟ أنتو أصلاً الأكل حرام فيكم! لأنّكم جاحدين وناكرين الجميل! ما بتعرفوا غير الحكي وما بيعجبكم العجب!

كانت زيارة المدير ردًّا على ضغوط شخصيّة من الأهالي بعد الإفراج عن فراس، وهو أوّل سجين منّا يُفرج عنه من تدمر. فقد نقل فراس أخبار وضعنا المأساوي، أخبار صعقت من سمعها فتحرّك الأهالي بصورة شخصيّة وعائليّة. هذا الأمر أزعج المدير، وقد بدا ذلك عليه، وهدّد بقطع لسان كلّ من يتكلّم، فهو يريد لسلطته أن تمتدّ لتطال حتى المحرّرين من هذه البئر. أي يجب أن تخرج من سجن تدمر وتصمت حيال ما تعرّضت له. يبرز السؤال نفسه: إذا كان الهدف

من كلّ هذا هو جعل مجتمع كامل يعتبر ممّا جرى ويجري لفئة منه، فلماذا هذا التكتّم الرهيب، لماذا لا يتاح نقل هول ما نتعرّض له كي يشكّل ذلك رادعًا للآخرين؟ والسؤال المقابل نفسه أيضًا: كيف، رغم هذا التعتيم، تصل الرسالة إلى كلّ المجتمع وتمارس فعلها وربّما بأشدّ ممّا لو رفع التكتّم عنها؟

الضغط الذي تعرّض له المدير جاء من زاويتين سياسيّة وطائفيّة. الأولى ضعيفة ومفادها كيف تعرّض سجناء سياسيّون سلميّون للتعذيب والمعاملة نفسها التي يتعرّض لها سجناء متّهمون بأنّهم استخدموا السلاح وأراقوا دماء؟ والثانية طائفيّة ومفادها كيف تعامل «أولادنا» هكذا؟ بالطبع «نا» هنا تعود إلى الطائفة العلويّة، في حين الغالبيّة كانوا من غير أبناء هذه الطائفة.

السؤال الأخلاقي/السياسي (هنا أيضًا يطغى الأخلاقي على السياسي نظرًا إلى هامشيّة تأثيرنا السياسي المعارض) هو هل يجوز القبول بهذه الرحمة «الطائفيّة»، إن صحّ القول؟ لو كنت خارج السجن، هل تدعم مسعى الأهل هذا لتحسين شروط حياة ومعاملة من هم داخل السجن؟ هل تقبل بهذا التلميح «الصريح»: «أولادنا»؟ أو بكلام آخر: هل تقبل «الواسطة» لرفع الظلم عن جماعة، لو أتيح ذلك؟ هل يجوز استخدام أداة قذرة من أجل غاية نبيلة؟ أسئلة تتوالد والمحدّد في الإجابة عليها هو السياق والشرط العام. من زاويتنا ونحن في الداخل كان الجواب «نعم»، كنّا على استعداد لقبول هذه الوسائل لتخفيف الضغط عنّا. وبنظرة راجعة إلى الأشياء، أرى أنّ ذلك لم يكن خطأً. لم يكن ثمّة جدوى سياسيّة مهمّة من تحمّل قسوة المعاملة ورفض قبول مثل هذه الوسائل المجدية. ويبدو أنّ ثمّة مشكلة لدينا تعيق تراكم العمل السياسي المعارض في مجتمعنا. في فترة لاحقة من

سجننا في تدمر تخلخلت إدارة السجن قليلاً بعد أن تسلّل إليها الفساد الصريح، واستطعنا شراء بعض الأمن والطمأنينة لنا. ولكن لا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ تحسين شروط السجن بسبل «طائفيّة» كان يشمل كامل المجموعة ولا يقتصر على «العلويين»، وقد كان أبناء المجموعة غير العلويين يرحّبون بمثل هذه السبل وفق المنطق ذاته.

أكمل مدير السجن خطابه، تلعثم في كلامه مرّات، ثم تدارك الأمر. كنّا نتمنّى دائمًا أن تنقاد الكلمات للمسؤول الأمني الذي يزورنا وتجري سلسة على لسانه. اللعثمة والارتباك والضياع تثير حرج المسؤول، ويهرب بالتالي إلى الأمام فيصبح عدوانيًّا للتغطية على حرجه. ربّما لم تكن طلاقة اللسان من طبائع المدير، وربّما ظنّ نفسه أمام (أو خلف كما في حالتنا هذه!) مجموعة من مثقّفين كبار فارتبك. الانطباع العام لدى مسؤولي الأمن أنّ السجناء السياسيين ولا سيّما الشيوعيين منهم مثقّفون رفيعو المستوى.

في المحصّلة، بهدلنا المدير بما استطاع، ثم سأل عن طلباتنا. استلمنا رسالة اطمئنان منه بعد كلّ ما قاله (السؤال عن الطلبات هي رسالة اطمئنان) وبدأنا نقدّم طلباتنا. من تحسين المعاملة والأكل إلى الكتب والزيارات والطبابة وإلغاء مهمّة الليليّ، أو السماح له بالسير أثناء مناوبته (كان يطلب من الليليّ الوقوف باستعداد تحت الشرّاقة طوال فترة مناوبته)... إلخ. وكان الطلب الجوهري أن لا نتعرّض للضرب ما لم نخالف أنظمة السجن. أي أن لا نتعرّض للضرب الكيفي. وعد المدير بأشياء ورفض أشياء، ولم ينفّذ ما وعد به. لكن أهمّ ما قاله فيما يخصّ شروط سجننا، إنّنا لن نتعرّض للضرب ما لم نخالف أنظمة السجن. انعكس هذا تحسّنًا فعليًّا في شروط حياتنا، وشكّل كلام المدير سندًا للرقباء غير العدائيين تجاهنا. على أنّنا

تعرّضنا بعد هذه الزيارة إلى موجة من التعليم والضرب كانت، ربّما بمثابة رسالة من مساعد الانضباط عبر أعوانه تقول: لا تكبّروا رأسكم بزيارة مدير السجن، هنا على الأرض أنا الكلّ بالكلّ. هكذا قرأنا الرسالة وهي صحيحة. بالفعل في المعاملة اليوميّة للسجين مساعد الانضباط هو الأهمّ، الأشياء الصغيرة تحت سيطرته المباشرة، وهذه الأشياء هي جوهر السجن، هي الأشياء التي يمكنها أن تأكل روح السجين وتنخر أعماقه ببطء عنيد كالسوس. ليس من مصلحتنا أن نخسر مساعد الانضباط ونكسب المدير. الكلمة العليا لمن يمتلك القرار في الأشياء اليوميّة الصغيرة المباشرة.

يوم السردين

كان يومًا مختلفًا ذكرناه طيلة وجودنا في سجن تدمر. سعدنا به كثيرًا، سعادة البؤساء. حاولنا كثيرًا أن نفسّر ما جرى فيه. انتظرنا تكراره حتى آخر يوم لنا في سجن تدمر. كان ذلك يوم السردين العظيم.

مربّع البؤس الذي وجدنا أنفسنا فيه بعد أن «سرغلونا» إلى سجن تدمر هو: البرد والجوع والخوف والإهانة. إذا شبّهنا سجن تدمر بالوحش فيمكن أن نقول إنّ هذه هي مخالبه أو أنيابه. في فترة التحقيق لا يبخلون عليك بالطعام، ولكن لا نفس لك بالأكل. في سجن تدمر يبخلون عليك وأنت تتضوّر من الجوع. ما يدخل إليك من الطعام في سجن تدمر هو كلّ ما لك. وما يدخل قليل جدًّا. وليس هناك أيّ مصدر آخر للطعام. ونحن بعد أن استوعبنا صدمة النقل إلى تدمر وصدمة التشريفة والمعاملة و.. إلخ، بدأ جوعنا يطفو على السطح ويقسو في التعبير عن نفسه. وسرعان ما قرّرنا أن نعتمد نوعًا خاصًّا

من «سياسة النيب» تقضي بتوزيع الخبز من لحظة وصوله، فيستلم كلّ فرد حصّته كي نسدّ طريق علوّ الغرائز على الأخلاق. ولكنّ المساواة بين مختلفين غير عادلة. بعضنا كانت تكفيه حصّة الخبز وتزيد، وبعضنا كان يطلب من الجميع أن يعطيه كلّ ما يفيض عنه من الخبز، أكان محروقًا أم معجّنًا! المهمّ أنّه يؤكل ويملأ حيّزًا من المعدة.

وكما كانت كمّيّة الطعام قليلة كانت نوعيّته سيّئة أيضًا. برغل مسلوق من دون دسم ومرقة حمراء، حتى البلديّة كانوا يسمّونها مرقة حمراء، لأنّه في الغالب لا تعرف ما هي المادّة المطبوخة (بطاطا أم باذنجان أم فاصوليا يابسة أم بازلاء أم جزر.. إلخ) لأنّه لا يصلك منها شيئًا سوى المرقة الحمراء الخالية من الدسم. على الفطور الزيتون الجافّ هو السيّد، وعلى العشاء الشوربة المالحة غير المطهيّة جيّدًا.

بعد أسابيع على هذا الوضع، تكتشف أنّ حكمة أبي ذؤيب الهذلي التي عبّر عنها في بيت الشعر: «النفس راغبة إذا رغبتها ـ وإذا ترد إلى قليل تقنع» حكمة غير حكيمة. فللنفس حركة ذاتيّة خارجة عن إرادتك ولا تردّ. وهي رغم المعرفة الأكيدة باستحالة تلبية رغباتها فإنّها تثور داخلك إلى حدود قصوى مطالبة بتلبية رغبتها. من دون اعتبار لشيء تستبسل النفس في استحضار مواضيع تلبية رغباتها، معذّبة صاحبها وواضعة إيّاه بين فكّي الرغبة العارمة والعجز التامّ. التشاغل عن صراع النفس ينفع في لجم شططها، والحديث عن رغبات النفس يخفّف شيئًا من قوّتها الداخليّة المدمّرة. ولكن كيف يمكن أن تتشاغل أو أن تتحدّث وأنت تقوم بمهمّة الليلي، تقف وحيدًا تحت شرّاقة المهجع أو تتمشّى في المسافة القصيرة الفارغة تحت الشرّاقة. ساعتان من الحراسة الليليّة وأنت دريئة ثابتة لسهام النفس التي لا ترحم. لا يمكنك أن تردّ النفس وهي تستعمر الخيال وتلوّن لك أصناف الطعام.

شيئان يسيطران على مطبخ النفس، المحرّم والمرغوب، المحرّم إلى حدّ الاستحالة والمرغوب إلى حدّ مؤلم، حدّ السيلان العفوي للّعاب، شيئان هما الدسم والحلو. الجوع جوعان: واحد هو الجوع بنقص الطعام عامّة، وهناك جوع ثان هو الجوع بانقطاع مادّة معيّنة وبالتالي اشتهاؤها، على أن تكون هذه المادّة ليست مادّة عزيزة وصعبة المنال في الأصل، بل هي متوافرة في الحياة العاديّة ولكنّها انقطعت لسبب ما. معاناتنا نحن مع الجوع كانت مركّبة. أنت محروم من الطعام كمًّا ونوعًا، تتجسّد أمامك صحون اللحم المشبع بالدهن وصحون المرقة الحمراء التي تطفو بقع الدسم على سطحها، وصحون من الحلو المشبّع بالقطر. وحين يشطّ الخيال قليلاً يصوّر لك أصناف المكسّرات، لا أدري ما هذا الدافع الداخلي العميق الذي كان يطالب بالمكسّرات، جوع ممضّ لكسر أشياء هشّة مثل البندق أو اللوز أو الفستق تحت الأضراس، واستحضار مؤلم لطعومها. خيال يتفنّن على مساحة خالية. وحين يميل خيالك إلى أن يصبح أكثر واقعيّة يصوّر لك زيارة أحضر فيها الأهل بيدونًا من زيت الزيتون وكيسًا من التين اليابس أو من التمر. وأنت تتمزّق بين عربتين، واحدة يجرّها حصان رغبة قويّ، وواحدة يجرها حصان حرمان أقوى. عذاب صامت، قوّته الرغبة وأداته الخيال. لو أنّ رغبتك الجنسيّة استولت على خيالك وسيّرته لصالحها ولم تستطع الانفكاك من دائرتهما، يمكنك أن تكسر هذه الدائرة بالخلوّ إلى نفسك وإرضاء غريزتك ذاتيًّا، الرغبة الجنسيّة يمكن إرضاؤها ذاتيًّا وربّما لو لم يكن الأمر كذلك لتغيّرت هياكل العلاقات الاجتماعيّة جذريًّا. لكن مع الجوع لا يمكنك كسر الدائرة إذ لا يوجد إرضاء ذاتي هنا. للجوع جيش يتقدّم في منطقة ضعيفة المقاومة، منطقة لا تسمح بالالتفاف عليه أو خداعه، وبالتالي هو

جيش لا يمكن أن يُهزم.

وسط هذا الجوع الرهيب والاستلاب الحادّ تجاه الدسم والحلو، وفد إلينا السردين. بعد ظهر أحد الأيّام صاح عنصر البلديّة على الباب:

ـ طالع شرّاقة ولا!

كان وقت توزيع العشاء. غالبًا ما يوزّعون طعام العشاء مع طعام الغداء، ولكن أحيانًا يوزّعونه بشكل مستقلّ. صار لدينا خبرة لا بأس بها بمصطلح الشرّاقة التدمري! خرج عنصر السخرة يحمل الشرّاقة/الجاط بيده، وسرعان ما عاد وهو يحمل جاطًا مليئًا بمادّة كثيرة الدسم يغلب عليها اللون الحديدي الذي تتخلّله كتل متفاوتة الحجم والشكل ذات لون سكّري. وما إن وضع الجاط على الأرض حتى تبيّن أنّ المادّة هي سردين مهروس. كانت الكمِّيّة كبيرة، بحيث إنّه حين وزّعناها حصل كلّ منّا على ستّ ملاعق كبيرة من السردين. من دون أن نذكر مسح الجاط. وقد فاز الحارث بالتزكية بهذه الغنيمة. سردين في سجن تدمر أمر يكاد لا يصدّق، ثم ستّ ملاعق منه للشخص! عيد حقيقي! اتّبع كلّ واحد فينا تكتيكًا شخصيًا خاصًّا للاستمتاع بما حصلنا عليه. منّا من ترك لنفسه حرِّيّة التمتّع القصوى بأنّ تناول كامل الكمّيّة دفعة واحدة. ومنّا من برمج استمتاعه وقسّطه بقصد إطالته، فأكل قسمًا من السردين وأرجأ قسمًا آخر إلى الغد. كانت سعادة غامرة، سعادة تحقّق حلم. ها نحن نأكل لحمًا دسمًا، حلم معذّب يتحقّق! حتى العلاقات الداخليّة فيما بيننا استراحت وصارت أكثر ودًّا.

وضعنا الكثير من الافتراضات لتفسير ما جرى. هذه هي المرّة الأولى التي يقدّمون فيها السردين في سجن تدمر (كنّا نرجو أن لا تكون الأخيرة)، ولا تحتفظ ذاكرتنا بمثل هذه القصّة عمّن مرّ بنا من

«خرّيجي» هذا السجن. لا يعترف سجن تدمر بجمعيّات رعاية المساجين ولا بكلّ أصناف الجمعيّات الخيريّة، كما أنّ هذه الجمعيّات لا تجرؤ على الاعتراف به. الافتراض الذي نال أوسع دائرة من القبول جاء من أديب الذي سبق أن أدّى خدمة العلم (الخدمة الإلزاميّة في الجيش) حيث قال إنّ لكلّ فرد في الجيش زوّادة طعام للطوارئ تتألّف من بسكويت مالح ومعلّبات وبعض حبّات التمر أو التين اليابس. وكلّ فترة يجدّدون هذه الزوّادات حين تقترب فترة صلاحيّتها من الانتهاء. وربّما كان هذا السردين هو تجميع لمعلّبات هذه الزوّادات. وقد تعزّز هذا الافتراض بحقيقة أنّ هذه الوجبة لم تكرّر، أي لم تصبح وجبة روتينيّة في نظام طعام السجن، وهذا ما عزّز بدوره عندنا الأمل بأن نحصل في السنة التالية في موعد مشابه على الوجبة نفسها، حين يجدّدون المعلّبات مرّة أخرى. لكن مثل هذا الشيء لم يحصل، وظلت وجبة السردين تلك يتيمة، حملت لنا متعة قائمة بذاتها وتركت عندنا أملاً بأن تتكرّر لم يفارقنا طيلة وجودنا في سجن تدمر، وسؤالاً مفتوحًا حتى الآن.

الطمّاشة

صنعتها من جيبيْ بيجاما قماشيّة، وصلت الجيبين معًا فبات طولهما كافيًا تقريبًا للالتفاف حول رأسي مع بقاء مسافة قصيرة كانت مناسبة تمامًا لوصلها باستخدام قطعتين من المطّاط العريض لتسهيل لبسها وخلعها ولتثبيتها على الرأس في الوقت نفسه. وكانت حوافّها العلويّة والسفليّة مطويّة بإتقان سلفًا بخياطة آليّة مذ كانت قبل تحوّلها الجديد جيبة ملصقة على جانب بيجاما. وهكذا كانت طمّاشتي توحي لمن يراقب من الشرطة أنّها محكمة التطميش، فقماشها عريض يلتفّ

من أمام عينيَّ ويصل إلى ما وراء أذنيَّ. ولكنّ الحقيقة أنّ أنفي (وهذه فائدة غير متوقّعة للأنف الكبير ـ لاحظ تيسير بعد خبرة لا بأس بها في السجون أنّه لحكمة إلٰهيّة ما فإنّ جميع المعارضين السياسيين «يتمتّعون» بأنوف كبيرة) كان يرفعها قليلاً أمام العينين فتتمكّنان من رؤية شريط ضيّق أمام القدمين أثناء المشي، ويساعد في ذلك طريقة المشي التي كانوا يفرضونها على السجناء حين سوقهم من مكان إلى آخر داخل السجن، أمّا أثناء الاستلقاء للنوم فلا فائدة من مثل هذه الخاصِّيّة، اللهمّ إلّا لمعرفة من هو الليليُّ، وبالتالي تقدير كم هي الساعة من خلال معرفة ترتيب المناوبات وتقدير كم تبقّى من الوقت كي تبدأ مناوبتك أو كم تبقّى لشروق الشمس!

كان قماش البيجاما الذي صنعت من جيبيها الجانبيين هذه الطمّاشة سميكًا بما يكفي، فلا حاجة إلى تدعيمه بقماش آخر كي يقنع الشرطيّ بعدم القدرة على الرؤية من خلال قماشها، وكان هذا القماش ليّن الملمس فلا يزعج عند الاحتكاك والاستخدام الطويل. فضلاً عن أنّ النقشة المرسومة على القماش والتي لم يكن لي يد في اختيارها كانت مقبولة، حتى إنّي مع الوقت رأيتها الأنسب، ولو ضاعت طمّاشتي تلك أو اهترأت وأتيح لي اختيار قماش لصنع طمّاشة أخرى لاخترت القماش نفسه وبالنقشة ذاتها. أرضيّة زرقاء غامقة قليلاً وعليها زهور بيضاء تقلّد فيما يبدو زهور التفّاح أو اللوز، ويتخلّلها خطوط انسيابيّة منحنية بخفّة بلون أزرق أفتح قليلاً من لون الأرضيّة، خطوط لا تشبه الأوراق ولا الغصون، ربّما كانت لمجرّد التزيين وملء الفراغ، أو قد تكون تعبيرًا بصريًّا قُصد به الدلالة على رائحة الأزهار المنتشرة على الأرضيّة. كم وقعت عيني على هذه النقشة وأنا أحمل طمّاشتي في يدي متأهّبًا ونحن نصغي لأصوات السجن ونجتهد في تخمين

مجريات اليوم: اقترب موعد التفتيش وقد يكون اليوم هو يوم التفتيش! صوت صراخ بعيد فقد يكون اليوم موعد تنفّس! السجن هادئ اليوم، فقد يكون العناصر مشغولين بأمر ما غير السجناء وسيمرّ اليوم بسلام!... وكم وقعت عيني على هذا النقش وأنا أسلّم نفسي لطأنينة ما بعد الغداء حين نسمع صوت البلديّة وهم يضعون بلوات الطعام أمام باب المهجع، فهذا يعني غالبًا أنّ اليوم على وشك أن يمرّ بسلام.

طمّاشتي التي كانت تمنحني نفسها في اللحظة المناسبة حين يكون غيابها كارثة تحلّ على رأس السجين، تسجّل بين خيوطها وفي ثناياها ونقوشها الأليفة يوميّات سجني وتفاصيلها. كنت أظنّ أنّني قادر على استعادة دقائق ما مررت به من مشاعر بمجرّد أن أضع طمّاشتي أمامي وأتأمّلها بعد خروجي من السجن أينما كنت!

في لحظات القلق والترقُّب، حين كنّا نجلس على فرشاتنا المطويّة على الحائط متأهّبين لما هو مكتوب علينا في هذا اليوم، كنت أضع أصابع يديَّ المتوتّرة داخل طمّاشتي وأشدّ مطّاطها فينفرد قماشها أمام عينيَّ كأنّها تبتسم لي وتحاول أن تخفّف من قلقي. وذات يوم فُتح باب المهجع فجأة وطلب الشرطي على عجل خروج من سيدفع ثمن فاتورة الدخان، فهبّ صديقي الذي كان متّفقًا على أن يخرج لتسديد ثمن الفاتورة من حسابه المحفوظ عند المفرزة، وارتبك حين لم يعثر على طمّاشته بفعل المفاجأة، فأعطيته طمّاشتي لتلافي عقوبة محتّمة وخرج. افتقدت إلى طمّاشتي وشعرت أنّها غابت طويلاً.. وحين عاد صديقي وأعطانيها عاد لي اطمئناني، ولففتها برفق على معصمي. وقرّرت أن لا أعيرها لأحد. ثلاثة لا تعار: الخيل والمرأة والطمّاشة!

خارج السجن هناك من يستخدم الطمّاشة للنوم، يعتاد على الظلام المطبق الذي تؤمّنه، ولكنّ الطمّاشة في سجن تدمر وسيلة تعذيب،

الطمّاشة وسيلة لإقصاء البصر، لإلغاء العين. ومع ذلك كان يحيّرني إصرار قانون السجن على فرض لبس الطمّاشة أثناء النوم. إذا كان إلغاء حاسّة البصر هو الهدف، فحاسّة البصر ملغاة أصلاً في النوم. لماذا إذن هذا الإصرار؟ ولماذا يعاقب السجين النائم إذا كانت طمّاشته منزاحة عن عينيه؟ أدركت فيما بعد أنّ الطمّاشة لا يقتصر دورها على إلغاء حاسّة البصر، بل لها دور آخر لا يقل أهمّيّة وهو أنّها تمنع تعرّف السجّان على السجين. الطمّاشة تخفي الهويّة، وبذلك يتحوّل السجناء إلى كائنات بلا هويّات، فإذا وقف الحارس على الشرّاقة وتأمّل السجناء وهم نائمون لا يمكنه أن يتعرّف على أيّ منهم حتى لو كان أخوه بينهم. أي أنّ الطمّاشة تقطع الطريق على تعرّف السجّانين على السجناء من الأشكال، بعد أن قطع الطريق سلفًا على التعرّف من الأسماء.

لكنّ الطمّاشة تحمي من التعذيب أيضًا، فحين تخرج من المهجع من دون حذاء لن تجد من يعترض عليك، وإذا وجد بين السجّانين من له قدر من السلطة يخوّله أن يسأل، فقد يسألك أين شحّاطك من باب الاستيضاح لا أكثر، ليس في قانون السجن أنّ على السجين أن يخرج محتذيًا، وربّما كان خروجه حافيًا أمرًا يعزّز تعذيبه وإذلاله. ولكن أن تخرج من دون طمّاشة فهذا يعني عقابًا مؤكّدًا. الطمّاشة عقاب يقي من عقاب أشدّ.

طمّاشتي تلك التي رافقتني وراقت لي وكانت تعلم ما في صدري، امتدّت إليها يد جاهلة عند الباب الخارجي لسجن تدمر، ذاك الباب الضيّق، وانتزعتها عن عينيَّ ورمتها أرضًا. تلك اليد أعلنت بدء طور جديد من حياتي بدون طمّاشة، ولكنّها سلبتني بالحركة نفسها خلوات كنت أحلم بها مع طمّاشتي التي غدت خرقة تدوسها الأرجل.

خلوات حلمت أن أسترجع فيها مع طمّاشتي دقائق مشاعري المخزّنة بين خيوطها، وأعيش هول السجن وأنا في مأمن خارجه. تلك اليد فتحت عالمًا أمام عينيَّ وأغلقت بابًا في قلبي.

فنون سجناء تدمر

اللحظات الأولى لدخول مهجع جديد في سجن تدمر لها وقع خاصّ. واللحظات الأولى لدخول أوّل مهجع لك في سجن تدمر لها وقع خاصّ جدًّا. هنا يوضع بشر محرومون من كلّ شيء، في عزلة تامّة وانقطاع كامل، كيف استطاعوا تدبّر أمرهم؟ الجهة الوحيدة المفتوحة أمامهم هي الجهة التي تصبّ عليهم نار جهنّم. على جدران المهجع وفي «منتفعاته» آثار إبداعات حلول، إبداعات تحمل بصمات ثقافة جديرة بالحفظ والتخليد. الثقافة كأداة فعّالة في مواجهة الشدائد. الثقافة بوصفها «ما يبقى بعد نسيان كلّ شيء». ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، ما يبقى لك حين تترك وحيدًا لمصير أسود. ها أنت أمام عبقريّة التكيّف مع الشروط وتكييفها. تريد من خلال هذه الآثار الحيّة أن تتعرّف على ملامح هؤلاء الناس الذين مرّوا من هنا، تريد أن تدفّئ روحك بشيء من نار عزيمتهم وإيمانهم. أن تؤلّف وتعيش ولو لحظة من شريط محنتهم. أن تعيش هذه اللحظة من موقع الضحيّة، من موقع فلان الذي مرّ بك في سجن آخر عائدًا من هذا المكان المنبسط بحيث يتّسع لهول الرعب، والمنكمش فلا يتّسع لبارقات الأمل. على الحائط، وعلى مستوى علوّ الرأس عند الجلوس على الفراش، تلاحظ هذا الخطّ المتصل جرّاء الحتّ المتكرّر الناتج عن تكرار اتّكاء الرؤوس على الجدار، ترسم اللوحة في مخيّلتك. خطوط معركة رهيبة لا متكافئة. لو كان لهذه الجدران أفواه فتتكلّم!

تضمحل السياسة وتصبح مجرّد بقعة باهتة على سهل واسع أخضر اسمه الإنسانيّة. هذا النسيج الأساسي المتواصل الجامع. هذا النبع الذي لا يتعكّر. هذا المحيط الذي يمتصّ إلى زرقته كلّ الألوان الشائبة. ها هنا صراخ الألم واحد ونداء الجوع واحد. في سجن تدمر ربّما أكثر من أيّ مكان آخر تشعر بنسغ الإنسانيّة الصافي الذي يجمعك مع السجين الذي أمامك في رتل تسديد الفواتير. وفي تدمر ربّما أكثر من أيّ مكان آخر يوضع هذا الانتماء الجامع أمام امتحان قاس. أوّل وصولنا إلى سجن تدمر لم تكن نفوسنا تقبل الطعام حين نسمع صوت تعذيب قريب أو بعيد. بعد فترة وبفعل الحاجات «الإنسانيّة» وتحت وطأة الاعتياد والتكرار، صرنا نأكل في الوقت الذي تملأ فيه أصوات التعذيب أرجاء الباحات.

لو درنا في كلّ آثار العالم لن نجد عروة على حائط كالتي نجدها في سجن تدمر، ولا شكّ أنّ الحضارات السابقة لم تواجه مثل هذه الحاجة التي واجهت سجناء تدمر. العرى الحجريّة أو الأنفاق الصغيرة على الجدران هي إبداع سجناء تدمر الأبرز للاستفادة من مساحة الجدران في غياب المسامير أو ما يشبهها ويقوم بدورها. يحفرون الحائط بإبرة الخياطة (الشيء المعدني الوحيد المسموح به في سجن تدمر) من الأسفل إلى الأعلى إلى عمق حوالى نصف سنتيمتر، ثم من الأعلى إلى الأسفل بصورة مناظرة بحيث يلتقي النفقان، ثم يمرّرون خيطًا عبر هذا النفق المتصل الصغير فيحصلون على وسيلة تثبيت على الحائط متينة وتفي بكلّ الأغراض. وهي السبيل الوحيد لتعليق أيّ شيء على الحائط. ترى العشرات من هذه الأنفاق الصغيرة على كلّ حائط في سجن تدمر. علامة فارقة ربّما لا وجود لها خارجه. ولك أن تتخيّل الوضع في غياب هذه العرى حين يكون عدد نزلاء المهجع

كبيرًا إلى حدّ لا يتّسع لهم إلّا إذا ناموا على جنوبهم (على سيفهم)، أين يضعون مستلزماتهم الشخصيّة، وأين يضعون مستلزمات المهجع العامّة. . وغير ذلك. هذه الأنفاق الصغيرة وسّعت مساحة المهجع بأن ضمّت إليها مساحة الجدران. بفضل هذه الأنفاق والعرى المتّصلة بها استطاع سجناء تدمر صنع رفوف من الشباك على الجدران تستوعب كمّيّات كبيرة من الأغراض.

ثم كيف استطاع سجناء تدمر حلّ مشكلة الفتحة الكبيرة في سقف كلّ مهجع (الشرّاقة). في الشتاء تصبح هذه المشكلة مطروحة بقوّة. أنت تحتاج إلى حلّ يوفّر الحماية من المطر وفي الوقت نفسه يسمح للحارس بتفقّد المهجع حين يشاء. من جهتنا استلمنا هذا الحلّ جاهزًا. نحن وافدون جدد، ذاهبون إلى الحجّ (حجّ!) والناس عائدون، وقد ابتكر السابقون الحلول. والحلّ محلّيّ للغاية، وهو بساط مصنوع من أكياس الخبز أكبر من مساحة الفتحة بقليل، مثبّت تحت الفتحة على السقف وقابل للانزلاق على سكّتين (خيطين مثبّتين من الطرفين في السقف وممتدّين طولانيًّا على جانبيْ فتحة السقف يمرّان عبر قطعتي نربيج مثبّتتين بدورهما طولانيًّا أيضًا على جانبيْ البساط) بواسطة خيط متدلٍّ من السقف يمرّ عبر بكرة (كركر خيطان) ويثبت على الحائط القريب. حين يهطل المطر يمكن شدّ الخيط فيتحرّك البساط على السكّة ويصبح تحت الفتحة ويحمي من المطر. وحين تريد فتح الشرّاقة تشدّ خيطًا آخر له آليّة الخيط الأوّل نفسه، ولكن من الجهة المناظرة. أمّا طرق تصريف الماء المتجمّع على سطح البساط فمتباينة، إمّا عبر نافذة صغيرة في قعر البساط توصل إلى قطعة بلاستيك تشبه المزراب وتصبّ في نقطة محدّدة يوضع تحتها جاط، أو عبر مصرف خاصّ مصنوع أيضًا من نايلون أكياس الخبز يصل فتحة

صغيرة مصنوعة في الشرّاقة إلى الأرض مباشرة، وهذه هي الطريقة الأرقى، أو بطريقة أكثر بدائيّة حيث كلّما زادت كمّيّة المياه المجمّعة يجري شدّ البساط من إحدى الجهتين فتندلق الماء في وعاء موضوع سلفًا. وللمزيد من إغناء مفردة الشرّاقة الجامعة المانعة في سجن تدمر، فإنّ هذا البساط يُدعى أيضًا شرّاقة.

في أحد المهاجع كانت حنفيّة «المطبخ» عالية كما لو أنّها موضوعة على ارتفاع يُقصد منه وضع مغسلة تحتها. كان يمكن حلّ هذه المشكلة بوصل الحنفيّة مع قطعة نربيج، ولكن لسجناء تدمر لمستهم التي استطاعوا تركها رغم هول ما عاشوا، فقد جاؤوا بجاط ثقبوا قعره من جانب وثبّتوا على الثقب أسطوانة بلاستيكيّة مفتوحة من الجهتين، هي في الأصل علبة سائل جلي مقصوصة من الجهتين، ومع هذه الأسطوانة وصلوا أسطوانة أخرى مشابهة ثم وصلوا أخرى إلى أن وصل عمود الأسطوانات إلى فوهة التصريف، فصار هذا العمود وسيلة لدعم الجاط، الذي ثبّتوه أيضًا بقسطل الماء، ولتصريف الماء. وصار المجموع يمثّل مغسلة لا ينقصها شيء، حتى إنّهم ثبّتوا على الحائط على يمين المغسلة بواسطة نفق صغير وعروة، حاملة صابونة، تظنّ لأوّل وهلة أنّها مصنوعة خصّيصًا لهذا الغرض، ثم تتبيّن أنّها الجزء العلوي المخروطي من علبة سائل الجلي مقلوبة، فهي ذات انحناء يحضن الصابونة، وفي الوقت نفسه تحتوي على فتحة في منتصفها لتفريغ الماء العالق على الصابونة.

مثل هذه الابتكارات خدمت في صنع ستارة لباب التواليت، وفي صنع سقف متحرّك له. حين تدخل مهجعًا في سجن تدمر عليك أن لا تنزع شيئًا مثبّتًا على حائط أو بساطًا بلاستيكيًّا معلّقًا في مكان ما أو أيّ شيء، عليك أن تحترم كلّ ما هو موجود لأنّه موجود لغاية. وإذا

أنت لم تدرك هذه الغاية في اللحظة سوف تدركها مع مرور الأيّام وتغيّر حالة الطقس، أو مع تزايد عدد سكّان المهجع فوق حدّ معيّن. تكتشف مثلاً أنّ البساط النايلوني المثبّت هنا يمنع وصول الماء إلى الفراش في الشتاء، لأنّ السقف يدلف في هذه النقطة، وأنّ الحبل المجدول المثبّت في باب المهجع لا يمكن الاستغناء عنه لشدّ الباب.. إلخ. وتكتشف أيضًا أنّ هذه العلامات المحدّدة على جدار المهجع تقسِّم المكان إلى أجزاء متساوية تسهِّل توزيعه حين يزداد عدد السجناء داخل المهجع.

الفنّ السجني التدمري هو فنّ أزمات، فنّ ولد في أزمة وغايته حلّ الأزمات. ولا يقتصر هذا الفنّ على ما ترك من بصمات على جدران وأرجاء المهاجع، بل تجده أيضًا في حلّ مشاكل شخصيّة للسجين، في تأمين حقيبة تحتضن أغراضه، وفي تأمين ملعقة يأكل بها، وفي تأمين سكّين ووسائل تسلية لأيّام الشتاء القاسية التي يرتاح فيها السجن قليلاً. من بنطلونات الجينز المهترئة تصنع حقائب لها حمّالة وجيوب خارجيّة وتطريزات حتى.. حقائب تضبّ للسجين أغراضه الشخصيّة فتسهّل عليه نقلها حين ينقلونه من مهجع إلى آخر. وحين يكون السجين من ذوي الأغراض الكثيرة التي لا تتّسع لها حقيبة، هناك الحقيبة الشبكيّة المفتوحة، وهي شبكة مصنوعة من خيطان النايلون المشتقّة بدورها من أكياس الخبز، تُصنع على شكل خرج يتّسع للكثير من الأغراض، ويُجعل لها حمّالتان تمكّن السجين من حملها على ظهره كما يحمل التلميذ حقيبته. وتفيد هذه الحقيبة أساسًا في حمل الأغراض العامّة (أغراض المهجع من جاطات وصابون وبيدونات..).

ومن بلاستيك البيدونات تُصنع المعالق، التي تتدرّج من كونها

قطعة مستطيلة يعرّض أحد طرفيها للنار قليلاً ويجوَّف قليلاً لكي يحمل الطعام، إلى كونها ملعقة قريبة إلى الطبيعيّة وتحمل زخرفات أيضًا. يوفّق السجين بمثل هذه الملعقة إذا أتيح له أن يقتطعها من مكان مناسب من البيدون، بحيث يكون انحناء فم الملعقة موافقًا لانحناء بلاستيك البيدون الأصلي، في هذه الحالة يكون تجويف فم الملعقة «طبيعيًّا» من دون التعريض للحرارة. كانت ملعقتي من هذا الصنف، وأذكر أنّ البيدون الأمّ لها كان برتقاليًّا تشوبه توشيحات خضراء، يعني أنّ بلاستيكه مدوّر أو مكرّر، أي معاد استخدامه. ولم أكن أنا «الفنّان» الذي أبدعها، بل تكرّم بصنعها لي إشفاقًا عمّار أو عمر، لا أذكر بالضبط. وقد تآلفتُ معها وتعلّقت بها ولم أتخلّ عنها، حتى بعد أن هجرتني وفضّلت السقوط في جورة التواليت على أن تكون في جيبي، قصدًا أم عفوًا لا أدري! فارتضيت أن أخرجها وأغسلها مرّات وأُعيدها إلى جيبي وفمي، إذ لا كرامة لعاشق.

حين يثقب البيدون ويفقد وظيفته بصفته وعاء لحفظ الماء يتحوّل إلى مادّة أوّليّة لشتّى أصناف الحاجات. سجن تدمر مملكة الحضارة البلاستيكيّة، والبيدون هو أهمّ مادّة أوّليّة مناسبة لهذه الحضارة. في ساعات يتحوّل البيدون إلى ملاعق وسكاكين (سكّين بلاستيكيّة من دون نصل معدني، نعم! في البداية اعتبرت أنّ مثل هذه السكين لا معنى لها إلّا كلعبة أطفال، ولكن مع الوقت أدركت أنّها نافعة وعمليّة أكثر ممّا يتصوّر المرء، فبعد أن تسنّ «نصلها» على الحائط تستطيع أن تقطع بها التفّاح والبندورة، وأن تقشّر بها البرتقال والجزر، وأكثر من ذلك كنّا نستخدمها لتقطيع الجبس أيضًا) وإلى قحّافة لجمع نفايات الكناسة (هذه الوسيلة تتنوّع تسميتها بحسب المناطق السوريّة إلى حدّ يلفت الانتباه، ويفتح باب المناقشات اللغويّة بين السجناء من مختلف المناطق

السوريّة، في حلب يسمّونها فرشخانة أو لمّامة وفي حوران مجرود وفي الساحل رفوشة أو قحّافة وفي الجزيرة سفّاية) وإلى قطع تفيد في لحم البيدونات المثقوبة الأخرى عبر خياطة هذه القطع على منطقة الثقب.. وأخيرًا، فإنّ قاعدة البيدون يستفاد منها في أن تلبّس على قاعدة بيدون آخر سليم كي تحمي قاعدته الأصليّة من الاحتكاك مع الأرض، وبالتالي كي تطيل عمره.

هنا الفنّ في خدمة الحاجات المادّيّة المباشرة. هنا الفنّ وسيلة مواجهة، أداة تكييف. سجن تدمر لا ينتج تحفًا للمتعة والتهادي كبقيّة السجون. لا مسابح ولا لوحات ولا أطواق أو أساور ولا غيرها. يزول الفارق هنا بين العمل والفنّ. تتراجع الحاجات الروحيّة ويتقدّم هاجس الأمن والأمان. هنا الملل ترف. القلق والترقّب والخوف تحرق الزمن ولا تترك للملل مكانًا. اللحظات الممتعة الوحيدة في هذا المكان هو ما بعد استلام الغداء وأخذ التفقّد. حين ينسحب عناصر الشرطة والبلديّة بعيدًا عن المهاجع وينتهي يوم العمل الرسمي. فلا يبقى إلّا الحرّاس يجوبون على أسطحة المهاجع. عندها وعلى هذا الجسر الهشّ يمكن أن تبني هيكلاً للطمأنينة، عندها يغمر النفس شعور ناعم موقّت بالأمان، عندها يمكن أن تفرد النفس نفسها وتسترخي قليلاً. يمكن الجلوس بتوتّر أقلّ والتحدّث، أحاديث السجناء لا تنتهي، يمتحون من الذاكرة إلى ما لانهاية وتتحوّل الذاكرة إلى مصدر لا يقدّر بثمن، تتحوّل، بعد أن يخالطها الخيال، إلى نبع متجدّد لا ينضب. ومن أجل هذه الفترات الموقّتة اجتهدت قرائح السجناء وأبدعت رقعة وأوراق «أحجار» شطرنج. شطرنج ببعدين فقط. تعتاد عليه وتستمتع. من المهمّ هنا أن يكون الشطرنج بسيطًا وسهل الصنع، لأنّه معرّض للإتلاف المتكرّر. أوّل رقعة صنعناها كانت معقّدة إلى حدّ

ما، حيث طرّزنا على ظهر قميص داخلي أبيض مربّعات سوداء بحيث يمكن لأحدنا أن يلبس القميص «الرقعة» في حال التفتيش أو النقل. فيما بعد استفدنا من أغلفة كروزات الدخان، بعضها ذو لون خاكي وبعضها ذو لون أبيض. فصنعنا منهما رقعة وفق مبدأ نسج الحصير. شرائط بيضاء طويلة يتمّ إدخالها بالتناوب في فتحات معدّة على مربّع من الورق الخاكي. هذه رقعة أجمل وأسهل. أمّا «الحجارة» فكانت من كرتون الكروزات الكرتونيّة أو من كرتون علب المحارم الورقيّة. نرسم البيادق ثم الأحصنة والفيلة.. وهكذا، ثم نقصّها بواسطة التخريم بالإبرة فتصبح «حجارة» مسطّحة.

الحكي فنّ آخر يولد في ثنايا السجن، وكلّما ضاقت شروط السجن كان هذا الفنّ أكثر تطوّرًا. في سجن تدمر ينمو هذا الفنّ وينقسم، كما هو الحال في كلّ السجون، إلى فنّ التحليل وفنّ القصّ. التحليل هو وسيلة تقرُّب من الحقيقة المجهولة التي تتحكّم بنا. قضينا مثلاً ساعات طويلة جدًّا في محاولة فهم دوافع وأبعاد قرار نقلنا إلى سجن تدمر، التحليل هنا نوع من إلقاء الضوء على بقعة سوداء ماصّة للضوء، نوع من حلّ معادلة من الدرجة الأولى تحتوي عدّة مجاهيل. إنّه تعريف المجهول بمجهول آخر. أمام أيّ إجراء أو كلمة أو زيارة نحلّل، أمام إنقاص كمّيّة الأكل أو زيادته نحلّل، وأمام تكثيف التنفّسات أو قطعها نحلّل، وأمام الإكثار من التعليم أو التقليل منه نحلّل. صعب جدًّا أن تجد نفسك وسط شروط لا تملك أدنى سيطرة عليها ولو بالمعرفة. حين يوضع فأر في مكان ما جديد، سوف يبدأ، ما إن يشعر بشيء من الأمان، بالتجوّل كي يستطلع أبعاد وتضاريس ومزايا وخفايا الموقع الجديد، التحليل هو حركة العقل المناظرة لحركة الفأر هذه. لا يستطيع العقل أن يكفّ عن هذه الحركة مهما كانت

معطياته شحيحة، ومهما فشلت استنتاجاته.

بعد زيارة مساعد الانضباط ننشغل بتفاصيل الزيارة، ويكرَّس الوقت كلّه لاستذكار ما قيل وتحليله والربط فيما بين التحليلات للخلوص إلى استنتاجات، استنتاجات فارغة! ينام مساعد الانضباط ملء جفونه عن شوارد ما قال، أمّا نحن فنجهد في تحليلها ونختصم! أمّا زيارة مدير السجن فلها ثقل خاصّ. الزيارة بحدّ ذاتها، بعيدًا عمّا قيل أو لم يقل فيها، لها تحليل. أن يزور مدير السجن مهجعًا ما أمر يحتاج إلى تحليل. ثم ما يقوله المدير يحتمل من التحليل الشيء الكثير. هنا يمكن أن تسأل: هل هناك توجيه مركزي بالزيارة أم مبادرة «محلِّيّة»؟ اللهجة ودِّيّة أم تصعيديّة؟ ثم دلالات مضمون الكلام، والردود على بعض أسئلتنا ومطالبنا.. إلخ. فنّ شدّ الدلالات باتّجاه ما نريد، وفنّ استقراء موعد الزيارة وردود فعل مساعد الانضباط في حضرة المدير.. لا بدّ أن يبرع سجين تدمر بمثل هذه الفنون، لا سبيل أمامه إلّا أن يبرع بها، لا يمكنه أن يمرّ على مثل هذه الأحداث من دون «تحليل». وبعد كلّ شيء نبقى مثل فأر أعمى في خربة، لا نعرف شيئًا عن مصيرنا، ولا نملك من أمرنا شيئًا.

في أحد الأيّام لاحظنا حركة غريبة في باحتنا، كنّا حينها في الباحة الثانية. وشاهدنا من خلال التلصّص عبر ثقب الباب، مدير السجن الجديد، العقيد ذا الشاربين، يدخل الباحة ويتّجه إلى أحد المهاجع المجاورة لمهجعنا. لم نشهد من قبل، حسبما أتاحت لنا قدرتنا على معرفة ما يحيط بنا في ذلك المكان، أن زار مدير السجن أحد المهاجع التي تضمّ الإسلاميين وبعث العراق. كانت تلك الزيارة إذن أمرًا غريبًا حارت عقولنا في تفسيره. بعد زيارة العقيد بدأنا نلاحظ علامات المعاملة التفضيليّة لهذا المهجع، الذي، إلى جانب هذا، كانت تصلنا

منه أصوات طرق لا يمكن السماح بها في أجواء تدمر لولا أنّ في الأمر سرًّا عجزت عقولنا عن الوصول إليه. بعد شهر أو شهرين أو حول ذلك، أبدت لنا الحركة الكثيفة التي شهدتها باحتنا ما خفي عنّا وما كان سيبقى خافيًا لولا فضل ثقب الباب الذي أتاح لنا رؤية السرّ مكشوفًا ولا يحتاج إلى تحليل. لقد كان عناصر البلديّة محاطين بعناصر الشرطة العسكريّة ينقلون تمثالاً ضخمًا لفارس على حصان. ذلك إذن كان السرّ. في المهجع ذاك يوجد إذن فنّان نحّات كان ينجز هذا التمثال لصالح إدارة السجن. وكانت ستبقى كلّ التحليلات عاجزة عن كشف هذا السرّ لولا أن رأيناه عاريًا أمام عيوننا المتلصّصة.

فنّ التحليل، على عكس الفنون العمليّة الأخرى، يفيد في تلبية حاجة العقل للحركة وحاجة النفس للاطمئنان، أي هو غاية ذاته ولا يرمي إلى ما هو أبعد من ذلك.

في جلسات ما بعد توزيع الغداء وأخذ التفقّد والانتهاء الرسمي للدوام يترعرع فنّ القصّ، متعة القصّ ومتعة الإصغاء إلى حكاية مع تناول الشاي البارد حين تسمح حصّة الشاي بذلك. حكاية تذكّر بحكاية. هناك من يميل أكثر إلى القصّ وهناك من يميل أكثر إلى الإصغاء. أمامنا بضع ساعات قليلة التوتّر، تملأها الحكايات التي ما إن تُحكى حتى تصبح ملكيّة عامّة وموضوعًا للتعليق والاستفسار. مثلاً حكيت مرّة قصّة حقيقيّة من ضيعتنا:

«كان في ضيعتنا شابّ أعرج يعمل في مقلع الإسفلت. أحبّ الفتاة التي تحضر الماء إلى العمّال، ومع الأيّام ظهر الأمر عليهما، فعلم أبوها بذلك ومنعها من العمل، وحرمهما بذلك من اللقاء. كانت البنت من ضيعة مجاورة لضيعتنا. طلب الرجل من فتاة أخرى من تلك الضيعة نفسها وتعمل أيضًا في المقلع أن تكون مرسالاً بينهما، فقبلت.

بدأت الرسائل الشفويّة بينهما إلى أن قرّر الرجل أن يخطفها في إحدى الليالي. فأرسل لها أن تجهّز نفسها وحدّد لها موعدًا في مكان قريب من قريتها. وحين كان الرجل ينتظر على فرسه في الموعد المحدّد جاءت الفتاة وسط العتمة وبيدها صرّة ثيابها وحاجياتها. سُرّ الرجل كثيرًا وساعدها بصمت للركوب على ظهر الفرس، ليكتشف بعدئذ أنّ هذه ليست حبيبته بل الفتاة المرسال بينهما. صعب عليه أن يعيدها وقبل بنصيبه وفرّ بها وتزوّجها، وكانت زوجة ممتازة له وكان شديد الرضا بها».

وتبدأ التعليقات: «شو كلّ نسوانكم غدّارات هيك؟» أو «كلّ الزلم عندكم مغلوب على أمرهم؟» أو «فعلاً هالمرسال شاطرة، جابت الحظّ لحالا»، أو «بالله كيف طلعوا بناتها؟» أو «ما يختاره القدر للرجل أفضل ممّا يختاره لنفسه!»... إلخ.

حكايات وتعقيبات تعين على تبديد القلق والزمن.

أوديب حارسًا

من عادة الإنسان، وربّما غريزته، حين تضيق به السبل أن ينظر إلى الأعلى حيث السماء باتّساعها تفرّج قليلاً عن النفس، وحيث ينتظر الإنسان الرحمة من السماء الموطن المفترض للآلهة الخيّرين على تعاقب العصور. أمّا في سجن تدمر فمن الكبائر أن تنظر إلى أعلى ومن الأعلى لا يأتيك إلّا الشرور. على أسطح المهاجع حرّاس دائمون يناوب كلّ منهم ساعتين، إمّا أن يقضيهما في الصلاح والتقوى، نائمًا أو مغنّيًا أو لاهيًا أو ساهمًا أو أيّ شيء بعيدًا عن الشرّاقة، وإمّا أن يقضيهما في الأذى. وأكثر ما ينشط هؤلاء في الليل، حيث يكون الليليّ وحيدًا ينتظر راجيًا أن تنقضي ساعتاه بخير.

عناصر الحرس شباب في الخدمة الإلزاميّة، وهم ممّن لم يكملوا تعليمهم، فهم إذن غالبًا دون العشرين من العمر، عالمهم هو الجنس والعدوانيّة. ومن سوء حظّ الليليّ أن تصادف مناوبته مع مناوبة حارس مؤذ. كان أحد هؤلاء الحرّاس حارسًا تعارفنا عليه باسم أوديب، وهو فتى لم ينضج صوته بعد، إذ ما يزال يحمل بعض ملامح الصوت الأنثوي. حدث في أحد الأيّام أن وقف هذا الحارس على الشرّاقة وخبط برجله على حافّتها، هذه الحركة تعني دعوة الليليّ إلى تلبية النداء. هرع الليلي! إلى تحت الشرّاقة وخبط رجله على الأرض محييًا:

ـ حاضر حضرة الرقيب أوّل!

ـ شو في عندك يا أخو الشرموطة! قال أوديب بصوت عال مرتجف كأنّه واقع تحت تأثير غيظ مكظوم أو ارتباك ما.

ـ الكلّ نايمين ومطمّشين حضرة الرقيب أوّل! قال الليليُّ وفق الكليشه «الرسميّة». (السجين الجيّد هو السجين النايم والمطمّش، هذه حالته المثلى).

ولكن أوديب كان حينها أسير غريزة أقوى منه. واضح أنّه لن يترك الشرّاقة قبل أن يفرغ سمّه.

ـ مين في بالتواليت يا عرصة؟

ـ ما في حدا حضرة الرقيب أوّل! أجاب الليليُّ بصوت عال.

ـ لأ في حدا، هَيْ أختك بالتواليت وهالمنايك عم يفوتوا ينيكوها بالدور. ما هيك يا منيوك؟

ـ لأ، حضرة الرقيب أوّل! قالها الليليُّ بعد تردّد وجيز عجز خلاله عن تهميش وتجاوز كلام ذاك الفتى المهووس، وبات من

المستحيل عليه أن يجاريه في رسم المشهد البورنوغرافي ذاك مهما كانت العاقبة.

ـ عم تقول لأ يا منيك!؟ هَيْ أمّك وأختك جوّا وعم يتناوبوا عليهم، وأنت كنت جوّا عم تنيكون يا عرصة، ما هيْك ولا!؟ أيري بكسا لأمّك ولأختك يا عرصة، ما هيْك ولا!؟

جرى هذا المشهد الصوتي على مسمع كلّ «النايمين ومطمّشين»، تخال من نبرة الصوت وارتجافه أنّ أوديب كان يستمني على وقع الإثارة التي يحقّقها له هذا الخيال الذي يريد من الليليّ أن يشاركه به.

ـ لأ، حضرة الرقيب أوّل!

ـ عم تقول لأ ما هيك، علّملي حالك يا أخو الشرموطة. بكرا بتشوف يا منيك، والله لنيك اللي نفضك!

صباح اليوم التالي، جاء أوديب ينتقم من الليليّ الذي رفض أن يشاركه استيهاماته!

حارس آخر حلّ ضيفًا أثناء مناوبة ياسين، فساءه أن يرى أحذيتنا موضوعة عشوائيًّا في أرض المهجع، وكان من رأيه أن يقوم الليليُّ بترتيبها في مكان واحد. الأمر يبدو طبيعيًّا، فالحارس حريص على رتابة المهجع، ولا يضير الليليُّ أن يقوم بذلك، سوى أنّ هذا الحارس لا يقبل إلّا أن يقوم الليليُّ بنقل الأحذية بفمه.

أمّا «الوعر»، سمّيناه كذلك، لأنّ لهجته كانت تشبه، كما قيل، لهجة أهل منطقة الوعر في حمص، فقد كان يتمتّع ببرود المجرمين اللزج، كان يخبط برجله على الشرّاقة كي يهرع الليليُّ إلى تحت الشرّاقة ويؤدّي واجبه «التدمري» فيخبط رجله بالتحيّة ويعلن عن حضوره بالصياح: «حاضر حضرة الرقيب أوّل!» ثم يصمت مستمتعًا

بسطوته طويلاً قبل أن يسأل: «شو لون كس أمّك ولا!؟» اعتدنا على سؤاله وعلى ألوانه المفضّلة.. حتى إنّه صار بسؤاله يستبدل كلمة «أمّك» بالضمير فيقول ببساطة «شو لون كسها؟». ذات يوم هبط الوعر فجأة على الشرّاقة في إحدى المناوبات، وبادر الليليّ ببروده المعتاد:

ـ شو لون كسها ولا؟

ـ متل ما بدّك حضرة الرقيب أوّل!

ردّ الليليّ بعاديّة كأنّه يردّ على أحد الأسئلة الروتينيّة التي توجّه إلى الليليّ مثل: شو في عندك؟ أو: مين في عندك بالتواليت؟ أو: الكلّ نايمين ومطمّشين؟ لكنّ الحارس غيّر الاتّجاه:

ـ لون كس مرتك أحمر ما هيك يا عرصة!؟

فوجئ الليليُّ، الذي صادف أنّه متزوج، بهذا التحويل. يبدو أنّ الكلام على الأمّ يصبح بعد أن يتزوّج المرء أقلّ إيلامًا وأقلّ إشعارًا بالعار بكثير من الكلام على الزوجة. لم يجب الليليُّ بشيء. أصرّ الوعر بنبرته الباردة المبطّنة بتهديد مقتدر. وجد الليليُّ نفسه بين نارين، وتحت ثقل الخوف، تهدّج صوته وأجاب بانكسار وإحساس بالعار:

ـ متل ما بدّك حضرة الرقيب أوّل!

ـ قول شو لون كس مرتك يا منيك!

لو كان الليليُّ غير متزوّج لصار الأمر نكتة، ولو استسهل هذا الليليُّ المتزوّج الأمر واستطاع أن يساير الحارس من دون أن يعطي وزنًا لكلامه، لو استطاع أن يفصل بين كلام الحارس ومدلولاته، أن لا يتفاعل مع هذه المدلولات، لما شعر ربّما بالحرج والإهانة. لكن ليس من السهل ذلك، وقد تلكّأ الليليُّ فصارت كلمات الحارس مشبعة بمعانيها وصار الليليُّ مشبعًا بالحرج والإهانة والعار، وصار محاصرًا

بحرجه أمام نفسه وأمام مستمعيه «المطمّشين»، وبالتهديد المسلّط فوق رأسه، فقال:

ـ أحمر سيدي!

صمت الحارس فترة تاركًا لشعور الإهانة فرصة أن يقصي ما تبقّى من كبرياء عند الليليّ، قبل أن يقول بنبرة محمّلة بالاستعلاء الفارغ وبالاشمئزاز:

ـ انقلع!

لأيّام تالية لم تهدأ نفس هذا الليليّ الخمسينيّ الذي يمتاز بصدق وطيبة نادرين. ولما تبقّى له من عمر ستبقى ندبة هذا الكيّ السفيه حاضرة في نفسه.

أسوأ حالات التعليم تلك التي تصدر عن الرقيب. يمكن أن يعلّمك الحارس ثم يرفض الرقيب تنفيذ العقوبة، أمّا حين يعلّمك الرقيب فالعقوبة نافذة غالبًا. كلّ ستّة أشهر كنّا معرضين لدخول مجنّدين ورقباء أو عرفاء جدد، كلّ ستّة أشهر نترقّب بخوف الوافدين الجدد من مجنّدين ورقباء، وقد اعتدنا على التحوّلات الدراميّة التي تخطف المجنّد الغرّ من حالة الخجل والتردّد والمسكنة في الفترة الأولى لاستلامه المهامّ في سجن تدمر إلى حالة من العدائيّة والبذاءة والأذى، حتى إنّ القاعدة الغالبة هي أنّ من يبدو مسالمًا ومسكينًا في الفترة الأولى سرعان ما سيخلع عنه هذا الثوب ليتكشف عن شخص آخر تمامًا. وقد ابتلينا مرّة برقيب تعارفنا عليه باسم «النتن» إذ لا يليق به اسم آخر. يمكن أن تتوقّع منه أيّ شيء. وقف مرّة على شرّاقة المهجع المجاور لنا، كنت أنا الليليّ في مهجعنا حينها، وكان هذا في عزّ برد الشتاء، اختار ضحيّة له وطلب من الليليّ أن يحضر بيدون ماء

ويصبّه على ضحيّته وهو نائم. لك أن تتخيّل سجين يلفّ نفسه بما تيسّر له من أغطية في برد الصحراء الذي لا يرحم، تجود عليه السماء فجأة ببيدون ماء سكبًا من الرأس إلى القدمين وبالعكس. أوّل مرّة أسمع شخصًا يصيح من البرد بصوت حادّ له تقطيعات ووتيرة وشدّة خاصّة بسبب تشنّج الحنجرة وعضلات الصدر والبلعوم. لا شكّ أنّ ترسانة هذا السجين المنكوب من الأغطية والملابس قد خرجت من الخدمة إلى أجل بعيد. ولك أن تتخيّل أيضًا مدى الرعب واصطكاك الركب الذي انتابني وانتاب كلّ «النايمين والمطمّشين» الذين تناهى إلى سمعهم ما جرى. النتن لا يتورّع عن فعل أيّ شيء.

النتن هذا الذي لم يكن يملّ من الحديث مع عناصر الشرطة والبلديّة عن فحولته، وعن طول قضيبه البالغ ٢٦ سنتمترًا بحسب قوله المكرّر الذي صار يعرفه السجناء والسجّانين على السواء، علم فيما يبدو أنّ مهجعنا هو مهجع شيوعيين، والشيوعيّون مثقّفون وحملة شهادات عالية بحسب النظرة العامّة، لكنّه لم يعلم أنّ هؤلاء الشيوعيين المنكوبين معتقلون قبل فترة طويلة من استضافتهم في تدمر، وقبل أن يتاح لهم إتمام دراساتهم وحمل الشهادات، لذلك كان يقف على الشرّاقة يسأل الليليّ عن شهادته فقط ليقول له إنّ أيره أفهم منه، وليرفّه أيره بجولة تشمل الليليّ وكلّ عائلته، وكان يطيب له لسبب ما التركيز على الجدّات، ثم يعطي نفسه فترة كافية للاستمتاع بوجوده سيّدًا في دار لا يغني فيها المرء شهاداته وما كسب، ولا ينفعه سوى عمله «الصالح».

حارس مبدع آخر وقف على الشرّاقة خبط برجله على حافّة الشرّاقة، فهرع الليليّ إلى تحت الشرّاقة: حاضر حضرة الرقيب أوّل! الحارس دوزن الليليّ إلى أن جعله بالمكان المناسب، خطوة لليمين،

خطوة للخلف، صمت لفترة، ثم يسقط سائل دافئ لزج قليلاً، بحسب وصف الليليّ، يسيل على جبينه نزولاً عبر تضاريس الوجه. التقدير أنّه بصاق. لم نسمع الصوت الذي يصدر عادة عن فعل البصاق، يبدو أنّ الحارس ترك لعابه يسيل تلقائيًا ليسقط بقوّة الجاذبيّة على رأس الليلي. وقبل أن يغادر الحارس قال:

ـ دير بالك تمسحا ولا! بكرا بدّي شوفا على وشك هاه!

أمّا قصص أبو رائد وتمرينه السادس فلا تنتهي، يطلب من الليليّ أوّلاً مجموعة حركات منبطحًا واقفًا على سبيل التحمية، ليطلب منه بعد ذلك أن يتّخذ وضعيّة التمرين السادس ثم يقول: أح! ويغيب على أن يعود ليرى الليلي بوضعيّة الأح، فيعطيه الإيعاز: اتنين! وقد ينسى هل أعطى الإيعاز أح أم اتنين، عندها يتحمّل الليليّ تبعات ذلك. إحدى المرّات نسي أصلاً أنّه طلب من الليليّ أن ينبطح، وغاب طويلاً ثم مرّ عرضًا بجانب الشرّاقة ليجد الليلي في وضعيّة الانبطاح:

ـ ليش عامل هيك ولا عرصة!؟

ـ سيدي أنت طلبت منّي!

ـ أنا طلبت منك! علّملي حالك يا حمار!

عصفور الدوري

كنّا ٢٢ سجينًا شيوعيًّا قسّمونا إلى مجموعتين متساويتين، وضعوا المجموعة الأولى، وكنت منها، في مهجع اسمه جديد صدر، والمجموعة الثانية في مهجع يدعى المستوصف. بعد ستّة أشهر نقلوا مجموعة جديد صدر إلى مهجع المستوصف. كانت حركة مريحة، من جهة اجتمعنا من جديد، ومن جهة ثانية يتميّز مهجع المستوصف بأنّه يحوي مساحة واسعة ميتة بالنسبة إلى الشرّاقة. يمكنك في هذه

المساحة أن تقوم بما تشاء، أن تستلقي، أن تلعب الشطرنج، أن تتحدّث براحة. . . إلخ. حتى إنّنا في هذا المهجع بدأنا بدورة تعلّم اللغة التركيّة مستفيدين من وجود بكر الذي يتقن اللغة التركيّة. نكتب بالإبرة على ورق القصدير الذي يبطّن علب السجائر، أو بعود الكبريت المحروق الرأس أو بزاوية عبوة معجون الأسنان بعد حفّها قليلاً على الحائط وبلّها بقليل من اللعاب، على الوجه الأبيض، غير القصديري، من الورقة. كنت راغبًا في تعلّم هذه اللغة التي فاجأني أنّها لا تحوي اسمًا موصولاً مستقلًّا كبقيّة اللغات. في كلّ لغة خبايا منطقيّة تغري بالتعلّم. سبق أن تعلّمت اللغة الروسيّة وكان يدفعني الفضول في بداية تعلّمي لمعرفة كيف يمكن قراءة نصّ في تلك اللغة التي لا تحوي أدوات تعريف أو تنكير، وبعد أن تعلّمتها رأيت أنّه يمكن الاستغناء بالفعل عمّا يبدو شيئًا لا يمكن الاستغناء عنه. لا يمكن أن يتخيّل من لم يطّلع على اللغة الروسيّة كيف يمكن كتابة نصّ من دون أدوات تنكير وتعريف. ولكن بعد أن تتعلّم الروسيّة لا تجد من حاجة للتنكير والتعريف. ومن السمات المنطقيّة في اللغة الروسيّة أنّ الجملة المنفيّة لا تحوي مفعولاً به. فحين نقول مثلاً: لم يأكل الولد التفّاحة، يكون من غير المنطقي أن تكون التفاحة مفعولاً به لأنّه لم يقع أيّ فعل عليها. كانت رغبتي في معرفة منطق اللغة هو ما دفعني لمحاولة تعلّم اللغة التركيّة في «مستوصف» تدمر.

على أنّ أجمل ما كان في مهجع المستوصف في الشتاء أنّه كان مبيتًا لأحد عصافير الدوري. فالمهجع هذا بناء فرنسي قديم يتميّز بارتفاع سقفه، وارتفاع السقف إضافة إلى شبه انعدام الحركة من قبلنا بسبب شروط السجن القاسية، جعلا من أشرطة الكهرباء المتشابكة التي تغذّي لمبة السقف مكانًا صالحًا لنوم عصفور.

حين تميل الشمس للمغيب في الشتاء يدخل من الشبّاك الصغير الكائن تحت السقف مباشرة (هو في الواقع طاقة أكثر من كونه شبّاكًا) عصفورا دوري، أحدهما ذَكَر ببقعة سوداء على صدره، وآخر من دون بقعة، أي أنثى. يحطّان لبعض الوقت على شرائط الكهرباء، يعاينان المكان مجدّدًا ثم تخرج العصفورة ويبقى الذكر ليبيت. أحيانًا كان يرافقها إلى الخارج قليلاً ويعود، يفلّي نفسه لبعض الوقت ويراقب محيطه بحذر قبل أن يطمئنّ إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام، فينفش ريشه ثم يضع رأسه تحت جناحه وينام. أن يشاركنا هذا الطائر الوديع الغرفة شيء يدخل في النفس الهدوء. لم أكن أملّ من النظر إليه، وجوده كان يشعرني بالطمأنينة، على أنّ هذا الشعور لم يكن عامًّا لدى الجميع. العصفور بدوره أمن جانبنا، كنّا نقوم ونمشي ونتحرّك تحته من دون أن يرتكس لأفعالنا. ومع انبلاج الفجر كان يستيقظ ويصدر زقزقة حادّة وممطوطة عدّة مرّات قبل أن يطير خارجًا من المهجع، وبعد قليل تملأ زقزقة عصافير الدوري أرجاء السجن. العلامة الأولى للصباح في سجن تدمر هي زقزقة عصافير الدوري. يمضي «عصفورنا» سحابة النهار خارج المهجع ويعود للمبيت، وفي أحيان قليلة كان يدخل لوقت قصير إلى المهجع كما لو أنّه يتفقّد مكانه ويقفل راجعًا. كان لهذا العصفور فيما يبدو موقع مهمّ في عالم عصافير الدوري، فزقزقته الصباحيّة الحادّة كانت فاتحة الضجيج العصافيري الصباحي.

فيما بعد، سيكون لنا في الباحة الخامسة احتكاك أوسع مع عصافير الدوري. في تلك الباحة المرفّهة التي كان لنا نصيب المكوث فيها ثلاثة أشهر ذهبيّة، كان يمكنك أن تجمع عشرات عصافير الدوري ما إن تفتّت قطعة خبز وترميها في الباحة. عشرات عصافير الدوري تهبط من كلّ مكان استجابة لهذه الدعوة. من على الأسطح ومن طوق

الزنازين ومن على شجرات الكينا الموزّعة في أنحاء السجن تهبط عصافير الدوري وتلبّي الدعوة. يأخذ عصفور الدوري غنيمته ويطير عائدًا إلى مكان عال كي يأكلها، لا يأمن الدوري أن يأكل خبزته على الأرض. يعتمد حذر الدوري على النفور من كلّ ما هو مغاير أو غير معتاد. ذات مرّة جرّبنا فكرة قديمة معتمدة في صيد العصافير حيّةً. تعتمد الفكرة على ربط قطعة الخبز الصغيرة بخيط ينتهي بثقل ما، ليكن قطعة معدنيّة خفيفة أو قطعة فلّين أو ما شابه. حين يلتقط العصفور الخبزة ويطير سيلتفّ الخيط بفعل الثقل الذي يحمله حول جناحيه، ويمنعه من الطيران، فيسقط العصفور ويتمّ الإمساك به حيًّا. مع عصافير الدوري لا تنفع هذه الطريقة. فلقد طبّقنا الفكرة فعلاً، وحين هبطت عصافير الدوري لتأخذ غنائمها، ظلّت قطعة الخبز الملغومة وحدها على الأرض لم يلتقطها أيّ عصفور.

خلع ضرس

في سجن عدرا كنت من المداومين على العيادة السنّيّة، كان دور الجناح السياسي فيها مرّة في الأسبوع. في سجن تدمر تفاقم وضعي السنّي إلى درجة بتّ لا أستطيع مضغ الطعام على أيّ من الجهتين. خرج أحد أضراسي العلويّة من الخدمة تمامًا بفعل انكشاف عصبه، فاعتمدت في المضغ على الجهة الأخرى، غير أنّ الضرس العلوي المناظر له أعلن إفلاسه هو الآخر فصار ضغط اللقمة على أيّ منهما يعني إطلاق نوبة ألم لا أدري متى تنتهي. بقيت بضعة أشهر يقتصر طعامي على ما لا يحتاج للمضغ: رزّ أو برغل مخلوط مع مرقة حمراء، ألوكه قليلاً بين اللسان وسقف الحلق ليسهل بلعه، لبن حين يتوافر، خبز منقوع بالشاي البارد.. إلخ. كنت قد وطّدت نفسي على

الاستمرار في هذا الوضع إلى فترة غير محدّدة. لا مجال لأيّ حلّ. إذا شكوت أمرك فلن يستجيبوا غالبًا، طالما أنّ الأمر لا يهدّد الحياة. وإذا استجابوا فليس هناك سوى خلع الضرس وبطريقة «تدمريّة» تحمل معها مخاطر النزف والتلوّث.

وقد حدث أن زارنا مدير السجن وكنّا آنئذ في مهجع «الحمّام»، الذي صار يُتعارف عليه بعد سيادة الترقيم المهجع ٢/٢. طرح رئيس المهجع مشكلتي من بين مشاكل أخرى تخصّ المهجع، فأبدى المدير تعاطفًا واستعدادًا تامًّا لحلّ هذه المشكلة قائلاً إنّ لديهم عيادة سنيّة حديثة ومتكاملة.

ـ مين اللي عم يوجعو ضرسه؟ سأل المدير.

رفعت يدي وزدت في إحناء رأسي، إظهارًا للانصياع وطمعًا في تلك العيادة السنّيّة. لم يسأل المدير عن الاسم. فالسؤال عن الاسم ممنوع أمام العناصر، يجب أن تبقى الأسماء في علم دائرة ضيّقة من الإدارة فقط. ولكنّه توجّه إلى مساعد الانضباط وقال:

ـ بكرا بتاخدوه عند طبيب الأسنان!

بالفعل، جاء الرقيب في اليوم الثاني وأخذني إلى «العيادة السنّيّة». كانت العيادة السنّيّة حديثة ومتكاملة أكثر ممّا تصوّرت. فهي عبارة عن كرسي خيزران موضوعة وسط باحة إلى جوارها تربيزة عليها عدّة الطبيب. هذا ما استطعت رؤيته من تحت الطمّاشة. يوجد عناصر شرطة تميّزهم من أبواطهم العسكريّة، وعناصر بلديّة تميّزهم من شحّاطاتهم ولباسهم الفقير والمتّسخ. الطبيب كان ببوط عسكري، ثم تبيّن لي أنّه بعقل عسكري أيضًا. فقد بادرني بالقول:

ـ اندفس هون!

جلست على الكرسي وقد بات القلق والخوف مثل كتلة رجراجة تملأ صدري. أيقنت أنّ هذه «العيادة السنِّيّة» هي من الحداثة والتكامل إلى حدّ أنّها لا تعترف بغير خلع الأضراس. سلّمت بهذه الحقيقة ورضيتها، ولكن ماذا عن التخدير، هل تكون الإبرة ملوّثة؟ هل تعرف هذه العيادة الميدانيّة «الصيفيّة» إبر تخدير نبوذة تستخدم لمرّة واحدة؟ هل تكون العدّة ملوّثة؟ أخرجني من تساؤلاتي صوت الطبيب مرّة ثانية:

ـ افتح بوزك ولا!

كم هو أسلوب مطمئن! كان هذا الطبيب نزقًا لا يبدي استعدادًا حتى لسماع قولي عن الجهة التي تؤلمني. فتحت فمي وأشرت بإصبعي إلى الضرس المؤلم. عندي أكثر من ضرس مسوّس في الفكّ العلوي، فخشيت أن يخلع الضرس الخطأ، أن يقتلع ضرسًا لا يؤلمني، إن لم يكن حرصًا على الضرس فخوفًا من أن لا تحلّ مشكلتي. كنت على الكرسي ورأسي يميل إلى الخلف ممّا سمح لي بزاوية رؤية من تحت الطمّاشة، وكان كلّ همّي ينصبّ على نوعيّة إبرة التخدير. رأيت الطبيب يفتح غلاف الإبرة ما يدلّ على أنها تستخدم لمرّة واحدة، فاطمأنّ قلبي من هذه الزاوية، ولكن ماذا عن الألم وماذا عن العدّة؟ اقترب الطبيب منّي وغرس الإبرة في لثّتي فوقع وجهه ضمن مجال رؤيتي. طبيب شابّ في أوائل العشرينيّات من عمره، بعينين زرقاوين وشعر أشقر. تدلّ ملامحه على أنّه من النوع النكد. انتهى من التخدير وهمّ لإحضار الكلّابة فلاحظ أنّ طمّاشتي قد ارتدّت قليلاً إلى الخلف بما يسمح لي برؤية أوسع، فخبط كامل يده على الطمّاشة فوق عينيَّ وسحبها إلى الأسفل بحركة عدائيّة ينتظرها المرء من شرطي أو من عنصر بلديّة، ولا يتوقّعها من طبيب.

أحضر الكلّابة وراح يعالج الضرس يمينًا وشمالاً. الضرس سليم

سوى من نخر صغير عميق يصل إلى العصب. تعب الطبيب في مناوراته وانزاحت الكرسي تحتي مرارًا، ومرارًا طلب منّي بكثير من النزق والكراهية أن أفتح «بوزي» أكثر وأثبّت رأسي، ومرارًا كدت أختنق ببصاقي وأرفع يدي طلبًا للنجدة حتى يأذن الطبيب باقتراب عنصر بلديّة يحمل في يده كيس نايلون (كيس خبز فارغ) ـ ماذا يحصل في هذا السجن في غياب أكياس الخبز؟ ـ أبصق فيه ثم يتابع الطبيب مناوراته. طال الأمر قليلاً، استخدم الطبيب قوّة زائدة عن اللازم فانكسر الضرس بين فكّي الكلابة. كان ألمي محمولاً، ولكن حين شعرت بانكسار الضرس خفت! هذا قد يضطرّ الطبيب إلى خلع جراحي، وما يعني هذا من تعرّض أكبر للتلوّث ومن ألم أكثر ومن احتكاك أكبر مع العناصر، وكلّ احتكاك مع العناصر هو مجلبة للأذى النفسي والجسدي. نفخ الطبيب كثيرًا وعصّب على كلّ من حوله، ولكنّه في النهاية تمكّن من إمساك ما تبقّى من تاج الضرس الذي بات منهكًا بفعل المناورات المتكرّرة، وخلعه. ارتحت لخلاصي وبتّ لا أريد شيئًا سوى العودة إلى المهجع (ما هو سرّ لذّة العودة؟ العودة إلى البيت من المدرسة، العودة إلى البيت بعد سهرة، العودة إلى المهجع بعد تنفّس أو تفتيش أو دفع فاتورة، العودة إلى البيت بعد سجن! هل هي ضروب من لذّة العودة إلى الرحم حيث لا وعي، إلى جنّة مفقودة؟). سمح لي الطبيب بالبصاق في كيس النايلون، ثم وضع كتلة من القطن في مكان الضرس وطلب منّي أن أعضّ عليها، وأعطى الرقيب ظرفين من الدواء لي كي يسلّمهما لرئيس المهجع. بعد ذلك أمسكني عنصر بلديّة في يدي وانطلق باتّجاه المهجع. لكنّ الطبيب لم يقصّر في توجيه ملاحظته الأخيرة لي: الحمّام الساخن ممنوع لمدّة ٤٨ ساعة. يبدو أنّ هذا الطبيب لا يعلم أنّ سجين تدمر لا يعرف طعم

الماء الساخن لا في شرابه ولا في اغتساله؟

زيارة

بعد أكثر من سنتين من تحويلنا إلى سجن تدمر جاءتني زيارة. نقر الرقيب على الباب وقال بصوت منخفض فلان يجهّز نفسه للزيارة (يخفض الرقيب صوته تحسّبًا من أن يسمع الحارس على السطح اسم السجين). صاح مازن بابتهاج: راتب زيارة! الزيارة تساوي عيدًا. هناك أخبار، هناك نسمة هواء من الخارج. هناك موادّ للأكل واللبس، هناك ربّما أغطية وأدوية، وفوق كلّ هذا هناك كسر للروتين، هناك أمل بكسر شيء من عدائيّة العناصر تجاهنا، بنوع من التطبيع مع عناصر السجن. كيف يمكن أن ننسى مثلاً تلك الزيارة الخارقة، زيارة مازن حين تمّ كسر أحد أركان نظام سجن تدمر، أحد مقدّساته، وهو النوم في السابعة مساء. والنوم في السابعة يعني النوم في السابعة إلّا ربعًا، كي لا يقف حارس ما على الشرّاقة في السابعة إلّا عشر دقائق مثلاً، ويقول لك إنّ ساعته تشير إلى السابعة ولماذا لم تنم بعد.

في تلك الزيارة حصل أهل مازن على وعد من مدير السجن بأن يدخلوا لنا الأكل المطبوخ وأن يسمحوا لنا بتناوله قبل أن يبرد. المدير وعد بذلك ولم يُعلم مساعد الانضباط، وهذا منع إدخال الأكل حتى يأتيه أمر المدير. بعد ساعات من الزيارة علم المدير بعدم إدخال الأكل لنا، فبهدل المساعد وأمره بإدخال الأكل فورًا والسماح لنا بتناوله، ولكن كان موعد النوم قد اقترب. المشهد الذي ربّما لم يشهده سجن تدمر منذ تأسيسه، هو سجناء يتحلّقون على مائدة عامرة مفروشة في أرض المهجع وتحت الشرّاقة (يا للتحدّي!) يأكلون ويتحادثون بصوت عال وبعد الساعة السابعة. تلك الليلة سمح لنا مساعد

الانضباط، بعد أن تلقّى بهدلة المدير، بالسهر حتى التاسعة. أحد عناصر الحرس الذين لم يتمّ إعلامهم بهذا، ذُهل وكاد يهستر لمرأى هذا المشهد، فصاح كأنّه يرى كفرًا أمامه ويريد أن يصلحه بيديه:

ـ شو هاد، شو هاد!! ولا منايك شو عم تساوو!؟ ليش ما نايمين لهلّق ولا عرصات!؟ العمى! رئيس مهجع ولا!

لأوّل مرّة لم تتوقّف اللقمة في البلعوم ولم تجفّ الأفواه لسماع صوت الحرس من الشرّاقة. وقف مازن (رئيس المهجع) بكلّ ثقة وقال:

ـ هَيْ تعاليم المساعد حضرة الرقيب أوّل!

فوجئ العنصر بثقة الردّ، وفوجئ وقد رأى من الشرّاقة نوعيّة الطعام المفروش على الأرض وأدرك أنّ في الأمر أمرًا، فبدأ مناورة التراجع (المرّة الأولى التي نشهد فيها قليلاً من انكسار جبروت الشرطي وانسحابه أمامنا، شعور ممتع!) وهبطت حدّة نبرته بشكل عمودي.

ـ أكيد المساعد سامحلكم ولا!؟

ـ نعم حضرة الرقيب أوّل!

ـ طيّب، تابع!

ذاك يوم لا ينسى. غفلنا فيه عمّا بعده. بهتت فيه هيبة مساعد الانضباط الذي ساهم بيده في إدخال أغراض الزيارة، والذي رضي أن يأخذ بعض أغراض الزيارة مثل كيس القهوة إذ لا يمكننا الاستفادة منه في غياب أيّ مصدر حراري وأيّ وعاء معدني داخل المهجع. كان لا بدّ من استعادة الهيبة صباح البوم التالي، هذه مسلّمة غفلنا عنها، والذي دفع ثمن استرداد الهيبة هذا هو عمر. كان قد جرى تعليم عمر

من قبل، وظنّنا أنّ عيد الزيارة قد جبّ ما قبله، ففوجئنا صبيحة «العيد» بطلب المعلّم ومعاقبته بقسوة. رسالة واضحة تعيد تذكيرنا أنّنا في سجن تدمر!

جهّزت نفسي للزيارة. لبست اللباس الذي جئت به من عدرا. كنّا في أواخر كانون الثاني وكان الطقس باردًا. عاد الرقيب بعدئذ واصطحبني. هذا الرقيب هو نفسه «أبو الميّة» الذي صار فيما بعد أبو كريم وهذه قصّة لها مكانها. لم أشعر بوجود أحد غيره، كان ودودًا، وقال لي إنّ أمّي وخطيبتي جاءتا لزيارتي. لم أعلّق على كلامه، ولكن لا خطيبة لي! فكّرت ربّما هناك من ستدخل بصفتها خطيبتي (تبيّن فيما بعد أنّها ابنة أخي وأنّ الرقيب ظنّها خطيبتي). وصلنا إلى جانب حائط، طلب منّي الوقوف. وقفت طويلاً، تقف مطمّشًا ومطأطئ الرأس ووجهك إلى الحائط ويداك مسبلتان إلى جانبيك. الوقوف هكذا يجعلك عرضة للأذى، تشعر أنّك مستباح، يمكن أن يلطمك كلّ من يمرّ بجانبك بمن فيهم عناصر البلديّة، ولا يقلّ عن اللطم أذى الشتم الذي تتعرّض له، كأنّ للجميع ثأرًا عندك، كأنّ هؤلاء العناصر ليسوا حماة شأن عام بل شأن شخصي. بعد فترة طويلة مرّ بجانبي الرقيب نفسه وسمح لي بالجلوس. جلست طويلاً أيضًا. برد وهواجس. لماذا كلّ هذا التأخير؟

بعد حوالى ٣ ساعات جاء الرقيب، رسم لي الخطوط الحمر (كيفكم شو أخباركم، نحنا منيحين، وبسّ! أيّ كلمة برّا الطريق أنت بتعرف!) وقادني إلى شبك الزيارة. وجدت أمّي وحيدة على الجانب الآخر من الشبك. وحيدة إلى جوارها ثلاثة عناصر من الشرطة، لم تتعرّف عليّ للحظات (شاحب نحيل بلا شعر ولا شوارب). كانت تلك أوّل مرّة تراني أمّي منذ حوالى ثلاث سنوات. حين سمعت صوتي

أضاء وجهها بابتسامة رغم علائم التعب البادية عليه بعد كلّ ما عانته من سفر وانتظار. كنت خائفًا من أن تبكي وتندب غير أنّ طبيعتها تفوّقت، فمن طبيعة أمّي أنّها تحاول أن لا تظهر على وجهها علائم هول ما إنت فيه أو ما هي فيه. كانت قد جاءت مع اثنين من أخوتي ومع ابنة أخي ديما ولكن لم يسمحوا لهم بالدخول. جهدتُ في أن تبدو طبيعيّة، كان ثقل العمر باديًا عليها، أرتني وهي تصطنع السرور بعض الصور التي كانت تصطحبها معها لأخوتي وأبنائهم. كان لديها القدرة حتى على الضحك والتعليقات المازحة. هذه هي أمّي التي أعرفها، مزيج عجيب من الضعف النبيل والقوّة النبيلة. ضعيفة فلا تقدر على إزعاج أحد وقويّة لا تقدر عليها المحن التي لم يبخل دهرها عليها بها. سعدت كثيرًا لرؤيتها، وسعدت كثيرًا لتماسكها، وخفت أن يبخل عليّ دهري بأن أراها بعد أن أخرج من السجن. أمّي هذه كانت قد أحضرت معها باقتي نرجس، واحدة لي والثانية للشرطة. هذا ديدنها، ففي سجن عدرا كانت تسلّم على الشرطي الذي يراقب الزيارة (كيفك يا ابني؟) وتستفسر عن صحّته وأحواله كأنّه من صحبة ابنها. أينبع هذا من ضعفها أم من قوّتها، لا أدري! هذه أمّي التي كانت حين يضيق أبي ذرعًا بكلامها المتواصل عنّي وتوجّعها على مصيري، تنهض وتحضر عصا وتطلب منه أن يمدّ يده أو رجله وتقول له ألا يؤلمك إذا ضربتك!؟ أليس هذا ما يفعلونه بابنك!؟ كيف يمكنك أن ترتاح!؟ وتضيف بقهر: الله يحرمه ضو عيونه اللي حرمني من ابني! وحين كان أبي يضحك ويقول حرام عليك هدول كمان عندهم أمّهات يبكو عليهم! كانت تقول: يعني ابني ما له أمّ! بس بدّي أفهم شو عمل ابني حتى يحبسوه كلّ هالمدّة؟ أمّي هذه وزّعت صوري القليلة أصلاً على كلّ مزارات المنطقة، لعلّ كرامات الأموات الصالحين تفعل ما عجز

عنه أحياء البشر. على مدى أكثر من ثلث ساعة تحادثت مع أمّي، اطمأنّت عنّي وحدّقت طويلاً في وجهي بعينيها المنهكتين بحثًا عن آثار تعذيب كما قالت لي فيما بعد. ونقلت لي سلامات كثيرة، وأعتقد أنّها سلامات مبالغ فيها عن قصد، أعتقد أنّ أمّي كانت تريد أن تقول للسامعين إنّكم تسجنون شخصًا غير مجرم وله الكثير من المحبّين الذين يسألون عنه.

نحن لم نتجاوز الخطوط الحمر في حديثنا، لم نثر غيظ العناصر، وقد كانوا للحقّ لطيفين مع أمّي، يضحكون أحيانًا معنا ويخاطبونها: يا خالتي، ولم ينهرني أحد أمامها، مع ذلك لم تطمع، فلم تحرج نفسها ولم تحرجني معها بطلب أن يسمحوا لها أن تضمّني وتقبّلني. بفطرتها المدرّبة وخبرتها الطويلة مع هذه المعاناة قرأت سريعًا حدود السجن، وحين قال المساعد: خالصين يا خالتي، ودّعتني من دون أيّ كلام عنتري هي لا تتقنه أصلاً، ومن دون أن تريني تأثّرًا مأساويًّا كان يمكن أن يثقل على قلبي. ومن دون أن تجعلني ألمح ولو التماعة دموع في عينيها. ودّعت وهي قادرة على أن تبتسم، ودّعت بكبرياء الأمّ المنكوبة. ثم علمتُ فيما بعد، أي بعد الإفراج عنّي، لأنّ هذه الزيارة كانت الأولى والأخيرة لي في سجن تدمر، أنّها عادت إلى حيث كان أخواي وابنة أخي ينتظرونها منهكة إلى أقصى حدّ، وأنّها قضت الطريق وهي تبكي، تبكي لأنّها لم تعرفني للوهلة الأولى، ولأنّها رأتني شبحًا لابنها الذي كانت تعرفه، ولأنّها تخشى أن تأتي شروط السجن هذه على ما تبقّى منّي إذا طال بي الأمر على هذه الحال. قال لي أخوتي لاحقًا إنّها زادت هرمًا وهمًّا بعد تلك الزيارة، وهي لا تنفكّ تعبّر عن يأسها: يا ألله ما في حدا يساعدو!؟ والله وقف قدّامي وما عرفته! صاير جلد وعضم! أكيد لا أكل ولا هوا ولا شمس! يا ألله شو هالظلم!

انتهت الزيارة، ذهبت أمّي، وعدت لا أحمل من كلّ أغراض الزيارة سوى بطّانيّة. ولم تكن شيئًا قليل القيمة على أيّ حال. كانت من المقتنيات القليلة الجديرة بأن تورّث. ولكن عناصر الشرطة صادروا كلّ أغراض الزيارة التي اجتهدت ليس فقط أسرتي كلّها لأيّام في تأمينها وإعدادها، بل وأسر سجناء آخرين معي لهم صلة بأهلي، من طعام وألبسة وأدوية.. إلخ.

* * *

الرقيب الذي رافقني إلى الزيارة وأعادني هو أبو الميّة الذي أشرف، كما ذكرت، وكان جديدًا وغير مسمّى حينها، على جلد صفوان مئة جلدة عقوبة له على محاولته التبوّل ليلاً، اجتهدنا حينها في إطلاق تسميات تليق به وبقهرنا منه، فجرى اقتراح لقب الجزّار والدموي والخنزير والنتن (كثيرًا ما كانت تقترح هذه التسمية الأخيرة على العناصر المؤذية، إلى أن استقرّت على رقيب آخر ولبسته لبسًا) ثم تعارفنا عليه باسم أبو الميّة، هكذا ببساطة، تسمية حياديّة لمن لا يعرف القصّة. مع الأيّام تغيّر سلوك هذا الرقيب بصورة واضحة. وكنت أوّل من لمس هذا التغيّر وعبّرت عنه، ولكن فكرة تغيّر أبو الميّة كانت صعبة القبول. ذات يوم كنت عنصر سخرة وكان عناصر البلديّة قد وزّعوا دوسير متأخّر، أكياس نايلون تحوي جانرلك، وكان هذا الرقيب هو المسؤول عن فتح الأبواب. حين فتح بابنا خرجت لأدخل الكيس، ففوجئت بالرقيب يحمل الكيس ويسلّمني هو يدًا بيد. إذا علمت أنّ الرقيب في سجن تدمر يستكبر أن يسلّمك شيئًا بيده فيرمي ما يريد أن يعطيك إيّاه على الأرض لتلتقطه أنت، تدرك معنى أن يتناول الرقيب الكيس عن الأرض ويسلّمك إيّاه.

تغيّر أبو الميّة لأنّه عرف أنّنا شيوعيّون، كما قال لي حين جمعتني

الصدفة به بعد الإفراج عنّي. كان قويَّ الشخصيّة وقادرًا على ضبط عناصره وقادرًا على الحماية إذا أراد. والواقع أنّه حمانا في أكثر من مناسبة من شراسة وعدوانيّة بعض العناصر وحتى بعض الرقباء، مستندًا إلى كلام مدير السجن بأنّنا لن نتعرّض للضرب ما لم نخالف قواعد السجن. كان سماع صوت هذا الرقيب يطمئننا ولا سيّما في مناسبات التفتيش الرهيبة، وكان يوم تسريحه ثقيلاً علينا. وكنّا قد حوّلنا اسمه إلى أبو كريم تكريمًا.

في إحدى المرّات خرجت مع شريكي في السخرة لاستلام طعام الغداء، في هذه اللحظات يكون الجميع في عجلة، عناصر الشرطة يريدون توزيع الطعام قبل وصول دوريّة التفقّد، فيستعجلون عناصر البلديّة، وهؤلاء يستعجلوننا، أمّا نحن فنستعجل أنفسنا. نحن الدرك الأسفل في السلّم. يخرج عنصر سخرة المهجع وبيده ٣ جاطات، يمسكها بطريقة تسمح له بفرشها موزّعة على الأرض في ثانية ما إن يصيح الشرطي:

ـ فوارغ!

يتقدّم ثلاثة عناصر من البلديّة بيد كلّ واحد سطل فيه مخصّصات المهجع من البرغل أو الأرزّ ومن المرقة ومن مادّة العشاء وهي غالبًا شوربة عدس، ويقوم كلّ عنصر بلديّة بسكب سطله في جاط. ثم نقوم بإدخال الجاطات فورًا. يندر أن يستغرق استلام الطعام أكثر من ١٠ ثوان. وعظائم الأمور بانتظار من يتلكّأ أو يكبّ شيئًا من الجاط الذي يدخله إلى المهجع. لذلك فإنّ جميع المهاجع تختار عناصر شابّة منها لاستلام الطعام. في تلك المرّة ابتليت بأن سقطت كتلة صغيرة من الأرزّ من الجاط الذي كنت أدخله، فقد كان عنصر البلديّة قد سكب الأرزّ على طرف الجاط. بعد أن أدخلت الجاط سمعت الشرطي يصيح:

ـ أبو الرزّ اطلع لبرّا!

خرجت خائفًا ومتوجّسًا ممّا يمكن أن يتفتّق عنه ذهن الشرطي من عقوبات.

ـ شيل الرزّ بإيدك ولا! ما بدّي شوف ولا حبّة رزّ عالأرض! قال الشرطي.

غرفت بيدي كتلة الأرز مع هامش لا بأس به من التراب والحصى حولها كي لا يتبقّى «ولا حبّة رزّ عالأرض»، من دون تحسّب للأمر التالي:

ـ حط كلّ شي بإيدك بتمّك وابلعه!

وضعت ما في يدي في فمي ورحت أتصنّع المضغ على أمل أن يسمح لي، تحت ضغط العجلة، بالدخول فأبصق ما في فمي. لكن كلّ عجلة العناصر تتلاشى فجأة ما إن تسقط ضحيّة بين أيديهم. يتفرّغون لضحيّتهم وينسون ما سواها.

ـ قلتلك ابلعه ولا عرصة! صاح الشرطي، فصرت جادًّا في لوك اللقمة بما فيها من تراب وحصى كي أستطيع بالفعل بلعها. قبل أن أندم على مماطلتي.

عندها سمعت صوت «أبو كريم»:

ـ شو في!؟ يالله ضبّ لجوّا لشوف، ع السريع! قال الرقيب وهو يدرك لا شكّ أنّه ينقذني من ورطة.

برتقالة بريئة

ـ خلال نصّ ساعة الكلّ يضبّ غراضه!

فجأة هبط علينا هذا الأمر في صباح من صباحات خريف ١٩٩٧.

لدينا بعض «الممنوعات»: مثل شطرنج ورقي، وأوراق عليها بعض دروس تعلّم اللغة التركيّة. رفضت أن أتخلّى عن الأوراق التركيّة فغامرت بدسّها بين أغراضي. في حين تبرّع بكر، معلّم اللغة التركيّة، بنقل الشطرنج. ونحن نراهن في أنفسنا على أنّهم لن يفتّشونا: أغراض كثيرة ومربوطة وهم في عجلة، ونحن «سياسيّون سلميّون». . المونولوجات الرغبيّة البائسة ذاتها! فتح الباب، حمل كلّ منّا أغراضه بعد أن وضع الطمّاشة وخرج. قادونا في خطّ سير معقّد، من جهتي لم أستطع تتبّعه، شعرت أنّني في متاهة لا أرى فيها سوى قدميَّ وتغيّر طبيعة الأرض التي نسير عليها، مرّة إسمنتيّة ومرّة ترابيّة ومرّة إسفلتيّة. . . ثم سمعنا صوت الرقيب يخاطب البلديّة الذين كانوا يحملون بعض مستلزمات المهجع مثل البيدونات والجاطات:

ـ هادا المهجع!

لعلّهم غفلوا عن التفتيش، قلت في نفسي. كنت في أواخر القافلة، ورحت أصغي للأصوات لأستدلّ عمّا يجري في المقدّمة. صحوت على صوت صياح يعلو ويهبط على إيقاع صوت صفعات. كلّ جملة تتصاعد ثم تنتهي بصوت صفعة. أحد ما من شبابنا استفقده الله بعقوبة، إذن هناك تفتيش، وقد بدأوا من المقدّمة والدور واصلنا لا محالة. أوراق التركي! الطامة الكبرى! كيف أتصرّف؟ ماذا أجيبهم؟ يبدو أنّ التفتيش دقيق وسيأخذ وقتًا طويلاً. ولاختصار الوقت توزّع عناصر الشرطة يفتّشون على أكثر من «جبهة». لحظات وأمسك بي شرطي من كتفي وسحبني جانبًا وأنا سحبت أغراضي:

ـ فكّ غراضك ولا!

أنا على مسافة خطوة واحدة من عقوبة لا أعرف طبيعتها ولا حجمها. ففي ثنايا أغراضي ممنوعات هي أوّلاً أوراق مكتوبة، وهي

عبارة عن الأغلفة الخارجيّة الصقيلة لعلب السجائر مكتوب عليها بواسطة إحدى زوايا عبوة معجون الأسنان؛ ثانيًا هي أوراق مكتوبة باللغة التركيّة. ومن أجل رشّ القليل من الفلفل على العقوبة كانت العلاقات مع تركيا متوتّرة بسبب احتضان سورية لحزب العمّال الكردستاني وزعيمه. اللغة التركيّة كانت تضرب على العصب. مخالفة صريحة لا مهرب أمامي ولا تبرير. استسلمت وتركت نفسي تتدحرج بقوّة ثقلها الخاصّ مع تطوّر الحدث. نعم، استسلمت ورحت أفكّ أغراضي، وإذا ببرتقالة، كنت أحتفظ بها منذ أيّام تحسّبًا ليوم أسود (هل هناك أسود من هذا اليوم!؟) لا نجد فيه ما نغمس فيه خبزنا فتعينني على بلع الخبز، أو أدلّل نفسي بها في وقت ما فأقشّرها وأتناولها وحدها من دون خبز وكنوع من الدوسير الحقيقي، برتقالة تفلت من الشنتة القماشيّة المرتجلة وتتدحرج على الأرض. إنّها مجرّد برتقالة تتدحرج والأشياء الكرويّة تتدحرج لا مخالفة في ذلك، والبرتقالة شيء مسموح لا يستجرّ عقوبة ولا يمكن للشرطي أن يسألك من أين هذه أو لماذا تحملها أو أيّ شيء. برتقالة بريئة لا تحمّل حاملها أيّة تبعات. تمنّيت أن تلفت البرتقالة نظر الشرطي، أن يرى أنّني أحمل أشياء بسيطة وبريئة إلى حدّ البؤس، فقد يرى في ذلك ما يدفعه إلى وقف تفتيش أغراضي والقول ضبّ غراضك وفوت ع المهجع. تركتُ عمليّة فكّ الأغراض وتبعت البرتقالة بقدر ما تسمح لي طمّاشتي بالرؤية كي ألتقطها وأعود بها، أردت ربّما أن أظهر له أنّ هذه البرتقالة الصغيرة الذاوية هي شيء ثمين عندي، بحيث إنّني أترك فكّ الأغراض وأتبعها مغامرًا بأن أثير حنق الشرطي مقابل أن لا أخسرها، فكم أنا مسكين!؟ إنّ اهتمامي بالبرتقالة وانشغالي بها عن تنفيذ أمر الشرطي بفكّ الأغراض يمكن أن أسمّيه عصيانًا خنوعًا، أو

ربّما الأدقّ أن أسمّيه خنوعًا منكّهًا بالعصيان. لعلّي أؤخّر لثوانٍ ما ينتظرني من ألم، أو لعلّ بؤسي وذلّي يجعلان هذا الشرطي يستخفّ بي فيستكثر تعبه في تفتيش أغراضي، أو يجعلانه رحومًا فيتغاضى عن بضع أوراق تافهة مدسوسة بين أغراضي. ولكن لخيبتي ما إن رفع الشرطي أوّل غرض لي من الشنتة حتى انزلقت الأوراق وتناثرت بصفاقة لا توصف.

ـ شو هاد ولا! صرخ الشرطي وعلى الفور أمسك بالأوراق وذهب إلى الرقيب (الدريكيش) وهو يقول: شوف سيدي شو معه!

أمسك (الدريكيش) بالأوراق وقال: شو عم تتعلّم إنكليزي يا طيزي (جيّد أنّ اللغة التركيّة تُكتب بأحرف لاتينيّة الشيء الذي جعله يظنّ أنّ اللغة التركيّة إنكليزيّة)، تعا لهون! جرّني الشرطي بعنف (لا شكّ أنّه يشعر بإنجاز كبير) إلى عند (الدريكيش):

ـ نحنا جبناك لهون منشان تنسى اللي تعلّمته ما منشان تتعلّم شي جديد! قال الرقيب جملته بوتيرة ساخرة تميّزه، ثم صفعني مواصلاً سخريّته:

ـ وهادا كفّ إنكليزي! ثم، وهادا كفّ فرنسي! وتابع الرقيب الساخر، معدّدًا اللغات العالميّة التي يعرفها، ولم تكن التركيّة من بينها.

إذا انتهى الأمر بالصفعات ليست مشكلة، المهمّ أن لا يحضر الدولاب! انتهى الأمر عند هذا الحدّ بالفعل، والحقيقة أنّ هذا الرقيب من حسن الحظّ لم يكن شرسًا.

كنّا نتعارف على هذا الرقيب باسم الدريكيش، لأنّه في إحدى المرّات انقطع المهجع من الماء لأيّام طويلة ونفد مخزوننا من الماء

ولم يبق لدينا ماء نشربه. شكونا أمرنا لرقيب التفقّد كالعادة المتّبعة في السجن، وصدف أن كان هو رقيب التفقّد، فتوجّه إلى عناصره وقال بسخريته نفسها: جيبولون ميّة دريكيش! فيما بعد سيصبح هذا الرقيب، بعد أن يترقّع إلى مساعد، هو مساعد الانضباط في السجن، وسيصبح السجن في عهده أكثر رحمة ولكن أكثر فسادًا بكثير (يا لهذا التلازم الطريف بين الرحمة والفساد!) إلى حدّ أنّه أوقع نفسه في ورطة أطاحت به مع مدير السجن نفسه، وخلخلت استقرار علاقتنا مع إدارة السجن. فمساعد الانضباط الذي استلم بعد (الدريكيش) تعامل معنا على أنّنا من أنصار «القيادة السابقة».

أحلام الصدمة التدمريّة

في الأسابيع الأولى لنقلنا إلى ما أعتقد أنّه أقسى سجن في العالم، وفي مواجهة الظروف الرهيبة الجديدة المحكمة، في مواجهة مربّع الخوف والبرد والجوع والإهانة، في مواجهة غياب الطمأنينة، نكصت نفسي إلى طفولتها. صرت في اليقظة رجلاً لا خيار أمامه إلّا التماسك ولبس ثوب الرجولة، وفي النوم طفلاً يستعيد حضن أمّه ولمستها وطعامها. في الأسابيع الأولى تلاشت ذكورتي تمامًا وصارت المرأة لا تعني لي شيئًا سوى الأمّ. لم يكن الحال كذلك مع الجميع، بعض الأصدقاء عبّر عن حالة مناقضة تقريبًا، حيث قالوا إنّ ذكورتهم برزت وزادت استيهاماتهم الجنسيّة في تلك الفترة، والبعض فسّر ذلك بأنّه نوع من التعويض عن انكسار الرجولة في كلّ المجالات الأخرى. لم يكن حالي هكذا أبدًا، لا أذكر أنّ المرأة خطرت في بالي بصفتها شريكًا جنسيًّا لمدّة أشهر بعد تحويلنا إلى سجن تدمر.

كأنّ نقلنا إلى سجن تدمر قلب طبقات نفسي فأظهر على السطح

ما كان يستقرّ منها عميقًا في القاع. في كلّ أحلامي في الفترة الأولى من «حياتنا» في سجن تدمر كنت أرى نفسي طفلاً. في أحد الأحلام التي لا أنساها رأيت أمّي مستلقية على ظهرها على ديوان خشبي بالوضعيّة التي آلفها منها، تضع يدًا على صدرها وأخرى ترفعها وتريح ساعدها على جبينها، وتحت قدميها جاط مليء بالزبدة البيضاء الضاربة إلى الصفرة، وأنا طفل صغير ألهو بجانبها. منام خال من الحدث، ولكن صورته كانت قويّة إلى حدّ أنّي لا أزال أذكرها. الأمّ النائمة بهدوء وبالوضعيّة المألوفة هي معادل للطمأنينة والزبدة معادل للوفرة، وأنا ألهو محاطًا بما أفتقده تمامًا في واقعي الجديد: الطمأنينة والوفرة. هل يوجد حلم بسيط وطفولي أكثر إيحاءً؟ وأذكر حلمًا آخر ربّما كان دافعه فضولي لرؤية مهجعنا من الخارج. أرى نفسي طفلاً في صحبة رجل بالغ لعلّه أبي ندخل إلى «مهجعنا»، مهجع جديد صدر، يقف أبي (فرضًا) يتحدّث مع السجناء، وبحركة يسمح بها الحلم وتبدو طبيعيّة فيه، يُشتقّ منّي طفل آخر، يخرج هذا الطفل المشتقّ من المهجع وينظر إلى صورة المهجع من الخارج، في حين يبقى الأصل إلى جانب الأب الذي يتحادث مع السجناء. حين استيقظت كانت في ذهني صورة المهجع من الخارج كما رآها الطفل المشتقّ.

من الأحلام التي صنعتها صدمة تدمر في نفسي أيضًا كانت أحلام البكاء. أستيقظ وظنّي أنّ آثار البكاء بادية على عينيَّ ووجهي، حتى إنّي كنت أتحسّس الوسادة لاعتقادي أنّها مبلّلة، وألتفت إلى من حولي لأرى في عيونهم انعكاس حالي. منامات متكرّرة عمودها الفقري بكاء عميق وطويل وغزير الدموع لا عهد لي به في يقظتي، يحرّضه حادث مؤثّر ما يتعلّق غالبًا بأحد أفراد أسرتي. أحلام بسيطة، الحدث فيها مجرّد مطلق للبكاء الذي يمتدّ ويتعمّق. وكنت بعد بكاء المنامات

هذا أشعر براحة. والمفارقة أنّني لا أذكر أنّني بكيت بوعي في سجن تدمر على خلاف ما كان الأمر عليه في سجن عدرا، فلطالما بكيت هناك في السرّ وشعرت أنّ قهري يخرج دموعًا من عينيَّ فأرتاح. سجن تدمر يخمد القلب ويحرق الدموع.

برد تدمر

لم أكترث بحياتي بنشرة الأحوال الجوّيّة سوى في سجن تدمر، كنّا نستلم الجريدة (جريدة البعث) عند الظهر فنسارع إلى قراءة درجة حرارة المنطقة الشرقيّة. نفرح إذا كان الرقم أعلى بدرجة عن اليوم السابق ونتفاءل بيوم أقلّ بردًا. ولم أكترث بحياتي بالتقويم الشرقي إلّا في سجن تدمر، حيث صارت ذاكرتي تجتهد في استحضار الثقافة الشعبيّة المتعلّقة بالطقس من المربعينيّة إلى السعود الأربعة: سعد دبح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الخبايا، إلى سقوط الجمرات.. إلخ، وفي استحضار الدلالات «الحراريّة» لهذه المفاهيم. «في سعد الخبايا تتغندر الصبايا» إذن ينكسر البرد بما يسمح للصبايا بالتنزّه. متى يبدأ سعد الخبايا؟ يبدأ بعشرة آذار على التقويم الغربي. كم بقي له؟ ولكن في كلّ الأحوال من المحمود تلقّي البرد في آخره كما أوصى الإمام علي، فهو في آخره يفعل في الجسم فعله في الأغصان فتورق! وفي الأقوال الشعبيّة «حين تصبح ورقة التين قدّ أجر البطة، نام ولا تتغطّى!» هذا القول يفترض بداهة أنّ الإنسان حرّ ويتنقّل ويرى الطبيعة، ويستطيع أن يعرف بالتالي متى صارت ورقة التين بحجم أجر البطّة. لم يخطر في بال «المثّال» أنّ هناك من يسجنون طويلاً هكذا من دون أن يمكنهم معرفة تحوّلات أوراق الشجر، لا برؤيتها ولا عن طريق آخرين. على أنّ كلّ ذلك الهوس «الطقسي» لم تكن له من قيمة،

فالبرد سنتلقّاه إن كان في أوّله أو في آخره لأنّه لا سبيل إلى تفاديه أصلاً. كلّ ما في الأمر أنّنا نتسلّى في تداول موضوع يوجعنا، كما يتسلّى الجائع بالحديث عن الطعام.

في سجن تدمر تشعر أنّ البرد عدوّ مباشر، كلّي القوّة وواسع الحيلة. وتشعر أنّك أعزل تمامًا أمامه. لا ثياب إضافيّة تتوسّلها في معركة البرد ولا أغطية إضافيّة ولا وسائل تدفئة ولا وسائل لردّ الريح التي تستبيح المهجع وتكنس في طريقها حرارة أجسادنا.

من جهتي، كنت ضحيّة نزعتي التفاؤليّة فلم أحتط لسجن تدمر بشيء، وجئت من سجن عدرا بكيس نايلون يحوي لوازم زنزانة لا أكثر. كلّ أسلحتي في وجه البرد كانت ما كنت أرتديه حين تمّ نقلنا. وكان من حسن الحظّ (هل هناك أيّ مجال للحديث عن حسن حظّ في هذا السياق!؟) أنّهم نقلونا في الشتاء، وإلّا لما كان لديّ سوى ألبسة صيفيّة رقيقة أحارب فيها هذا الزمهرير. كنت الأفقر من حيث احتياطيّ الملابس، كما كنت، بالمناسبة، الأفقر من حيث احتياطيّ المال. كلّ ما كنت أملكه حين جرى نقلنا هو ٨٠٠ ليرة سوريّة، وهو الرقم الأدنى بين الجميع. وهذا لا يعكس حالة فقر أو انقطاع في الزيارات (كنت من بين أكثر السجناء «دلالاً» حيث لم ينقطع أهلي عن زيارتي طالما كانت الزيارات متاحة)، بل يعكس فوضى ولامبالاة وربّما شيئًا من السذاجة. من المنطقي أن يحتفظ السجين بمبلغ من المال كاحتياطيّ لظروف كهذه، ومَنْ أكثر من السجين عرضة لتحوّل الظروف؟ ولكنّ التفاؤلي طيّب النيّة وسرعان ما يطمئنّ إلى الظروف وإلى الآخرين، وغالبًا ما يدفع فاتورة الفرق بين حسن ظنّه وسوء نيّة الآخرين. ألم تقل العرب إنّ سوء الظنّ من حسن الفطن؟ ولئن كان حسن الظنّ بالصديق حسنة فإنّ حسن الظنّ بغير الصديق مثلبة.

مهجع «جديد صدر»، مهجعنا الأوّل في تدمر، جاد علينا بالبرد الأقسى. البرد عدوّ من النوع الذي لا يعبأ بعجزك أمامه أو باستسلامك له. لو رفعت كلّ الرايات البيضاء لن يوقف هذا العدوّ زحفه ولن يتباطأ في السيطرة على آخر نقطة دافئة فيك. وسياسة الجسم في الدفاع عن نفسه أمام البرد تشبه سياسة الدول أمام جيش قوي مهاجم: التخلّي عن الأطراف وتعزيز الدفاعات عن العاصمة، «بغداد تكفيني»! يتخلّى الجسم عن أطرافه فتصبح باردة كالجليد، معتقدًا أنّ تعزيز الدفاعات عن الأحشاء قد تصدّ عنها العدوّ، غير أنّ مثل هذا التكتيك لا ينفع مع البرد الذي يواصل زحفه إلى أكثر النقاط مركزيّة، إلى القلب، فلا يتبقّى أمام الجسم إلّا الارتجاف واصطكاك الأسنان، وهذا بمثابة إعلان النفير والاستسلام في الوقت نفسه! ولكن ماذا ينفع النفير في بلد خال من وسائل الدفاع؟ وماذا ينفع الاستسلام أمام جيش لا يكترث لهذه الأخلاقيّات العسكريّة؟ تقف هكذا والبرد يهري عظامك، ويزرع فيك علله، لا شيء ينفع، ولا يبقى لك سوى الصبر: جدار أخير تتّكئ عليه أو هاوية سحيقة تبتلعك.

في سجن الشيخ حسن كان يمكن لاثنين أن يجمعا أغطيتهما معًا ويناما معًا على فرشة أسمك وغطاء أدفأ، أمّا هنا فمن شأن ذلك أن يضع الاثنين في خانة الشذوذ الجنسي المؤكّد، ويرميهما في دوّامة عقوبة «عريس وعروس» التي لا يعرف إلّا الله كم عدد كرابيجها!

في الليل، يكون البرد أشدّ في الصحراء ويكون الجسم أقلّ قدرة على التحمّل. كلّ ليل وتحت وطأة البرد الذي كنت أشعر أنّه لا يكتفي بمحاصرتي من الخارج بل يتسلّل من فتحة البدن لينتشر في كلّ أحشائي، كنت أقضي ليلي في التخطيط لتدابير سأقوم بها نهارًا كي أتّقي برد الليل القادم. لديك عازل وبطّانيتان ولحاف فقط، وهي فوق

ذلك أغطية بالية ومهلهلة، كيف يكون الاستخدام الأمثل لها ضدّ البرد. هل تضع البطّانيّتان واللحاف عليك ضدّ البرد القادم من الجوّ ويبقى العازل تحتك؟ هل تعزّز العازل بإحدى البطّانيّتين ضدّ البرد القادم من الأرض؟ هل تخيط الأغطية على العازل بحيث يصبح مجموعها كالكيس وتدخل به من الأعلى فلا يجد البرد ثغرة يدخل منها؟ «بكلّ تداوينا ولم يشف ما بنا»! فالبرد يخترق الأغطية ولا يحتاج إلى ثغرات كي يدخل. ثم ماذا تفعل لتحمي رأسك من غائلة البرد؟ البرد يضغط على الرأس كملزمة، تشعر أنّ البرد يدخل من العينين فتدمعان ومن الأنف فيسيل ومن الأذنين فتصويان. لو كانت أعضاء الجسم وأجهزته موصولة إلى جهاز إنذار لأضاءت كلّ الأنوار الحمر ولارتفعت أصوات الإنذار إلى السماء. الحقيقة أنّ الوشاح الصوفي الطويل الذي قدّمه لي أسامة كان له فضل كبير في جعلي أغفو، فما كان يمكنني أن أنام قبل أن ألفّه حول رأسي حتى يصبح رأسي كتلة من صوف لا يُعرف لها وجه من قفا لولا فتحة صغيرة أمام الأنف، كنت ألفّه حتى على عينيّ. لا أزال أذكر بكثير من الامتنان ذلك الشال الصوفي الطويل ذا اللون الأزرق البحري.

كلّ ما له علاقة بالأقمشة تجده مستخدمًا في محاربة البرد، الألبسة والمناشف والشناتي القماشيّة، حتى الأحذية توضع تحت الرأس كي يمكن تحرير الأقمشة المستخدمة كوسادة واستخدامها في تعزيز الأغطية. لذلك كنت ترى المهجع في ليالي الشتاء خاليًا، فقد امتصّت الفرشات كلّ ما يعلّق على الحبال أو على الجدران لتعود وتلفظها في النهار. وأمام هذه المحنة والعجز التامّ في الموارد حاولنا استخدام أكياس الخبز (أكياس الخبز مرّة أخرى!). نخيطها معًا فنصنع منها قطعة تعادل مساحة العازل ونعزّز بها العازل، أو قطعة أكبر فنعزّز

بها الغطاء بأن نضعها بين اللحاف والبطّانيّة، وهذه الفكرة كانت فاشلة في الواقع، إذ عدا عن كونها قليلة الفعاليّة في مواجهة البرد، فإنّها تصدر صوت خشخشة مزعجة مع كلّ حركة.

الامتحان الأكبر الذي طرحه علينا هذا البرد الكافر هو: كيف نغتسل؟ هل نبقى طوال الشتاء من دون استحمام؟ ولكن هل يمكن أن نستحمّ بماء بارد في هذا الجوّ؟ البدن يقشعر لمجرّد الفكرة! من جهتي كنت في سجن عدرا أثابر على الرياضة والدوش البارد رغم توافر الماء الساخن هناك، ولكن تدمر شيء آخر، لم أتجرّأ على تخيّل جسمي عاريًا تحت حنفيّة ماء بارد في هذا الجوّ الرهيب، لمجرّد التخيّل تسري قشعريرة باردة في قلبك ورئتيك!

في أوّل شباط قضيناه في سجن تدمر لاحظنا بالصدفة أنّ ماء الحنفيّة بعد الظهر دافئة، بالفعل كانت حرارة الماء أكثر دفئًا من حرارة الجوّ. يبدو أنّ مواسير الماء تسير لمسافة ما عارية، وحين تطلع شمس شباط تدفأ هذه المواسير فتدفأ الماء الجارية فيها لمدّة ساعة أو ساعتين، شجّع هذا بعضنا فغامر وتحمّم، ثم تجرّأ الجميع. وهناك من اكتفى بالحمّام النصفي (منطقة الحوض والطرفين السفليين) حتى انقضى برد الشتاء.

الزلزال

المرّة الأولى التي أشهد فيها الزلزال كانت في سجن تدمر. لم أتخيّل أنّ الزلزال يظهر على هذا الشكل. شهدت من قبل هزّات خفيفة تشعر خلالها أنّ الأرض تميد قليلاً من تحتك أو أنّ شيئًا معلّقًا في السقف يتحرّك. أمّا ما شهدناه في تدمر ذلك اليوم فقد كان شيئًا آخر. كنّا نائمين فاستيقظنا على صوت هدير قويّ وصوت ارتطام متواتر

مستمرّ، حين أفقت بدا لي كأنّ خيولاً تركض على السطح، أو كأنّ أحدًا ما يخبط الباب بقوّة، أو كأنّ شاحنة عملاقة تفرغ صخورًا ضخمة في هاوية سحيقة. استمرّت هذه الأصوات ما يقارب ٢٠ ثانية، نظرت إلى الأعلى كانت المناشف تتأرجح على الحبال الممدودة في المهجع، كأنّ أحدًا ما يخبط على الحبال بقوّة. كان حسين هو الليليّ في ذلك الوقت، فاحتار في أمر ما يجري، ظنّ أنّ كلّ حرّاس السجن وقفوا على شرّاقة مهجعنا وراحوا يخبطون بأرجلهم، فما كان منه إلّا أن هرع إلى تحت الشرّاقة وخبط برجله اليمنى على الأرض محييًا وهو يقول بأعلى صوته:

ـ حاضر حضرة الرقيب أوّل!

وحين لم يسمع ردًّا مع استمرار صوت الهدير والخبط على الشرّاقة وعلى الباب، حيّا بقوّة أكبر ورفع صوته أعلى: حاضر حضرة الرقيب أوّل! كرّر ذلك أكثر من مرّة وفي كلّ مرّة يرفع من وتيرة صوته، إلى أن أدرك أن لا أحد على الشرّاقة وأنّ ذلك ما هو إلّا زلزال. لا أدري من صاح أوّلاً هل حسين أم أحد ما آخر: زلزال، زلزال! بعد لحظات هدأ كلّ شيء.

في اليوم التالي قرأنا في جريدة البعث أنّ زلزالاً حدث بالفعل، وأنّ مركزه كان في مكان ما غير بعيد كثيرًا عن السجن في صحراء تدمر. كم ضحكنا فيما بعد من ردّة فعل حسين وكم قلّدناه وكان يكتفي هو بالابتسام والبحلقة في الأرض كعادته.

ماذا لو كان مركز هذا الزلزال أكثر قربًا وحصد في طريقه هذه الأرواح البائسة والمعذّبة؟ من جهتي، طوال فترة سجني ولا سيّما بعد تحويلنا إلى سجن تدمر، كان يواسيني قليلاً أملي بأنّني في يوم ما سأودع في الذاكرة الجمعيّة ما عشناه بصفتنا جزءًا من هذا الكيان

الاجتماعي. فعلى خلاف ما يعتقد كثيرون، كان الحديث عن السجن متعة بالنسبة لي، وليس نكأً للجراح أو تقليبًا للمواجع. ولم يكن مثل هذا الحديث يولّد لديّ شعورًا بالهزيمة كما تصوّر آخرون، وإن كان ثمّة هزيمة فهي هزيمة نبيلة. إن كان ثمّة هزيمة فهي هزيمة مجتمع عجز عن حماية أبنائه بقدر ما هي هزيمة لهؤلاء الأبناء أو أكثر. وإن كان ثمّة هزيمة فهي هزيمة أيضًا للفكر السياسي الذي أباح لنفسه استخدام هذا الهلاك كلّه ضدّ معارضيه. مهما يكن، فإنّني أعتقد أنّ الموت في السجن من أكثر الميتات مرارة. وكان هذا الزلزال بمثابة تلويحة مرعبة، تذكير مرّ، إيقاظ لمكامن الخوف العميقة، الخوف من الموت، هذا الخوف الذي يسير يدًا بيد مع الزهد، ينام معه ويستيقظ معه فتصغر الدنيا في عينيك ويصغر قلبك وتَقنع نفسك. ومرّة أخرى أكتشف أن نزعتي التفاؤليّة ليست سوى تغطية لاواعية على قربي من اليأس. أضحك كثيرًا وأبدو هادئًا ومطمئنًّا لأنّني أخشى اليأس، وأخشاه لأنّه قريب جدًّا من نفسي، فحين يكون اليأس أكثر قربًا من النفس تميل هذه إلى المراوغة والتشاغل بأشياء لا توحي باليأس، وتميل إلى تضخيم إشارات النجاة والأمل. وكما تصيب هذه الحالة الفرد تصيب الجماعات، ففي إحدى المرّات مثلاً جاءنا بعد ظهر أحد الأيّام صوت الحارس من الشرّاقة:

- اللي معه وصل أمانات غراض يحملو ويجهّز حاله!

غادر الشرطي. وبدأنا نحلّل الأمر. التحليل دائمًا! أوّل مرّة يطلب منّا ذلك، المعنى الوحيد لهذا الأمر هو أنّهم سيسلمون الأمانات لمن لديه أمانات كي يفرجوا عنّا، سننام اليوم في عدرا (عدرا الجنّة المفقودة!). حلّلنا الأمر على هذا النحو وتصرّفنا كما لو أنّ الشرطي قال: إفراج! ضبّوا غراضكم! ما جرى خلال تلك الساعات القليلة

يصعب تصديقه على من لم يعشها. حزمنا أمتعتنا واستهترنا بالقوانين والأعراف، صرنا ندوس بأحذيتنا في كلّ مكان وعلى كلّ شيء. ارتاحت النفوس وصارت أكثر تسامحًا. تصالح المتخاصمون ودشّنوا صلحهم بجلسة أو «مشوار» في ممرّ المهجع. فكّ الجميع قيود ملكيّاتهم الخاصّة، فمن كان قد احتفظ ببيضة مسلوقة كي يأكلها على العشاء أخرجها وقشّرها وقدّمها بكلّ شجاعة وطيب خاطر لمن يرغب أو تناولها مع رشّة ملح من دون خبز (يا للبطر!). ومن كان يحتفظ ببرتقالة إلى وقت الضيق وضعها في دائرة الملكيّة العامّة لمن يشاء. الزيتون الأسود منه والأخضر صار مشاعًا. وكذا الحال بالنسبة للحلاوة، هذه المادّة التي كانت تتمتّع بمكانة خاصّة. شهد المهجع وفرة كاذبة على حساب المدّخرات الفقيرة. البعض أراد توديع المهجع بطريقة انتقاميّة فبدلاً من أن يتبوّل في التواليت تبوّل على جدران التواليت كي تكون رائحة المهجع أحلى! وبالمناسبة كانت رائحة مهجع «المستوصف» مثل اللعنة الملازمة، تواليت هذا المهجع مكسور فلا يمنع رائحة المجارير من التجوّل في أرجاء المهجع، وكلّما دخل فريق التفقّد إلى المهجع عبّر الرقيب والشرطة عن قرفهم من هذه الرائحة واتّهمونا بالتقصير في النظافة، مع ما يستلزم هذا من صفع أو ركل أو بصاق على رئيس المهجع وغير رئيس المهجع. والواقع أنّنا كنّا مهووسين بنظافة تواليت هذا المهجع، تفاديًا للعقوبة، نغسله يوميًّا مرّتين صباحًا ومساءً ونجود عليه بأشكال المنظّفات الكيماويّة، وكنّا قد صنعنا سدادة نايلون لفتحة التواليت، وكنّا قبل موعد التفقّد بأكثر من ساعة نغطّي كامل جورة التواليت بصفيحة بلاستيكيّة ونضع عليها بيدون ماء للمزيد من الإحكام، ولكن عبثًا! فرائحة التواليت تتسرّب من شقوق عميقة في أرضيّة التواليت الذي يعود إلى زمن الفرنسيين ومن

دون صيانة. رائحة التواليت مصدر قلق دائم لنا واحتكاك دائم مع الشرطة الذين ملّوا بدورهم، وصاروا في كثير من الأحيان يكتفون بالقول:

ـ كس أمّك على هالريحة! ويسارعون بالخروج.

نحن كنّا اعتدنا الرائحة، ولكن لا شكّ أنّ الرائحة مزعجة لمن يدخل من الخارج. لذلك كان مفهومًا مثل هذا السلوك بالتبوّل على جدار التواليت كنوع من الوداع الانتقامي.

انساق الجميع وراء رغبة/ حلم الإفراج، قوّلنا كلام الشرطي ما نريد أن نقرأ فيه، وتصرّفنا على أساس ما قوّلناه. الجميع من دون استثناء، لم يصدر اعتراض أو نقدٌ جدِّيٌّ من أحد، لدى المرء شعور بأنّ قوّة الرغبة يمكن أن تصنع الواقع. ويرغب المرء في أن يتعامى عن الحقيقة كي لا يقتل فرحته أو طمأنينته. الجميع باللباس المتوافر وبالأحذية. ومع مضيّ الوقت انكمش أملنا وصار مثل بالون فقد هواءه ببطء ولم يتبقّ فيه إلّا القليل، ولم نتجرّأ على الاعتراف. مرّت حوالى ٤ ساعات من دون أن يحدث شيء، لم يأخذوا جماعة الوصولات ولا غيرهم. غير أنّ ما حدث هو أنّ الحارس على السطح لاحظ وضعًا غير طبيعي في مهجعنا، فالساعة صارت حوالى السادسة والفرشات لم تمدّ بعد والناس في هيئة لا تشبه هيئة من يستعدّ للنوم. ولا شكّ أنّ الحارس سأل الإدارة قبل أن يتدخّل من الشرّاقة قائلاً:

ـ رئيس مهجع ولا! ليش ما عم تجهّزوا للنوم؟

ـ حضرة الرقيب أوّل قالولنا جهّزوا حالكم!

ـ الكلّ يجهّز للنوم ولا حيوانات! إذا فيه شي نحنا منخبّرك. عرصات!

حوالى ٤ ساعات عشناها كما لو أنّنا اخترعنا واقعًا وعشناه، واقعًا تغلّب على الواقع الواقعي لبعض الوقت، إلى أن جاء الحارس وأنهى واقعنا بضربة قاضية. كما ينهي الحكم لعبة بصافرة منه، فتتلاشى قواعد اللعبة ويخرج اللاعبون من واقعهم (لعبتهم) إلى الواقع الأثقل. كان في هذه النهاية نوع من خيبة مخلوطة بشيء من الخجل. جميعنا سخّرنا عقولنا في خدمة رغبتنا وجميعنا خبنا وجميعنا تواطأنا على نسيان ما جرى.

في اليوم التالي، جاؤوا وطلبوا بالفعل خروج من لديه وصل أمانات أغراض، خرج من لديه وصل وعادوا بعد حوالى الساعة ليتبيّن أنّ كلّ ما في الأمر هو أنّ مساعد الانضباط يجري تعديلات إداريّة، وارتأى لسبب ما تغيير وصولات الأغراض. وقد انشغلوا أمس فأجّلوا ذلك إلى اليوم، ما أتاح لنا الوقت كي نحلّل ونعيش ما شاءت لنا أهواؤنا.

الباحة الخامسة

الباحة الخامسة في سجن تدمر هي مقام السجناء المرفّهين والمدعومين. هي أصلاً باحة الجواسيس، ومن ثم باحة السجناء المدعومين. وقد دخلنا في عداد هذه الفئة لمدّة ثلاثة أشهر مرتبكة ومقلقلة. باحة تُرفع فيها الكثير من المحظورات. يمكنك هنا أن تحلق ذقنك بالشفرة، وأن لا تحلق شواربك. ويمكنك هنا أن لا تحلق رأسك على الصفر. وأن تتكلّم بصوت عادي أثناء الحديث مع زملائك. والأهمّ يمكنك أن تنظر إلى الشرطي والرقيب وجهًا لوجه (ثورة!). في هذه الباحة يوجد راديو ويوجد وابورات كاز. هنا يمكنك أن تستحمّ بماء ساخن، وأن تشرب شايًا ساخنًا. هنا لا يوجد ليليٌّ.

هنا لا يتدخّل الحارس من الشرّاقة كي يزعجك. هنا يمكنك أن تسهر. هنا يوجد قلم وورقة حقيقيّان. هنا قرأنا دواوين لنزار قبّاني. هنا حاول عمّار أن يكتب رواية (تصوّر!). وهنا أيضًا علّق مازن صورة غادة على حائط المهجع بجوار فرشته. وهنا تخرج لاستلام الطعام منتصبًا في مشيتك كأيّ إنسان. هنا الشبابيك طويلة ومنخفضة على طراز البناء الفرنسي تشعرك بالراحة وتسمح لك برؤية طيور الدوري واللعب معها من وراء حديد شبابيك مدنيّة. ولكن تبقى هناك رائحة تدمريّة لا بدّ منها، إذ لا يجوز أن تقف على الشبّاك طالما هناك عنصر من الشرطة داخل الباحة، فما إن يفتح باب الباحة حتى ينادي عنصر البلديّة: باحة وشّك ع الحيط. نقف هكذا حتى يأتي الصوت: باحة تابع! ويأتي الصوت بعد أن يخرج العناصر من الباحة.

من خلال صلة أهالي بعض السجناء ولا سيّما العلويين منهم مع عائلة مدير السجن، قرّر المدير وضعنا في الباحة الخامسة. وهي أكبر خدمة يمكن أن تقدّم لسجين في سجن تدمر. وقد كان أن وضعونا في أفضل مهجع في الباحة، المهجع رقم ٦ الواقع في صدر الباحة الخامسة. دخلنا الباحة الخامسة بقوّة لافتة. ذُهل أهل الباحة الخامسة بهؤلاء السجناء الذين يدخلون على الباحة الخامسة بهذه القوّة فيحتلّون أفضل مهجع فيها بعد أن نقلوا منه سجناء أكثر إزمانًا منّا، سجناء يقطنون هذه الباحة من عشرات السنين. كنّا نعلم في قرارة نفوسنا أنّ وزننا في سجن تدمر خفيف، وأنّ هذه «الأبّهة» جوفاء، ولكنّ الناس لهم الظاهر، فأبو عبّودي رئيس المهجع ٥ الذي خسر بقدومنا امتياز المهجع ٦، فهم أنّنا سجناء لنا وزن، فبدأ بنسج علاقة مع رئيس مهجعنا (مازن). ابتسامات وسلامات عبر الشبابيك، و: صباح الخير معلّم! كان مازن يضحك ويردّ: والله أنت المعلّم. ثم هدايا عن طريق

الشرطة. فرشة لراحة ظهر المعلّم مازن، وكْرِيم ما بعد الحلاقة، وبارْفان وهدايا كلّها إلى مازن، رئيس المهجع اللغز. وحين عرف أبو عبّودي أنّنا شيوعيّون راح يسرد قصصه عن علاقاته بسجناء سياسيين وشيوعيين مرّوا بباحته. وبالتوازي مع خطّ توطيد العلاقة مع مهجعنا تحسّبًا لوزننا المفترض، كان أبو عبّودي يبحث عن خلفيّات نقلتنا إلى الباحة الخامسة وخصّنا بأفضل مهجع فيها، وكان يحفر لنا عبر علاقاته مع الرقباء والعناصر ويحرّض علينا.

أيًّا يكن، فقد استمتعنا بالباحة الخامسة شهرين كاملين إلى أن جاء يوم أسود قلب لنا به مدير السجن ظهر المجن، فأمر بنقلنا الفوري من الباحة الخامسة إثر ملاسنة حدثت مع بنت أحد رفاقنا في السجن خلال محاولة أهله أن يزوروه. خلال ساعة كنّا في الباحة الثانية وفي مهجعنا القديم نفسه الذي نقلنا منه إلى الباحة الخامسة. سقوط حرّ، هكذا من دون مقدّمات. هذا يعني أنّ غطاء الحماية قد رفع عنّا، وأنّنا صرنا عرضة لكلّ من له ضغينة ما ضدّنا من عناصر الشرطة.

رجع إلينا خوف الأيّام الأولى من تحويلنا إلى سجن تدمر. طلب مازن مقابلة مساعد الانضباط، فقال هذا إنّ المدير منزعج للغاية، ولكن:

ـ خلّوه عليّ، يومين تلاتة بروّقو!

وكان ثمن هذا «الترويق» مبلغًا كبيرًا من المال تعهّد بتأمينه أحد السجناء معنا عن طريق إرسال المساعد إلى بيت أهله. بعد يومين اثنين أعادونا بالفعل إلى الباحة الخامسة ولكن هذه المرّة بهيبة أقلّ. ومن سوء حظّنا أنّ مساعد الانضباط ومدير السجن قد أُقيلا من عملهما بعد شهر واحد من هذا، واستلم السجن مدير جديد ومساعد انضباط جديد، فصرنا محسوبين على «القيادة السابقة» وأوّل إجراء اتّخذاه هو

نقلنا من الباحة الخامسة نهائيًا. وقد نفّذ مساعد الانضباط الصفراوي الجديد (وهو بالمناسبة ليس مساعدًا وليس جديدًا، فهو رقيب أوّل موجود في السجن منذ فترة غير قصيرة، وكان يُبدي لنا الكثير من سوء النيّة وها هو أصبح آمرًا ناهيًا في السجن) أمر النقل بأقصى قدر من اللؤم، وبطريقة مهينة لنا أمام كلّ نزلاء الباحة الخامسة الذين ظنّونا يومًا جماعة ذات وزن.

مهما يكن، فمن بين الأشياء الكثيرة التي زخرت بها تلك الشهور الثلاثة في الباحة الخامسة يمكن أن أذكر هذه الأشياء:

أوّلاً: المهجع السادس في الباحة الخامسة كان في صدر الباحة كما قلت، وكان إذا استرقت النظر من ثقب في الباب تبدو لك الباحة بكامل طولها، ممرّ إسمنتي طويل أكثر من ١٥٠ مترًا يوجد على أحد جانبيه (على يسار من ينظر من ثقب الباب) صفّ من الزنازين وعلى الجانب الآخر باحة واسعة مرصوفة بنوع من البلاط يشبه بلاط الأرصفة، يحدّها من اليمين صفّ آخر من الزنازين. وتحت هذه الباحة يوجد أيضًا مجموعة من الزنازين الرهيبة التي نزلنا كي ننظّفها ذات يوم، فرأينا إلى أيّ حدّ يمكن أن يصل لؤم الإنسان ووحشيّته. صفّان من الزنازين المتقابلة تحت الأرض، لا يزيد طول الزنزانة عن ١٢٠ سم وعرضها حوالى ٨٠ سم بابها قضبان حديديّة متصالبة على شكل شبك. لا يستطيع السجين فيها أن يستلقي ولا أن يقف براحته. كما أنّ سجين هذه الزنزانة يبقى تحت نظر السجناء الآخرين، لا خلوة مهما تكن للفرد. ولا يوجد جورة تواليت في الزنزانة كما لا توجد جورة تواليت جانب هذه الزنازين، ولا شكّ أنّ الشرطي لن يقوم بإخراج السجين إلى فوق الأرض كي يقضي حاجته، فالراجح إذن أنّ سجين هذه الزنازين يقضي حاجته داخل زنزانته.

وبغرض تجديد الهواء هناك فتحات تهوية فوق الممرّ الفاصل بين صفّي الزنازين على مستوى الباحة، من يمرّ فوقها يعتقد أنّها فتحات مطريّة لتصريف مياه الأمطار. الباحة الخامسة هي باحة المرفّهين والمغضوب عليهم في الوقت نفسه.

ثانيًا: لا يمكن أن يخطر على بال أحد الشيء الذي أيقظ في داخلي ذلك السرور الذي يشبه نسمة منعشة في صيف حارّ. لا يمكن أن ينتبه أحد إلى قيمة ما رأيته وحرّك في داخلي نسغ الحياة المحيي. أقول ذلك لأنّني أنا نفسي لم أدرك وأنا أشعر بسعادة جرّاء ما أراه، لم أدرك للوهلة الأولى ما الذي يحرّض نسمة السعادة العابرة هذه، ولأنّ ما حرّض بي ذلك شيء تفّهه الاعتياد. كانت تلك المرّة الأولى التي أقف فيها على ثقب باب المهجع السادس في الباحة الخامسة، وأتأمّل الرقيب وهو يسير في الممرّ عائدًا باتّجاه باب الباحة، وجدت نفسي مشدودًا إلى مراقبته حتى خرج من الباحة، راقبته وأنا سعيد بذلك ومتمنّيًا أن يطول الممرّ أكثر. وسرعان ما أدركت أنّ ما يشدّني ويوقظ سعادتي هو مشيته، لا لأنّها جميلة أو غير جميلة، ولا لأنّها مميّزة أو عاديّة، ولا لأنّها تشبه مشية لها حضور ما في ذاكرتي، فقط لأنّها مشية طبيعيّة. منذ زمن بعيد لم أر مشية طبيعيّة على مدى طويل. لأوّل مرّة، أو أكثر من أيّ مرّة سابقة، أكتشف كم هي جميلة مشية الإنسان. وها أنا أرى إنسانًا طبيعيًّا يمشي بشكل طبيعي فيضطرب قلبي شوقًا إلى الحياة، كما اضطرب حين كنت في زنزانة في سجن الشيخ حسن في دمشق واستطعت أن أرى من زاوية شبّاك الزنزانة يديْ امرأة تنشران الغسيل على حبل على سطح إحدى البنايات. لم يمنع استمتاعي بمراقبة مشية الرقيب أنّه يرتدي الزيّ العسكري الكامل. ربّما كان السرّ الحقيقي في كون الرجل غير سجين، في كونه قطعة حيّة من العالم

الخارجي تدخل وتخرج إلى عالم معزول تمامًا ومنذ زمن بعيد عن الحرِّيّة. فيمكنك أن تتخيّل أنّ هذا الرجل يسير هذه المشية عينها في شوارع مدينة تدمر مثلاً، أو في أزقّة قريته أو في أيّ مكان لا ينتمي إلى عالم السجون، فهذه المشية التي أراها الآن داخل هذا السجن المحصّن وفي هذا الممرّ المحفوف بالزنازين من الجانبين هي ذاتها عنصر من مشهد حرِّيّة، لأنّها مشية رجل غير سجين!

ثالثًا: مرّة كنت أريح عينيَّ على الأغصان الكبيرة العالية التي يمكن رؤيتها من شبّاك المهجع لشجرة كينا، لا أدري هل هي داخل أم خارج سور السجن! فرأيت طائرًا أسود غريب الشكل، حجمه أكبر من الحمامة وعنقه طويل بشكل يلفت النظر ولونه أسود فاحم كلون الغراب. شيء طريف جعلني أدعو البقيّة لرؤيته بسرعة قبل أن يطير. الجميع جاء وألقى نظرة على ذاك الطائر الأسود ولم يتمكّن أحد من تخمين نوع هذا الطائر. تابعت مراقبتي له وهو يجول بنظره في كلّ ما يحيط به مستفيدًا من طول رقبته. طال مكوثه كثيرًا فمللت وانشغلت عنه، وبعد حين من الزمن تذكّرته فنظرت إليه لأراه على حاله. فقلت لصديقي أليس من الغريب أن يبقى هذا الطائر الأسود أكثر من ساعة على هذه الوضعيّة؟ ألا يحرّض ذلك عند المرء شيئًا من التطيّر؟ يقولون الطير الأسود دليل شؤم، ولكن لعلّ المعايير تنقلب في هذا السجن، فهل يكون فأل خير؟ ضحكنا واستغرقنا في تحليلات ساخرة وعبثيّة، ونحن نلقي كلّ حين نظرة إلى الطائر الغريب الذي لا يبارح مكانه. بعد حين طار ذلك الطير وكأنّه يقول: ألا قد بلّغت! في اليوم التالي حلّت علينا نقمة «القيادة الجديدة» للسجن، وكان نقلنا من الباحة الخامسة على يد ذلك الرقيب الصفراوي وبطريقته المتشفّية تلك.

لطف الخشب

إذا كان تنقّل السجناء بين السجون هي لغة التخاطب بين السجون، فإنّ التنقّل المستمرّ بين المهاجع في السجن نفسه هي لغة السجن مع نفسه، ذاك هو الديالوغ، أمّا هذا فهو المونولوغ. ولا يكفّ سجن تدمر عن مناجاة نفسه. تغيير المهاجع عنصر ثابت في السياسة الأمنيّة في سجن تدمر. تمكث في المهجع فترة، نادرًا ما تتجاوز السنة، ثم ينقلونك إلى مهجع آخر. ربّما لإحباط أيّة ترتيبات هرب ممكنة. علمًا أنّ الهرب مستحيل ما لم يكن بالتوافق مع إدارة السجن. قادتنا تنقيلاتنا إلى مهجع مكوّن من غرفتين اثنتين يصل بينهما باب. سمعنا أنّ هذا المهجع كان في الأصل مقرًّا لمفرزة السجن. وبالفعل كان قريبًا من مهجع عناصر الشرطة وتجمّع عناصر البلديّة الذين هم من «نزلاء» السجن الشرقي، أي من العسكريين المعاقبين والفارّين، ممّن يقومون بالأعمال السوداء في السجن السياسي. وهؤلاء يشكّلون الطبقة الدنيا من عالم الآلهة في سجن تدمر. هؤلاء، بالمناسبة، معاقَبون يعاقِبون ويتسرّب نفوذهم فقط من خلال مسامّ شخصيّة الرقيب. حين يستشعرون الليونة والضعف في شخصيّة الرقيب يمكن لهم أن يشتموا أو يضربوا من دون أمر. ولكنّ النفوذ الأهمّ لهؤلاء، وهو نفوذ يمكن أن يلتفّ على نفوذ الرقيب، هو أنّهم يستطيعون التأثير على الوارد من الطعام، فهم الموكلون بتوزيع الطعام ويستطيعون بالتالي زيادة حصّة الطعام المخصّصة لهذا المهجع أو ذاك وتحسين نوعيّتها أو العكس. يمكن لعنصر البلديّة أن يغرف قليلاً أو كثيرًا من البْلَوّ فتزيد الكمّيّة، كما يمكنه أن يغرف من قاع البلو أو من سطحه فيحظى المهجع بكمّيّة أكبر أو أقلّ من المادّة المطبوخة داخل المرقة. لا شكّ أنّ هذا ضمن حدود ولكنّها حدود مؤثّرة.

أن يكون عناصر البلديّة مجاورين للمهجع يعني أن تسمع أخبارهم الشخصيّة وأخبار محاكماتهم وأن تتسقّط الأخبار الداخليّة للسجن، وأن تسمع آخر أخبار الدوري السوري لكرة القدم بطريقة خاصّة بهؤلاء العناصر، وأن تسمعهم يتدرّبون مع الشرطة على الجلد بالكرباج على قطعة خشب.. ويمكنك ربّما أن تسمع قصّة فيلم رائج يرويها أبو عذاب. وأبو عذاب هو رئيس عناصر البلديّة النافذ، وهو لا يستمدّ نفوذه فقط من كونه رئيسًا للبلديّة بل من علاقته المميّزة مع مساعد الانضباط. نفوذه لا يقلّ عن نفوذ رقيب. وتهديداته لا تقلّ عن الإعدام أو الشلّ أو التشويه: رئيس مهجع ولا! إذا بشوف فتفوتة خبز بكيس الزبالة بشلّك! أو: يا حيوان، حطّ قشر الجبس بكيس لحاله أحسن ما عدّمك! قدرته ممتازة على ضبط عناصره، وهو قادر على حمايتهم والدفاع عنهم في وجه عناصر الشرطة المستخفين. وقد يشكّل عناصر البلديّة مصدر قلق لإدارة السجن بسبب احتكاكهم فيما بينهم ومع عناصر الشرطة، فهم عناصر شابّة ومشاغبة لا شكّ، وهذا في الغالب سبب وجودهم في السجن. وقد كان الحلّ السحري الذي أبدعه «الدريكيش» بعد أن صار مساعد انضباط السجن، هو إنهاك البلديّة وملء وقتهم. فقد كان يطلب منهم ملء البحرة الكائنة أمام مكتبه بالماء من الحمّام يوميًا بواسطة البلْوّات. كلّ يوم يجدّد ماء البحيرة. كلّ يوم تجد عناصر البلديّة وهم ينقلون الماء كالعبيد، وفي آخر النهار لا يتبقّى لدى أحد منهم القوّة حتى على الكلام فكيف على المشاكسة.

صادفنا في هذا المهجع الجديد المكوّن من غرفتين وشرّاقتين شيئًا يندر أن تراه في مهاجع سجن تدمر، شيئًا جعلنا على نحو غريب نتذكّر دائمًا هذا المهجع الذي لم نمكث فيه أكثر من عشرة أيّام. إنّه إطار خشبي للباب الداخلي الذي يصل بين الغرفتين. خشب قديم من النوع

الخشن الليّن، وقد كان مدهونًا فيما مضى بلون أخضر زيتي، قبل أن تفعل فيه الأيّام والأيدي فعلها. إطار خشبي على باب، شيء غير متوقّع في عالم الحديد والبلاستيك هذا. كأنّك ترى ظلّ شجرة كثيف وسط صحراء ممتدّة.

كم هو الخشب مريح للنفس، كم هو مسالم وأليف. شيء حيّ يمنح نفسه ليكون أدوات في أيدي البشر. ربّما هذا هو الفارق بينه وبين بقيّة الموادّ البديلة الأخرى. كنت أرتاح لملامسته وحتى لمجرّد النظر إليه، أضع خدّي على ذلك الإطار الخشبي وأترك بشرتي تتحسّسه وتستجرّ عبره كلّ جمال الطبيعة المنتجة للخشب، الحور والصنوبر والصفصاف والسرو والدلب والغار والسنديان والبقص والقيقب والبطم والبلّوط والخرنوب والزرود والسنجريق والشيح والسترك و. . . هذا العالم الأخضر المتنوّع الذي كان يحتضن بيوتنا ويوسّع لنا مكانًا كي نزرع مواسمنا وأشجارنا، أشجارنا «الصنعيّة» التي عدّلها الإنسان لغايات خاصّة به كي تعطي أشياء معيّنة مثل التفّاح والعنب وغير ذلك. كم هو رحيم أن تقع عيناك على الخشب بدلاً من أن تقع على الحديد أو الإسمنت، كالفرق بين أن تلقي بوزنك على مرج أخضر وأن تلقيه على صخر. الخشب شيء حيّ لا يمكن أن يقارن بالحديد والإسمنت. أجعل وجهي يلامس ذلك الخشب العتيق وأذكر أنّني رأيت ذات مرّة في برنامج علمي تجربة تبيّن كيف أن النباتات تشعر بألم الإنسان. توصل النبتة إلى جهاز يسجّل على شاشته حركة النسغ فيها، فتظهر على الشاشة موجات خفيفة، ثم يقف شخص بقرب النبتة ويجرح إصبعه بشفرة، ورغم أنّ هذا الفعل لا يثير ضجّة ولا اهتزازًا ولا حركة عنيفة من أيّ نوع، فإنّك ترى الموجات تتصاعد بشكل حادّ. لا شيء يفسّر هذا الاضطراب الذي أصاب النبتة سوى أنّها أحسّت بالجرح.

اللافت أنّ الانطباع الذي خلّفه هذا المهجع في نفوسنا كان مريحًا لدى الجميع. أعطي لهذا الأمر تفسيرات مختلفة، هناك من قال إنّ ذلك يعود إلى قربه من الإدارة الأمر الذي يخفّف من تدخّلات الحرس الليلي وإساءاتهم لنا، وهناك من قال إنّ التسلية التي توفّرها أحاديث عناصر البلديّة كانت السبب! ومهما يكن من أمر، فإنّ ذكر ذلك المهجع في الباحة الرابعة يرتبط بذهني على الفور بالإطار الخشبي، وأنا أفسّر الانطباع المريح الذي تشكّل لدى الجميع حيال هذا المهجع بلطف الخشب.

الدخان

الدخان في السجن حاضر إذا حضر وحاضر أكثر إذا غاب. من جهتي لست مدخّنًا رغم محاولاتي، يبدو أنّ كيمياء جسمي لا تستسيغ الدخان، لا تتفاعل معه لتعطيني الشعور الممتع والرضا الكبير الذي يتحدّثون عنه. وأنا أشعر بالحسد تجاه من يجد هذه المتعة الغريبة في التدخين. ويزداد حسدي حين أجد مدى التعلّق والاستفقاد الفظيع له، وأحسب أنّ متعة كبيرة تفوتني. أمّا في السجن فللدخان حضور آخر، وهو حضور مثير للمشاكل، وفي سجن تدمر لحضور الدخان كما لغيابه سحنة تدمريّة غالبة.

الدخان هي المادّة الأيسر توافرًا في سجن تدمر، هناك فواتير دوريّة لإحضار الكمّيّات التي تسجّل عليها وتستطيع دفع ثمنها، لا يوجد سقف لما يمكن أن تسجّل عليه. يبدو أنّ للإدمان حرمته هنا، أو كما فسّر البعض، يحرصون في سجن تدمر على أن يقدّموا لك كلّ ما هو ضارّ. لكنّ الأهمّ من التفاسير هو أنّ الدخان متوافر. للسيجارة وقتها دائمًا، إذا قلق الشخص يدخّن وإذا زال القلق يدخّن وإذا أكل

يدخّن وإذا تأخّر الأكل يدخّن، سيجارة ما قبل النوم لها مذاق خاصّ، وسيجارة ما بعد الاستيقاظ لها أولويّة، وسيجارة ما بعد التنفّس لا يعادلها شيء، سيجارة ما بعد الإهانة مهمّة وسيجارة ترقّب طلب أو عدم طلب المعلّمين صباحًا لا تقلّ أهمّيّة، بعد ملاسنة مع شريك في المهجع للسيجارة مكان لا يملأه غيرها، وفي جلسات الودّ والمساررة مكانها محفوظ.. إلخ، ماذا يفعل المدخّن في كلّ هذه الأوقات إذا غابت السيجارة؟ لا شيء يملأ فراغ الدخان. انقطاع الدخان يعني زيادة في التوتّر في العلاقات داخل المهجع. وسوى تعكّر المزاج والشعور بالفراغ عند المدخّنين، فإنّ انقطاع الدخان كان يعني معاناة المدخّنين من مشاكل صحّيّة على رأسها السعال والإمساك. لذلك ورغم انزعاج غير المدخّنين من الدخان إلّا أنّ وجود الدخان كان أفضل للمهجع من غيابه.

يوصي كلّ مدخّن على نوع وكمّيّة الدخان التي يريدها مقدّرًا ما يكفيه إلى حين الفاتورة التالية، ولكن قد تتأخّر أحيانًا فاتورة الدخان، فيبدأ المدخّنون في حساب ما بقي لديهم ويبدأ التقنين، تصبح السيجارة ثروة، ويصبح لتدخينها طقوس. متعة أن تراقب عمر أو الحارث مثلاً حين يستعدّ للتدخين، كيف يسكب قليلاً من الشاي من سطل الشاي في كأس البلاستيك الخاصّة به ويسوّي البطّانيّات تحته وخلف ظهره ويدوزن جلسته ثم يسحب سيجارة من الباكيت بعناية، يمسكها بين إصبعيه أو يضعها خلف إذنه ويغلق الباكيت بتأنّ ثم يضع السيجارة في فمه بعد أن يمسّدها قليلاً بإصبعيه ويمرّرها قليلاً على لسانه أو يبلّل عقبها بقليل من الشاي، ثم يتأمّل المهجع أو الحائط الذي أمامه للحظات قبل أن يشعلها ويروح يبني لذاته متعته المستقلّة.

حين ينتهي الدخان، ويبقى بضع سكائر مع أحد ما، يقاسمه عليها الآخرون. من المعيب أن يدخّن من دونهم ومن الخسارة أن يقاسمهم، فلماذا لم يقتّروا ويحتفظوا بدخانهم مثله، هذا درس! في المرّات اللاحقة يصبح هناك نوع من التنافس الخفيّ على إنهاء الحصص كي لا يقع المرء في شرك مشاركة الآخرين بما وفّره من دخان.

بعد الغداء تشتعل السجائر دفعة واحدة ويغرق المهجع في الضباب، حتى إنّ الحارس جاء مسرعًا ذات مرّة ظانًّا أنّ حريقًا شبّ في المهجع، بعد أن رأى عمود دخان يخرج من الشرّاقة. غير المدخّن يعاني من هذا الوضع، ولا يقتصر الأمر على الضرر المفترض الذي يلحق به، فالدخان الذي يملأ جوّ المهجع يجعل مجرّد التنفّس أمرًا عسيرًا. وغير المدخّن لا يبالي عادة برغبة المدخّن بالتدخين، قليل من غير المدخّنين يتفهّمون هذه «الحاجة» لدى المدخّن، وبالمقابل لا يبالي المدخّن لا بتضرّر ولا بانزعاج غير المدخّن. وما جعل الأمر إشكاليًّا في سجن تدمر هو أنّ ثمن الدخان يسدّد من مال مشترك. ببساطة يمكن لغير المدخّن أن يقول من حقّي أن أشتري أشياء أخرى بالمال الذي يشتري به غيري الدخان. التدخين بذرة مشاكل تنتشر وتفرّع سريعًا ما إن تتوافر لها بيئتها.

الاستحباس

الاستحباس هو الاستسلام العميق للسجن، هو تقبّل السجن كخلفيّة ثابتة للوحة حياتك، كمعطى ثابت، أو كعاهة تعتاد عليها وتتعايش معها وتنساها. الاستحباس يعني أنّك تحوّلت، أنّك اجتزت البرزخ، قطعت المسافة الفاصلة بين عالمين ووجدت عناصر استقرارك في العالم الجديد. عبور البرزخ عمليّة مؤلمة، قد تطول أو تقصر، وقد

لا تنجز، فيدخل السجين في نفق لا يطيقه العقل البشري فيخرج عن مداراته ليدخل في فوضى أو في مدارات غير مألوفة أو فيما نسمّيه الجنون.

الاستحباس هو ترويض للنفس وليس للسجن. السجن آلة عمياء لا تروَّض ولا تواجَه. التكيّف معها وتلافي بطشها والنفاذ عبر مسالكها الآمنة يمكّن السجين من الاستمرار وربّما حتى من التطوّر ضمن ظروفه الرهيبة. في التكيّف مع السجن أو فيما سمّيته الاستسلام العميق للسجن يصبح الأمل بالتحرّر من السجن كالأمل بالجنّة، وكما يعمل المؤمن لآخرته وهو منخرط في دنياه كذلك هو السجين بالنسبة لحرّيّته، ولا تستغرب أن ترى السجين أحيانًا يعمل لسجنه كأنّه باق فيه أبدًا. وكلّ ذلك ينظّمه وضع السجن وأمل الحرّيّة، اللذان يتبادلان المواقع في الأهمّيّة.

في سجن الشيخ حسن كان أبو فهد مثالاً للسجناء الذين فشلوا في التكيّف مع شرطهم الجديد، أي فشلوا في الاستسلام للسجن. ذاك الشابّ الوسيم ذو القامة المتّسقة لم يستطع عبور البرزخ. تقطّع عقله في عوالم متداخلة، عالم هنغاريا حيث درس الهندسة الكهربائيّة وتزوّج فيها من إليزابيث اليهوديّة كما قيل، وعالم بيئته الريفيّة ذات الطابع الخاصّ في محافظة السويداء، وعالم السجن المكتظّ الضاغط. تداخلت هذه العوالم وصارت تفرّخ عوالم هجينة غريبة لا تني تتكاثر وتفاجئنا كلّ يوم بجديد. اليوم يرتاح لفلان من سجناء المهجع، وغدًا يتحوّل هذا الفلان إلى كائن ممقوت يتفادى أبو فهد حتى المرور بجواره ويشمئزّ منه وكأنّه يشمّ منه رائحة كريهة. كانت الطبيعة المسالمة لأبي فهد تدفعه إلى إعلام «خصومه» بحدودهم، وهذا ما كانت تمليه

عليه ربّما دراسته الهندسيّة الصارمة، فيخاطب خصمه بالقول:

ـ شوف عملتلك معادلة ورسمتلك خطّ هون (ويشير إلى خطّ وهمي على الأرض محرّكًا سبّابته كمن يرسم خطًّا) لو سمحت لا تتجاوز الخطّ!

صار السجناء رموزًا في معادلاته المتوالية بلا نهاية، ودائمًا لا تتّفق الحالة اليوميّة للسجناء مع ما تقتضيه هذه المعادلات الغريبة المبتكرة، فتراه في حالة توتّر دائم، يوجّه ملاحظات يئس مع الوقت من توجيهها علنًا، فبات يقولها بينه وبين نفسه بجدّ كبير من جهة وبلا أمل باد من جهة أخرى، مستهلكًا ذاته إلى حدود قصوى وهو لا يكلّ طوال الوقت من التقاط الأفكار المتطايرة حول رأسه، كمن يحاول التقاط الذباب الحائم، ثم يدسّها تحت فخذه بينما هو جالس يدخّن أو يلعب الشطرنج.

لسبب لا أعرفه طالت مودّته لي، كنت ألعب معه الشطرنج ولم يكن يناديني باسمي أبدًا، كان يسمّيني أبو البحر، ربّما نظرًا لوقوع مدينتي على البحر، وأحيانًا كان يبسّط الأمر أكثر فيسمّيني أبو الماء. كنت ألعب معه الشطرنج وكان متفوّقًا عليّ بوضوح في فهمه الرقعة وفي طريقة تفكيره الشطرنجي المنظّم. الشطرنج كان ينسيه قليلاً تداخل عوالمه وضياعه الرهيب في متاهاتها، فكان يلعب وهو يبتسم، وينتقد نقلاتي ويحذّرني من أنّ هذه النقلة ستكون السبب في هلاك مَلَكي، ويعطيني فرصة أن أتراجع عنها. الشيء الوحيد الذي لم يكن للشطرنج أو غيره أن ينسيه إيّاه هو محاربة الأفكار المتطايرة حول رأسه ومحاولته الدائبة للإمساك بها ودسّها تحت فخذه، معاتبًا إيّاها بتوتر: «لْعمةْ هلّأ خلصنا منك».

ولكن ذات يوم ناداه أحد عناصر الشرطة إلى الزيارة، وكانت وتيرة زياراته عالية بعد أن تفاقمت حالته، فنزل وعاد بعد حوالى نصف ساعة، عاد بشوشًا وراح يوزّع ما جاءه في الزيارة على الجميع فردًا فردًا. حتى الدخان راح يوزّعه طالبًا من الجميع تدخين النوع الذي يفضّله ويحضره له أهله في الزيارة قائلاً: خلّوا الجوّ كلّو ونستون. كرم يحمله في دمه من بيئته الريفيّة. ولكن نظراته إليّ لم تكن مطمئنّة. وبعد أن خفّ هرج الزيارة، بادرته بالسؤال عن أهله وهو يمشي في المهجع ساهمًا متثاقلاً يلهو بمسبحة من بذر الزيتون، فوقف وحدّق إليّ ولم يجب. شعرت بالحرج وخشيت ممّا تضمره نظراته تلك، ولم يكن أمامي إلّا أن أتابع:

ـ خير أبو فهد؟

فقطّب حاجبيه وقال لي كأنّ الأحرف تخرج بصعوبة من فمه:

ـ يا رجل ما عيب اللي عملتو معي اليوم بالزيارة، ما عيب تمسك قضيبك وتدور حول أختي طول الزيارة. إنتَ بترضى أعمل هيك بزيارتك!

أدركت أنّ معادلاته قد لفظتني ورمتني في خانة الخصوم، وكنت أعلم أن لا رادّ لما تقرّره تلك المعادلات، ومع ذلك قلت له بقوّة المتابعة لا أكثر:

ـ ولو يا أبو فهد! أنا طول وقت زيارتك هون بالمهجع، بلكي أنت غلطان!

فقال:

ـ ما توقّعت منك هيك، وأشاح وجهه باشمئزاز.

كان أبو فهد مصدر قلق للجميع، ليس فقط لأنّه لا يمكن التكهّن بسلوكه، فهو علّة جاهزة لمشكلة وشيكة دائمًا، بل الأهمّ لأنّه مثال ماثل أمامنا كلّ يوم عن الإخفاق في التأقلم والعجز عن الاستحباس وبالتالي الجنون (إذا كان الاستحباس هو استسلام عميق للسجن فمن مفارقات السجن إذن أنّ الاستسلام فوز وعدم الاستسلام إخفاق!)، مثال يذكّرنا دائمًا بإمكانيّة أن تختار أيّ نفس من نفوسنا السقوط في هذه الهاوية تحت ضغط السجن الذي لا مهرب منه، كما اختار الجمل «اللاوعي»، في مثال فرويد الشهير، السقوط في الهاوية حين برز أمامه نمر، من دون أن ينتظر قرارًا من الرجل الذي على ظهره «الوعي». من جهتي على الأقلّ، كنت مثلاً إذا ألحّت عليّ فكرة بصورة مزعجة، أخشى في نفسي أن تكون هذه بداية الطريق المفضي إلى جنون أبي فهد. وطالما أنّ تطوّر مثل هذه الحالة لا يخضع للإرادة، فكان في دخيلة كلّ منّا خوف مقيم، إذ لا ضمان لأيّ منّا في ظلّ هذه الظروف القاسية من أن يسقط في هذه الهاوية. أحد أصدقائي في السجن تشاءم قائلاً: أراهن أنّهم لن يفرجوا عنّا حتى نصبح جميعًا مثل أبي فهد، وهم لا يرفضون الإفراج عنه إلّا لكي نرى هذا المثال الحيّ أمامنا دائمًا حتى يطقّ عقلنا مثله. تعامل الجميع مع كلامه كمزحة، ولكنّه كان بلا شكّ كلامًا ثقيلاً على الجميع.

كان أبو فهد ثقيلاً علينا وكنّا بلا شكّ أثقل عليه. عبثًا كان يسعى ويجهد نفسه بصمت إلى جعل المهجع ينتظم وفق ما تقتضيه معادلاته المتوالدة، لذلك قرّر أن يكمل سجنه في المنفردة، فهناك العناصر أقلّ وإمكانيّة ضبطها أكبر. ولزيادة مسافة الأمان كان أبو فهد لا يستلم الجرائد التي تأتي إلى السجن إلّا بعد مرور يوم على الأقلّ على

صدورها، فالأخبار تصبح أقلّ تأثيرًا بعد أن تبيت، كما كان يقول. تفاقمت حالة أبي فهد فصار أكثر انطوائيّة وصارت تبدر منه سلوكيّات أكثر غرابة. كان مثلاً لا يحتمل لبس شحّاطة مغلقة من الأمام، لذلك كان يقطعها من الأمام حتى تبدو أصابع قدميه، ويشتري ليفًا اصطناعيًا يفرشها على رأسه فربّما تقيه من الأفكار التي تحاول الهبوط على رأسه، وكثيرًا ما كان يربط عضوه التناسلي بقطعة مطّاط ويجعلها تتدلّى من فوق مطّاط بيجامته كي يمنعه من الطيران كما كان يقول (ما هذا التقاطع مع تسمية الكبار للعضو الذكري عند الصغير «حمامة»؟). وصار إذا ما تناول أحد النظام السياسي في البلد أو أحد رموزه بنقد من أيّ نوع، يعضّ على شفته السفلى كأنّه يسمع كلامًا معيبًا، الحديث السياسي المعارض خرج عنده من دائرة السياسة ليدخل في دائرة الأخلاق على أنّه عيب.

إقامة أبي فهد في المنفردة سرّعت من تدهور حالته وصار هزيلاً لا يتناول أيّ شيء من الطعام، وابتدأت هيئته تتطابق مع الهيئة الشائعة للمجنون، عيون ضائعة وذقن غير حليقة وشعر طويل وسخ. لكنّ الشيء الأهمّ هو أنّ أصحاب الأمر في حينها بدأوا يقتنعون أنّ أبا فهد مريض حقًّا وأنّه لا يمثّل. فبعد أشهر من طلبه الإقامة في زنزانة أُفرج عنه بعد أن تردّت حالته للغاية، وبعد ضغط مستمرّ (تذكير) من عائلته التي كان يظهر أنّها ذات وزن مالي غير قليل. خرج أبو فهد إلى الإفراج كأنّه خارج إلى التنفّس، بشحّاطته المقطوعة من الأمام وبيجامته وذقنه التي مضى عليها أيّام من دون حلاقة، خرج أبو فهد من المنفردة لا يلوي على شيء، لم يلتفت حتى صوب المهجع رغم كلّ النداءات والمباركات التي هتفنا له بها وهو يسير إلى جانب الشرطي

غير مدرك ربّما ما معنى الإفراج.

في حالتي، يمكنني أن أقول إنّ معنى السجن تكثّف ذات يوم في لحظة حارقة اخترقتني وكوتني وقهرت ذاتي واستعمرتني حينها رغبة عميقة بالبكاء. لو كنت وحيدًا، بعيدًا عن العيون، لبكيت من أعماقي. كان ذلك في سجن الشيخ حسن في يوم خريفي من أيّام تشرين الثاني كما أذكر، وكان قد مرّ حوالى الشهرين على نقلنا إلى هذا السجن بعد انتهاء التحقيق معنا. نمت فترة ما بعد الظهر وأخذني النوم طويلاً، وحين أفقت كان قد حلّ المساء، تهت للحظات ولم أدرك أين أنا. بحثت عن ملامح المكان الذي أنا فيه فارتطمت (هذه هي الكلمة المناسبة) عيناي بالحديد الغليظ المتصالب على النوافذ العالية الضيّقة للمهجع. أحسست بضيق شديد في صدري كأنّ رئتيَّ تحجّرتا، وانتابتني رغبة بالبكاء كالطفل. جالت عيناي تبحثان عن مخرج فارتطمتا من جديد بباب حديدي أسود مصمت. وكان أهل المهجع موزّعين، بعضهم يتسامرون والبعض يلعبون الشطرنج والبعض يحفّون بذر الزيتون على الحائط لصناعة مسبحة، وآخرون يتحلّقون حول بابور الكاز وفي أيديهم محارق يتفنّنون في تزيين حبّات مسابح الزيتون بالحرق، وآخرون يصفنون في الفراغ وهم يدخّنون.. إلخ. عالم غريب، كأنّني فوجئت بهذا العالم بعد حوالى شهرين من عيشي فيه، وأدركت بحرقة أنّ هذا هو عالمي الجديد، وأنّ هذه هي حياتي الجديدة. وبدأت فيما يبدو آليّات استسلامي لواقع أنّني «سجين»، ومع تقدّم سير استسلامي بدأ ضيقي يتراجع. كمن كاد يختنق من لقمة كبيرة تمرّ في بلعومه وراح شعوره بالاختناق يتراجع مع تحدّر اللقمة. يزول الشعور بالاختناق بعد أن تستقرّ اللقمة في المعدة. وأنا زال ضيقي

شيئًا فشيئًا واستقرّ السجن في مكان عميق داخلي، استقرّ ولن يغادر. لا هو قابل للهضم ولا يمكن لفظه.

اعتدت على السجن، قبلته وتمرّست على التعامل مع بحر الزمن المتلاطم فيه. ولكنّي بقيت أخاف من النوم في فترة ما بعد الظهر خشية أن يطول نومي إلى المساء وأشهد في نفسي تغيّرات غير محمودة. كانت نومة ما بعد الظهر علامة استحباسي أو استسلامي للسجن، فقد تكون نومة مماثلة أخرى علامة استسلامي للجنون، لذلك كنت أتحاشى النوم بعد الظهر، وإذا نمت كنت أطلب من أحد ما إن يوقظني قبل أن «يكبسني المساء».

كان لديّ في سجن الشيخ حسن خشية دائمة من تفكّك العقل، هكذا كان يبدو لي الجنون. وقد تراجعت هذه الخشية شيئًا فشيئًا بعد الإفراج عن أبي فهد، النماذج الواقعيّة تشدّك إليها سلبًا أو إيجابًا. ولن تكون خشيتي هذه بالدرجة نفسها حتى في سجن تدمر، ربّما كان من فضيلة الخوف والقلق المستمرّين هناك أنّهما يحرسان العقل من التفكّك! حتى إنّ أبا مالك الذي كان عقله قد شرع بهذه العمليّة في سجن عدرا تماسك قليلاً في سجن تدمر، لدرجة أنّنا شعرنا في الفترة الأولى لنا هناك أنّه صار طبيعيًا ـ ألم يعتمدوا سابقًا القسوة والعنف في علاج الأمراض العقليّة؟

بعد أن يُستحبس السجين ويعتاد السجن، وتصبح الحرِّيّة ذكرى بعيدة وأملاً باردًا، وينضوي السجين مستسلمًا لسجنه، ويهدأ ترقّبه الحارق للإفراج، يبدأ بوضع خطط سنويّة لحياته السجنيّة الجديدة، ويوضّب ملابسه الدافئة تحسّبًا للشتاء التالي.

الاستدمار

قياسًا على اشتقاق كلمة استحباس من كلمة حبس، يمكن اشتقاق كلمة التدمرة أو الاستدمار من كلمة تدمر. ولحكمة عجيبة أو لسرّ ما في اللغة العربيّة تتشابه كلمة تدمر مع كلمة تدمير. يمكنك أن تقول مستفيدًا من هذا التقارب اللغوي: «إنّ تَدْمر تُدَمِّر». ويمكن أن نقول إنّ الاستدمار هو أن تجلب الدمار إلى ذاتك مستسلمًا للخوف. أن تسحق ذاتك أمام طغيان مفردات وآليات وعناصر سجن تدمر. الاستسلام للسجن (الاستحباس) شيء مختلف عن الاستسلام للخوف (الاستدمار). ولئن كان الاستحباس مدخلاً لتقبّل السجن والتطوّر داخله أو مقاومة فعله التدميري عبر «نسيانه»، فإنّ الاستسلام للخوف هو تحطيم للنفس ليس فقط أمام القسوة المحيطة بل أيضًا أمام ذاتها بالدرجة الأولى، إنّه تحويل حالة الضحيّة إلى موقع ووظيفة للضحيّة، وهذا أمر ربّما لا يمكن البرء منه لاحقًا. أحد رفاقنا في سجن تدمر تلقّى ذات مرّة صفعة من رقيب انفلتت جرّاء قوّتها ساعة الرقيب من يده وسقطت على الأرض، فما كان من رفيقنا إلّا أن انحنى والتقط الساعة وقدّمها إلى الرقيب. هكذا يسحق المرء ذاته أمام ذات متجبّرة فيقبل على نفسه ما لا يقبله عادة. هذا أثر للاستدمار. ربّما فوجئ الرقيب نفسه بسلوك هذا السجين وربّما لجم هذا السلوك عدوانيّته. وعلى العكس قد يحرّض مثل هذا السلوك العدوانيّة. فالعدوانيّة الصارخة المقتدرة يمكن أن تستولد الخنوع لدى الضحيّة، كما أنّ الاستسلام المفرط قد يحرّض على المزيد من العدوانيّة، فتنشأ آليّة توليد متبادل. الاستدمار ليس أن تتفادى قوّة عدوانيّة بالانحناء أمامها، في هذه الحالة أنت تنحني كي تنتصب لاحقًا، بل أن تنكسر نفسك أمام قوّة عدوانيّة ساحقة وتبدأ نفسك باستيعاب ذاتها والتعوّد على ذاتها كضحيّة.

كان قد مضى حوالى ثلاثة أشهر على نقلنا إلى سجن تدمر، وكنّا لا نزال في مهجع «جديد صدر» حين تعطّلت الأضوية الكاشفة الكائنة فوق مهجعنا وجاء العناصر لإصلاحها في فترة ما بعد الظهر. كان إصلاحها يتطلّب نزول بعض العناصر إلى مستوى شبابيك (قل طاقات) المهجع، لذلك ولكي لا نرى وجوه عناصر الشرطة العسكريّة جاءنا الأمر: منبطحًا الكلّ! نفّذنا الأمر كلّ على فراشه. مرّ وقت غير قصير ولم يأت أمر آخر بالمتابعة. التزمنا بالأمر حتى بعد أن انتهت كلّ أشكال الحركة على السطح. البعض أخذه النوم بوضعيّة الانبطاح. لم يجرؤ أحد على الوقوف منتظرين أمرًا بذلك. ربّما كان الحارس يقف على الشرّاقة وينتظر من يتجرّأ على الوقوف لكي يصبّ عليه عقوبة فظيعة. بعد فترة طويلة تصل إلى ساعتين ربّما أو أكثر، فُتح باب المهجع وصاح الرقيب:

ـ فوارغ! (كان قد حان موعد توزيع العشاء، فلم يكونوا يومها قد وزّعوا طعام العشاء مع الغداء).

لم يتحرّك أحد، دُهش الرقيب وهو المعتاد على عدم تكرار الأمر، فالعادة أنّه ما إن يُفتح الباب ويقول فوارغ حتى يجد عنصر السخرة في الخارج وبيده الجاط. كرّر الأمر، فلم يتحرّك أحد. نظر إلى داخل المهجع فرأى الجميع بوضعيّة: منبطحًا.

ـ طالع فوارغ ولا حيوان رئيس مهجع! صاح الرقيب.

وقف عزيز (رئيس المهجع) وتجرّأتُ فوقفتُ معه وخرجت بالجاط كي أستلم شوربة العدس. سأل الرقيب:

ـ ليش هيك ولا منايك!؟

شرح له عزيز أنّنا لا نزال تحت أمر «المنبطحًا»، لأنّهم كانوا

يصلحون الكهرباء على السطح. هل يروق للسجّان أن يراك مرعوبًا ومستسلمًا إلى هذا الحدّ؟ من الواضح أنّ هذا الرقيب لم يرق له الأمر. ربّما لا يروق للجلّاد عمومًا من ضحيّته الاستسلام التامّ فهو يستمتع بشعور التغلّب على مقاومة ما. لا استسلام الضحيّة التامّ ولا عدم الانكسار يروقان للجلّاد. ولكن إذا كان عدم الانكسار يخلق نوعًا من الاحترام، ربّما ضمن طيف من المشاعر العدائيّة والانتقاميّة، فإنّ الاستسلام التامّ يولّد نوعًا من الشفقة التي هي وجه آخر للاحتقار.

مثل هذه الحالة يمكن أن تحدث في سجن عدرا ولكن على مستوى آخر، إذ لا يصل منسوب الخوف هناك إلى هذا الحدّ. مثلاً هناك بعد مناقشات ومداولات طويلة واتّهامات بالمزايدة من جهة وبالجبن والتخاذل من جهة أخرى، تمكّنّا مرّة من اتّخاذ قرار بالإضراب لمدّة يوم واحد احتجاجًا على ضعف الاهتمام والبطء في إسعاف رفيق لنا كان بوضع صحّي سيّئ في السجن ممّا أدّى إلى وفاته. كان مضمون المناقشات يدور حول تخمين ردّ فعل الفرع على مثل هذا الإضراب، قد يرتدّ ذلك سلبًا على شروط سجننا الجيّدة عمومًا، قد ينتقمون من أفراد معيّنين يعتبرونهم محرّضين على الإضراب.. إلخ. وقد فوجئنا، عند إعلام مدير السجن بقرارنا، حين قال لا بأس إنّ هذا أقلّ ما يمكن أن تفعلوه. في الحالين كان الجلّاد الداخلي أشدّ قسوة من الجلّاد الخارجي!

الحمّام

طالما تبدّى لي السجن شبيهًا بعربة تمشي بسرعة ثابتة وتوثق يدا السجين إليها، فإمّا أن يواكبها السجين في سرعة سيره ليبقى واقفًا على قدميه أو يقصر عنها فيتجرجر وراءها. التقصير قد يكون على مستوى

الصحّة أو الثقافة أو المشاعر أو المدارك العقليّة. . إلخ. لا شكّ أنّ السجين لا يمتلك جميع أمره، ولكنّه يسيطر على جزء يزيد أو ينقص من شروط حياته. الرياضة هي مقاومة الجسم لعوامل إنهاكه وتدميره، والقراءة هي مقاومة ضدّ تسطّح العقل وأمّيّته، وهي تساعد أيضًا في حماية المشاعر وصونها من الانزلاق في هاوية من الكراهيّة والحقد والكيد والانتقام الغريزي. لا الرياضة ولا القراءة متاحتان في سجن تدمر. لا بأس، يمكنك أن تحرّك جسمك في نقطة بعيدة عن الشرّاقة، ولكن ماذا عن القراءة؟ القراءة مستحيلة، إذ لا يمكنك أن ترى أسود على أبيض إلّا في جريدة البعث وهي فوق ذلك تصلنا بشكل متقطّع ولوقت محدود.

كجزء من مواكبة «عربة السجن» حرصتُ في سجن تدمر على تمرين الذاكرة. كنت مع عبد الكريم نحاول حفظ الأشعار التي ترد في الصفحة الثقافيّة في جريدة البعث، ونحاول استعادتها بعد أيّام ممتحنين ذاكرتينا. وفي مهجع الحمّام (صار اسمه أو للدقّة رقمه فيما بعد ٢/٢ بعد أن رقّم «الدريكيش» كلّ المهاجع بطريقة تجمع رقم المهجع ورقم الباحة، فالمهجع ٢/٢ يعني المهجع الثاني في الباحة الثانية، ملغيًا بذلك واحدة من العلامات المدنيّة التي كانت تحملها بعض مهاجع السجن، فمهما يكن اسم المهجع يبقى الاسم أخفّ على النفس وألطف من الرقم) كنت أمرّن ذاكرتي بحفظ مقاطع باللغة التركيّة كان يكتبها لي بكر. مقاطع يكتب فيها قصّة فيلم مثل فيلم «الفخّ» أو قصّة رواية مثل «اللجنة» لصنع الله إبراهيم. . إلخ. كان ماهرًا في نقل القصّة وكتابتها بلغة تركيّة سهلة، وكنت أقضي كثيرًا من الوقت مستمتعًا في حفظ هذه المقاطع ولا سيّما أثناء مناوبتي الليليّة.

قضينا في مهجع الحمّام الجزء الأكبر من حبستنا التدمريّة، وقد اعتدنا عليه. منه انتقلنا إلى الباحة الخامسة وإليه عدنا من الباحة الخامسة بعد أن نقل لنا ذلك الطائر الأسود نبأ سقوط نجمنا. وقد كان أجمل ما في هذا المهجع وجود غرفة فيه من دون شرّاقة. كانت هذه الغرفة، رغم عتمتها، بمثابة الرئة التي نتنفّس بواسطتها. فيها نراقب من الطاقة الكائنة فوق التواليت هول ما يجري في المهاجع المجاورة: تنفيذ العقوبات في المعلَّمين؛ وتنقيل السجناء، بملابسهم الفقيرة التي هربت ألوانها وتركتها لحالة ما قبل لونيّة، من مهجع إلى آخر؛ وزيارة الطبيب الشكليّة إلى المهاجع؛ ونقل السجناء العاجزين على البطّانيّات؛ وتجميع مرضى الأمراض السارية في مهاجع خاصّة.. إلخ. وفي هذه الغرفة كنّا نمارس حياة متحرّرة من رقابة السطح: رياضة وشطرنج وألعاب شفهيّة متنوّعة ورائعة ساعدت فعلاً في رفع ثقل الزمن عن صدورنا. لعبة إيصال عناوين أفلام أو أغانٍ عبر التمثيل من دون كلام، تطوّرت إلى إيصال الأمثال الشعبيّة أو الفصيحة وصولاً حتى إلى إيصال التعابير. محاولة نقل الكلام بالإشارات والتمثيل الإيمائي تثير الكثير من الضحك وتكشف عن مواهب فعليّة في القدرة على تنفيذ الحركة الأنسب لإيصال الفكرة. كان يُضحك مثلاً المفارقة بين ما يريد «الممثّل» إيصاله بالحركة وما يقرأ المتلقّون فيها وهم واقعون تحت ضغط الزمن كي لا يخسر فريقهم. كانت فسحة للضحك ونزهة جميلة لأرواحنا الحبيسة. وقد كان يتاح لنا الضحك بصوت عال نسبيًّا نظرًا إلى قرب المهجع من الحمّام (من هنا جاء اسمه) بضجّته العالية التي تغطّي على صوت ضحكنا. لقد كانت تلك الألعاب فعل مقاومة للموت الزاحف إلينا من كلّ صوب. ربّما لو أتيح لأحد ما من الخارج أن يسمع صوت ضحكنا لظنّ سجن تدمر مكانًا ترفيهيًّا. كما ظنّ

الشاعر وولي سوينكا وهو في زنزانته في نيجيريا أنّ ثمّة روضة أطفال في جوار السجن ليكتشف فيما بعد أنّ هذا الذي يعتقده رياض أطفال ما هو إلّا سجن للنساء.

يميل السجين إلى الضحك، كما لو أنّ نفسه تضخّم له كلّ ما هو مضحك كي توازن قليلاً ثقل ما هو مخيف ومقلق ونكد ومؤلم وضاغط على الصدر. أو كما لو أنّ لدى الإنسان طاقة ضحك معيّنة لا بدّ أن تتحرّر بين حين وحين، وفي السجن الخالي من كلّ أسباب الضحك تستغلّ هذه الطاقة أيّة فرجة مناسبة ولو قليلاً كي تطلق نفسها. وبالفعل كان يلفت النظر عدم التناسب بين حجم الضحك وحجم المسبّب. تعليق بسيط أو هفوة صغيرة قد تحرّر ثورة من الضحك. كان يمكن أن ترى حتى حسين متحرّرًا من أعباء سوداويّته وهو يضحك ضحكًا عميقًا يكاد لا يتيح له فرصة لأخذ النَفَس.

كانت مجاورة الحمّام سبيلاً يصلنا إلى حدّ ما مع تيّار الحياة، مثلما كانت تفعل أحاديث الحرّاس على الأسطحة، هؤلاء الحرّاس الذين يغفلون عن وجودنا بالكامل أثناء أحاديثهم الخاصّة. التعامل معنا على أنّنا مجرّد كتل من اللحم الحيّ المخزّن في المهاجع يكرّس حذف حضورنا من أذهانهم، إلّا حين يريدون «تزجية وقتهم» بالتحرّش وممارسة العدوانيّة أو الساديّة أو أيّ ضرب آخر من الشذوذ. أو لعلّ الاطمئنان إلى بقاء هويّتهم مغفلة هو ما يشجّعهم على هذه الأريحيّة في الأحاديث. من دون حرج مثلاً كانوا يقصّون تجاربهم الجنسيّة مع بنات شقراوات من أوروبا الشرقيّة ضاقت بهنّ مجتمعاتهنّ «المنهارة» وتشرَّدن يسترزقن في أرجاء العالم! من دون حرج يتحدّثون عن أيّ شيء حتى عن «مغامراتهم» مع إناث الحمير. ومهما يكن فقد كنّا نشتمّ من

أحاديثهم شيئًا من رائحة الحياة الخارجيّة. هذه الرائحة كنّا نشتمّها أيضًا من حركة العناصر من وإلى الحمّام، كنّا نشتمّ رائحة الماء الحارّ من أجسادهم الخارجة للتوّ من الحمّام، ومن غنائهم وهم يستحمّون، ومن ضجيجهم وصخبهم، ومن أحاديثهم المسترخية وهم في طريقهم إلى مهاجعهم. فهذا ضجيج وحركة أناس غير سجناء، أناس عائدون للتوّ من إجازة قضوها بين أهلهم، أو ذاهبون غدًا في إجازة إلى حيث أهلهم. أناس أحرار لا يحملون على قلوبهم ثقلاً كالوشم لأنّهم سجناء.

في سجن تدمر تُقصى عن الحياة وتُقصى عن رؤيتها. تعرف الفصول من تبدّل درجات الحرارة فقط. تشتهي أن تراقب هطول المطر أو تلبّد السماء بالغيوم، تشتهي أن ترى زرقة السماء المنارة الصافية، تشتهي أن ترى تطاير أوراق الشجر اليابسة، أن تلفح الريح وجهك وتطيّر شعرك وتلعب بمعطفك، أن تشعر بمقاومة الريح وأنت تسير بعكسها، أن ترى مرجًا أخضر واسع الامتداد، أن ترى امتدادًا واسعًا من الزرع يموج مع ريح خفيفة، أن ترى ماءً صافيًا يلتمع وهو يسيل فوق عشب أخضر، أن ترى صفًّا من أشجار الحور الطويلة الممشوقة بأوراقها الخضراء الغامقة اللامعة في الربيع أو بفروعها الصدفيّة المتطاولة والمستدقّة النهايات بلا أوراق في الشتاء، أن تقطف ثمرة ما عن أمّها. تشتهي أن ترى ليلة صيفيّة مقمرة، أو بحرًا ساكنًا بلا حدود. كأنّ الطبيعة بإقصائك هذا عن تفاصيلها تتواطأ على عدم الاعتراف بك وعدم الإقرار بوجودك. تشتهي أن ترى صبيّة رشيقة تعبر الشارع، أو امرأة حاملاً يثقل الحمل مشيتها فتسند خاصرتها بيدها، أن تسمع صوتًا أنثويًّا، أن ترى أطفالاً يتّجهون باكرًا بأقدامهم الصغيرة ومراويلهم

وشناتيهم إلى المدرسة. أنت لا تعيش ولا يتاح لك أن ترى الحياة. ما قيمة العين إذا كانت لا ترى إلّا جدرانًا كالحة، ليس من فراغ إذن أن تطمش في هذا السجن/البئر فهذا تحصيل حاصل.

سوى تبدّلات الحرارة بتبدّل الفصول كان يتمكّن من الوصول إلينا إلى داخل المهجع غبار أوّل الربيع ورائحة زكيّة لنبتة صحراويّة لا أعرفها، رائحة تحوم حول رائحة الصنوبر لكنّها أكثر رقّة. وسوى أصوات السجن: من فوق، أصوات حركة الحرس وخرتشة البنادق لدى كلّ استلام وتسليم، ومن تحت حركة العناصر والبلديّة وأصوات شحط البلوّات على الأرض وأصوات الجلد والاستغاثات، والصوت الألعن، صوت جرّ الحديدة أو رميها على الأرض، الحديدة التي يقرصون بها ساقيْ المدولَب كي تعجز قدماه عن أيّة حركة وتستسلمان بالكامل للجلد، سوى هذه الأصوات كانت تصلنا أحيانًا أصوات بعيدة من البلدة المجاورة، أصوات لعب أطفال كأنّ هناك حديقة أطفال قريبة من السجن، وكان يلفت النظر أنّ هذه الأصوات تستمرّ أحيانًا إلى ما بعد النوم «نومنا» بكثير، وأصوات غير مفهومة لباعة متجوّلين. غير أنّ الأصوات الدائمة المتكرّرة والواضحة كانت أصوات الأذان. كنّا نسمع أكثر من خمسة مؤذّنين مختلفين. تختلط أصواتهم بعشوائيّة وتتحوّل إلى صخب، بيد أنّهم كانوا يكسرون شيئًا من عزلتنا. كنّا نطلق أسماء على المؤذّنين كي نميّزهم وندقّق في أصواتهم وأدائهم، جميعهم ذوو أصوات متواضعة ويؤدّون الأذان بطريقة ارتجاليّة شعبيّة، سوى مؤذّن واحد كان مميّزًا بالصوت والأداء ولم يكن دائم الحضور، فقدّرنا أنّه قد يكون صوتًا مسجّلاً. تواضعنا على تسمية أكثر المؤذّنين ثباتًا وحضورًا بالحاجّ مصطفى، وكان هذا المؤذّن هو من يعلن أخبار

الوفيّات من على مئذنته: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم، انتقل إلى رحمة الله تعالى ....»، وتحت ضغط القنوط وقسوة الشروط التدمريّة كان يردّد بعضنا الجملة الثانية بحذف أداة الحصر أو أحيانًا باستبدالها بحتى. وهذا الشيخ هو من كان يعلن عن الأخبار العامّة التي تخصّ الناس، كأن يعلن أنّ هناك مريضًا في المشفى بحاجة إلى دم من زمرة O سلبي ويحضّ أصحاب هذه الزمرة على التبرّع، لذلك اعتبرناه «الشيخ الرئيس».

غير أنّ أغرب ما شهده مهجع الحمّام إضافة إلى قصّة الزيارة «التاريخيّة» صاحبة معجزة السهر العلني وتناول أطايب الطعام تحت الشرّاقة، هو قصّة مواضيع الإنشاء. إنّ قصّة الزيارة شيء متواضع أمام قصّة مواضيع الإنشاء. ففي ضحى أحد الأيّام التي تمرّ على العالم من دون أن تستثني سجن تدمر، حدث ما يصعب على العقل تصوّره في ذلك المكان، فقد تاه سجن تدمر عن معناه، وتعطّلت قوانينه، ولم يعد سجن تدمر مطابقًا لذاته. لا شكّ أنّ من شاهد المسيح يمشي على الماء أو موسى يشقّ البحر بعصاه انتابته مشاعر تشبه تلك التي انتابتنا حين جاء الرقيب إلى مهجعنا وبيده العديد من الأقلام والأوراق البيض، وبدأ بكلّ «إنسانيّة» يطلب منّا مساعدة ابن المعلِّم (بكسر اللام المشدّدة!) في امتحان الشهادة الإعداديّة القادم من خلال كتابة مواضيع إنشاء حول الأفكار المدرجة في ورقة مستقلّة. أفكار مثل، الشهيد، الفلّاح، عيد العمّال، المكتبة، الشجرة، الأمّ... إلخ. الرقيب يتحدّث معنا بأخويّة (يا إلهي!) حتى إنّه لا يزجر من يغامر برفع رأسه قليلاً للنظر في وجهه وعينيه. الرقيب يفكّ الحصار عن هويّته الجسديّة، الرقيب يتحدّث إلينا بطريقة فيها اعتراف ليس فقط بآدميّتنا بل

بثقافتنا أيضًا. الرقيب يحتاجنا، وليس الرقيب فقط بل والمدير أيضًا. كان سلوك الرقيب واقعيًّا بما يكفي لنعرف أنّنا في علم ولسنا في حلم. قبلنا المهمّة، تحمّسنا للمهمّة، وعقدنا العزم على أن لا نخيّب ثقة المعلّم بثقافتنا وحسن تعبيرنا. وزّعنا المهامّ، وكان دوري أن أقوم بالإشراف العامّ على المهمّة. أوزّع المواضيع المناسبة على الأفراد المناسبين. أقرأ المواضيع وأدقّقها قبل أن أدفعها إلى تيسير كي ينسخها بخطّ جميل. ماكينة متكاملة. أقلام وأوراق حقيقيّة بين أيدينا. الجميع مشغولون. سجن تدمر ليس سجن تدمر، خرج عن طوره، سئم من قيوده، تداخلت قوانينه، ماعت حدوده. الرقيب «شخصيًّا» يقف بكلّ احترام على شرّاقة الباب يسأل عمّا أنجزناه من المواضيع. ومازن (رئيس المهجع) يشرح له أنّ كتابة الموضوع تحتاج إلى صفاء ذهن وهدوء، ويتمنّى عليه أن يسمح لنا بالكتابة في الليل! الرقيب يوافق على أن لا نطيل السهر كثيرًا! لا غرابة فالأمر يخصّ ابن المعلِّم. إذا تأخّر رئيس المهجع في الردّ على الباب يكفي أن يقول: كنت أراجع موضوع الإنشاء، حتى يتفهّم من على الباب. أربعة أيّام مرّت لا يحسبها سجن تدمر من زمنه، ولا نحن نحسبها. بعد أربعة أيّام سلّمنا ١٨ موضوعًا لمساعدة ابن المعلِّم. ثم بعد أربعة أيّام استدرك سجن تدمر ما فاته، وعاد ليتطابق مع ذاته ويستأنف رحلته الطليعيّة في عالم السجون الرهيبة.

الأعياد

تكريسًا لعزلة وتغريب سجناء تدمر عن مجتمعهم كانت الأعياد التي تشكّل للناس عادة مناسبات للابتهاج، هي من أسوأ أيّام السجين، ليس فقط من ناحية أنّ السجين تلحّ عليه في العيد ذكرى

أهله، ولا سيّما السجين المتزوّج الذي لديه أبناء وبنات، وبالتالي يشعر بقسوة بعده عنهم أكثر من أيّ يوم آخر، بل أيضًا من ناحية إهماله شبه الكلّي في أيّام العيد. الطعام يأتي متأخّرًا وزهيدًا أكثر من المعتاد. وطعام سجين تدمر كفاية يومه فلا يمتلك ما يغنيه عن الوجبة التي توزّع. كثيرًا ما كنّا نجوع إلى حدّ الألم والصداع بانتظار قدوم طعام الفطور، ونترقّب الحركات والأصوات لعلّها حركات توزيع الطعام. وكثيرًا ما كنت أذكر في تلك اللحظات كيف كانت أمّي تترك أيّ عمل في يدها كي لا تتأخّر في إطعام الحيوانات التي كنّا نربّيها في الإسطبل. وطالما ردّدتْ القولَ، حين كنّا صغارًا نستمهلها لأمر ما، بأنّ هذه حيوانات خرساء لا تعرف أن تقول إنّها جائعة، ونحن نربطها عن السعي بنفسها إلى طعامها فيجب إذن أن لا ننسى مواعيد إطعامها. نحن في سجن تدمر لسنا حيوانات ونستطيع أن نقول إنّنا جائعون ولكنّنا لا نستطيع، وليس في السجن من يمتلك إحساس الأمّ وطريقتها في التفكير. ربّما كانت «حنّيّة» أمّي نابعة، إذا تكلّمنا بشيء من الكلبيّة، من المنفعة التي تجنيها من هذه الحيوانات، أمّا نحن فلا منفعة يرتجيها السجّانون من إطعامنا! في تلك اللحظات البائسة كثيرًا ما كنت أذكر أيضًا قصّة (النمور في اليوم العاشر) لزكريّا تامر، نحن بدأنا من يومنا الأوّل بما انتهت إليه النمور في اليوم التاسع، فإلام نؤول في يومنا التاسع؟

في أيّام الأعياد كذلك لا تصلنا الجريدة. في هذا خسارة كبيرة بحجم الفراغ الذي تتركه الجريدة. كنّا نأخذ الجريدة ظهرًا ونسلّمها صباحًا. وبعد حذف ١٢ ساعة نوم إلزامي يتبقّى لنا حوالى أربع ساعات لقراءة الجريدة. لذلك كنّا نفصل صفحات الجريدة ونوزّعها

على ثلاثة قرّاء يتبادلون الصفحات بعد ١٠ دقائق وبعد ٣٠ دقيقة تنقل الجريدة إلى ثلاثة قرّاء جدد، وهكذا. الجريدة نافذتنا الوحيدة على عالم ما وراء السجن. وفضلاً عن القراءة كنّا نتسلّى بحلّ الكلمات المتقاطعة شفهيًّا، وبحلّ مسألة الشطرنج. الجريدة تبثّ روحًا في حياة المهجع، ولذلك كان انقطاعها في أيّام الأعياد ثقيلاً.

لعلّ فضيلة الأعياد في سجن تدمر كانت تقتصر على أنّ السجن يميل إلى الهدوء أكثر، يقلّ التعذيب، على أنّ هناك بعض الحرّاس الذين حرموا من قضاء العيد مع أهاليهم كانوا يتحوّلون باتّجاه عدائيّة أشدّ في العلاقة معنا، كما لو أنّهم يحمّلوننا مسؤوليّة بعدهم عن أهاليهم في العيد.

صباح تدمر

رغم كلّ قسوة نهارات تدمر، فإنّ قدوم المساء كان يعني لي اقتراب الدخول في نفق الليل الطويل الذي يفتح في نهايته بعد إجهاد النفس على صباح جديد، صباح كنت أسعد به وكأنّ غيمة كثيفة قد انجلت عن صدري. الصباح كان نهاية النفق، كان بمثابة غبطة صغيرة، كأنّ شمسًا تشبه شمسه تسطع في جنبات نفسي. في الصباح نتحرّر من قيد الليل الذي يحيلنا إلى عوالم مستقلّة مقطوعة عن بعضها، في الليل نحن جثث متجاورة، لا علاقة فيما بينها، غريبة عن بعضها بعضًا، تحرسها جثّة سُمح لها أن تمارس حياتها لتقوم بدور الحراسة ولتتلقّى لعنات السطح ولتنقل هذه اللعنات إلى واحدة أو أكثر من الجثث المسجّاة بحسب مشيئة السطح. هنا طاقة السطح دائمًا مفتوحة لصبّ اللعنات والحظوظ العاثرة، فيما طاقة السماء دائمًا مغلقة. السطح في سجن تدمر يقصي السماء ويحلّ محلّها، نحن في المهاجع تحت سماء

إسمنتيّة سادتها حرّاس الليل، وفي الباحات تحت سماء من الأسلاك الشائكة سادتها حرّاس النهار، أمّا السماء فلا سماء لسجن تدمر.

صباح تدمر يمتدّ حوالى ساعتين بعد الاستيقاظ، من السابعة إلى التاسعة، نادرًا ما يأتي العناصر قبل ذلك لتوزيع الفطور ومعاقبة المعلَّمين أو لإخراجنا إلى التنفّس. ساعتان هادئتان عادة، صحيح أنّ جهنّم وراء الباب ولكن إلى حينها يمكن للنفس أن تستمتع باستعادة صلاتها مع النفوس الأخرى، وللجسد أن يستمتع بشيء من الحركة في أرجاء المهجع. مثلما هناك شيء حزين في كلّ مساء، هناك شيء مفرح في كلّ صباح. كان الجمال المنبعث من بشائر الصباح الأولى يغمرني حين تصلني هذه البشائر وأنا لا أزال مغلّفًا بغطائي مطمّشًا وغير نائم. أوّل بشائر الصباح كان أذان الفجر.. الصلاة خير من النوم.. ثم أصوات عصافير الدوري التي تبدأ متفرّقة ومتقطّعة لتتحوّل في لحظات إلى جوقة ضاجّة متواصلة، ثم الضوء الذي يبدأ بالتساقط من الشرّاقة كأنّه غبار فضّي.

حين يعلن الليليُّ الأخير أنّ الساعة صارت السابعة، تخرج اليرقات من شرانقها كائنات متعارفة فيما بينها تلقي على بعضها بعضًا تحيّات الصباح بعد ساعات اغتراب الليل الطويلة، تستيقظ اليرقات وتستيقظ معها مواقفها إزاء بعضها بعضًا كما حفظت في آخر مرّة قبل الدخول الأخير في الشرنقة. تستأنف الخصومات حياتها، وتستعيد الصداقات حرارتها، وتنشط مجسّات الجميع لالتقاط الإشارات وترجمتها صدًّا أو ودًّا على مدى ساعات اليقظة. غير أنّ أبا مالك كان خروجًا عن هذا السياق، فالصباح عنده يحمل موقفًا جديدًا تجاه أحد ما. مواقفه لا تبقى كما جرى حفظها قبل دخوله الأخير في

الشرنقة، فهو يطوّر مواقفه ليلاً من داخل غلافه إذ يلتقط إشارات يمكن أن تصدر «طبيعيًّا» عن أيّة يرقة ويترجمها في الحال ويبني عليها موقفًا سلبيًّا، سلبيًّا دائمًا، يعلنه في الصباح. الإشارات التي يلتقطها أبو مالك هي الشخير. والشخير بحسب قاموس ترجمة الإشارات الخاصّ به هو اتّصال مشفّر مع الشرطة يستهدفه مباشرة. من يشخّر في الليل هو عدوّ اليوم التالي ولا شفاعة لأحد عند أبي مالك. وفي حالات معيّنة حين تكون الإشارات التي يلتقطها أبو مالك قويّة والاتّصال المشفّر مع الشرطة يصل حدّ الوقاحة ولا يتوقّف رغم اكتشافه، يصعب على أبي مالك أن يتحمّل أكثر، عندها يمكنه أن ينضو عنه شرنقته ببساطة ويتّجه إلى حيث «العميل» يمارس، مستغفلاً الجميع، اتّصاله مع الشرطة، فيهزّه ويقول له بيقين تامّ: استحي بقى! فيستيقظ الشاخر مرعوبًا من افتضاح أمره، ولكنّه يدّعي أنّ رعبه ناجم عن خوفه من أن تكون قد مسّته تعليمة ما. يحصل كلّ هذا في حين يكون الليليّ على صفيح ساخن من أن يرى الحارس ما يجري وتنزل لعنة السطح على الجميع. وذات مرّة كان أبو مالك نائمًا ملء جفونه ساهيًا عمّا يُحاك له من مؤامرات، ونظرًا إلى تعبه وإرهاقه الشديد الناجم عن مراقبته الصارمة والمتواصلة لكلّ محاولات الاتّصال المشفّر بالشرطة، فقد كان نومه حينها عميقًا وذا شخير. الشخير أزعج تيسير الذي لكز أبا مالك كي يصلح من وضعيّته ويكفّ عن الشخير، لكنّ أبا مالك أكّد له أنّه لم يكن نائمًا! فهل يشخّر وهو مستيقظ. وبذلك يكون تيسير قد دخل بقدميه طوعًا في سجلّ العملاء منذ ذلك الصباح وتحوّل من الدكتور تيسير إلى تيسير فقط. الشخير ليس صعوبة في التنفّس أثناء النوم بل لغة تخاطب مع الشرطة، وأن يكون أبو مالك من فئة من يشخّرون يعني أن يكون عميلاً للشرطة.

هذا مستحيل، وكلّ من يتّهمه بالشخير له غاية غير نظيفة ويجب الحذر منه ووضعه ضمن دائرة الشكّ والمراقبة.

في الصباح، تبدي النفوس تعاطفها مع من نزلت عليه لعنة السطح في الليل الفائت وتتمنّى معه أن يمرّ يومه بسلام. وحين تبدأ حركة السجن بتوزيع الفطور يبدأ الترقّب. ها هو المارد الرهيب يستيقظ، مارد أخرس يستعير أصوات فتح أبواب حديديّة وشحط بْلوّات على الأرض وأصوات شرطة وعناصر بلديّة كي يدلّ على استيقاظه، فهل يستعير اليوم فوق ذلك أصوات أخرى؟ هل يستعير صوت جرّ وارتطام حديدة حبس القدمين بالأرض وأصوات ارتطام الكرابيج ببواطن الأقدام (دقّ الخشب!) وأصوات استغاثات المعذّبين؟ هل يستعير اليوم صوت جلد الجدران للدلالة على سوء مزاجه؟ مرعب جدًّا صوت جلد الجدران هذا لمن يعيش تحت رحمة هذا المارد، شيء يشبه وقع صوت زمجرة حيوان مفترس على ضحيّته المقبلة. صوت يشلّ الفريسة قبل أن تباشرها الأنياب. كأنّ الكرابيج كلاب مشدودة إلى جنازير وتتوثّب تشوّقًا وعدوانيّة وجوعًا لالتهام بواطن الأقدام. رعايا هذا المارد يستقبلون هذا الصوت ببواطن أقدامهم قبل أن يستقبلوها بآذانهم، ويستقبلون أوامر الرقيب الصادرة على خلفيّة ذاك الصوت بواسطة حبل عصبي ثخين يمتدّ طولانيًّا في منتصف الظهر، قبل أن تصل إلى آذانهم وعقولهم. على هذه «الاستعارات» ينفتح صباحنا «الجميل» في تدمر ويبقى مع ذلك جميلاً.

في الصباح، وبعد الانتهاء من مشاغل ومهامّ الصباح الصغيرة، نستعدّ لما هو آت، نستعدّ لمشوار اليوم الجديد، وحين تلتقي عيوننا نستجمع من ضعفنا شيئًا من القوّة، وكان كثيرًا ما يقول آرام في تلك

اللحظات العصيبة، مستعيرًا كلمات أغنية عبد الحليم حافظ «ابتدا المشوار..» ويكمل هازًّا رأسه «يا خوفي من آخر المشوار..». ثم تقضي اليرقات سحابة نهارها كما قضتها من قبل لتعود إلى شرنقتها في المساء، في دورة مغلقة لا تفضي بها أبدًا إلى طور الفراشة القادرة على الطيران.

في صباح تدمر تنفكّ قيود الليل، تنفتح أمامك إمكانيّة أن تذهب إلى التواليت. الذهاب إلى التواليت في الليل من الكبائر. لا أحد يدري كيف ولكن على أحشائك أن تتمثّل مفهوم الجثّة فتمتثل إلى الحالة الجثويّة ولا تضطرّك إلى المغامرة بقضاء حاجة طبيعيّة. دخول التواليت في الليل قد يكلّفك غاليًا كما كلّفك أو كلّف غيرك من قبل. يأتونك مساء بشوربة عدس مملّحة مرّتين تأكل فتعطش وتخشى أن تشرب كي لا تضطرّ كليتاك إلى طرح البول فتحرجان مثانتك في التمدّد كثيرًا لاستيعابه، وهذه تحرجك بدورها وتضطرّك إلى أن تحاول تهريب جسدك إلى التواليت كي يتبوّل. البعض كان يمتنع عن تناول شوربة العدس المالحة كي لا يضطرّ إلى الشرب. والبعض كان يمتنع عن الشرب منذ الرابعة بعد الظهر. من جهتي اقترحت فكرة التبوّل تحت اللحاف باستخدام إبريق بلاستيكي بعنق طويل كان موجودًا في تواليت المهجع، وقد أجرينا بروفات على ذلك أثبتت فشل الفكرة، إذ ليس من السهل أبدًا التبوّل بوضعيّة الاستلقاء، عدا عن أنّها تستدعي حركات تحت الغطاء يمكن أن تلفت نظر الحارس، هذا إذا لم نذكر إمكانيّة تلوّث الغطاء. ليس قليلاً إذًا أن يحمل الصباح معه إمكانيّة الدخول «الشرعي» إلى التواليت.

في أوّل زيارة لمساعد الانضباط طرحنا هذا الهمّ، فردّ بالكلام

الذي يميّز إجابات رجال «حفظ النظام» عمومًا، كلام ملتزم ظاهريًا بقواعد أخلاقيّة وإنسانيّة ويحمل في الوقت نفسه مسربًا جانبيًا يلغي فاعليّة كلّ كلام: «لا أحد يمنعك من التبوّل! اطلب إذن من الحرس، لأنّه في ناس يستخدمون التواليت لأشياء ثانية!» وحين قلنا إنّ هناك حالات اضطراريّة وحالات مرضيّة، قال نحن لسنا ضدّ الحالات الإنسانيّة ولكن هناك تسلسلاً، يجب إبلاغ الحارس والحارس يبلّغ الإدارة ونحن لا نمنعك من دخول التواليت عند الحاجة الفعليّة. والواقع نحن لم نجرؤ يومًا على سلوك طريق هذا التسلسل. اللافت أنّ مساعد الانضباط كان بعد كلّ جواب من هذا النوع يقول: غيرو! وكأنّه حلّ المشكلة السابقة ويفتح صدره لحلّ مشكلة أخرى.

الصباح في تدمر يحمل أجنّة آمال دائمًا تموت ودائمًا تتشكّل من جديد. الأمل صفر، أقصد الأمل بأن لا يحدث لنا مكروه اليوم، الأمل فوق الصفر بأن يكون طعام اليوم ودوسير اليوم أفضل، الأمل الكبير أن يزورنا على نحو مفاجئ مساعد الانضباط أو ربّما مدير السجن ونتمكّن من تحقيق مكاسب ترفع عنّا بعض القيود المرهقة، الأمل الأكبر بشيء ما يفتح لنا أملاً بالعودة إلى عدرا. الأمل بالإفراج، ما المانع! وقد سمعنا من قبل أنّ الإفراجات من هنا تتمّ صباحًا.

بالفعل كان الإفراج عن فراس صباحيًا، وهو الإفراج الأوّل الذي نشهده عن أحد من رفاقنا في تدمر. بعد أن أكمل فراس سنوات حكمه الـ ١٥ أُفرج عنه. كان يتوقّع ذلك، وكان يفكّر بترتيب طريقة تواصل بيننا عبر الجريدة الوحيدة التي تصلنا إلى السجن، لم أكن متفائلاً له بالإفراج نظرًا إلى وجود ياسين معنا وقد أكمل منذ أشهر طويلة سنواته

الـ ١٥ ولم يفرج عنه، ولذلك لم أعط انتباهًا كبيرًا لخطط فراس ولشيفراته وللاسم الذي سيكتب به في صفحة الأقلام الواعدة أو المواهب الشابّة من جريدة البعث. ذات يوم فتح الرقيب باب مهجع المستوصف فجأة وخرج فراس من بيننا من دون أن نجرؤ على وداعه. وبسرعة حاولت أن أستجمع خططه، فوجدت أنّ ما علق في ذهني هو أنّ مفردة النوارس تدلّ علينا نحن الباقين في تدمر، وعلق بذهني أيضًا الاسم الذي سيوقّع به. بعد أسابيع قليلة بدأ «قلمه الواعد» يكتب، تلا ذلك كتابات متلاحقة من غادة المازن، صار هناك شيئًا «خاصًّا» ننتظره من الجريدة.

الختيار

كان أبو نجم مريض سكّري من عيار ثقيل، رجل في الستّينيّات من عمره يعاني من السكّري منذ سنوات طويلة، وبحسب شرائط قياس مستوى السكّر في الدم عن طريق غمسها في البول، هذه الشرائط التي أحضرها له أهله في الزيارة، كان يصل مستوى السكّر لديه إلى ما فوق الألف. قرأت هذه النتيجة بنفسي أكثر من مرّة، وقد اختبرت هذه الشرائط على نفسي فأعطت نتيجة طبيعيّة نفت أن تكون الشرائط هذه فاسدة. لم يكن أبو نجم يخرج إلى التواليت في الليل للتبوّل، ولم يكن يطلب الدخول إلى المهجع للتبوّل حين يطول التنفّس ساعات، لم يكن يشرب الماء أكثر من غيره ولم يكن يأكل أكثر من غيره. أبو نجم يحيل تعريف مريض السكّري لابن سينا إلى مزبلة العلوم. يُصاب المهجع كلّه بالكريب وأبو نجم لا تصله العدوى. ولكنّه حين يمرض فإنّه يمرض حقًّا. يهزأ أبو نجم من كلّ قواعد الصحّة العامّة، فهو يضع خبزته أينما كان كي يدهنها بشيء من اللبنة أو سواها. ولا يجد مبرّرًا

لهوس النظافة الذي يتجلّى بشطف التواليت مرّات في اليوم وتخصيص شحّاط للدخول إلى التواليت وتخصيص قطع نايلون لوضع الطعام.. إلخ. وكي يشرح له أبو مالك أهمّيّة إجراءات النظافة تلك قال له إنّه لو وضعنا نقطة دواء أحمر على مدوس التواليت وتخلّينا عمّا تسمّيه هوس النظافة لوجدت بعد ساعات قليلة بقعة الدواء الأحمر على شاربيك!

أبو نجم لا يكفّ عن التدخين حين يتوافر الدخان، ولا ينقّ حين ينقطع. السيجارة هي ما تبقّى له من متعة في الحياة. لو خيّروه بين ترك النساء أو ترك السيجارة لترك النساء من دون تردّد. وكان يتباهى بطقم أسنانه الذي يمكّنه من أكل أيّ شيء حتى التين اليابس، ولكن طقمه هذا خذله ولم يقدر على حمل «شرفه» حين أمرنا الحارس بذلك في أحد التنفّسات، ممّا اضطره إلى سنده بيديه، الأمر الذي أثار غيظ الحارس: قلتلك احمل بوطك بتمّك مو بإيدك يا شرموط!

أبو نجم الذي كان يدلّ عليه الحرّاس بالختيار، كان يعاني فوق مرض السكّري ومضاعفاته من يبوسة شديدة في العمود الفقري، حتى إنّ مساعد الانضباط وبعد محاولات متكرّرة فاشلة لطيّه وإدخاله في الدولاب أثناء التشريفة عدل عن فكرة وضعه في الدولاب، واعتمد طريقة الفلقة في وضعيّة الانبطاح مع ثني الساقين إلى الخلف ثم تثبيتهما بحديدة حبس القدمين. ولكنّ العريف الذي رمانا قدرنا به نجح فيما فشل فيه مساعد الانضباط. سلسلة بسيطة: الحارس «يعلّم» الختيار لأنّ صوت خبطة رجله بالتحيّة ضعيفة في حين يريدها الحارس أن تخرج الماء من الأرض. العريف يأتي صباحًا لجباية المعلوم من المعلَّمين. العريف جديد لا نعرفه (لاحقًا عرفنا أنّه عريف جديد شرس جاء مع الدفعة الجديدة من مجنّدي الشرطة التي تفد إلى السجن كلّ

ستّة أشهر). يخرج أبو نجم مصرًّا على الخروج بعد محاولات أكثر من شابّ للخروج بدلاً عنه. يغلقون الباب ويصبح أبو نجم بينهم عجوزًا وحيدًا أعزل، تكاد حتى قوّة الحياة أن تتخلّى عنه. ليس هناك ما هو أقسى على النفس. يأخذون أحدًا ما من بيننا بغرض تعذيبه ويغلقون الباب،

كأنّنا مجرّد مستودع لبشر معدّين للتعذيب. أقفاص دجاج تطعم كي تذبح. ثم نبدأ بسماع استغاثاته وأصواته المقلوبة التي يقتلعها الألم من أعماقه. نسمع ونحن عاجزون، وربّما في دخيلة كلّ منّا فرحة صغيرة دفينة لأنّه ليس الضحيّة، لأنّ غيره هو الضحيّة، كائنًا من كان غيره! هي ربّما الفرحة التي يشعرها أفراد القطيع بعد أن يكون الوحش قد وقع على فريسته من بينهم، فرحة الطمأنينة الهشّة، لأنّك تعلم أنّك قد تكون الضحيّة في أيّة لحظة قادمة. إجبارك على السكوت عن ذلك، وشعورك بفرحة مكبوتة لأنّك ليس الضحيّة، أمران يقتلان في داخل المرء من دون إرادة منه شعوره بالكبرياء، ويقتلان روح التمرّد فيه، ويقتلان ربّما حتى احترامه لذاته. يأخذون أحد أفراد المهجع اعتباطًا كي يعذّبوه ليس بعيدًا عن رفاقه بل أمام المهجع وعلى مسمع الجميع. أنت مرغم على قبول ذلك، أيّ شكل من الرفض قد يعني الانتحار، أو ربّما ما هو أسوأ من الانتحار. التشويه والإعاقة. وحين تقبل فإنّ شيئًا عميقًا في وجدانك يتحطّم إلى غير رجعة، شيئًا عميقًا يسجّل عليك أنّك لم تكن رجلاً كما يجب، ولم تتصرّف بالشجاعة التي تستحقّها مثل هذه المواقف، وكنت عبدًا ذليلاً تستمتع بالطمأنينة التي جلبها لك الحظّ لأنّك لم تكن الضحيّة، وجلبها لك جبنك لأنّك آثرت السكوت عمّا يجري. العبيد هم أقلّ الناس ميلاً إلى التمرّد.

يبدأون بجلد الختيار، وبشكل تلقائي نبدأ بعدّ الكرابيج. ظننّا، من تفاهة سبب التعليمة وكبر سنّ أبي نجم وحالته الصحّيّة، أنّ العقوبة لن تزيد عن ١٠ كرابيج أو ١٥ كرباجًا بالحدّ الأقصى. لكنّ العدّ تجاوز الثلاثين، ثم تجاوز الأربعين، وبعد حوالى ٤٥ كرباجًا توقّف الضرب. كان صوت أبي نجم قد استُهلك تمامًا ولم نعد نسمعه. حين توقّف الضرب تنفّسنا بارتياح، إذ لا حدود لما هو أسوأ، ومهما يكن فإنّ ٤٥ كرباجًا أفضل ممّا هو أكثر. غير أنّ آرام الذي كان قريبًا من الباب بصفته رئيس المهجع، وقادرًا على استراق النظر من ثقب صغير بين الحائط وإطار الباب، أخبرنا أنّ الحفلة لم تنته وأنّهم يحاولون وضعه في الدولاب. كان هذا الخبر صاعقًا وينشّف الدم. نحن موضوع لفعل قوّة مسيطرة بلا ضوابط. شيء يثير الرعب. أيقنت حينها أنّ حسين على حقّ في نزوعه التشاؤمي، وشعرت كما لو أنّ قلبي قد انزلق في لحظة سالكًا طريق الأمعاء وانتابني شعور حادّ بنوبة إسهال. ألم يكتف هؤلاء بكلّ ما فعلوه مع هذا العجوز؟ ألا يمكن لأحدهم أن يلمح فيه صورة أبيه أو جدّه؟ من أين ينبع هذا العداء الذي يغذّي كلّ هذا العنف والشتائم ولا يهدأ؟ استؤنف الجلد، تمكّن العريف ومساعدوه من طيّ أبي نجم ووضعه في الدولاب. استؤنف الجلد واستأنفنا العدّ. عاد صوت أبي نجم وصار فحيحًا أجشّ. مرّة ثانية حوالى ٤٥ كرباجًا قبل أن تهدأ تلك الفورة العدائيّة ولم تهدأ! إذ يُفتح الباب ويدخل أبو نجم تزفّه الشتائم السوقيّة والتدفيش، ومع دخوله يلحقه أحد الشرطة ببصقة حقيقيّة كأنّها صادرة من قلب مقهور قبل أن يغلق الباب، كما لو أنّ لهؤلاء الناس ثأرًا شخصيًّا معه. يدخل أبو نجم وفي يده بوطه وطقم أسنانه الذي انزلق من فمه أثناء تلقّيه عذابًا كانت السماء وملائكتها غائبة عنه. رمى أبو نجم نفسه على الأرض

حطامًا يتلوّى غير قادر على البكاء أو الكلام. تجمّعنا حوله محطّمين ومصعوقين ولا ندري ما يمكن قوله أو فعله. اقترب عمر (صديقه) منه واحتضن رأسه، قبّله ولفظ كلمات مواسية غير مفهومة من بين شفتين لم يعد قادرًا أن يسيطر عليهما، واستسلم لبكاء صريح.

عناية

كان تنفّسًا أبعد ما يكون عن التنفّس. شمس حارقة وتمارين مجهدة متوالية، وشهيّة السطح على إرهاقنا وإيصالنا إلى حدود الإجهاد القصوى لا تهدأ. ومن بعيد تصل إلى أسماعنا أصوات ضرب وصراخ. إمّا أنّ هناك حفلة استقبال «تشريفة» لوافدين جدد، أو أنّ هناك فريق «جباية» يحاسب المعلّمين. الاحتمال الثاني صار هو الأرجح، لأنّ الصوت بدأ يقترب أكثر. واضح إذن أنّ الفريق يتقدّم وفق تسلسل المهاجع. ولكن من حسن الحظّ لم تنزل لعنة السطح على أحد منّا البارحة. يقترب صوت الضرب والصراخ ويصبح كلّ منّا أكثر حرصًا على أن لا تصيبه لعنة التعليم. أقلّ هفوة يمكن أن تدفع آلهة السطح إلى «تعليمك»، وها هو فريق الجباية في طريقه إلينا. المشكلة الكبيرة أنّ آلهة السطح تكتب وتمحو كما تشاء وأنت لا تعرف متى أو كيف يمكن أن تهفو. قد يكون تمسّكك الحرفي بالأوامر هفوة، وقد يكون عدم تمسّكك الحرفي هفوة. دع أمرك للسطح واعمل كما ترى مناسبًا، «فلقد ينجيك إهمال ويرديك احتراس».

كان ذلك هو التنفّس الذي «قاده» أبو رائد بكلّ مهارة ونتج عنه «تعليم» ثلاثة منّا لأسباب متباينة، هم مازن وحكمت وأنا. من جهتي كنت قد عوقبت «كواع وركب» خلال التنفّس على خطأي بأنّني لم أستطع الرؤية من قفا رأسي، وأتفادى عند تنفيذ أمر الاستلقاء

الاصطدام مع شخص ثان هو الآخر لا يرى من قفا رأسه. ولكن حين رأى أبو رائد فريق الجباية قادمًا فضّل أن يتوّج عقابه لي بتعليمة.

بعد قليل دخل «فريق الجباية» إلى باحتنا. اصطففنا خمسة خمسة، وجوهنا إلى الحائط ورؤوسنا في الأرض (التقليد التدمري الراسخ). توحي كثافة حركتهم خلفنا بأنّ عددهم كبير، ومن صوت جرّ الشحّاطات على الأرض تعرف أنّ عناصر البلديّة حاضرون (صيفًا شتاء عناصر البلديّة بالشحّاطات كما لو أنّ في الأمر توجيهًا). وجود عناصر البلديّة يعني أنّ الفريق مستعدّ للجلد الاستعداد الكامل بما في ذلك الدولاب وحديدة حبس القدمين. وجود عناصر البلديّة نذير شؤم. أشعر أنّ الرقيب يقترب منّا أكثر ويتأمّلنا كما لو كنّا غنيمة حرب. ولأوّل مرّة نسمع بوضوح كامل الرقيب يقول لعنصر شرطة أن يختار ثلاثة من بيننا. لأوّل مرّة يكون الاعتباط عاريًا ووقحًا إلى هذا الحدّ. عادة يتمّ تبلّي أحد ما بأيّ شيء لتبرير تعذيبه، ولكن أن يعلن عن هذا الاعتباط بشكل صريح فهذا أمر كان جديدًا بالنسبة لتجربتنا. التذرّع مهما كان تافهًا يدلّ على بقاء قشرة أو رادع ما، لكنّ هذا الرقيب يتخلّى عن عبء التذرّع واختلاق الأعذار ويمضي إلى غايته مباشرة من دون اضطراب، المهمّ إرهاب السجناء ورضّ وجدانهم ونفوسهم وتهشيم طمأنينتهم باستمرار. لا حاجة للذرائع. بالفعل همّ الشرطي لاختيار ثلاثة وتغلغل بين صفوفنا كي يسحب أوّل من وقع اختياره عليه، ولكن مجموعة من الانفجارات الصغيرة المتوالية خرجت من فم أبي رائد من على السطح، فُهم منها أنّ هناك ثلاثة معلّمين سلفًا ولا داعي للاختيار، فقال الرقيب على الفور: الثلاثة المعلّمين يطلعوا!

شلّني الخوف للحظة. أملت بحدوث معجزة تغيّر مجرى ما

يجري، أن يكون كلّ هذا عبارة عن كابوس يتلاشى في لحظة استيقاظ الوعي. لا أمل. تماسكت بالكاد وخرجت، كان مازن وحكمت قد خرجا قبلي. أدخلوا الجميع إلى المهجع وأغلقوا الباب. ثلاثة يفدون البقيّة؟ لا، فلا الثلاثة اختاروا الفداء ولا البقيّة يُفدون بذلك. إنّه شيء مشوّه عن فكرة الأضاحي. عبر التاريخ تقدّم الأضحية للقوى القاهرة الكبرى واقعيّة كانت أو مفترضة تفاديًا لنقمتها وطمعًا في رضاها. يضحّون طوعًا بشيء ثمين أو عزيز كي يسلم لهم ما تبقّى. وهذه التضحية هي في جانب منها شكر على استمرار النعمة وإظهار للطاعة حفاظًا على علاقة الرضا المتبادل، أمّا هنا فالمجموعة لا تختار أن تضحّي ولا تختار بمن تضحّي، والأضحية هنا لا تدفع شرًّا ولا تجلب رضا من أيّ نوع. هنا آلهة المكان هي آلهة شرّ لا تعرف سوى النقمة والتعذيب.

ـ اشلح من رجلك!

ـ منبطحًا!

المنبطحًا هنا تعني أنّهم لن يستخدموا الدولاب. جيّد، ولكن يمكن أن يستخدموا الحديدة. الحديدة تعذيب بحالها حتى من دون جَلد. حبل متين خشن الملمس مربوط إلى بوري حديد طويل يلتفّ على أسفل الساقين، ثم يجري توتيره بواسطة قارص حتى يشدّ الساقين إلى بعضهما بقوّة تحزّ الجلد ويستحيل بعدها تحريك القدمين فيسهل عمل الجلّاد. الأوامر تصدر لنا نحن الثلاثة معًا. انبطحت وثنيت ساقيّ، فجلس عنصر بلديّة على ظهري وأمسك ساقيّ بيديه. هذا يعني أنّهم لن يستخدموا الحديدة أيضًا. قضاء أهون من قضاء. ثنيت ذراعيّ وضغطت رأسي عليهما مغمضًا عينيَّ منتظرًا تفجّر الألم في قدميّ.

مرّت لحظات مرعبة، لحظات انتظار مكهربة. لم يحدث شيء. عمّ الباحة سكون غريب محيّر. وبعد قليل:

ـ واقفًا الكلّ!

ـ احمل بوطك وع المهجع!

لا أدري كيف صرت داخل المهجع. أغلق الباب. لكنّي بقيت واقفًا بجانب الباب حاملاً البوط في يدي. كنت في الحقيقة أنتظر أن يخرجونا ثانية. اعتقدت أنّ شيئًا ما أجّل التنفيذ موقّتًا. واعتقدت أنّهم أغلقوا الباب من دون أن يقفلوه بانتظار تدارك الأمر. بقيت تحت وطأة انتظار التعذيب، إلى أن اقترب آرام منّي وقال الحمد لله ع السلامة. نظرت إليه مستغربًا أيّة سلامة هذه، فقال إنّهم أقفلوا الباب وذهبوا. حين أيقنت أنّهم ذهبوا ملأت فرحة حقيقيّة قلبي ثم فاضت على كلّ أنحاء جسمي وشعرتها بقدميَّ أكثر من أيّ مكان آخر. رميت البوط من يديَّ واتّجهت إلى المكان الآمن من المهجع بعيدًا عن الشرّاقة، وأرخيت نفسي على الأرض مستمتعًا بهذه النجاة.

لم ندر كيف حصل ذلك، وما الذي منعهم من المواصلة. ظلّ ذلك لغزًا حتى اليوم. لغز دأبت عقولنا كثيرًا على فكّه، عقولنا التي اعتادت في عوالم السجون التحليل الذي هو أقرب إلى التركيب. تحليل تغيب عنه جلّ المعطيات القابلة للتحليل. نستكمل المعطيات بالافتراضات ثم نحلّل المعطيات المستكملة، أي نركّب ونحلّل ما نركّب. ولكن ما انتهى إليه حكمت غير مبال بكلّ التحليلات والتركيبات، هو أنّ في الأمر عناية إلٰهيّة تخصّني، فقد تكرّر من قبل أكثر من مرّة أن مرّت تعليمتي بسلام. واليوم كان البرهان الأكبر، فبعد أن وصل الكرباج إلى القدم رُفع. وصار حكمت حين يدعو ربّه أن

ينجيه من التعليم يضيف: وإذا تعلّمت أن أتعلّم مع راتب!

حتى إنّ حكمت أقسم حين اقترب موعد انتهاء فترة حكمي بأن يضع صورتي إلى جوار صورة مار جرجس، إذا تمّ الإفراج في موعد انتهاء فترة حكمي عن كلّ الذين انتهت فترة حكمهم من أهل المهجع ولم يفرج عنهم. ولكن قبل انتهاء فترة حكمي بشهر واحد صدر عفو رئاسي أفرج فيه عن كلّ من كانت فترات حكمهم منتهية وما زالوا في السجن، وكانوا ثمانية. حرّك هذا الإفراج التفاؤل لدينا بأن يتمّ استئناف الإفراج عن كلّ من تنتهي مدّته. لكن ما استؤنف في الواقع هو الإبقاء على سياسة الاحتفاظ بالجميع، من انتهت فترة حكمه ومن لم تنته، إلى حين صدور عفو ما. وعليه فقد كان أن كلّفني صدور ذلك العفو قبل موعد انتهاء فترة حكمي بشهر، قضاء سنة وثلاثة أيّام فوق مدّة حكمي في سجن تدمر. وهكذا سقطت فكرة العناية الإلٰهيّة الخاصّة وخسرت حتى «فرصة» أن يفرج عنّي عند انقضاء مدّة حكمي بالتمام والكمال، فضلاً عن أنّي خسرت فرصة أن تجاور صورتي صورة مار جرجس في بيت غير بيت أهلي.

غنيمة الإياب

بعد ثلاث سنوات وستّة أشهر وثلاثة أيّام في سجن تدمر، أو بعد ١٦ سنة وثلاثة أيّام في السجون، نقر الرقيب على باب المهجع بالمفتاح ولفظ ثلاثة أسماء كان اسمي بينها. كان قد انقضى سنة وثلاثة أيّام على انتهاء مدّة الحكم الذي صدر بحقّي من محكمة أمن الدولة العليا. يقال إنّ الإنسان يشعر بدنوّ أجله، وإنّه من بين كلّ العوارض المرضيّة التي تمرّ به يشعر عميقًا بالعارض الذي يحمل معه الموت. وأنا شعرت حينها بدنوّ الإفراج. تكرّر هذا الشعور كثيرًا خلال سنوات

السجن، ولكنّه كان هذه المرّة الأقوى والأعمق والأقرب إلى اليقين. كما يأتيكم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة، كذلك يأتيكم الإفراج ولو كنتم في سجن تدمر. . . ارتبكت، وأذهلتني مصادفة أنّني ولدت في شهر تمّوز واعتقلت فيه وها أنا يتمّ الإفراج عنّي فيه، وكنت قرّرت أنّه إذا ما أُفرج عنّي في شهر تمّوز فسأطلق اسم هذا الشهر على ابني إذا ما رزقت بذكر. وقد أُفرج عنّي فعلاً في تمّوز لكنّي لم أتمكّن من الوفاء بتعهّدي هذا أمام نفسي. أعدّ لي الأصدقاء في المهجع على عجل ما يمكن أن أستعين به في الزنزانة (عدّة زنزانة: منشفة وغيار داخلي وصابونة وفرشاة أسنان. .) مخافة أن يستبقونا في الفرع، لا أحد يدري! (اللافت أنّني حملت معي من سجن عدرا يوم رموا بنا «سرغلونا» إلى سجن تدمر، عدّة زنزانة أيضًا)، أوصيت بما يمكن أن أوصي به من أغراضي «الثمينة» (أهمّها البطّانيّة) لمن بقي، والحقيقة أنّ هذه الوصايا تكرّرت عشرات المرّات منذ انتهاء مدّة حكمي، فبعد انتهاء المدّة قد يأتي الإفراج في أيّ وقت، من يدري! ثم ودّعت صحبتي وأصدقائي في المهجع وداعًا يجمع بين الحزن والفرح، وخرجت واضعًا الطمّاشة على عيني.

كم يشبه السجن والحرّيّة، الموت والحياة. لا يستطيع المرء أن يقاوم هذا التشبيه. وهو في الواقع أكثر من تشبيه، في السجن المديد يعيش المرء بروفة الحياة والموت. السجين المزمن المفرج عنه هو في نظر من بقي في السجن ميت، يفتقده محبّوه ويبكونه ويتقاسمون أغراضه «يرثونه»، ويخلّف وراءه فراغًا يندمل مع الزمن، فقد انتقل إلى دار أخرى. قرار الإفراج يبعث السجين في عيون ويميته في عيون. السجن مجازًا هو دار فناء، فهو الحدث العارض

- مع أنّه التهم أنصاف أعمار الكثيرين وأنا منهم - وكما يقولون السجن لا يغلق على أحد، فهو إذن دار انتقاليّة، دار اختبار، أمّا الدار الأخرى (خارج السجن) فهي دار البقاء، هي النهاية المنتظرة لكلّ سجين، كما الموت نهاية تنتظر كلّ حيّ. على أنّ دار البقاء الحقيقيّة تفرض نفسها أحيانًا وتمتدّ يدها لتخطف سجينًا إليها مخترقة حدود لعبة السجن والحرّيّة. قوانين الحياة والموت لها اليد العليا في هذا الميدان العبثي. تبقى الصناعة البشريّة للعبة الحياة والموت، رغم كلّ مأساويّتها وهولها، قاصرة أمام لعبة الحياة والموت القدريّة. في هذه المقاربة يصبح الموت صنو الحرّيّة، ألا نكون جميعًا سجناء في هذه الدنيا فحين يموت أحدنا يتحرّر منها؟ ألا يجدر بنا أن نُسرّ لموت «تحرّر» حبيب لنا كما يجدر أن نفرح لتحرّر سجين؟

أوّل مرّة أشهد فيها الإفراج عن سجين كان في سجن الشيخ حسن بعد أشهر قليلة من اعتقالي، كان الرجل قصير القامة وحلو الملامح لا تخلو يده من مسبحة مصنوعة من بذر الزيتون، يسبّح بها وهو ساهم لا يودّ الاختلاط الزائد معنا، فهو مسجون بقضيّة تهريب ومطمئنّ إلى أنّ قضيّته تافهة طالما أنّها ليست قضيّة سياسيّة. السلطة المستبدّة تغفر كلّ شيء سوى الشرك بها! كان يتحدّث عن قرب الإفراج عنه وعن واسطة كبيرة تتكلّم بموضوعه. وكان يبدو لي كلامه نوعًا من التعلّل والترويح عن النفس، رغم أنّه كان يبدو مطمئنًّا وواثقًا ممّا يقول. وبالفعل في صباح أحد الأيّام وقبل أن يوزّعوا طعام الفطور، فتح أحد عناصر المفرزة باب المهجع وطلب منه أن يضبّ أغراضه لإخلاء السبيل. لم يكن لدى أبي حيدر ما

يضبّه، خلع بيجامته ولبس ثيابه وحمل كيسًا صغيرًا يحوي بضعة مسابح من بذر الزيتون، ودّعنا وداعًا جماعيًّا ثم تعانق مع سجين (سياسي) متقدّم في العمر كانت تربطه به صداقة، وخرج هكذا، هكذا لا شيء يقف في وجهه أو يمنعه. كنت أراقب ما يجري مذهولاً، هكذا وببساطة شديدة يمكن أن يخرج المرء من السجن، بدا لي أنّ الإفراج ـ هذا الحلم الكبير المنتظر ـ إنّما هو إذن أمر سهل وفي المتناول. تمامًا كما تشعر في حضرة الموت أنّ الموت قريب في مكان ما، وتكاد تشمّ رائحته أو تلمسه. ولفرط بساطة الإفراج الأوّل الذي شهدته، راودني شعور بأنّ الأمر لا يمكن أن يكون بهذه البساطة وأنّه لا بدّ أنّ هناك تعقيدات أكثر، وأنّ أبا حيدر لا شكّ سيعود إلى المهجع أو سيوضع في منفردة ريثما تستكمل معاملات وتجرى اتّصالات ويتمّ التحقّق من أشياء. . إلخ. ولكن أيّام مضت ولم يعد أبو حيدر، بعد أسابيع صار بعض عناصر الشرطة يتحدّثون عن مصادفتهم إيّاه في الخارج. إذن الإفراج بهذه البساطة، بعيد بقدر ما هو قريب، وعصيٌّ بقدر ما هو يسير!

بقي من هذا الرجل ذكراه، نتذكّر بعض عاداته وبعض التعابير التي درج على استخدامها. رغم أنّنا لم نقض معه أكثر من أربعة أشهر. صرنا نتندّر بقوله حين تغلي الماء في الإبريق على بابور الكاز: يا جماعة إبريق الشاي عم يكفر بالعبري (إلى أن جاءنا أحد معتقلي الأخوان المسلمين فيما بعد وأبدع تعبيرًا أكثر بلاغة: الإبريق يولول يا شباب). علقت في ذهني شخصيّة هذا الرجل لمجرّد أنّه الإفراج الأوّل الذي أشهده، وبقيت أذكر هذا الرجل براحة على أنّه بشارة أمل، فقد ارتبط ذكره بإفراج سهل ويسير ومفاجئ، كان ذكره

يشعرني أنّ الإفراج وراء الباب].

كان محيي الدين وعبد الله قد سبقاني إلى خارج المهجع فأمسك كلّ منّا بثياب من أمامه (كان عبد الله من العمر والمرض ما جعل قامته منحنية بالشكل الذي تستدعيه هذه المشية) وسرنا مطأطئي الرأس على هدي عنصر البلديّة: ارفع رجلك، وطّي راسك... إلى أن وصلنا منطقة مفتوحة. جاءنا أمر بالتوقّف، ثم بالجثو مع وضع اليدين على الرأس. جعلونا نخلع كلّ ملابسنا ما عدا السروال الداخلي، تفتيش متسرّع بعض الشيء، قياسًا على ما كنّا قد سمعنا عن تفتيش الإفراج. الحقيقة لم يكن تفتيشنا على شاكلة التفتيشات التي سمعنا عنها، لم يطلب منّا نزع السراويل الداخليّة وإجراء حركات أمان كما كانوا يسمّونها، أي حركات تشبه الرقصة الروسيّة يجبر السجين على القيام بها وهو عار تمامًا مرّة أو مرّتين للتأكّد من أنّه لم يخف شيئًا في الشرج، ولم تنزع نعال الأحذية للتأكّد من أنّها لا تخبّئ شيئًا..)؛ ثم: واقفًا، احمل غراضك وامش. سرنا على هدي عنصر البلديّة ثانية تحيط بنا مجموعة من عناصر البلديّة والشرطة ومختلف تعبيرات الكراهية. (الكراهية تجاه السجناء في سجن تدمر عنصر مميّز وثابت، لم نلمسه بهذا الحضور الطاغي والمستقلّ في بقيّة السجون ولا حتى في فترة التحقيق، على الأقلّ في فترة التحقيق هناك معلومات يفترضون أنّها لديك وأنّهم يريدون انتزاعها منك بالتعذيب، التعذيب هناك ليس مجّانيًّا، هناك يلامسك، رغم كلّ شيء، شعور بالنِّدِّيّة، شعور بالأهمِّيّة، يعذّبونك في التحقيق بحثًا عن شيء مهمّ يفترضون أنّه لديك هم بحاجة له.. أمّا في سجن تدمر، فأنت لست شخصًا بقناعات مختلفة وتدفع ثمن

دفاعك عن قناعاتك وتعامل وتعاقب من قبل أناس وظيفتهم قمعك ودحر ما تسعى إليه، بل أنت كائن مكروه يتمنّى عناصر السجن، بكلّ درجاتهم، لو تطلق أيديهم لشتمك وضربك وتشويهك وإعدامك حتى، تشعر أنّ ما يقوم به عناصر السجن هنا لا تمليه عليهم وظيفتهم بل مشاعرهم، ويجرحك في العمق ذلك وأنت في هذا الدرك السحيق من الضعف والعزلة). توقّفنا عند مكتب مساعد الانضباط لإعادة النقود والأمانات لأصحابها، ثم تابعنا إلى باب حديدي ضيّق يرتفع عن الأرض بضع درجات. ثم ها نحن في الشارع. وقبل أن أتجاوز الباب الضيّق (قيل لي إنّ فوق هذا الباب نقشت عبارة «ولكم في القصاص حياة» غير أنّي لم أتجرّأ على النظر إلى الخلف ولا أعرف كيف يبدو هذا الباب حتى لا من الداخل ولا من الخارج، كلّ ما أعرفه عنه أنّه باب ضيّق ويفضي إلى الشارع مباشرة) وأضع رجلي على رصيف الشارع، امتدّت يد وسحبت الطمّاشة عن عينيَّ ورمتها على الأرض (كنت أتمنّى أن أحتفظ بها كذكرى عن هذا المكان الرهيب. اعتقدت أنّ طمّاشتي تختزن في نقوشها وثناياها ذكريات تدمر الرهيبة، الطمّاشة في سجن تدمر هي الرفيق الأوّل للسجين). ها نحن خارج أسوار السجن، خطوة تفصل بين عالمين. ها هنا أناس عاديّون في الشارع يمضون إلى غاياتهم ذاهلين تمامًا عن هذا الهلاك المجاور لهم، عربات نقل صغيرة تعبر الشارع، عناقيد التمر تتدلّى أمام المحلّات (كم كان التمر حلمًا لنا ونحن داخل هذا المنفى)...

اقترب منّي قائد المفرزة التي جاءت لتنقلنا إلى دمشق وهو نفسه الذي «قادنا» في رحلة الباص «أبو كاسة» الذي نقلنا قبل

سنوات إلى سجن تدمر (كان برتبة ملازم أوّل حين اعتقلت وهو الآن عقيد في الأمن السياسي) وقال متنهّدًا:

- والله زمان يا راتب.. شيبت.. يالله خلصنا أنا وأنت سوا.

لم أفهم ماذا يقصد بأنّه خلص هو أيضًا، ولكن علمت فيما بعد أنّه في دوّامة الصراعات الدائبة داخل فروع الأمن فقد نفوذه وبات ضابطًا مقلّم الأظافر. حاول أن يكون لطيفًا، تطبّعًا يناقض طبعه، وتمنّى لنا التوفيق وطلب من العناصر الاهتمام بنا قبل أن يصعد إلى سيّارة المرسيدس ليرافق رحلة عودتنا إلى دمشق بباص «شبه بولمان» كما كان مكتوبًا عليه.

ثلاث سنوات ونصف في سجن تدمر ليست كثيرة إذا ما قيست بالفترات الطويلة التي قضاها غيري، ولا سيّما من متّهمي الحركات الإسلاميّة وبعث العراق، ولكنّها رهيبة مع ذلك، رهيبة أكثر ممّا يخال المرء. عزلة وانقطاع تامّ عن تطوّرات الحياة الخارجيّة، حتى إنّي فوجئت بهذا الشبه بولمان الذي يحوي تلفزيونًا. باص مع تلفزيون! بدا لي الأمر مفاجئًا وطريفًا. أمر ممتع أن تقضي ساعات السفر بمتابعة فيلم. كان عناصر مفرزة النقل القادمين من دمشق طيّبين، كانوا يهنّئوننا بالسلامة، يتسلّون باستغراباتنا، سعيدين لسعادتنا. رموا ثوب عناصر الأمن وكسروا حاجز التصنيف واستووا معنا على أرض مشتركة. ولاحظت أنّ مبادرتهم وقبولهم هذه الأرض المشتركة كان أيسر من قبولنا، من قبولي أنا على الأقلّ. فرغم ارتياحي لهيئتهم المدنيّة بعد أن جفّت أرواحنا من الشرطة العسكريّة أرباب سجن تدمر، ورغم اطمئناني إليهم، إلّا أنّني كنت فيما يبدو أحمّلهم بشكل ما شيئًا من وزر رمينا في هذا الهلاك.

أليس هؤلاء هم القبضة التي تمكّن الفأس من قطع الأصول؟ إذا استعرت قصّة الجاحظ التي تتحدّث عن فأس سقطت في غابة فارتعدت الأشجار خوفًا وتوجّهت بأنظارها إلى كبرى الشجرات التي طمأنتهم قائلة: ما لم تمنح إحداكنّ غصنًا إلى هذه الفأس يكون قبضة لها، لن تستطيع هذه أن تفعل بكنّ شيئًا.

هكذا كنّا في طريق عودتنا من تدمر، هذه البلدة التي أعطاها السجن الذي ابتليت به نصيب كبير من اسمها. كنت أبتعد عن سجن تدمر وكأنّني غير مصدّق، هل أنا في حلم أم في علم. أركّز تفكيري في تفحّص الحالة التي أنا فيها كي أتأكّد من أنّني لم أعد حقًّا سجينًا في تدمر، كي أتأكّد من حقيقة أنّني بالفعل في طريق العودة من تدمر، ثم أحاول بشكل واع، وقد تيقّنت، أن أسلخ عنّي قلقي وخوفي من أن تتلبّسني تعليمة ما. أحاول أن أتلمّس وأستمتع بحقيقة أنّني صرت حرًّا من المناوبات الليليّة ومن أعمال السخرة ومخاطر إدخال الطعام ومخاطر رشّ الماء في الباحة تمهيدًا للتنفّس. أتأكّد من واقعيّة الحالة وأعزّز اطمئناني بأنّني لن أشهد تفتيشًا تدمريًا بعد الآن. أستغرق أكثر في هذه الطمأنينة الدافئة، وأذكّر نفسي متلذّذًا بأنّني لن أكون بعد الآن عرضة لبذاءة شرطي يضع كرباجه على كتفي وأنا في باحة التنفّس ويقول: هذا نيّاك أمّك! ويرغمني أن أكرّر العبارة وراءه، كما حدث مثلاً مع أحد رفاقنا. مشاهد الطريق نفسها، التي بدت في طريق ترحيلنا إلى تدمر جافّة وحادّة وثقيلة على النفس، تبدو لي الآن في طريق العودة من تدمر جميلة وهادئة وودودة. الأرض القاحلة والحجارة السوداء المتناثرة على جانبيّ الطريق والتِلال الجرداء، كلّ شيء يبدو جميلاً

وهو يمرّ أمام عينيَّ على خلفيّة إحساسي المتنامي بأنّني لن أقضي الشتاء القادم في تدمر، ولن أكون في عداد ضحايا ذلك البرد الصحراوي الكافر. تتخفّف نفسي من همومها ومخاوفها التدمريّة كلّما تقدّم الباص أكثر باتّجاه دمشق. لقد خرجت من فم الوحش، سالمًا!؟

لحظات الانسلاخ الأخير عن السجن

ها نحن نعود إلى فرع التحقيق. فرع التحقيق المبتدأ والمنتهى. كلّ ما تقع عليه عيناك في فرع التحقيق محطّ شبهة، كلّ شيء في فرع التحقيق يخدش القلب. كلّ شيء في فرع التحقيق يبدو لك عدائيًّا حتى نباتات الزينة ولوحات الإعلانات وابتسامات العناصر. في فرع التحقيق ثمّة ذات عدائيّة شديدة الكثافة، تحيل كلّ آخر إلى متّهم يخشى عاقبة الاتّهام، عاجزًا عن ردّ التهمة. في فرع التحقيق تشعر أنّك على أرض زلقة، تشعر أنّ كلّ شيء هنا مختلف، الكرسي ليست للجلوس والماء ليست للشرب ولا الكهرباء للإنارة، حتى الهواء تشعر أنّه غير صالح للتنفّس، فتستغيث رئتاك للخروج طلبًا للهواء. غير مريح وجودك في فرع التحقيق حتى لو كانت الغاية هي إكمال إجراءات الإفراج عنك.

استقبلنا المساعد أبو أحمد، هو نفسه المساعد الذي حقّق مع مجموعتنا، سوى أنّه بات الآن مهترئًا ومتهدّلاً مثل كلب عجوز. ربّما عذاب الضمير، وربّما كابتات الضمير، هو ما أزرى به. انفرد أبو أحمد هذا بنا نحن الشيوعيين الثلاثة في المجموعة القادمة من تدمر، وقال بنبرة صوته نفسها تلك التي كنت أشعر أثناء التحقيق، منذ ١٦ سنة، أنّها لا تدخل الرأس عبر الأذنين بل تشقّ طريقها إلى

الدماغ مباشرة عبر جدار الجمجمة:

ـ ما بدنا راس يابس، الشروط هي هي، بتوقّعوا عليها بتطلعوا بالعفو، ما بتوقّعوا... أنتو أكتر الناس بتعرفونا!

لوهلة لم يجد أحد منّا ما يقول أمام هذا الإسراف في السلطة. في كلّ المساومات السابقة كان ضبّاط الأمن يحرصون على مقابلة كلّ فرد بمعزل عن الآخرين، كي يحرّروه من الحرج الذي يمكن أن يشكّله وجود رفاقه من جهة، وربّما كي يزيلوا تأثير المواقف الثابتة و«العنيدة» لغيره عليه والتي يمكن أن تشدّ أزره من جهة أخرى، فمقابلة السجين منفردًا أدنى إلى أن يكون أكثر ليونة. غير أنّ صلف القوّة أو السأم من المناورات أو الثقة بأنّ تدمر قد طبختنا جيّدًا وهيّأتنا لقبول أيّ شيء أو ما لا أدري، جعل هذا الرجل وقحًا إلى حدّ أنّه أراد أن يتلذّذ بأكل العنب وأن يستمتع أكثر بقتل الناطور أيضًا، جعله وقحًا إلى حدّ الاستهتار التامّ بنا وعدم إتاحة الفرصة لأيّ منّا أن يحفظ كرامته الشخصيّة ولو بغطاء شفّاف من الكذب. هناك من أتيحت له فرصة الإفراج منذ سنوات لو قبل بهذه الشروط، وكان يمكن أن يخرج من السجن من دون أن يقاسي مرارة سجن تدمر، لكنّه رفض هذه الشروط، ووجد نفسه بعد كلّ سنين السجن التالية وكلّ هولها يقف أمام الشروط نفسها، تضعها في وجهه جهة مستعدّة ببساطة ومستعدّة كلّ الاستعداد ومستعدّة ولا شيء يمنعها، أن تفتح له حسابًا جديدًا في الفرع أو في سجن عدرا أو في سجن تدمر أو في أيّ مكان آخر يخدم كمكان احتجاز، إذا لم يوقّع على الشروط. لم تكن الكرامة الشخصيّة للسجين بعيدة عن هذه المواضيع، بل كانت في صلبها.

تتبخّر السياسة في السجون الأمنيّة، ويغدو السجين السياسي مجرّد كائن عنيد يجب تطويعه أو ترويضه أو تكسيره، ولا يفهم رجل الأمن ذلك سياسيًّا بل شخصيًّا. لا أحد يهتمّ بآرائك السياسيّة بل بمدى استعدادك للتعاون الأمني. بوّابة الإفراج ـ إذا كان هناك بوّابة ـ هي التعاون الأمني. حتى العفو لا يعفيك من ذلك، العفو يعطيك فرصة أن تخرج من السجن إذا وقّعت على الشروط. ثم يبدو عدم التوقيع في نظر الجهات الأمنيّة رفضًا للعفو، وهذا بذاته يفهم على أنّه تحدّ وإهانة ونيل من الهيبة والمكانة العليا. وهذا التعامل «الشخصي» الأمني اللاسياسي مع السجناء السياسيين يولّد تعاملاً شخصيًّا أيضًا من قبل هؤلاء السجناء مع موضوع المساومات.

ـ لسّا بعد الحكم وانتهاء مدّة الحكم وانتهاء سنة بعد الحكم، يبقى التوقيع هو شرط الإفراج؟ قلت له يائسًا.

ـ قلنالكم شغلة شكليّة. لا تخربوا على حالكم! حدا معترض؟ قال المساعد وانصرف مبتسمًا حين لم يلاحظ اعتراضًا، ولم ينس أن يقول محافظًا على ابتسامته: يالله فُرِجَتْ! الحمد لله على سلامتكم!

أبو أزدشير هو المحطّة التالية في تسلسل عمليّة الإفراج. أبو أزدشير هذا هو مدير مكتب العميد رئيس الفرع. كان مدير مكتب رئيس الفرع الأسبق ثم السابق وهو مدير مكتب رئيس الفرع الحالي وسيكون مدير مكتب رئيس الفرع التالي. وقد كانت له، في أوّل يوم من وصولي إلى فرع الأمن السياسي في دمشق قادمًا أو مستقدمًا بالأحرى من اللاذقيّة، مساهمة مبكرة وطليعيّة في رسم

حدود حجمي الحقيقي، التي كنت أحاول تخطّيها فيما يبدو حين وجّه إلى رقبتي من الخلف صفعة ثقيلة ومباغتة كادت أن تطرحني أرضًا وأبقتني بعدها لحظات أجهد نفسي لاستيعاب ما جرى. وكانت تلك الصفعة أوّل اصطدام عنيف ومباشر لي بتلك الجدران اللّامرئيّة التي تحدّد لي حجمي الحقيقي. كان ذلك حين سألني العقيد رئيس الفرع آنذاك، وأنا أقف أمام مكتبه العالي بعد أن أدخلني إليه أبو أزدشير وهو يمسكني من عضدي ظانًّا أنّني قد أختفي فجأة أو أطير:

ـ مين نظّمك ولا؟! مكشّرًا بطريقة يكرهها وربّما يخافها منه محبّوه فكيف بموقوف يقف أمامه.

ـ أنا مو منظّم. أجبته وفتلتُ يدي دلالة الاستغراب. كان ما يزال شعوري بحرّيّتي وبقيمتي الذاتيّة عاليًا. جوابي وحركة يدي كانا استنكاريين حيث لا يجوز الاستنكار، ممّا اضطرّ أبا أزدشير للتدخّل. وهو لا شكّ لا يذكر ذلك الآن ولا يذكر ربّما شيئًا ممّا سردته، فالتكرار الكثير يُنسي، ثم أبو أزدشير اقتصرت مساهمته التحقيقيّة معي على ذاك التدخّل «الاضطراري» الذي أبدى رئيس الفرع نفسه استياءه منه بأن زَوَرَه وكزّ على أسنانه بحركة أراد منّي أن أراها كي يقول لي من خلالها: إنّ من حولي همج وعدوانيين ولغتهم الضرب، أمّا أنا فمختلف، أنا عقيد ودارس وفهمان وحضاري. والرسالة نفسها تتضمّن القول: إنّك تلقّيت هذه الصفعة من دون أمر منّي، ويمكنك تخيّل ما يمكن أن تتلقّاه إذا أعطيتهم الأمر! ما قام به أبو أزدشير هو من أسرار استمراره الأبدي مديرًا لمكتب رئيس الفرع: أن يقدم على السلوك الذي يريده رئيس الفرع

كي يستنكره هذا منه.

لكن أبا أزدشير، وباستقلال تامّ عن كلّ ذاك التدخّل، بات يحفظ اسمي لكثرة تردّد أخي عليه طالبًا زيارة أو مستفسرًا عن إشاعة أو ملتمسًا خبرًا ما أو سوى ذلك.. وكان أبو أزدشير قد اتّصل بأخي وأخبره أخيرًا أنّ هناك سجناء قادمين من تدمر وأنّني بينهم. حين وصلنا فرع التحقيق كان أخي بالانتظار. ولكن ما لم يكن منتظرًا هو أنّ مدير مكتب رئيس الفرع وبعد انتهاء إجراءات الإفراج غادر الفرع لتلبية دعوة على الغداء. كنّا قد استلمنا من سجن عدرا ما تبقّى لنا من أغراض، فكان قد نقلنا ميكروباص تابع لفرع التحقيق إلى سجن عدرا لاسترداد «أماناتنا» التي لم تكن في أمان. كم تمنّينا، ونحن في جحيم سجن تدمر، العودة إلى سجن عدرا. وها نحن ندخل إلى الجناح السياسي في سجن عدرا. لا شيء ممّا كنت أتوقّعه. شعور بالغربة عن المكان الذي لم أمكث في أيّ مكان آخر كما مكثت فيه. تغيّرت بعض معالم الجناح. وضع ساكنوه الجدد (وكان معظمهم إسلاميّون وتركمان على خلفيّة توتّر العلاقات مع تركيا) لمساتهم الخاصّة عليه، وكان أبرزها الستائر السميكة على قضبان أبواب المهاجع لمنع الرؤية. رحّب بنا ببرود من كان يعرفنا من عناصر المفرزة، لمست عندي البرود نفسه تجاههم، نوع من الملل واليأس بدا مسيطرًا على نفوس الجميع. لم أجد عندي الدافع الكافي للتحدّث معهم واستذكار شيء من الماضي. لم يكن فيهم ما يشجّع على التحدّث والاستذكار. حتى شجيرة الياسمين المدلّلة التي كانت فاديا (بنت أخي) قد أحضرت لي شتلتها في إحدى الزيارات منذ سنوات طويلة، وتضافرت جهود

عديدة لتأمين التراب لها والعناية بها إلى أن نمت ومدّت فروعها وأزهرت على الأسلاك التي مددناها لها سلفًا، لم تثر في نفسي ما كنت أظنّ أنّها يمكن أن تثير، وكنت باردًا في تفاعلي معها، على أنّني حاولت أن أكذب على نفسي فتصنّعت نظرات وحركات توحي بحرارة ما تجاهها. أتصنّع أمام نفسي؟ نعم! كي لا أقع في هوّة الاقتناع بأنّ ثمّة بلادة كثيفة غلّفت أحاسيسي. والحقّ أنّ كلّ ما كنت أقوم به كان خاليًا من الروح، وكانت دوافعي شبه ميتة.

في المستودع كانت أغراضنا في حالة رهيبة من الفوضى، وكان الغبار السميك يغطّي كلّ شيء. الكتب ممزّقة ومبعثرة في كلّ مكان، بعد تعب استطعت جمع القليل من الكتب التي كنت تركتها، بعض الكتب مفقود وبعضها كانت قد تسلّت الفئران بقرضه. الملابس والأعمال الخشبيّة والخرزيّة كانت في خبر كان. عدت من المستودع أحمل كرتونة من الكتب هي ما تبقّى لي. وعدنا إلى الفرع جاهزين تمامًا للتحوّل إلى سجناء سابقين والبدء بما يمكن تسميته حياة جديدة، غير أنّ أبا أزدشير نسي أن يعطي أمره بإخلاء السبيل للعناصر الذين يعرفون أنّ كلّ شيء «نظامي»، كما قالوا، ولكن لا يجرؤون على إخلاء سبيلنا من دون أمر منه. «لو كان في بيته كنّا اتّصلنا به ولكنّه في دعوة ولا بدّ أن ننتظر عودته». وهكذا استضافنا العناصر في مهجعهم بضع ساعات تعاونوا خلالها على تكريمنا بما هو متاح من متّة ودخان وحتى بعض الموالح. كان اهتمامهم بنا حقيقيًّا، استفساراتهم وإصغاؤهم وتعاطفهم واستعدادهم للخدمة الممكنة.. هؤلاء أنفسهم قابلون للتحوّل فورًا إلى كائنات أخرى مغايرة تمامًا حالما يقتضي الأمر ذلك. قابلون، هم الذين

يحتفون بالإفراج عنّا ويكرموننا ويعطوننا أرقام هواتفهم بكلّ طيبة وصدق، لأن ينقلبوا عليك ضربًا وشتمًا وإساءات من كلّ نوع حين يأتيهم الأمر. حين عاد أبو أزدشير أسف على نسيانه إعطاء الأمر لعناصره بإخلاء سبيلنا (ولا شكّ أنّه سُرّ لعدم جرأة العناصر على إخلاء سبيلنا من دون أمر منه رغم اكتمال كلّ الإجراءات) وأمر بإيصالنا إلى بيوتنا بسيّارة من الفرع. تبرّع لتنفيذ المهمّة أحد العناصر الذين استضافونا. صعدنا إلى سيّارة الجيب واظ التي ما إن ابتعدت قليلاً عن الفرع حتى انطفأت لأنّها خالية من البنزين، ما سبَّب حرج وارتباك العنصر الذي كان شديد الحماس لإيصالنا. وبحسب «تحليل» أبي نجم أنّ هذه الحركة مقصودة لإزعاجنا، فلا يعقل أن يكون السائق جاهلاً لخلوّ سيّارته من البنزين. بعد ذلك استعنّا بسيّارة أجرة، وقد وضعت سيّارة الأجرة هذه التي أوصلتنا إلى بيت أخي الذي ظلّ معي طوال ساعات الانسلاخ الأخير هذه، أولى البصمات على حياتنا الجديدة ما بعد السجن.

* * *

خاتمة

حين أُفرج عنّي كنت في السادسة والثلاثين وأحمل شعورًا بأنّي فتى في العشرين، وهو عمري حين اعتقلت. كأنّ آلة عقلي أنكرت الاعتراف بهذا الكمّ الهائل من الزمن المنقضي المتراكم. كأنّ الزمن في السجن كان يتغلغل فيّ ولا يسير بي. المفاجئ أنّني لدى وصولي قريتنا جلست أمام بيتنا كأنّني لم أفارقه. لم يكن إحساسي بالحرّيّة طاغيًا ولم يكن قويًّا حتى. كالنابض الذي تعرّض زمنًا طويلاً لقوّة شدّ فاقت قدرته على التحمّل ففقد شوقه إلى وضعه الأوّل. ربّما كنت قد مللت انتظار الحرّيّة فلم تعد تغريني. وربّما فقدت قدرة الاستمتاع بالحرّيّة ففقدت هذه قيمتها لديّ. بدا هذا للآخرين قوّة وتماسكًا أثنى الكثيرون عليّ به. أمّا أنا فكنت أشعر بخسارة حاسمة. كنت أشعر أنّ قشرة التماسك والتوازن البادية لديّ - على أنّني لم أكن أتصنّع شيئًا منها - هي لباس لخواء هائل. لم يكن هدوئي اطمئنانًا ولا توازني استقرارًا. الأماكن والأشياء التي

من المفترض أن تستفزّ مشاعري وتلامس روحي لم تكن تفعل، على الأقلّ لم تكن تفعل بالشكل المتوقّع أو بالشكل الذي كنت آلفه في نفسي قبل هذا الماراتون. كأنّ بيني وبين ما يحيط بي غلالة من بلادة.

الإحساس بالأمان هو ما سيطر على شعوري في الأيّام الأولى بعد الإفراج. ها هنا أناس يتجمّعون حولي يحتفون بعودتي ويسألون عن حالي يدفعهم الفضول أو التعاطف أو الواجب ولا يبدو أنّهم يضمرون الأذى بي. ها هنا بيئة اجتماعيّة مستقرّة، توازن ما يحافظ على تراتبيّة مكرّسة ويحول من دون قدرة أحد على إلحاق الأذى بغيره اعتباطًا. لا خوف من أن أستيقظ على خبر أنّ شرطيًّا قد «علّمني» أثناء نومي وعليّ إذن أن أسدّد الفاتورة غدًا عند توزيع الفطور. ثقل باهظ شعرت بالراحة لزواله ولكن ما حلّ مكانه هو شعوري بمن بقي في ذلك السجن. فقد بقيت فترة طويلة أعيش على إيقاع ذلك السجن، هذا موعد توزيع الفطور ترى هل بينهم معلَّمون ومن يكونون، الآن وقت التفقّد ترى من هو الرقيب اليوم، هل يكون التفقّد عاديًّا أم عدائيًّا؟ فترة طويلة كان أفراد المهجع حاضرين في ذهني بقوّة، وأنسب كلّ من أراه إليهم شبهًا بالشكل أو بالطبع. حالة معاكسة تمامًا للفترة الأولى من الاندماج في حياة السجن، حيث كنت أقيس أشخاص بيئتي السجنيّة الجديدة على أقاربي وأصدقائي ما قبل السجن، شكلاً وطبعًا.

بعد ١٦ سنة وثلاثة أيّام ها أنا أجلس أمام الغرفة نفسها التي شهدت ذلك الحدث البسيط والبديهي مثل طبيعة الأشياء، مثل موت العجائز أو نموّ العشب. في لحظة تستعرض ذاكرتي أحداث ذلك

اليوم بتفاصيلها. شريط سريع من التفاصيل يعبر على شاشة فكري، لكي يردم ربّما هذا الفارق الزمني الكبير. كان ذلك منذ ١٦ سنة وثلاثة أيّام في ثاني أيّام عيد الفطر بعد الساعة الواحدة ليلاً، حين وقف رجلان في باب الغرفة المفتوح كما هي العادة في القرى، غرفة من بيتنا كانت أسرتنا حينها تعيش فيها طعم العيد ومتعة اللمّة العائليّة الحميمة. حيّا أحدهما وسأل مباشرة وبشيء من الودّ الرسمي: راتب موجود؟

ربّما كان يومي ذاك، لمن يتقن القراءة، غنيًّا بالدلالات. منذ الصباح كنت غارقًا في عالم «مئة عام من العزلة» وسط فسحة خضراء جميلة تحت شجيرات ريحان كثيفة الأوراق والظلال في «المرجة». تحيطني الخضرة وأصوات الطبيعة. أقرأ عن عزلة في عزلة و... أنتهي في عزلة. تلك الفسحة حافظت على صورتها في نفسي طويلاً في قفرة السجن، تلطّف إحساسي بالغربة والإهمال والقسوة حين كانت تتلبّد تلك الأحاسيس لتحكم طوقها من حولي. وتلك الفسحة الخضراء، كما لو أنّها كانت تعلم بما أنا صائر إليه، استبقت لديها بطاقة هويّتي، التي ظننت، لجهلي، أنّها سقطت منّي سهوًا في ذلك المكان، وحفظتْها من ذلّ الحبس. وفي ذلك المساء الصيفي الهادئ نفسه أغرقتني صبيّة ساحرة، ببحرها الدافئ، غرقًا يميت ليحيي. وكنت إذا اشتدّ طموحي منها لا يتعدّى أن أبلّل عطشي بشيء من مائها الفتي، فكيف بما أتاحه لي ذلك المساء الذي كنت ذاهلاً بالكامل عمّا يخبّئه لي ليله. ذلك سخاء ملأه اعتقالي بالدلالة، وأعطاه قيمة «الناقوس الذي يدقّ في عالم النسيان». خيمة صيفيّة بسيطة ارتمى على أكتافها ويبس الغار والشمبوط والحور وكلّ ما من

الطبيعة الأولى يمنح نفسه ليكون حجابًا في وجه الشمس والعيون. بدأت ظلمة الليل تغلب ضوء النهار، فتركتُ عزلتي تحت شجيرات الريحان واتّجهت صوب صوت غناء خفيف عذب يفوح من تلك الخيمة. هل كان الغناء نداء ومجيئي تلبية؟! وهل كانت تلك الخيمة تهيّئ نفسها لنا استجابة لأمر مكتوب في لوح محفوظ كي تحتضن ذاك اللقاء كما يحتضن الرحم التوأم؟! كلّ شيء كان ممهّدًا وودودًا كأن لحظات ذلك المساء كانت تحتفي بي. لكن حين اقتربت أصوات العائدين من الحقول إلى منازلهم من الخيمة الحانية علينا كأمّ، لفظتنا هذه إلى الساقية المجاورة، مخافة فضول أو حاجة تدفع أحدهم للدخول إليها. وفي الساقية المجاورة حيث كنّا شبه عراة، كان يمكن أن نتحوّل إلى جنيين شرّيرين أو إلى روحين عائدتين بهيئتهما الشبحيّة تستطلعان أمكنة كان لهما فيها ذكريات، غير أنّ عيون العائدين إلى بيوتهم من تعب يومهم الطويل، لم تبصرنا فبقينا على حالنا، شابًّا وصبيّة مذعورين ويخفق قلباهما خوفًا من افتضاح أمرهما، ينتظران ابتعاد أصوات العائدين كي يطمئنّا قليلاً وتحتضنهما الخيمة من جديد، ويتاح لهما أن يكملا ما بدآ به. تبتعد الأصوات، وتستعيدنا الخيمة، وتتهيأ لمركبي الغرّ كلّ سبل الإبحار المشتهى، إبحار ينطوي على متع المغامرة البكر مجتمعة، وكان البحر صديقًا ولا يعكّر هناء الرحلة وصفوها شيء. كأنّها رحلة معدّ لها منذ أزمان بعيدة. وحين أفتح عينيَّ من نشوة المشوار لا أجد أثرًا ليابسة، لا شيء وراء الماء سوى الماء. ويعيدني إلى اليابسة همس خفيف، فأودع البحر كلّ شيء، وأعود أدراجي أتلمّس جمال ما حظيت به، وأستمتع بحجم هذه الغنيمة الهائلة التي أسقطتها لي الريح، والتي أنارت بين أضلاعي مثل زوّادة من ضوء لرحلة معتمة بهذا القدر.

نهضت في الحال واتّجهت إلى رجل الأمن الذي يسأل عنّي، وكنت قد دخلت الغرفة منذ وقت قصير. كان أهلي في الغرفة يتحلّقون متراخين حول مائدة عامرة بالمأكولات والمشروبات والنكت والتعليقات، في حين كانت أمّي مستلقية كعادتها على الأريكة بجوارهم وقد غفت على هدهدة أحاديث السهرة. تأكّد الرجل من أنّني المقصود بأن كرّر السؤال: أنت راتب؟ ثم قال بلطف أنت مطلوب لفرع الأمن السياسي، مشهرًا بطاقته في يده. ولم أشعر أنّ لطف النبرة تلك وإشهار البطاقة هو تعبير عن احترام لمبدأ أو عرف أو التزام بقانون، بل نوع من الترف، أو تعبير بالأحرى عن سيطرة تامّة. هو الشعور بالسيطرة نفسها التي تجعل الهرّ يداعب الفأر قبل أن يفترسه. انطلقت بنا سيّارة التويوتا بعد أن تجمهر حولها أهلي وأقربائي المجاورين لنا، وتناهى إلى سمعي قبل أن تنطلق السيّارة صوت أمّي يسأل: شو فيه.. شو صاير.. راتب..؟! كانت سيّارة التويوتا تلك بنصفها العلوي الأبيض ونصفها السفلي الأحمر (منذئذ سأكره هذا الصنف من السيّارات وأخافه) تنطلق مسرعة والطريق شبه فارغة على العكس من رأسي الذي كان مزدحمًا بالتوقّعات ونهبًا للقلق والمخاوف. ثم راحت السيّارة تقترب من البحر أكثر وتدخل في شوارع لا آلفها.

وصلت سيّارة الجيب التويوتا من كفريّة إلى فرع الأمن السياسي في اللاذقيّة حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. لا يوجد في السيّارة سوى السائق وعنصر الأمن وأنا. دليل على أنّ المعلومات حولي لا تشير إلى أنّني خطير. هذا جيّد، ومبشّر، كما خُيّل لي. كان العنصر لطيفًا. السائق في الدوريّات الأمنيّة تقتصر

وظيفته على السواقة، هذا ما تبيّن لي من تجربتي، إذ يبدو كأنّه مجرّد سائق مأجور. قطعنا المسافة بين كفريّة واللاذقيّة صامتين، لم يدر أيّ حديث حتى بين العنصر والسائق. فقط أنا سألت العنصر إن كان يعرف سبب الاعتقال فأجاب أنّه لا علم له بشيء، وأضاف: أنت من يجب أن يعرف. ظننت أنّ فرع اللاذقيّة يريد أن يسألني عن ابن عمّ لي مطارد منذ فترة بتهمة النشاط لصالح رابطة العمل الشيوعي، ولا سيّما أنّني أدرس في دمشق وجئت لقضاء عطلة عيد الفطر وهم قد يعتقدون أنّ قريبي ذاك يتخفّى في دمشق أيضًا، لعلّهم يريدون تحقيق سبق ما يفاخرون به على فرع دمشق، خصوصًا وأنّ ابن عمّي كان قد أربك الأمن في أكثر من مرّة، وبالتالي فإنّ الوصول إلى معلومات عنه يشكّل نصرًا ما. استقرّ ذهني على هذا الاحتمال وانشغلت في تخمين مدى الضغط الذي يمكن أن يمارسوه عليّ في سعيهم للحصول على معلومات عنه. شعرت بالخوف ولم يكن عندي استعداد لتحمّل الضرب المتوقّع، وفي الوقت نفسه لم يكن عندي أيّة معلومات عن ابن عمّي، وهم لن يصدّقوا وبالتالي يرجّح أن يكون التعذيب شديدًا. ازداد خوفي. ولكن بعد هذا التعذيب لن يحتفظوا بي، قلت في نفسي، فقد سبق لهم أن طلبوا أخاه وأخاه وأخته لهذا الغرض ولم يحتفظوا بهم. أزاح هذا بعض الثقل عن صدري، ولكنّ التعذيب المنتظر طاغ على ما عداه ومخيف إلى حدّ الرعب. وأنا رجل خوّيف وأكره الألم الجسدي وأهرب منه قدر الاستطاعة، ولذلك فإنّني أميل إلى المسالمة. لم أكن في طفولتي مشاكسًا ولا محبًّا للعراك والتحدّي، وما حماني في طفولتي وفتوّتي من الوقوع ضحيّة الاستضعاف هو التكاتف العائلي لا غير، هذا التكاتف الذي جعل جانب عائلتنا

مرهوبًا إلى حدّ ما. وها أنا اليوم لا ينفعني لا تكاتف عائلي ولا سواه. أنا الذي كنت أنفر من العراك البدائي البسيط الذي يمكنني فيه مهما ضعفت شوكتي أن أدافع شيئًا ما عن نفسي، أجد نفسي بانتظار عراك ممنهج لا مهرب منه، ليس غايته كسر الشوكة أو تسجيل النقاط أو التباهي، بل توليد أقصى ما يحتمل الجسد من ألم. ها أنا أمام أجهزة سأدرك لاحقًا كم هي متخصّصة في إنتاج الألم واستثماره.

كان ليل تمّوز حارًّا، وفي باحة فرع الأمن السياسي يجلس رجل بقميص شيّال على كرسي وقد رشرش الأرض من حوله بالماء وأمامه تربيزة عليها قنّينة ماء بلاستيكيّة. رمقني هذا الرجل بنظرة اعتياد، وحدّد للعنصر الزنزانة التي يجب أن يضعني فيها من دون أن يتحرّك عن كرسيّه (أمّا نظيره في سجن الشيخ حسن أو بالأحرى كركون الشيخ حسن في دمشق فقد كان يجلس الجلسة نفسها وبالقميص الشيّال أيضًا ـ ربّما كان هذا يفسّر شيئًا ما من نفوري من منظر الرجل بالقميص الشيّال الأبيض ـ ولكنّ الفارق أنّ رجل الشيخ حسن كان يجلس وإلى جواره بحرة ونافورة ماء كالتي نراها في البيوت الشاميّة القديمة، وأنّ ذاك الرجل القصير البدين المكرش ذا الوجه المستطيل والملامح الغليظة، والذي سأعتاد كثيرًا فيما بعد على رؤيته بصفته رئيس مفرزة الكراكون، ابتسم، حين أدخلوني إلى حرمة الكراكون من باب حديدي ضيّق، وقال باستخفاف باد وبلهجة خليجيّة غير متقنة: (أهلاً يا طويل العمر!). جرّدني العنصر من كلّ ما يمكن أن أؤذي به نفسي، الساعة، القشاط.. إلخ وأدخلني إلى زنزانة أوّل ما لفت نظري فيها أنّها لا تحوي تواليت (يعرف كلّ من

مرّ في هذا المعبر الرهيب «رفاهيّة» وجود التواليت في الزنزانة).
هي ليست زنزانة بمعنى الكلمة بل غرفة صغيرة، وكانت مظلمة إلّا من شعاع ضوء يأتي من زاوية ضيّقة أتاح لي أن أقرأ بعض التعابير المخطوطة على الحيطان منها «اليساري الثورجي» ومنها الإسلامي.
ولم يمض وقت طويل حتى سقطت نائمًا كزند من خشب، كما يقول التعبير الإنكليزي، على إسفنجة وسخة مرميّة كيفما كان على أرضيّتها. فأنا لم أنم تقريبًا خلال أوّل يومين من أيّام العيد (عيد!).

أيقظني في الصباح صوت العنصر من دون خشونة، فتح لي الباب وأعطاني ما صادروه منّي البارحة. قال لي المساعد إنّهم سينقلونني حالاً إلى دمشق، وإنّهم لا يريدون هنا منّي شيئًا، وإنّ طلب اعتقالي قد جاء من دمشق. وبالفعل لم يوجّه لي أيّ سؤال في فرع اللاذقيّة ولم يمسّني عناصر الفرع بأذى. لم أتعرّض للنهر أو الشتم هناك أبدًا، وليس هذا بالشيء القليل قياسًا على ما كنت أسمع وعلى ما خبرت بلحمي ودمي بعد ذلك. كانت الدوريّة والسيّارة المكلّفة نقلي إلى دمشق جاهزة، وقبل أن يجعلوني أصعد إلى السيّارة سمعت المساعد يقول للدوريّة التي سترافقني أنّهم لم يطعموني شيئًا منذ البارحة. ولكن كيف يمكن لمن هو في حالي أن يستطيع ابتلاع ريقه فكيف بالطعام. انطلقت السيّارة بي وبالدوريّة بزعامة رجل يُدعى أبو صخر. وهو صورة نموذجيّة عن رجل المخابرات في العهد البعثي الثالث. متعال من دون مؤهّلات، ومزوح من دون ألمعيّة، وجلف ويملأ كلّ فجوات ذاته بسلطة الجهاز الذي يتّكئ إليه، ولذلك فإنّ تبعيّته إلى هذا الجهاز مطلقة.

وقياسًا على وصف الشخص المغرور بأنّه ممتلئ بنفسه يصحّ القول في وصف رجل المخابرات إنّه ممتلئ بالجهاز الذي ينتمي إليه. ولذلك ترى هؤلاء بعد انتهاء خدمتهم في حالة مزرية من الخواء.

الطريق إلى دمشق طويل وممل، ومنذ عرفت بأمر نقلي إلى دمشق، انهارت مرّة واحدة تحليلاتي السابقة وبدأت أبني تحليلات جديدة أستنير بها. ولكن كيفما اتّجهت التحليلات هذه المرّة فالمؤشّرات باتت أكثر خطورة، الخوف جعلني أنكمش على نفسي وأردّ باقتضاب شديد وعدم رغبة على محاولات العنصر الأربعيني الذي جلس إلى جواري في المقعد الخلفي وأسئلته لمعرفة مدى قرابتي مع فلان وفلان ممّن يعرف من عائلتنا. كان يعرف أحد أقاربي معرفة جيّدة فطلبت منه في غمرة انشغال أبي صخر بحديث مع السائق، أن يخبر هذا القريب، عند عودته إلى اللاذقيّة، بأمر نقلي إلى دمشق، وقد كان هذا الرجل لبقًا بما يكفي، ليس فقط لأنّه وعد بأن يفعل بل وأيضًا لأنّه كفّ عن المزيد من الاستفسارات قارئًا انكماشي وعدم رغبتي بالحديث.

عند بانياس سألني أبو صخر عن بطاقة هويّتي، فقلت له إنّها ليست معي. وفي الحال طلب من السائق التوقّف والعودة إلى اللاذقيّة. قلت له إنّها لم تكن معي حين كنت في الفرع. صفن قليلاً ثم قال للسائق:

- معليش كمّل ع الشام. بس العمى بعيونن شو جحيش! كيف بيجيبوه بلا هويّة؟ العمى شو مساطيل. يالله هونيك بيحلوها.

قبل حمص بقليل توقّف السائق إذ فوجئ بتلال من الأتربة تغلق الطريق، فقد كان عليه أن يسلك التحويلة قبل بضع مئات من

الأمتار، ولكنّه لم ينتبه، بدأ بالرجوع ولكن أبو صخر قال له أن يكمل. توقّف السائق ونظر إليه مستغربًا. فقال أبو صخر متّخذًا هيئة جدّيّة:

ـ ليش عم ترجع كمّل وأنا بحمل السيّارة تحت باطي وبقطعها للطرف التاني من التلّة.

ضحك السائق مراعاة لمزحة رئيس الدوريّة الفاقدة لرهافة الحسّ. شعرت كما لو أنّ مزحة أبي صخر (اسم على مسمّى!) سقطت في قلبي مثل حجر ثقيل أملس كاد يخنقني. ولا تزال هذه «المزحة» تتمسّك بذاكرتي إلى اليوم، لأنّني حاولت جاهدًا أن أنظّف ذاكرتي منها. والأنكى، وما جعلني ربّما لا أستطيع التخلّص من عبء هذه المزحة، هو أنّ أبا صخر وكأنّه سُرّ لألمعيّته فغمرته حيويّة عابرة جعلته يلتفت إليّ ويسألني عن الجرم الذي ارتكبته كي يطلبوني إلى دمشق بهذه السرعة. وكان الخوف والترقّب قد أتيا على ما تبقّى لديّ من طاقة، فأجبته، مستجمعًا شيئًا من طاقتي، إنّني لا أعرف. لكنّ جوابي لم يرق له فالتفت إلى الرجل الجالس بجواري وقال:

ـ كلّن هيك، منقاينن ع الفرّازة.

* * *

أجلس للمرّة الأولى، بعد كلّ هذا الزمن، أمام الغرفة التي شهدت اعتقالي. ذاك يوم، وهذا يوم، وقد التهم الزمن الطويل الذي يفصل بين هذين اليومين التضادَّ «الطبيعي» بينهما، وصنع بدلاً منه شيئًا أقرب إلى التشابه. يوم الاعتقال ويوم الإفراج، في كليهما قطع لحياة امتلكت أسباب استقرارها، ورميٌ في لجّة حياة قلقة

تبحث عن عناصر الاستقرار. أن تبدأ من جديد وفق قواعد جديدة بعد استقرار طويل على حال مختلف، أمر فيه صعوبة وحتى مشقّة. شيء من ثقل البدايات وضغط القوّة المقاومة للتغيير. شيء يذكّر بقصّة الجنّي الذي احتالوا عليه فأدخلوه القمقم، وراح يعد من يخرجه من القمقم بكلّ الإغراءات، وحين طال به الزمن في القمقم، تغيّر الحال وراح يخيف كلّ من يحاول إخراجه من القمقم بشتّى التهديدات.

من الطبيعي أنّ تطوّرك النفسي والروحي والمعرفي قد تأثّر كثيرًا بفعل السجن الطويل. نمت في ذهنك تصوّرات جديدة، وفي ذهنك تحمل قيمًا واعتبارات باتت مهجورة أو قل مهزومة، وأنت ابن تجربة مهزومة، ولأنّها كذلك فإنّ ميراثها لك وحدك لا ينافس عليه أحد، الناس ينافسون على ميراث التجارب الناجحة فقط. تقرأ في عيون الناس سؤال ثابت: ماذا جنيت؟ سؤال ينبع من افتراض كامن هو أنّك إنّما كنت تعمل لشأن شخصي. هذا الافتراض يريح «الناس» من عبء الشعور بالهزيمة. لو نظروا إلى الأمر على أنّك كنت تعمل لشأن عامّ فإنّ هزيمة قضيّتك (وهي قضيّة عامّة) هي هزيمة عامّة تطالهم، وربّما تحمّلهم وزر التزامات ما تفرضها هذه الهزيمة. لكنّهم يطوّبون لك الهزيمة ويرسمون لأنفسهم أنّهم على ضفّة أخرى. بطريقة لاواعية يتّجه التفكير نحو المسارات الأقلّ إيلامًا للنفس. يكاد أحدهم أن يسألك ألست نادمًا، كما لو أنّك اقترفت جرمًا. ولكن ليس لك أن تهجو الناس. لو خرجت منتصرًا لتحوّلت ربّما إلى جلّاد لهؤلاء الناس، ولاستثمرت سنوات سجنك لتحصد امتيازات لك في السلطة والمال والوجاهة وغير ذلك. لا

شيء يضمن. الضامن الوحيد أن يمسك الناس قضيّتهم بأيديهم، غير أنّ ذلك لا يتمّ إلّا في لحظات عابرة، لحظات تحوّل ومفاصل تاريخيّة، وفي هذه اللحظات غالبًا ما تكون قوّة الناس قوّة إلغاء وإسقاط وهدم، ثم سرعان ما يسلّم الناس قضيّتهم إلى نخبة يعتقدون أنّهم أمناء عليها، فيتحوّل هؤلاء إلى صورة أخرى، وإن بلون أو هيئة مختلفة، عمّن ثاروا عليهم. لتبدأ الدورة من جديد. لا يمكن أن تجتمع القوّة مع الشعور بهمّ وقضايا الناس في جهة واحدة. قوّة الناس أو الجمهور أو الشعب هي قوّة مبعثرة ولكي تمارس هذه القوّة فعلها لا بدّ أن تتركّز في نخبة ما، نخبة تتحوّل عن الناس بعد أن تحوز على هذه القوّة. ولا تلبث أن تنفكّ قوّة الناس عن قضاياهم. ثم تُمارَس قوّة الناس، وقد عادوا إلى همومهم اليوميّة بعد أن رفعوا نخبة ما إلى السلطة، ضدّ قضاياهم ذاتها. ولا حلّ فيما يبدو لهذه المعضلة. هل تهجو الناس الذين تكاسلوا عن محاسبة نخبة «انحرفت»، أم تهجو نخبة «انحرفت» في ممارسة سلطة فوّضت بها؟ ولعلّ السؤال الأهمّ هو: من يمتلك المسطرة التي تقيس «الانحرافات»؟

تخرج من السجن المديد وتبدأ تلملم أشلاء حياتك المتقطّعة. سرعان ما تذوب قشرة السكّر التي تغلّف حرّيّتك الأولى وتبدأ من ثم الشعور بالطعم الحقيقي. تبدأ البحث عن مكان لك في النسيج الذي استؤصلت منه حين اعتقلوك. سنوات السجن طويلة، والجرح الذي خلّفه اعتقالك اندمل على غيابك، لا أنت تستطيع أن تغرس نفسك حيث كنت، ولا النسيج الذي اعتاد غيابك واستعاض عنك يستطيع قبولك حيث كنت. شوق أهلك إليك هادر لكنّه ضحل.

جزء كبير من أهلك لا يعرفك إلّا سجينًا، وكلّ من هؤلاء الشباب الأقارب يتصوّرك كما يشاءك أن تكون، ويخيب حين تخيّب حقيقتك افتراضه، ولا بدّ أن تخيّبه! والكبار من أهلك يحتضنونك ولكنّهم ينتظرون منك أن تكون رديفًا لهم في المناكدات العائليّة الأزليّة الأبديّة. وأنت لا هواية ولا مهارات لديك في فنون المناكفات والدسّ والنميمة وتكبير الصغائر وتصغير الكبائر. سنوات طويلة في العالم الأمثل لهذه الفنون لم تستطع أن تفكّ أميّتك فيها، فلا أمل منك. أنت غافل ولكن ثمّة رقابة «أهليّة» لا تغفل عنك. رقابة تسجّل وتحلّل وتصنّف وتبدأ بعد ذلك بتوجيه الرسائل الساخطة بكلّ أساليب التعبير غير المباشر التي يجيدها البشر، قبل أن تبدأ السهام في خرق جلدك.

تقطّعت صلتك ببعض أهلك. ولكن أنت في الأصل رجل التقطّع. تواصلك متقطّع، وذاكرتك متقطّعة، وصداقاتك متقطّعة. في الدراسة الثانويّة انتقلت إلى مدرسة أخرى وانقطعت صلتك بزملاء مدرستك الأولى، في الدراسة الجامعيّة اخترت الذهاب إلى دمشق وانقطعت صلتك بزملاء دراستك الثانويّة. في دمشق قطع الاعتقال دراستك وبعد سنين طويلة عدت للدراسة ولكن في جامعة اللاذقيّة. لم تكمل مشوارك مع زميل دراسة إلى النهاية لا في المدارس ولا في الجامعات. والسجن لم يقطع دراستك فقط بل قطع حياتك. دفن فيك أشياء من دون أن يميتها، وأحيا أشياء من دون أن يمدّها بأسباب البقاء. تعيش إذن بأشياء مدفونة تأمل رغم دفنها أن تنفض عنها التراب يومًا كي تحيا، وأشياء حيّة تجهد كي تفوز بحياة أقوى. أنت رجل البقاء على المفارق. تضعف عن قطع الفروع

الذابلة في شجرتك طمعًا في غلّة توفرها لك يوم تستطيع أن تمدّها بفيض من نسغ الحياة، وتبخل على فروعك الحيّة بماء الحياة مخافة أن تخسر غيرها. فتبقى شجرتك مثقلة وغلالك فقيرة. طوال عمرك تكره الحسم، لو وُضعت أمامك ورقة بيضاء مغرية وأُعطيت ريشة، لبقيت واقفًا لا تجرؤ على «تشويه» ذاك البياض. قد يخطر لك أن تكتب كلمة وفي الحال تستهويك أخرى ثم أخرى، ثم تجد أنّ مثل هذا البياض الأخّاذ جدير أن يحظى برسم لا بكلمة، ثم تتصارع الأشكال على الفوز بحضن تلك الورقة، غير أنّك لا ترشّح شكلاً إلّا كي تستبعده في الحال، تاركًا البياض للبياض لأنّ من طبيعتك أن ترى أنّه ما من كلمة أو رسمة تملك من القوّة والكمال ما يجعلك ترضى لها بالفوز به، أو أنّ هناك الكثير من الرسوم والكلمات الجميلة لكنّها لا تفضّل بعضها بقدر يجعلك تحسم في الاختيار بينها. من طبيعتك أن تخشى على ما هو موجود بالقوّة من أن «يبتذله» الوجود بالفعل. في السجن كنت تخشى أن تحكي ذكرياتك الحميمة، فقد تخرج في هيئة لا تناسب مكانتها في ذهنك، وفي السجن كنت ترتاح إلى أنّك لا تزال تملك فرصة اختيار شريكة حياتك. تقضي الأوقات في تخيّلها ورسم طباعها وشكلها وصوتها ومشيتها و. . ، وكلّ حين تعدّل في الصفات فتتعدّل، تريدها قويّة مع أطفالك وليّنة معك فتكون، تريدها نظيفة من دون هوس وأنيقة من دون تطلّب فتكون، تريدها وقورة تليق بالسهرات الرسميّة فتكون، تريدها عفويّة ضحوكة تحبّ المرح وتنعش القلب فتكون. عجينة بدئيّة تتشكّل كيفما يشتهي الخيال. كوني! فتكون. ولكن مهما كان الممكن غنيًّا إلّا أنّه، ما لم يتجسّد، يتساوى مع العدم.

عدت إلى الجامعة تحمل سنوات سجنك الطويل في عينيك. الهوّة التي صنعها السجن المديد في نفسك (التفارق بين الذات والشعور بالذات) لا تقلّ سعة عن الهوّة التي تفصل بينك وبين الطلّاب الذين تدرس معهم. وشيئًا فشيئًا تبدأ حومة الذات العالية تهبط كي تحطّ على غصن الذات الداني. تحطّ، لكنّها لا تنفكّ، رغم عجزها، تهمّ بالطيران ويؤرقها الحلم بذلك.

تغرق في الدراسة. الدراسة تشكّل واجهة جيّدة ومحمودة تستر وراءها ضياعك وهروبك من نفسك. تحاول وراء هذه الواجهة أن ترمّم تشتّتك بالكتابة والترجمة والعلاقات الجديدة والرحلات... لكنّك في كلّ هذا لا تعثر على ما تفتقده. ثمّة أمر أفلت من يدك بصورة نهائيّة وتحاول عبثًا استرداده. هناك فراغ في مصفوفة نفسك لا تقدر على ملئه، تشعر بثقل هذا الفراغ الذي لا يملأه نجاحك الدراسي ولا كلّ محاولات الشعور بالحرّيّة! أخذك السجن وختم على نفسك. خرجتَ منه فهل يخرج هو منك؟

* * *



تصميم الغلاف: نجاح طاهر

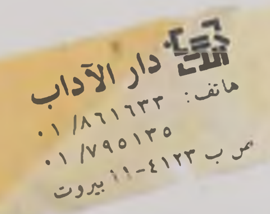
هل السجون كالسجون؟ أليست السجون أيضًا درجاتٍ ومراتبَ كما هي الفنادق والبيوت؟ ألا تخضع الحياةُ داخل السجن لقانون التفاوت والتمايز الذي يحكم الحياةَ خارجه؟ وعلى أيّ أسس تتمايز الحياة داخل السجن؟

تبقى صورة السجن في الوعي العامّ عندنا غامضةً رغم وفرة السجون والسجناء، ويعود ذلك إلى أنّ الكتابة عن السجن كانت غالبًا كتابةً أحاديّة الجانب، كتابةً تشكي وتندب، أو تدين وتشجب، وبالنتيجة تطمس جانبًا آخر من السجن، هو ما يمكن أن نسمّيه "حياة السجن".

هذه سيرة ذاتيّة تتناول السجنَ بعينٍ هادئة غير متشنّجة ترصد "حياةَ السجن". ولا بدّ أن يخرج القارئ من هذا الكتاب وهو يحمل في نفسه تقديرًا أعلى للحرّيّة كقيمة مستقلة، وتقديرًا أعلى للإنسان الذي يستطيع مواجهة غول الحبس والانتصارِ عليه بالتكيّف والامتصاص و"الاستحباس".

راتب شعبو: طبيب وكاتب سوريّ من مواليد ١٩٦٣. قضى من عمره ١٦ عامًا متّصلة (١٩٨٣ - ١٩٩٩) في السجون السوريّة، كان آخرها سجنُ تدمر العسكري. صدر له كتاب "دنيا الدين الإسلامي الأوّل"، وله مساهمات في الترجمة عن الإنكليزيّة.


ISBN: 978-9953-89-474-4


دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت